تاريخ خزائن الكتب بالمغرب

للدكتور : أحمد شوقي بنبين

هذا الكتاب ترجمة :

HISTOIRE DES BIBLIOTHEQUES AU MAROC

DE

AHMED CHOUQUI BINEBINE

عنوان الكتاب	:	تاريخ خزائن الكتب لأحمد شوقي بنبين
الناشر	:	الخزانة الحسنية
المترجم	:	مصطفى طوبي
المطبعة	:	المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش
الإيداع القانوني	:	2003 – 8690
الإيداع الدولي	:	.9954-82-18-4-8
الطبعة الاولى	:	1424 هـ / 2003 م.

تاريخ خزائن الكتب بالمغرب

للدكتور : أحمد شوقي بنبين

- ترجمة -

الدكتور مصطفى طوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

تـــقـــديـــم

لماذا الحديث عن تاريخ خزائن الكتب ؟ للإجابة عن هذا السؤال نقول : ليست المكتبات مكانا لقراءة الكتب والبحث في كل الأوعية التي تحمل أمانة الكلمة المكتوبة فقط، بل إنها مستودع للتراث الفكري والعلمي للإنسانية من يوم بدأ الإنسان يسجل أفكاره ومعتقداته. ومن أين للباحث المثقف الملازم لخزائن الكتب أن يقف على كنوزها، ويجني من ثمارها، ما لم يقف على تاريخها، وما لم يعرف كيف تجمع هذا التراث الذي ورثناه جيلا بعد جيل عن هؤلاء العباقرة الذين أبدعوه وسجلوه وصانوه، من العلماء والفقهاء والمفكرين والمولعين بالكتب والمحبين لها والقيمين على مؤسساتها عبر تاريخها الطويل؟ ولم تكن مهمة الباحث في هذا المجال سهلة، بل هي مخاطرة كبرى، وذلك لصعوبة تحديد المصادر التي من شأنها أن تمده بالمعلومات الخاصة بنشأة وتطور هذه المؤسسات عبر التاريخ. وبما أن موضوع تاريخ خزائن الكتب لا يؤلف بابا خاصا من تاريخ الحضارة العربية، بل هو مرتبط مع عدد من القضايا والظواهر الثقافية، فإن الباحث ملزم باستنزاف كل الينابيع، واستعراض كل مصادر التراث، خصوصا منها كتب التراجم والفهرسات والأثبات والرحلات وما ماثلها، والتي من شأنها أن تتضمن مواد ومعلومات تتعلق بهذه الحضارة. وليس تاريخ المكتبات سوى جزء من تاريخ الحضارة بوجه عام.

ولم تكن مهمة المترجم لهذا العمل من أصله الفرنسي إلى اللغة العربية بالمهمة الهينة السهلة كما سيظن كثير من الناس. إن الدكتور مصطفى طوبي الذي أناط نفسه بمهمة النقل والترجمة قد واجه من المشاكل والصعاب ضعف ما واجهه المؤلف نفسه. إن إرجاع النصوص المترجمة إلى أصولها العربية قد استنزف جهود الناقل وهو يبحث عن المصادر المخطوطة والكتب ذات الطبعات المختلفة التي تم النقل والاقتباس منها. لقد تناول المترجم كل هذه المشاكل، متحليا بالأمانة

العلمية الشديدة، متسلحا بالتجربة التي اكتسبها من خلال ممارسته للعمل في مجال المكتبات والمخطوطات.

كان طوبي مصطفى الطالب في قسم الإجازة من كلية آداب الرباط شغوفا بمعرفة التراث العربي، فالتمست فيه الشاب الممتلئ نشاطا، المخلص للعمل الجاد في البحث، المتعلق بمادة المصادر والبحث البيبليوغرافي التي كنت أدرسها تعلق العاشق الولهان فاعتبرته واحدا من تلكم الخلية التي كنت أسعى جادا في تكوينها لتشاركنا هم خزائن التراث، وتتحمل معنا عناء البحث في علم المخطوطات بمفهومه الجديد، والذي اصطلح عليه في أوربا بالكوديكولوجيا : وهكذا عزم طوبي مصطفى بعد حصوله على شهادة الدروس المعمقة على ترجمة كتاب "مدخل إلى علم المخطوطات" للعالم البلجيكي "جاك لومير J.Lemaire" المنشور في عام 1989، وهو أول عمل كان عبارة عن حصيلة ما توصل إليه الفيلولوجيون الغربيون من مواقف وآراء حول هذا العلم الجديد. وقد حصل على درجة دبلوم الدراسات العليا بهذه الترجمة التي اعتبرت أول رسالة في الجامعات العربية تناولت ما اصطلح عليه بالكوديكولوجيا. ولم يقنع الباحث بذلك؛ وما زالت نفسه تواقة إلى السير بعيدا في هذا المجال؛ فطلب مني الإشراف مرة ثانية للحصول على الدكتوراه، وذلك بنقل هذه الرسالة في تاريخ خزائن الكتب في المغرب إلى العربية، فكان هذا العمل الذي نقدمه لقراء العربية، والذي ظل ردحا من الزمن في نصه الفرنسي محرما على قراء العربية.

لقد بذل المترجم جهدا كبيرا، وعانى كثيرا، ولكنه استفاد وأفاد، فعليه أن يحمل المشعل، ويقوم بواجبه في الجامعة، مواصلا بذلك ما بدأناه.

والله من وراء القصد.

الدكتور أحمد شوقي بنبين

مدير الخزانة الحسينية

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه وسلم كثيرا

أما بعد، فإنني كنت قد نذرت على نفسي أن أقترن في الدراسات العليا بفن المخطوطات والمكتبات، واجتهدت في أن أعبر رؤوس المصنفات وأنا في مستهل الأخذ، فكان أن استوقفني كتاب "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب"[1] بشمولية المنهج السابر والأسلوب الفرنسي الآسر. واعتبارا لأمر الاحتكاك الماثل في هذا الأسلوب من منطلق كون صاحبه مزدوج اللغة، فقد فكرت في اقتحام غربته وصوغه في لغة الضاد، واشتد بي التفكير وأنا أوسع في شأن المكتبات، وأعرف من نشأتها، وأساميها، وتاريخها، ومظان البحث عنها أمورا محفزة، وذلك على الرغم من ندرة الآثار المخصوصة بهذا الفن، وقلة الأبحاث الغارفة من هذا الدن. ولما أنهيت دبلوم الدراسات العليا الذي اشتغلت في جزء منه بنقل كتاب "مدخل إلى علم المخطوطات"[2] للعالم البلجيكي "جاك لومير"(J. Lemaire) إلى اللغة العربية لم أتردد في طرح المشروع على صاحب الكتاب، فرحب بالفكرة، وشجعني على مواصلة هذا العمل الشاق على أن أسلكه في بحث جامعي، ويتعقبه هو بالمراجعة وإعمال النظر. فما هالني ذلك ولا صدني عما أريده على الرغم من قلة ذات يدي في المعرفة باللغتين. إلا أن للترجمة سرا كامنا لا يقف به إلا من حذق في ثقافة كل قوم، واشتد عوده في إنعام النظر، ومراعاة المقام، وسوف أقول شيئا من هذا بعد حين.

إن كتاب "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب" يتجاوز نطاق المكتبات بمفهومه الضيق إلى تاريخ الثقافة بل وتاريخ الحضارة بوجه عام. ولعل معرفة تاريخ المكتبات تبقى معرفة ناقصة إذا لم يشفعها الإبحار في التاريخ بمفهومه العام. وما علمت أن الاتصال بالمصنفات التاريخية المشهورة كالقصد والأمم، والمعجب، والعبر، والقرطاس، واختصار الأخبار، وروضة الآس، والاستقصا، وغيرها كثير،، سيكون

---

(1) Histoire des bibliothèques au Maroc, Ahmed Chouqui Binebine, Rabat 1992

(2) Introduction à la codicologie, Jacques Lemaire, louvain - la - neuve 1989

ذا معنى في هذا القصد إذا لم يكن اتصالا عاشقا متأنيا مبحرا في كل معطيات تلك الدول البائدة.

ينسلك الكتاب إذن ضمن موضوع واسع ومتشعب، كان فيه صاحبه جهبذيا في تعقب المكتبة من حيث هي عنصر ضمن سياق متماسك، لا يستقيم فهمه دون هذا الكل، وهذا ما يبرر ريادة هذا العمل وانميازه عما سواه من بعض الأعمال الأولية المحدودة في الحجم والطرح.

وأذكر من هاته المصنفات "الخزانة العلمية" لمحمد العابد الفاسي، وهو كتاب مبتسر وصغير بالمقارنة مع حجم الموضوع، كما يسيطر عليه الطابع الظني، وخصوصا في الحديث عن نشأة المكتبة المغربية.

وهناك كتاب " المكاتب الإسلامية"[1] للعلامة عبد الحي الكتاني الذي توهمت في عبوري له لأول وهلة أنه مخروم، وما هو كذلك، إنما هو مسودة كثيرة الشطب والإحالات، وسنغنم كثيرا حينما يستوي تحقيق هذا الكتاب على سوقه، سليما من الشوائب، مذيلا بالشروح والبيانات.

وأذكر أيضا "دور الكتب في ماضي المغرب" للعلامة الفقيد محمد بن عبد الهادي المنوني رحمه الله، وهو أيضا كتاب مخطوط أوذع فيه صاحبه المئات من أسامي المكتبات ومراكزها عبر الدول الحاكمة لتاريخ المغرب العريق، وهو أقرب إلى مرجع ببليوغرافي منه إلى كتاب وصفي تحليلي.

ولا أنسى ذكر " المكتبات بالمغرب"[2] لصاحبته لطيفة بنجلون العروي. وهو، في واقع أمره، رصد لتاريخ وفهرسة محتويات عينة من المكتبات المغربية ألا وهي المكتبة الملكية، ومكتبة القرويين، ومكتبة ابن يوسف، والمكتبة العامة بتطوان، وبعض مكتبات الزوايا، والمكتبات الخاصة.

فهاته الأبحاث هي متداولة عند أهل الاختصاص، وإنما آثرنا ذكرها تساوقا مع الكتاب المترجم الذي ما عدم مطلبا متواريا لم يقل فيه.

إن الكتاب الذي أقدمه للقارئ العربي الكريم في صيغته العربية قد تحدث، في واقع الأمر، عن أمر جليل في ثقافتنا العربية يعد حجر الزاوية في التصدي لكل معطيات الحضارة القديمة. فقد كانت المكتبة، علاوة على تواشجها مع إنتاج المعرفة

---

(1) سيصدر هذا الكتاب قريبا بتحقيق العلامة أحمد شوقي بنبين والدكتور عبد القادر سعود.

(2) Les bibliothèques au Maroc, latifa Benjelloun Laroui,

وصناعة الكتاب مركزا فاعلا في إحصاد بنيان المجتمع، والسياسة، والمعاش. لقد كثر الحديث عن ازدهار الثقافة على عهد هاته الدولة وتلك، ونقلت لنا كتب التاريخ القديمة رحلة الثقافة، وما انمازت به في كل فترة من فترات التاريخ المغربي الخاص بالأحداث الطريفة. فهؤلاء المرابطون المقربون للفقهاء والصادرون عن رأيهم يحثون على الإكثار من كتب الفقه المالكي، وينقمون على أخرى، بل ويحرقونها، وأولئك الموحدون، المقربون لأهل الجدل والرأي، يشقون مسلكا مختلفا، ويقولون في التوحيد، والفلسفة، ويمجدون العقل، وما نظن أن هذا الصخب الذي ملأ صحائف التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي حدث في منأى عن الكتب والمكتبات، بل من الصواب أن نقول إن هاته الأخيرة كانت هي جذم الثقافة وقطب رحاها. وما كانت لتستوي الحياة الأخرى بكل ألوانها وتقلباتها وطرائفها دون تأليف، ودون خزائن كتب تختلف في الحجم والتنظيم باختلاف مراكز أهليها. كان إذن هذا هو الهم الذي لازم أحمد شوقي بنبين وهو يتصدى لموضوع المكتبات في المغرب. فكان أن حملته هاته الاعتبارات المنهجية على أن يتصدى لكل ما يعترضه من أمور ملازمة للمكتبة، فكان كتابه أقرب ما يكون إلى التاريخ بمفهومه الواسع.

وقد تجلت هاته الجهبذية أساسا في عدم الاكتفاء بالقول في المكتبات بشكل منفصل عن الحياة العامة كما هو الأمر فيما عداه من أبحاث غير أكاديمية. بل تجاوز ذلك إلى القول في السياسة، والثقافة، والمجتمع، وأمور أخرى.

إن هاته النظرة الموسوعية قد أوجبت على المؤلف ألا يعبر لحظة من لحظات المكتبة المغربية منذ نشأتها إلى ازدهارها، إلا بعد أن يعرج على الحياة الثقافية والسياسية التي كانت تكتنف الفعل المكتبي في كل عصر من الأعصار.

ويعد الكتاب، علاوة على هاته المميزات التي تجعله رائدا في مجاله، مرجعا رئيسا لعلماء المخطوطات، فقد تحدث المؤلف عن المخطوط المغربي من حيث حالته المادية، ونوعيته، وعاريته، ووقفه. وهاته أبواب قمينة بإثارة انتباه عالم المخطوطات الذي ينزع، في عمله، إلى دراسة المخطوط بوصفه أثرا ماديا مع الاستعانة بالنساخة في إطار منهجي يؤمن الكلية، وتجاوب مباحث هذا الدرس الحفري.

لم يكن نقل الكتاب في إرجاعه وسبكه ميسورا بل كثيرا ما كان في ثنايا التأويل وتقمص التاريخ محصورا، ومرد ذلك إنما يكمن في ضرورة تسربل لغة التاريخ

حسب العصور طالما أن الكتاب هو كتاب تاريخ. فاللغة السليمة غير كافية إذا لم تكن تاريخانية، وهذا أمر دونه خرط القتاد. وإنما بلغت فيه نزرا قليلا بعد طول اجتهاد.

إنني عانيت معاناة صاحب الكتاب بإزاء أمر الاحتكاك اللغوي بصفته مزدوج اللغة. وهو الأمر الذي شجعني على المرونة في أن أرص الكلام في منطق غير الذي أنطلق منه. ولطالما حاولت التملص من هاته المخالب اللغوية التي لا شك خدوشها باقية في الكتاب كما ترجمته إلى لغة الضاد.

وقد أتاحت لي رحلتي عبر ترجمة هذا المؤلف أن أقول بفنية هاته الممارسة، ومع ذلك فأنا لا أدرأ علوم اللسان في مسألة التعقب وتوضيح المبادئ الأولية، كما لا أعفي الترجمة الآلية من البرهنة على إمكانياتها التي ما زلت أراها هامشية ومتطفلة.

لقد كنت أحمل مسودات الترجمة الأولى إلى صاحب الكتاب، وكان هذا الأخير يمتعض من بساطة العبارة، وقرب مأخذها. وكنت أجد في أن أوفق بين سلطة الترجمة الساجنة المترجم وراء قضبان اللغة المنطلق، وسلطة المتلقي الخبير الذي ينشد النموذج الكامل، وسلطة المتلقي العادي الناشد من الكلام يسيره، ولكن هيهات لي أن أجمع هاته الأمور، إنما اجتهدت اجتهادا. ولأيا أصبت القصد.

وحينما انتهيت من صناعة أول ترجمة نكصت على أعقابي، فألفيت أن آثار العراك بين اللغتين ما زالت بادية لذي عينين، فتنفست الامتعاض، وأحسست أن الميل في رأب الصدع، وترتيب المختل قد آض. فبدأت أقطف الكلام من هنا وأزرعه هناك، وأعمل النظر في النتوء، فأستأصل كل عي طليح، حتى إذا استقام المعنى دونه، تجاهلته قاصدا في ذلك مالئا فراغه بما يعن مناسبا من الكلام، مفضلا تدفق القول على تراكب الطفيليات. وأعملت النظر في التقديم والتأخير، والإظهار والإضمار، والزيادة والنقصان، فغربلت قولي على ضوء هاته المباحث مراعيا شروط المقام، ومقتضيات الكلام. وبان لي في كثير من الأحيان أن الترجمة تكاد تكون إنتاجا موازيا، لسبب رئيس مرتبط بالدلالة، فالنسقان (العربي والفرنسي) يختلفان على جميع المستويات، ونحن إنما نتحدث، بوجه الدقة، عن قيمة الدليل في إطار منظومة من الدلائل الأخرى، إن اللغة ليست مدونة من الكلمات المرتبطة بالأشياء والموجودة بشكل مسبق، وإنما هي حضارة ورؤية للعالم، وهكذا ترجمت عبارة « la riche hizana »"بخزانة الكتب العامرة "، وعبارة « au profit » في سياق تحبيس الكتب ب "على" وعبارة « la production du livre » "بحركة التأليف"،

وعبارة « vicissitudes des fonds » "بمحنة المكتبة المغربية" وعبارة « disparition des manuscrits » "بإبادة المخطوطات وتبعثرها" وكلمة « autographe » "بالمخطوط المنتسخ عن الأصل"، وكلمة « bibliotaphie »"بإخفاء الكتب للاستئثار بها" أو (غلول الكتب) وكلمة « le voeu » "بالإشارة " إلخ.......

إن هاته النماذج من تنافر الكلام في السياقين إنما تعكس ضرورة التأويل، وهي تجلو انتصارنا لاستحالة الترجمة بمفهومها الدقيق، ونحن إنما نطلق هذا الإسم تجاوزا، فالترجمة بمفهومها الدقيق والصارم لا تكاد توجد، وإن وجدت، فهي، لا شك، مهزلة، أو هراء في القول. إن الذي يؤرقني ليس هو نقل الكلام من لغة إلى أخرى، وإنما هو مقبولية هذا الكلام، ومدى سلاسته، وتدفقه، وتجاوبه مع التقبل السليم في إطار أعراف لغوية يفقهها الحاذقون، ويجهلها المغفلون.

ولن أقول إن هاته الترجمة مفحمة في إرجاع هذا الكتاب إلى ذويه، وإنما حسبي أنني اجتهدت في أن يكون الكلام سليما سلسا آخذا بأعناق بعضه البعض. وهذا ــ لعمري ــ مقصد شائك وعويص ما أتيت فيه إلا بما استطعت إليه سبيلا.

ولا يفوتني في النهاية أن أتقدم ببالغ الشكر وجزيل الثناء إلى أستاذي الدكتور أحمد شوقي بنبين عما قدمه لهذا العمل من مراجعة وتصحيح وتقويم. كما أشكر من كل قلبي أستاذي الدكتور إدريس بلمليح الذي لم يبخل علي بآرائه النيرة وتوجيهاته السليمة، وكانت له علي أياد أعد منها ولا أعددها. وأشكر من كل قلبي أيضا أساتذتي الدكتور أحمد أبو حسن والدكتور عبد الجليل ناظم والدكتور محمد الظريف الذين لم يبخلوا علي بآرائهما النيرة وتقويماتهم السديدة. فأنا ممتن لهؤلاء العلماء الأجلاء جميعا لكونهم، علاوة على ما قلناه، قبلوا مناقشة هذا العمل الذي هو في أصله جزء من أطروحة جامعية نوقشت يوم 2002/04/25 م بكلية الآداب بالرباط.

تقديم

إن التفكير في دراسة التاريخ الثقافي لبلد معين عبر القيام بأبحاث في تاريخ المكتبات هو أمر رائد ومثمر، خاصة حينما يتعلق الأمر بمكتبات بلد المغرب، هذا البلد الإسلامي الذي أينع على حب الكتاب واحترامه.

إننا نعرف، في الواقع، مدى عناية المفهرسين بتقييد أسامي المؤلفات، والاهتداء إلى الأعلام، وعلى الرغم من أن أغلب هاته المؤلفات هي، للأسف، مفقودة، فهي تشكل منبعا ثرّاً للمعلومات لمجرد أننا نعرف أساميها.

إن مجموعات المخطوطات قد أسهمت في خدمة المجتمع في العالم الإسلامي أكثر مما هو الأمر في الأماكن الأخرى، أو بالأحرى أسرع من الأماكن الأخرى. فقد شكل تداول الكتب الدينية في المدارس، وبعد ذلك في الجامعات، وضمن حلقات المثقفين، أساس الحوار الثقافي ولو في زمان كان التعليم يعتمد فيه على المشافهة فقط. فقد كانت الذاكرة في هذا البلد قوية إلى هذا الحد. وتمسك العلماء بتقييد انطباعاتهم، فأسهمت هوامشهم في إثراء التراث الأصلي المكتوب.

فكان إذن أن أكب أحمد شوقي بنبين على كل هاته المعطيات المتعلقة بقضايا المكتبات في المغرب بموسوعية كبيرة نتجت عن اطلاعه الواسع ،وأيضا بإدراك دقيق لنموذج الأبحاث الميدانية التي كان يجب أن يقوم بها. وعلاوة على هذا فقد تمكن من إظهار تجارب فعلية في نشاط المكتبات، وقضايا تنظيمها.

فهو إذن قد درس وضع المكتبات العمومية والخاصة حسب العصور، وفي علاقة مع مختلف الجماعات الدينية التي كانت تستعملها، وذلك بنظرة عالم ضليع في مناهج البحث التاريخي، وأيضا بنظرة متخصص ملم بمختلف مظاهر جمع الكتب والحفاظ عليها. وهكذا سنلاحظ ارتسام أوضاع اجتماعية وسياسية في غاية الدقة والواقعية من خلال هذا التاريخ.

وبناء على ذلك، فلا يجب أن نعتقد من خلال عنوان هذا المؤلف بأن الأمر يتعلق بدراسة محدودة لن تهم إلا المكتبيين وحدهم. إنه مؤلف يجب أن ننصح به كل من يهتم بالتاريخ بشكل عام لأنه يسلط على هذا الأخير ضوءا كاشفا، يتوخى إظهار جوانب هامة منه، كانت في غالب الأحيان مجهولة.

"روجي أرنالدز"
أستاذ بجامعة الصوربون
◆ عضو الأكاديمية الفرنسية◆

المقدمة

يرتبط البحث في ميدان تاريخ المكتبات بميدان أوسع من ذلك ألا وهو تاريخ الثقافة. فالثقافة، بالنظر إليها في ارتباطها بارتقاء مجتمع معين، هي انعكاس لمختلف مظاهر التطور التاريخي لهذا المجتمع، بل إنها اللسان المعبر عن ذلك. ولعل ذكر هاته الحقيقة هو أيضا ذكر لشعورنا بالطابع الإشكالي لمنهجنا.

إن الواجب التعليمي قد فرض علينا تحديدات، متعبة أحيانا، في القطاعات التي لا تكون فيها المعطيات واضحة إلا إذا قدمت بطريقة بنيوية دقيقة. ولعل مثل هذا المنطق هو ما سيقنعنا بأن نتصدى لدراسة تاريخ المكتبات في المغرب، سواء في نوعيته القطاعية، أو في علاقاته مع مجموع تاريخ المجتمع والثقافة. والحال، أن ما يبدو لنا مقنعا في رهان من هذا القبيل، هو بالضبط ما يمكن أن نسميه فيما يتعلق بتاريخ الحضارة المغربية عامة بالوضعية الحالية للسؤال.

إن الأبحاث القائمة على الاستغلال المنهجي للوثائق، والمتعلقة بدراسة المجتمع (مدن، وقبائل، وأسر، وفئات اجتماعية...) مازالت متعثرة. أما فيما يخص دراسة الثقافة فقد حظيت بشيء من الاهتمام. فقد أتاحت وفرة الوثائق لبعض الباحثين مثل المنوني، وابن شقرون، وحجي، ولخضر، أن يتعقبوا تاريخ الثقافة في المغرب من الموحدين إلى العلويين.

ولم يحظ تاريخ خزانات الكتب في هاته المؤلفات والفهارس التي قدمها أغلب الباحثين على شكل أطروحات الدولة بالمكانة التي تناسبه. فنحن لا نجد فيها أكثر من بعض الفقرات والتلميحات المرتبطة بهاته المؤسسات العلمية، وخاصة حينما يتعلق الأمر بنشأة الدول الحاكمة. وبالفعل، فإن تاريخ المكتبات في المغرب لم يشكل إلى حد الآن موضوعا لدراسة متخصصة. فهو ميدان ما زال، حسب معرفتنا، مجهولا، رغم بعض الأبحاث والمقالات لعدد من الكتاب المغاربة المعاصرين.

فهناك مؤلفان صغيران يشيران إلى الأعمال السابقة المرتبطة بالمكتبات المغربية: هناك أولا مؤلف لمحمد المنوني عنوانه "دور الكتب في ماضي المغرب"[1]. وقد أشار فيه الكاتب إلى 128 مكتبة ملكية خاصة وعامة من ضمن أكثر المكتبات أهمية في المغرب. واستشهد فيه بأسماء عدد كثير من النساخ الذين كانوا ينتسخون المخطوطات برسم الخزانات الملكية، مثلما كانوا يفعلون بالنسبة للزوايا. ومع أن هاته الدراسة الصغيرة مقتضبة جدا، فقد كانت بالنسبة لنا ذات فائدة كبيرة على المستوى البيليوغرافي. وبعد ذلك هناك مؤلف العابد الفاسي في 75 صفحة حول خزانة القرويين، بعنوان "الخزانة العلمية"،نشر في 1960 بمناسبة الذكرى السنوية 1100 لهاته الجامعة. فقد حاول الكاتب في مستهل هذا المؤلف أن يعطينا فكرة عن ظهور المكتبات في المغرب، دون أن يوفق، في نظرنا ،إلى ذلك فقد اكتفى بمعالجة واقع مكتبة القرويين وحدها منذ نشأتها إلى عصرنا الحالي. وأشار إلى ما أولاه إياها ملوك الدول المغربية الحاكمة المتعاقبة من اهتمام. والدليل على ذلك المخطوطات التي وقفها هؤلاء الملوك على هاته الخزانة. واستشهد العابد الفاسي في النهاية بعدد من أسماء المحافظين الذين أوكلت إليهم مسئولية هاته المؤسسة العلمية.

إن البحثين الصغيرين المستشهد بهما آنفا هما المؤلفان الوحيدان المتخصصان في المكتبات المغربية. وتوجد أيضا بعض المقالات المنشورة في دوريات مغربية مختلفة مثل "هسبريس"، "ودعوة الحق"، و"البحث العلمي". ولعل أهم هاته الأعمال التي أفادتنا كثيرا هي أعمال العلامة والكتبي الكبير محمد المنوني، والعميد محمد الفاسي.

فالتراث العربي الإسلامي المحفوظ إلى يومنا هذا في خزانات كتب المغرب الملكية، والخاصة، والعامة، وفي الزوايا، والمساجد يتكون من مجموعات في غاية الثراء والتنوع في موضوعاتها. وهذا دليل مفحم على اندماج الأقطار البربرية في الحضارة العربية الإسلامية على مستوى التأليف منذ القرون الأولى

(1) مازال هذا المؤلف على شكل مخطوط في الخزانة الملكية، رقم 258

للهجرة. وليس من الصدفة أن نجد في خزانة كتب صغيرة بالأطلس المغربي (في بزو) المخطوط الوحيد لكتاب الجاحظ الثمين. إننا نستطيع أن نذهب، دون مجازفة بالخطأ، بأن الكتاب له مكانة في المغرب، حتى وإن كانت المعلومات المتعلقة بالمكتبات في تاريخ المغرب منعدمة. فالمسافة نفسها، سواء الجغرافية أو الثقافية، التي تفصل المغاربة عن الشرق، بلد "المصادر التراثية"، تحثهم على إعطاء الكتب والمكتوب بشكل عام مظهرا شبه مقدس، ما زلنا نلاحظه حتى يومنا هذا من خلال بادرة الشيوخ الذين لا يكادون يرون قصاصة ورق مطبوعة أو مخطوطة ملقاة على الأرض حتى يندفعوا إلى التقاطها، وإبعادها عن السلوك الاستخفافي لعامة الناس .

إن غياب أي دراسة معمقة تقريبا متعلقة بميدان المكتبات لا يمكن أن ينفي الحقيقة الصارخة في أن هاته المؤسسات قد عرفت في المغرب منذ القرون الأولى من العصر الإسلامي. فالمكتبة ليست وحدها التي وجدت والتي أخفى عنا التاريخ جزءا كبيرا من أمجادها وتغيراتها .إن هذا النوع من التدليس هو ميزة حضارة لم تتكلم بما فيه الكفاية عن منشآتها المادية ومؤسساتها .

وقد جعلت هاته الظروف مهمتنا صعبة لأنها أرغمتنا على أن نحد من طموحاتنا . إن تاريخ المكتبات في المغرب لا يمكن أن يكون جادا بشكل عملي إلا إذا تناولناه انطلاقا من إشكالية منهجية تستند إلى أمور واقعية: النشأة، والتطور، والتأثيرات الخارجية، والوضع، والتسيير، والنشاط، إلخ. . . لكي نصل بعد وصف شمولي، وتحليل للمعطيات بمنظور مجتمعي كلي، إلى نتائج متعلقة بخزانة الكتب بوصفها عنصرا محددا داخل الثقافة والمجتمع.

وعلى هذا الأساس، فقد ظهر بعد سنوات كثيرة من التنقيبات والاختلافات إلى دار المحفوظات العامة والخاصة، أن كتب التاريخ ومصادر التراث لا تضم ما يكفي من معلومات للقيام ببحث في هذا النطاق. فيجب علينا إذن أن نرجع إلى ضروب أخرى من المؤلفات البيبليوغرافية شبه التاريخية والأدبية،

مثل مؤلفات النوازل، والفتاوى، والفهارس، وعقود التحبيس، وكتب المناقب، ومؤلفات أخرى. ولإكمال معلوماتنا كان لابد من بحث ميداني لكي نتأكد من أمكنة المكتبات، وخاصة في الوسط القروي.

وإذا لم تكن نتيجة مجموعنا وتقصياتنا غنية بالشكل الذي تجيب به عن كل الأسئلة الجاهزة أو التي أفرزها النقص في المراجع، فهي ليست مخيبة للأمل البتة إلى درجة تحذو بنا إلى التخلي عن بحثنا. فنحن قد فكرنا في الواقع، في أن ما حصلنا عليه من نتائج ومن معلومات مأخوذة من هنا وهناك يستحق أن ينظم وينشر.

و هكذا فقد اعتمدنا تصميما مكونا من بابين؛ يحتوي كل واحد منهما على أربعة فصول.

ففي الباب الأول المعنون "المكتبات في التاريخ الثقافي للمغرب" قدمنا تاريخ هاته المؤسسات منذ دخول الإسلام إلى المغرب إلى يومنا هذا.

وعالجنا في الفصل الأول مسألة نشأة هاته المكتبات، ويبدو أن الوثائق المرتبطة بتاريخ المغرب في القرون الأربعة الأولى شبه منعدمة. فيبقى البحث عن بداية هاته المؤسسات افتراضيا. وكرسنا الفصل الثاني لتطور هاته المكتبات من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر على عهد المرابطين والموحدين.

وفي الفصل الثالث قدمنا الخطوط العريضة التي وسمت ازدهار المكتبات، والتي ظهرت ابتداء من القرن الرابع عشر إلى الفترة التي عرف فيها المغرب مفكريه الكبار، وآثاره العظيمة. وتطرقنا في الفصل الرابع إلى مسألة انتقال المكتبات من وضعها التقليدي إلى وضعها العصري.

أما الباب الثاني المعنون «بنية خزانات الكتب بالمغرب» فقد كرسناه لدراسة هاته المكتبات ومجموعاتها عبر التاريخ. إذ تعقبنا في الفصل الأول المحنة التي اجتازتها هاته المؤسسات. ولفتنا الانتباه إلى العديد من الأسباب التي كانت وراء ضياع المخطوطات؛ ومن ذلك الحشرات، والقوارض، والاضطرابات السياسية والسرقة... إلخ. واهتممنا في الفصل الثاني بمسألة الوقف، وهو عنصر أساس في إغناء

المكتبات العامة المغربية، وقد درسنا في هذا الباب بداية تحبيس الكتب، ومختلف ضروب الوقف، إضافة إلى الطريقة الشرعية المتبعة في تطبيقه في المغرب. وفي الفصل الثالث درسنا القضايا المكتبية والبيبليولوجية المتعلقة بالمكتبات المغربية. وتعمقنا في الوراقة ومسألة الكتابة. أما الفصل الأخير فقد خصصناه لمحتويات هاته المؤسسات في الماضي و الحاضر، وقمنا بوصف ودراسة المخطوطات النادرة والفريدة، المعروفة بعض الشيء و المجهولة على حد سواء.

إننا واعون بمحدودية عملنا، وما ينقصه. ولعل القارئ الذي سوف لا يصل إلى ما كان يتوقعه في بعض الأحيان، سوف يدرك، هو بنفسه، أن بحثنا لم يصل في التحليل إلى المكانة التي كنا نطمح إليها، وحجتنا في ذلك أن هاته الثغرات ليست ناتجة عن إرادتنا، ولكنها ناتجة، على الأصح، عن ندرة الوثائق، والصعوبة التي نتجشمها في الحصول عليها. وتهيمن على البحث الذي نقدمه المعرفة الواصفة، لأننا اعتبرنا أن الابتداء بالتحليل أمر غير مناسب. فالتحليل، في نظرنا، مازال سابقا لأوانه. ولكنه يبقى مشروعا لوضع تاريخ الكتاب والمكتبة في المغرب في سياقهما الإجتماعي، ولتحديد المراحل المميزة في تطور الثقافة.

ونحن نذهب إلى أنه حتى المظهر الوصفي مازال بعد لم يستنفد، لأن الوضع الحالي للوثائق لا يمكننا من إحاطة شاملة بهذا الميدان، فهذا الوضع ليس شيئا آخر إلا نتيجة التاريخ الذي نبحث عنه (غياب الكاتالوكات، والفهارس، والبيبليوغرافيات.. إلخ). فالعمل الشامل من هذا القبيل سيتطلب أساسا مونوغرافيا يتخصص له فرق الباحثين الذين نتمنى أن يشاركونا في ذلك. فهلا استطاعت هاته المؤطرات التي وضعناها في هاته الخطاطة أن تسهم في توجيه البحث بشكل عام، وفي دراسة هذا المظهر الأساس من تاريخ الحياة الثقافية في المغرب بشكل خاص.

وأخيرا لا يفوتني التعبير عن أعمق امتناني تجاه السيد "روجي أرنالدز" Roger Arnaldez عضو الأكاديمية الفرنسية، وأستاذ في جامعة الصوربون، والسيد "مارك برجي" Mark Bergé أستاذ في جامعة

بوردو الثالثة اللذين قبلا الإشراف على هذا العمل، كما أشكر أيضا الأساتذة "غيومان" R . Guillemain و "إيستڤال" R . Estivals و " إسكاربيت" R . Escarpit الذين قبلوا أن يشاركوا في لجنة المناقشة. وأشكر من كل قلبي الأستاذ محمد منيار وأحمد توفيق اللذين استفدت كثيرا من اقتراحاتهما وملاحظاتهما .

وأخيرا أشكر الأستاذ عبد الواحد بنداود ، قيدوم كلية الآداب بالرباط، الذي عمل على نشر هذا العمل الذي هو في أصله أطروحة دكتوراه الدولة في الآداب، نوقشت في 17 مارس 1986، في جامعة بوردو الثالثة.

الباب الأول

خزائن الكتب في التاريخ الثقافي للمغرب

الفصل الأول :

بدايات خزانات الكتب في المغرب

(من القرن الأول الهجري السادس الميلادي

إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي)

مقدمة :

يفرض علينا الحديث عن خزانات الكتب في بلد إسلامي مثل المغرب أن نتحدث أولا عن أصل هاته المؤسسة في الشرق مهد الإسلام. ولكن من المفيد، قبل هذا، أن نستعيد الوضع الذي كانت عليه هذه المؤسسة في العصور القديمة.

إذا كانت كلمة Bibliothèque "خزانة كتب" من أصل يوناني، فالمؤسسة في ذاتها قديمة جدا[1]. إن تاريخها، الذي هو تاريخ مجموعات الكتب الموضوعة رهن إشارة عدد محدود تقريبا من القراء، مرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الأدب. فلقد بدأت مجموعات المخطوطات في التشكل منذ اليوم الذي تمكن فيه الناس، عبر اختراع الكتابة، من حفظ إنتاجات الشعراء والكتاب. وقد تحدث عالم ألماني عن المكتبات قبل الطوفان[2]. ومن المؤكد أنه لمّح إلى المكتبات المكتشفة في الشرق الأوسط، والتي تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل عهد المسيح، وبالفعل فقد كشفت الحفريات الأثرية المعاصرة عن آثار المكتبات التي تعود إلى عهود المملكات والحضارات الكبرى التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر.

فهاته الحضارات التي كانت كلها على جانب من الازدهار قد ترتبت عنها حركة فكرية متطورة نسبيا.

إننا نجد في بلاد ما بين النهرين أن أقدم نموذج لخزانات الكتب الشهيرة هي خزانة نينيوي آشوربانبال Assurbanipal (القرن 7 ق.م) في "نينوي" وقد كانت تجمع بعض الآلاف من الألواح المسمارية التي يوجد جزء منها محفوظا اليوم في المتحف البريطاني في لندن[3].

---

1. يعود المفهوم التقني التي تتضمنه كلمة Bibliothèque حسب "سارتون" "Sarton". إلى القرن 2 ق.م (يراجع: His des sciences: ج 7، ص 246)

2. نفسه. لقد حدث الطوفان حسب الكتاب المقدس في القرن 22 ق.م. تنظر الفصول 4و7و8 من التكوين، وقد دونت فيه هاته الحكاية الخارقة.

3. قد تكون هاته الخزانة ضمت 700.000 لوحة طينية وقدمت لنا بعض هاته اللوحات علاوة على هذا أعمالا رائعة أصيلة مثل "قصيدة الخلق" و "ملحمة غلغاميش" والمتن السوري للطوفان.

أما فيما يتعلق بسوريا فقد أتاحت الحفريات الأثرية التي تم إنجازها في "رأس شمرا" في الشمال الغربي من البلاد سنة 1929م اكتشاف آثار مكتبة تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد .

إلا أن مصر [4] هي التي عرفت ظهور أروع خزانة كتب في العصر القديم : تلك هي مكتبة الإسكندرية . وباعتبار أنها كانت وما زالت موضوعا لصراعات حامية بين المؤرخين القدماء والمحدثين، من المناسب أن نبدي بعض الملاحظات بخصوص هاته المؤسسة التي أحرقها العرب، حسب بعض المؤرخين، أثناء فتح الإسكندرية. فلقد أسسها "البطالسة" في القرن الثالث ق.م، وتم تزويدها حسب "سترابون" [5] Strabon بجزء كبير من مكتبة أرسطو. وحظيت هاته المؤسسة بشهرة كبيرة عدة قرون. ونافست لمدة طويلة مكتبة أخرى يونانية كبيرة تأسست في برغامة في آسيا الصغرى من طرف " الأتابكة".

إن هاته المؤسسة المصرية قد أبيدت، حسب المؤرخين، أثناء الحرب الرومانية . المصرية، فقدأعلن المؤرخ وعالم اللاهوت اللاتيني "پول أروس" Paul Orose في القرن الرابع الميلادي أنه شاهد رفوف خزانة الإسكندرية فارغة على آخرها [6] . وهذا دليل يفند التهمة التي تجعل من العرب محرقي هاته المكتبة، مادام أنه في اللحظة التي دخل فيها العرب إلى مصر في القرن السابع الميلادي لم يكن قد بقي لهاته الخزانة وجود .

وقد ذكر إحراق هاته المؤسسة لأول مرة الطبيب العربي عبد اللطيف البغدادي في مؤلفه " أخبار مصر" . وأعاد ذكره القفطي في كتابه "تاريخ الحكماء" . فجاءت هاته الإشارة التي تعود إلى بداية القرن 13م إذن لاحقة بنحو ستة قرون عن الواقعة التي رواها القفطي بالشكل التالي : "وصف يحيى النحوي لعمرو بن العاص القائد العربي الفاتح لمصر الكنوز الأدبية التي توجد في خزانة الإسكندرية ، فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال لا يمكنني أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،

---

4 . لقد عرف هذا البلد منذ وقت باكر الخط الهيروغليفي، واستعمل البردي بوصفه مادة للكتابة، هذا الأخير الذي كان يستعمله المصريون وكانوا لمدة طويلة هم وحدهم الممونون له.

5 . "J.Peignot" Manuel Bibliographique ص 4 ط. 1801 .

6 . "Butler" conquête de l'Egypte par les Arabes : ص 360 .

وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى الذي ذكرناه واستأذنه ما الذي يصنع فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه، وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلاحاجة إليها فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص في تفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها" [7] .

ولم يقبل الباحثون المعاصرون القصة. فالمستشرق الإنجليزي "بتلر" Butler [8] ، على سبيل المثال يؤكد أن يحيى النحوي مات بعشرات السنين قبل دخول القائد العربي عمرو بن العاص الإسكندرية.

وفي عودتنا إلى وضعية خزانات الكتب في القديم، بعد هذا الاستطراد الذي يكشف عن حقيقة التاريخ، نلاحظ أن من أهم مميزات هاته الخزانات هي طابعها المقدس : فقد تأسست الخزانات الأولى في أفنية المعابد. وظهرت خزانات كتب المسلمين في بداية الإسلام هي بدورها في المسجد الذي هو مكان مقدس بالنسبة للمسلمين. فماهي أسباب هاته العلاقة بين الشيء المكتوب والمكان المقدس؟ إننا نعلم بداءة أن العلم بالنسبة للقدماء كان مقدسا، فكان من البديهي إذن أن تكون أوعية هذا العلم، ونعني بها اللوحات الطينية، والبردي، وأخيرا الكتب موضوعة في أمكنة مقدسة.

ونعلم أيضا أن الكتب كانت، سواء في العصر القديم أو في العصر الوسيط، وسيلة للتبشير، ولنشر مبادئ عقيدة معينة. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون مكان تراث فكري من هذا القبيل إلا المعبد، أو الدير، أو المسجد.

وأخيرا فقد تم اختيار هاته الأماكن المقدسة لوقاية تراث القدامى، لأنها من جهة كانت في منأى عن الثورات والحروب، ومن جهة أخرى لأنها كانت الأماكن الوحيدة المؤهلة لاستقبال جمهور كبير ومتنوع.

---

7. القفطي: تاريخ الحكماء، ص 355. ينظر أيضا "كازانوفا" Casanova "إحراق العرب لخزانة الاسكندرية" ط 1923.

8. "Butle " conquête de l'Egypte par les Arabes" "فتح العرب لمصر" ص 369.

لقد كانت هاته، في نظرنا، أهم الأسباب التي كمنت وراء ارتباط المكتبات القديمة بالأماكن المقدسة. واستمر هذا الحال إلى نهاية العصر الوسيط. وستحدث مع النهضة تغيرات ملموسة في تأسيس المؤسسات العلمية. فقد استقرت بنايات المكتبات بعيدا عن الأديرة والمعابد. فإذا كانت هذه هي وضعية خزانات الكتب في القديم. فكيف تعامل العالم العربي الإسلامي إذن مع هاته المؤسسة الحافظة للحضارات؟.

لسنا بحاجة إلى القول إن هاته المؤسسة لم تكن موجودة في الفترة السابقة عن الإسلام. فالعرب لم يعرفوا حضارة مكتوبة بالشكل الذي يمكن من تأسيس خزانات كتب، حتى وإن كانوا في علاقة مع الحضارات الأجنبية الرومانية والفارسية. إن علاقة العرب مع هاته الدول المثقفة قد اقتصرت بشكل خاص على التجارة، ولم تتسع أبدا لمجالات الحضارة والثقافة. فالأمية التي انتشرت عندهم لم تمكنهم من أن يحافظوا على تبادل ثقافي مع القوى المجاورة.

فقد كانت الكتابة مجهولة تقريبا في البلدان العربية، باستثناء بعض المعاهدات التجارية والمتعلقة بالصلح بين القبائل [9]. ويبدو أنها لم تدخل إليها في نهاية القرن السادس الميلادي إلا عن طريق سيد قبيلة بني أمية (حرب)، وابنه أبي سفيان، وذلك حسب إحدى الأطروحات في الكتابة العربية المجازة من طرف معظم المؤرخين.

ولم يتعد عدد المتعلمين مع دخول الإسلام إلى البلاد العربية، بعض العشرات. فقد بذل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مجهودات جبارة في سبيل نشر القراءة ونور العلم بين العباد، ومحاربة الجهل الذي كان متفشيا بين المسلمين على أوسع نطاق، وذلك لوعيه الكبير بالمشكلة. فكونه قد اقترح على بعض القرشيين المتعلمين أن يعلموا كل واحد منهم عددا معينا من المسلمين مقابل عتقهم من العبودية خير دليل على ذلك[10].

---

9. الجاحظ: البيان والتبيين ج II ص 192.

10. يتعلق الأمر بسجناء غزوة بدر.

إن أول مؤسسة أسست في الإسلام جديرة بهذا الإسم هي المسجد . فهذا الأخير لم يكن فقط مكانا للعبادة والصلاة ولكنه كان معهدا حقيقيا لتعليم الشريعة وتفسيرها . فقد كان يلقن فيه في البداية القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ومع تطور الإسلام اتسع المسجد لعلوم ومعارف جديدة انحدرت من هذين المنبعين الإسلاميين الكبيرين. وعلى هذا النحو ، ظهرت فنون معرفية جديدة مثل الفقه وأصول الدين.

واعتبارا للدور التربوي الذي قامت به هاته المراكز الثقافية (المساجد) ، كان من الطبيعي أن تُرفَقَ بمكان أو حجرة تضم نسخا من القرآن الكريم، ومجموعات الحديث النبوي الشريف، وبعض مؤلفات الفقه التي كان يحتاجها الطلبة والشيوخ على حد سواء . وبهذا الشكل ظهرت المكتبات في الإسلام في ارتباط مع المكان المقدس على غرار المكتبات القديمة.

لقد كانت خزانة كتب الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ، 704م) [11] أول مكتبة تكونت في الإسلام بالمعنى الصحيح للكلمة. وذلك حسب ماذهب إليه المؤرخون العرب.

فقد تخلى هذا الأمير عن السياسة واهتم بالعلم، وذلك بتعاطيه للكيمياء . فترجم إلى العربية عددا من المؤلفات اليونانية التي لها علاقة بهذا العلم [12]، وهكذا ظهرت الترجمات الأولى إلى اللغة العربية، وظهرت أول خزانة كتب في الإسلام.

لقد ذكر المترجمون العرب المكتبات الخاصة المنتمية إلى بعض علماء القرن الثاني الهجري. إلا أن أكبر مكتبة إسلامية جديرة بهذا الاسم هي مكتبة الخليفة العباسي المامون في بغداد المسماة "بيت الحكمة".

11. يخبرنا المسعودي في كتابه "المروج" أن معاوية (المتوفى 60هـ) ، كان يتوفر على مجموعة خاصة من الكتب المفهرسة، فكان يرجع إليها بين الفينة والأخرى، المروج، ج2 ص 72، القاهرة 1349

12. كان خالد بن يزيد ، حسب ابن النديم ،هو أول من ترجم إلى العربية كتب الطب وعلم التنجيم والخيمياء (ينظر: الفهرست، طبعة "فلوجل" ص 352 - 1817).

I . نشأة خزانات الكتب في المغرب

إذا كانت الكلمة الفارسية "كتابخانة" قد استعملت مترادفة مع الكلمة العربية " مكتبة"[13]، ذات الأصل السامي والتي تدل على الخزانات في المغرب فإن كلمة "خزانة" هي التي يتم استعمالها في أغلب الأحيان. ومعناها في المعاجم المكان الذي نستعمله للحفظ. إن كلمة "خزانة" لا تتيح لنا، وحدها، أن نستنتج أن الأمر يتعلق بمكتبة. إنها لا تكون قادرة على ذلك إلا إذا أردفت بأوصاف أخرى مبينة. فخزانة تنطبق دائما وفي نفس الآن على كلمة "بيت" وكلمة "دار" [14]. ولكي تشير هاته الكلمة إلى مكتبة يجب أن تكون مستعملة مع لفظة "كتب".

إن عبارة "خزانة الكتب" تعني إذن المكان أو المستودع الذي تحفظ فيه الكتب[15]. لقدكان من الضروري تحديد المصطلح لأننا غالبا ما نقف بلفظة خزانة في مصادر التاريخ والأدب في المغرب [16]. ويبقى علينا بعد توضيح هذا التحديد أن نلقي بعض الضوء على بداية خزانة الكتب في المغرب .

1 . خزانات الكتب في المغرب قبل الأدارسة

إننا لا نجد بخصوص الحياة الثقافية، في القرون الأولى التي أعقبت دخول الإسلام إلى المغرب، إلا بعض المعطيات المتفرقة، التي لا نستطيع انطلاقا منها أن نكون فكرة دقيقة عما كانت عليه المكتبة في هاته الفترة المظلمة. فنحن في الواقع لا نعلم شيئا عما يتعلق بظهور هاته المؤسسة في هذا البلد. فالمصادر المتعلقة بتاريخ الحضارة أثناء هاته القرون الأولى غير موجودة، وإن وُجدت فإنها لم تصل إلينا .

---

13 . كتب في الآرامية تعني جمع، حشد، ضم.

14 . يوسف العش "دور الكتب العربية" les bibliothèques arabes ص 3

15 . يذكر هذا بكلمة bibliothèque التي هي من أصل يوناني والتي تكون من لفظين: Biblion : كتاب و Thêke صندوق . لكي يتضمن مصطلح خزانة معنى مكتبة يجب أن يُردَفَ إذن بكلمة "كتب" .

16 . احتراما لهذا التقليد اللغوي، حددت وزارة الشؤون الثقافية المغربية في مذكرة وزارية في 1967 أن كلمة "خزانة" تعني مكتبة، وأن لفظة "مكتبة" تشير إلى "Librairie" أوكشك أو كل مكان فيه بيع الكتب.

إن المعلومات القليلة التي نتوفر عليها يشوبها كثير من الغموض وعدم اليقين . وإذن فنحن لا يمكن أن نجد أجوبة مقنعة عن الأسئلة التي تطرح بخصوص بداية خزانات الكتب في المغرب وطبيعتها .

لقد كانت فترة أوائل الحكام الأمويين في المغرب هي فترة الفتوحات. فالمهمة الأساس التي كانت منوطة بأوائل الفاتحين هي أن يُدْخِلُوا كل البلدان إلى الإسلام. فكانوا صارفين همتهم لبناء أقصى ما يمكن من المساجد. ولم تكن هاته المساجد التي شيدها هؤلاء الحكام، وهؤلاء القواد العرب، مختلفة عن مساجد العصر الوسيط. فكان من المحتمل جدا أن تتوفر في واقع الأمر على حجرات أو زوايا تضم نسخا من القرآن وبعض مصنفات الحديث.

وإذا كنا نفتقر إلى كل المعلومات تقريبا عن ظهور المكتبة في هاته الفترة، فإن مقطعا من كتاب القصد لابن عبد البر (ت 463هـ) يجعلنا نعتقد بأن القائد العربي طارق بن زياد كان يمتلك خزانة خاصة. ويخبرنا ابن عبد البر أنه في اللحظة التي فتح فيها الجيش العربي الإسلامي إسبانيا في سنة 711هـ /189م تحت قيادة طارق بن زياد، استولى هذا الأخير على مجموعة الكتب التي وجدها في أحد الأمكنة من البلد المفتوح[17]. ووصل عددها إلى اثنين وعشرين كتابا، وهي بالأساس مصاحف[18]، وأناجيل مذهبة ومحلاة بالفضة، ففي أحد هاته المصاحف هناك معالجة لقضايا مختلفة متعلقة بالأحجار الكريمة، وعلم النبات، والتعاويذ، وفي مصحف آخر تمت معالجة الخيماء وكيفية صنع الصفير. ويؤكد الزياني في رحلته هذا الخبر مضيفا أن الكتب المعنية قد اكتشفت في بلد الوليد التي استولى عليها طارق في 711 م. فقد وضح صاحب هاته الرحلة أن هاته المصاحف لا تحتوي فقط على الأناجيل، ولكنها تحتوي أيضا على مزامير داود مكتوبة باليونانية على رق مذهب، ومغشى بالأحجار الكريمة. وقد أهدى طارق بن زياد هاته الكتب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك للحفاظ عليها في الخزانة الملكية في دمشق. إن هذا الاهتمام الذي أولاه هذا

17 . ابن عبد البر، القصد والأمم، ص 35.

18 . يحتمل أن تكون كلمة مصحف التي تشير إلى كتاب في هاته الفترة من أصل حبشي. ينظر السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. ج 1 ص 89 ط 1941.

القائد المغربي إلى الكتب، والذي جعله يبحث عنها في المدن الإسبانية المفتوحة، هو ما من شأنه أن يجعلنا ندرك ولع هذا الأخير بالكتب. وأنه قد يكون أسس مجموعة خاصة. فمجموعة الكتب التي استشهد بها ابن عبد البر لم تشكل في نظرنا العدد الدقيق للكتب الموجودة في بلد الوليد. إن هذا المكان، الذي كان قبل وبعد الاحتلال العربي مركزا ثقافيا نشيطا، لا يمكن أن يتسع فقط للعدد الذي أخبرنا به العالم الأندلسي. فنحن لا نشك في أن طارق بن زياد قد يجد مصاحف أخرى احتفظ بها في مجموعته الخاصة. ولعل الذي جعل الخبر الذي حمله لنا ابن عبد البر في القرن الخامس والذي أكده الزياني في القرن الثالث عشر، والمتعلق بمجموعة بلد الوليد الشهيرة، خبرا متفردا هو أن الخزانة لم تكن قد وجدت تقريبا في الفترة المذكورة.

2) المكتبات المغربية على عهد دولة الأدارسة

لم تكن فترة الأدارسة غامضة بالشكل الذي كانت عليه الفترة السابقة. فعلى الرغم من كون المعلومات القليلة التي وصلتنا بخصوص الحركة الثقافية في عهد الأدارسة متناثرة ومبعثرة، فإنها كانت في المستوى الذي يساعدنا على أن نكون فكرة عما كانت عليه الخزانة في هذا العهد. لقد كان دخول الخليفة إدريس الأول إلى المغرب مفيدا لهذا البلد، وخاصة على المستوى الثقافي. فقد لاحظ المؤرخون المتأخرون، أنه ولأول مرة في تاريخ هاته الدولة، توافد على المغرب عدد هام من رجالات السياسة، والعلماء، مباشرة بعد معرفتهم بوجود أحد أسباط الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس الدولة الجديدة. وكانوا ينحدرون بالأساس من الشرق الأوسط؛ من القيروان (تونس) [19]، ومن الأندلس.

19. جاءت في عهد إدريس ثلاث آلاف أسرة من القيروان للاستقرار في فاس حسب المقري. نفح الطيب ج 1 ص 17.

وأخذ إدريس الثاني بالاعتبار الوافدين الجدد في تصميمه لمدينة فاس. فأسكن الأندلسيين في الجزء الشرقي من المدينة، وسمي هذا الجزء منذ ذلك الحين "عدوة الأندلس". واحتفظ بالجزء الغربي لنفسه ولضيوفه الوافدين من القيروان، وسمي هذا الجزء منذ ذلك الحين أيضا (عدوة القرويين). وقد انضاف إلى هؤلاء المهاجرين عائلات العلماء والفقهاء من ضواحي قرطبة الذين طردهم الخليفة الأموي حكم الأول بعد معركة ربض (202) هـ [20]. ومن المحتمل جدا أن أغلب الفقهاء الذين استقروا في المغرب، خاصة في فاس، وفي مدن الشمال كانوا قد حملوا معهم مجموعات كتبهم، وعلى هذا النحو، بدأت ترتسم معالم حياة ثقافية، وصلت ذروتها مع تأسيس جامع القرويين في سنة 245 هـ/ 859 م، على عهد الخليفة يحيى الأول [21]، ومع تأسيس جامع الأندلس.

وكانت تقام حلقات الدروس متزامنة في الجامعين، على غرار ما كان يصنع في الشرق الأوسط. فقد أسهم خلفاء الدولة الجديدة بشكل واسع في تطوير الحياة الثقافية، ولم يذخروا أي جهد من أجل دعوة علماء أقطار مسلمة أخرى للدخول إلى المغرب، وذلك هدفا للإفادة من ثقافتهم، وموهبتهم. وهكذا استدعى الخليفة الإدريسي أحمد بن قاسم العلامة والشاعر بكر بن حماد التهارتي، لتشريف جامع القرويين بإعطائه فيه دروساً في أصول الدين والفقه. ويروي البكري الذي ترجم هذا الفقيه في "كتاب المسالك"[22] أنه، مثلما اشتهر هذا الأخير بعلمه وموسوعيته في تهارت [23]مسقط رأسه، فإنه اشتهر أيضا بذلك في القيروان.

وإذن فنحن لن نقبل بسهولة أن هاته الحركة الثقافية التي أنعشها أغلب العلماء المهاجرين، قد تشكلت بدون كتب وبدون خزانات. فمن المفروض أن كل واحد من هؤلاء العلماء كان يتوفر على مجموعة خاصة

---

20. لقد مرت ثمان آلاف أسرة من المغرب ودخلت إلى فاس حسب ابن أبي زرع. ينظر القرطاس ص 56. فالفقيه يحيى بن يحيى الليثي صديق الإمام مالك كان من ضمن العلماء المطرودين ينظر: المقري: نفح الطيب ج 1 ص 15.

21. شيدت هذا المسجد ابنة العالم القيرواني محمد بن عبد الله الفهري الذي استقر في المغرب منذ بداية القرن 3هـ /9م.

22. البكري: المسالك والممالك ص 252.

23. "تهارت": عاصمة بني رستم في الجزائر وهي ولاية تابعة للخوارج.

حملها معه من مسقط رأسه. فالمخطوطات القليلة المرتبطة بهاته الفترة والمحفوظة إلى يومنا هذا تشهد أن المؤلفات الأولى الموجودة في المغرب كانت في معظمها من أصل مشرقي. إلا أن حركة التأليف التي بقيت إلى ذلك الحين ضعيفة، بدأ ت تزدهر. وبالفعل فقد تزايد عدد العلماء وبدأوا يؤلفون في الفقه، ولم يحتفظ لنا التاريخ من كتبهم إلا بالعناوين. ونذكر على سبيل المثال: الوثائق على الطريقة الشافعية، لأبي جيدا المتوفى سنة 365 هـ. والأثر والدليل في خلاف مالك وأبي حنيفة للأسيلي المتوفى سنة 372 هـ.

واعتبرت هاته المؤلفات اليوم في عداد المفقودات ، ونحن لانعرف إلا الشيء القليل عن ترجمة أصحابها. إن هاته الحياة الثقافية شبه المزدهرة نسبيا قد ترتبت في جانب كبير منها عن عنصرين أساسين : فقد ترتبت أولا عن منافسة قوية حصلت على المستوى الثقافي بوجه خاص بين البلاط العباسي والبلاط الإدريسي من جهة، وبين هذين البلاطين وبني رستم تهارت في الجزائر من جهة أخرى. إذ كان هؤلاء وأولئك يتجمعون في مجالس فخمة، وكانوا يمتلكون خزانات كتب شهيرة، لم تكن مجهولة لدى المغاربة[24]. وبعد ذلك، فإن هاته الحركة الثقافية قد ترتبت عن مجهودات يحيى الرابع[25] الذي كان متحليا بمجموعة من الخصال. فقد عرف كيف ينظم البلد ويعيد السلام إليه، ويضمن الاستقرار فيه. وعرف كيف يحافظ على حياد المغرب بإزاء الصراع شبه الدائم بين موحدي إسبانيا ، وفاطمي إفريقيا (تونس). فقد وفد العديد من المهاجرين على فاس من الأندلس وأفريقيا في ظل حكمه الذي كان يسوده السلام. وحبا منه في العلم فإن هذا الخليفة قد استمر في جمع العلماء والأدباء. قال علي النوفلي : "كان العلماء والشعراء يترددون باستمرار على بلاط يحيى الرابع، وكان أبو أحمد الشافعي يحضر هاته الاجتماعات بشكل

---

24. ليس من الضروري أن نتوسع في الحديث عن الخزانة العباسية في بغداد أو أن نحاول وصف خزانة بني رستم في تهارت المعروفة باسم "الخزانة المعصومة". فهاته المؤسسات كانت معروفة جدا في هاته الفترة. وشهرتها تجاوزت حدود بلدانها الخاصة.

25. كان هذا الخليفة حسب ابن أبي زرع رأس الأدارسة وأشهرهم بعد إدريس الثاني، ولم يكن أحد في مثل ثقافته، وحسن تربيته، وقوته، وهيمنته الواسعة، فقد كان علامة في الشريعة، ومتضلعا في الحديث، وكان يتكلم العربية الفحة. وكان عادلا ومتدينا ، القرطاس ص 106.

مستمر، وكان يشارك في هاته المناظرات العلمية التي كانت تتم في مجلس الأمير. فكان العديد من الكتاب (الوراقين) يشتغلون في نسخ الكتب ليحيى الرابع، وكان الناس يؤمونه من إسبانيا ودول أخرى طمعا في نعمه، ولم يكونوا يغادرونه إلا بعد أن يغمرهم من فضله وشرفه" [26].

فهذا الخبر الذي رواه لنا البكري يجعلنا نعتقد بوجود خزانة كتب كبيرة خاصة كانت في حوزة الخليفة يحيى الرابع. إن العدد الكبير من النساخ والوراقين الذين كانوا يمتهنون مهنة الوراقة في رحاب قصره في فاس دفعه إلى تشييد مجموعة من القاعات التي استعملت في الأعمال المكتبية، و في الحفاظ على الكتب على حد سواء. وعلى كل حال، فالمعطيات التي جمعناها حول المجموعة الخاصة لهذا الخليفة تدفعنا إلى أن نتحدث بشكل سابق لأوانه عن خزانة الكتب في المغرب.

3. خزانات الكتب على عهد الزناتيين:

أصبحت فاس في النصف الأول من القرن 4 هـ 10 م مركزا ثقافيا نشيطا. وترتب هذا عن استقرار دائم أقره الزناتيون؛ الدويلة الصغيرة التي كانت تابعة للأمويين. فمدرسة الطب حسب مؤرخ مغربي قد تكون وجدت في هاته الفترة في فاس [27]. وعرف الجامعان، ونعني بهما جامع القرويين، وجامع الأندلس، شهرة تجاوزت الحدود في المغرب [28]. فهما قد استقطبا علاوة علي السكان الأصليين عددامن الطلبة والباحثين الأجانب. وهذا ما حذا ب "جفبير دوريلا" Gerbert d'aurillac الذي انتخب "بابا" في عهد" سلفستر الثاني " إلى الرحلة إلى فاس طلبا للعلم [29]. إن الأمويين الذين كانوا أوصياء على الزناتيين، والذين كانوا مولعين بالعلوم والآداب، قد اهتموا بتحسين التعليم في فاس اهتماما كبيرا، واهتموا أيضا

26- البكري: المسالك والممالك ص255 ترجمة "دوسلان".

27- ابن عبد الله: الطب والأطباء ص15.

28- لقد نقل لنا علي الجزنائي في زهرة الآس وصفا جيدا لحالة التعليم في هذين الجامعين اللذين من المؤكد أنهما كانا مرفقين بالخزانات ص 94.

29-التازي: جامع القرويين. وتحدثت مصادر أخرى عن زيارة هذا البابا لفاس. فلقد كان "جوس پونتوليمون كرستوفتش" Jonse Ponteleimon Krestovitich (المسيحي) هو السباق إلى نشر هذا الخبر في المجلة المصرية الهلال يوم 1 يوليوز 1893. ويجب أن نشير إلى أننا لا نجد حديثا عن ذلك في وثائق العصر الوسيط الغربي.

بتحسين مكتباته وتزويدها بالكتب. فقد حرص الخليفة الأموي في قرطبة الناصر (ت 350 هـ) على أن تقوم القرويين بدور هام في تعليم أصول الدين الإسلامي [30]. وأرسل إلى واليه في فاس أحمد الزناتي كثيرا من الكتب لكي تحفظ في خزانة القرويين.

ومن ضمن هاته الكتب [31] كتاب " شرح الفصوص في صناعة الطب" المنسوب إلى الفارابي، والذي أنجز للناصر في قرطبة. فقد واصل الحكم الثاني [32] (ت 356 هـ) عمل أبيه، وزود خزانة القرويين بعدد من المؤلفات التي بقي البعض منها محفوظا في الخزانة. وعلى سبيل المثال: فقد وجد من ضمن مجموعة القرويين [33] في 1334م، مختصرأبي مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري (المتوفى سنة 242 هـ) والذي نسخه الحسين بن يوسف برسم خزانة الحكم الثاني في 359هـ / 970 م.

ولم يقتصر هذا النشاط الثقافي فقط على فاس؛ مقر الزناتيين، ولكنه امتد أيضا إلى المدن المغربية الأخرى، وخاصة مدن الشمال في عهد الهيمنة الأموية.فقد كان أصيلا، والبصرة، وطنجة، وخاصة سبتة، تعكس مظاهر الحركة الثقافية المزدهرة في إسبانيا المسلمة. فسبتة مثلا بخزاناتها المتعددة كانت تذكرنا بغرناطة التي كان يوجد بها حسب ابن الفياض سبعون خزانة [34].

فهل ستستمر عملية إنشاء خزانات الكتب في التطور في العقود التي ستعقب هذا الزمان، أم ستعوقه الصراعات التي تعرض لها المغرب في نهاية الدولة الإدريسية وبعدها؟

---

30. المرجع السابق ص 124.

31. توجد أيضا في خزانة القرويين نسخة من شرح ابن أبي الزمنين كانت تدرس في قرطبة في سنة 375هـ، ينظر التازي : جامع القرويين، ج 1، ص 124.

32. لقد جمع هذا الخليفة الذي كان موسوعيا وهاويا للكتب خزانة كبيرة، فقد كانت محتوياتها تضم حسب المؤرخين أربع مائة ألف مجلد.

33. المرجع نفسه.

34. الفاسي: الخزانة العلمية، ص 9.

II – خزانات الكتب في المغرب على عهد المرابطين

1- الوضعية السياسية

لقد كان المغرب طيلة الفترة الطويلة التي تمتد من سقوط الأدارسة إلى استيلاء المرابطين على فاس أي تقريبا من 920 إلى 1069م مسرحا للصراعات شبه الدائمة. وقد تميزت هاته الفترة بالعديد من الصراعات التي وقفت حجرة عثراء أمام أي تطور اجتماعي وثقافي.

فلم يكن الصراع بين الدويلات الصغرى الناشئة من جهة، والنزاع الدائم بين أمويي إسبانيا، وفاطميي إفريقيا من جهة أخرى، ليمكن الدولة السابقة من الاستمرار في أعمالها، والتي نذكر منها تطوير الثقافة، وجمع رجالات الأدب، وتأسيس المكتبات. ونظرا لأن هاته القوى المتنوعة قد طمعت في فاس؛ العاصمة السياسية والثقافية، فإن هاته الأخيرة قد اجتازت مرحلة عصيبة من تاريخها. واجتاز المغرب في الواقع مرحلة اضطراب وعدم استقرار مما أدى إلى تراجع الحياة الثقافية، ومن تم، إلى تدهور وضعية المكتبات المغربية.

2- خزانات الكتب

لقد حصل نوع من النشاط الثقافي في هاته الفترة على الرغم من التنافس على الحكم الذي زلزل الوضعية السياسية في المغرب. إن ضعف هاتين القوتين الكبيرتين . ونعني بهما الأمويين والفاطميين. قد شجع بعض الدويلات الجديدة على أن تعلن استقلالها .إن العلماء والأدباء كانوا يحفون بزعماء بعض هاته الإمارات المغربية، وذلك على غرار ملوك الطوائف في إسبانيا، هدفا في خلق مجالس علمية رائعة. وهي مثلا حالة "هامان بن المعز"[35] 422 هـ من مغراوة الذي اغتنم مدة قصيرة من السلم والازدهار، وأحاط به

35. دولة زناتية صغيرة

رجال القانون والأدباء الذين كان يخصهم بالاهتمام. وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود خزانات كتب جمعها هذا الأمير المثقف وجمعتها حاشيته المثقفة أيضا.

وفي نفس الفترة الزمنية تمت الإشارة إلى نوع من النشاط الثقافي في مدينة سبتة في شمال المغرب، لقد كانت توجد في هذه المدينة حسب الأنصاري،[36] (وهو مؤرخ مغربي من القرن 9 هـ / 15 م (ت 825 هـ)، اثنان وستون خزانة، كانت خمس وأربعون منها تعود إلى القرن 4 هـ / 10 م، وكانت تنتمي إلى الأغنياء والأعيان، والعلماء، مثل العالم الشهير ابن العجوز. ولحسن الحظ فقد أخبرنا ابن فرحون بترجمة هذا الأخير الذي كان يعتبر مؤسس خزانة كتب كبيرة خاصة. لقد رحل عبد الرحمن بن أحمد الكتامي المعروف باسم ابن العجوز[37] (المتوفى سنة 413) إلى افريقيا (تونس)، وحضر دروس العالم المالكي الشهير ابن أبي زيد القيرواني (المتوفى سنة 386/ 996م) الذي كان يدرس ويشرح مؤلفات المذهب المالكي. فانطلاقا من محاضراته ودروسه تم تأليف عددمن المؤلفات من مثل " النوادر والمختصر". وقد حمل ابن أبي العجوز معه في عودته إلى سبتة مؤلفات ابن أبي زيد، ومخطوطات أخرى، وأقيمت حلقة دراسية في هذه المدينة تحت إشرافه. وتثقف أتباعه، وأصبحوا علماء. ونذكر على سبيل المثال: قاسم بن المامون، محمد بن عبد الرحمن بن سليمان، وابن خلف الله، وإبراهيم بن يعقوب الكتامي، وأبا عمران بن أبي سوار[38].

إن ترجمة هذا الرجل ونص الأنصاري يبدو ان لنا في غاية الأهمية لعدة أسباب: أولا إنها المصادر الوحيدة التي تقدم لنا معلومات عن خزانات الكتب في المغرب أثناء هاته المرحلة. فهي تخبرنا عن تأسيس وطبيعة كتب خزانة هذا العلامة الذي هو ابن العجوز.

---

36. الانصاري: اختصار الأخبار هسبريس، 1931

37. إن تاريخ هاته الرحلة لم يكن دقيقا، فابن العجوز عاد إلى تونس في نهاية القرن 4هـ / 10م في وقت ابن أبي زيد كاتب الرسالة حول مبادئ المذهب المالكي.

38. ابن فرحون: الديباج، ج 2 ص 4 ينظر أيضا ترتيب المدارك لعياض ج 4 ص 721-820. ينظر أيضا شجرة النور ج 1 ص 115.

فهلا وجدت خزانات كتب أخرى خاصة في المغرب على غرار هاته الخزانة وخاصة في سبتة؟ . إننا نعتقد بهذا . فنص "الأنصاري "يحدد لنا الطابع العام للخزانة المذكورة. فهو يقول: " لقد كانت هاته الخزانة مفتوحة في وجه الطلبة والعلماء أصحاب هذا العالم الكبير" [39].

ومع هذا فنحن لا نكاد نعرف شيئا عن خزانة الكتب في هاته الفترة باستثناء هذا النص المقتضب وغير الكامل، والسطحي للأنصاري. فعلى الرغم من النشاط الثقافي العابر الذي عرفته فاس على عهد المغراويين، وعرفته سبتة على عهد الأمويين، فنحن نلاحظ أن المكتبة المغربية لم تتطور. إن المجهودات التي بذلتها الدولة الإدريسية في هذا المجال لم يتم الاستمرار فيها، وعرفت المؤسسة تراجعا ظاهرا. إن المعلومات المرتبطة ببداية خزانة الكتب في المغرب، كما وقفنا بذلك، قليلة جدا بل هي غائبة تقريبا . وأسباب هاته الندرة في المراجع متعددة. إذ يجب أن نضع في الحسبان أن هاته الفترة القديمة من تاريخ المغرب، لم تكن قد عرفت رواة أهليين حسب ما نعلم. فعلى الرغم من المجموعات التاريخية النادرة المتأخرة التي تضم مقاطع وجيزة وغامضة عن الحياة الثقافية في هاته الفترة، فإن معرفتنا بخصوص ظهور المكتبة التي هي انعكاس لهاته الثقافة تبقى سطحية وغير كاملة.

إننا لا نستطيع التصدي لمسألة الكتب ولا لمسألة المكتبات في معزل عن الظروف الثقافية. إلا أن النصوص المرتبطة بهاته الفترة من تاريخ المغرب غير موجودة تقريبا . فالمغاربة لم يهتموا بتاريخهم إلالماما . وقد لاحظ الكثير من الكتاب المغاربة المتأخرين، مرارا، وفي قرون مختلفة، لا مبالاة علمائنا بإزاء ماضي وطنهم. ولاحظ الكتاني، صاحب سلوة الأنفاس، نفس الملاحظة مرتكزا في ذلك على مقطع من محاضرات اليوسي، مقتبس من مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي : "لقد اتهم علماء الإسلام بالتقصير فقد آخذوهم على طمر شهرتهم تحت تلال من التراب، ونسيانها، فما أكثر ما عندهم من الأمجاد الجديرة

39. الأنصاري :اختصار الأخبار ص 29.

على الأقل بالذكر والتي غابت عنا آثارها في غياب من سيحافظ عليها من المؤرخين"[40] . فبدأ المؤرخون يظهرون في مقدماتهم اهتماما بمحاربة هاته اللامبالاة التي تشكل عائقا خطيرا أمام كل الأعمال التاريخية. وهكذا فأحمد بابا[41] ، والمقري[42] ، وبعد ذلك أكنسوس[43] لم يتمالكوا أنفسهم في مقدمات كتبهم على مؤاخذة المغاربة بلا مبالاتهم إزاء التاريخ. ونتج هذا المآل أيضا عن غياب المؤلفات النادرة التي كتبت عن هاته الفترات المتقدمة من تاريخ المغرب. وفوق ذلك، فمؤرخو القرن الثالث عشر والرابع عشر، مثل ابن أبي زرع (في القرطاس) قد حفظوا لنا عناوين، إضافة إلى نتف من هاته المؤلفات التي ضاعت بدون شك إلى الأبد. ونذكر على سبيل المثال كتاب المقباس لعبد المالك بن محمد الوراق الذي عاش في القرن 7 هـ 12 / م. إن هذا الكتاب الضائع اليوم، كان سيكون المصدر الهام لكل الكتّاب المتأخرين المهتمين بالأحداث السياسية، والاجتماعية، والثقافية للقرون الأولى التي أعقبت دخول الإسلام إلى المغرب. فمن المؤكد أننا سنعرف المزيد عن الحركة الفكرية، وعن خزانات الكتب في هاته الفترات المظلمة تقريبا عندما سيتم اكتشاف هذا المخطوط أومخطوط آخر من نفس النوع[44]

إنّ هاته بشكل عام هي الأسباب الرئيسة التي تفسر ما عندنا من معارف متعلقة ببداية خزانات الكتب في المغرب. إلا أن ما نتوفر عليه من معلومات قليلة يمكننا، على كل حال، من أن نذهب إلى أن أسس الخزانات في المغرب كانت قد ظهرت في هاته الفترة شبه المظلمة. وأن ندرك مختلف أنواع خزانات

---

40 . "ليڤي پروڤانصال" Histoire des chorfas ص 21 ط 1922.

41 . نيل الابتهاج

42 . أزهار الرياض

43 . الجيش العرمرم.

44 . ضياع المخطوطات هو ظاهرة ملحوظة ليس فقط في المغرب، ولكن في كل الدول التي عرفت حضارة مكتوبة ، فنحن نلاحظ في الشرق الإسلامي مثلا أن أغلب المؤلفات التي أخبرنا بها ابن النديم في القرن الرابع في كتابه البيليوغرافي الهام الفهرست لم تصل إلينا . فقليلة هي المخطوطات المتقدمة عن القرن الرابع الهجري. ونلاحظ نفس الأمر بخصوص الكتاب البيليوغرافي كشف الظنون الذي ألفه حاجي خليفة. فالعديد من الكتب التي ذكرها هذا البيليوغرافي التركي لم نتعرف منها إلا على عناوينها ، وإذن فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا علمنا أن مجموعة من المخطوطات قد اعتبرت ضائعة في المغرب اليوم.

الكتب الموجودة ألا وهي خزانة الكتب الملكية، وخزانة الكتب الخاصة، وخزانة الكتب العامة [45]. فمن الطبيعي أن تأكيد هذا التمييز الذي لم يكن بعد واضحا في هاته الفترة هو أمر سابق لأوانه. إن الأوصاف التي أعطيت للفظة "خزانة" لا تستوعب كل معانيها حتى وإن كانت الفكرة موجودة من ذي قبل. وسنرى أن هذا التمييز لم يظهر بشكل جلي وعميق إلا في عهد المرابطين والموحدين. إذ يبدو لنا أن الخزانات المغربية ستعرف على عهد هاتين الدولتين ارتقاء وتطورا ملحوظين بجلاء.

45. إن خزانات المساجد الصغيرة التي كانت تحاكي في تأسيسها الخزانات في الشرق الإسلامي، كان لها طابع عمومي.

الفصل الثاني : نمو خزانة الكتب المغربية وتطورها

(من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي

إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي)

كانت الفترة التي تطورت فيها المكتبات في المغرب هي التي توالت فيها على الحكم دولتان كبيرتان من أصل بربري ألا وهما دولة المرابطين (1061 / 1147) ودولة الموحدين (1147 / 1269)، ومن المفيد أن نعرض هنا للشروط السياسية والفكرية التي كانت وراء هذا التطور.

I . الوضع الثقافي

1 . الحياة السياسية

تحققت الوحدة الترابية لأول مرة في تاريخ المغرب [1] فقد بدأ هاته المهمة المرابطون [2]، وأكملها خلفاؤهم الموحدون.

لقد فتح المرابطون المغرب [3] في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. واستولوا بعد ذلك على الأندلس. وأسهمت مجموعة من العوامل في استقرارهم أولا في المغرب وبعد ذلك في إسبانيا.

وكان العامل الرئيس الذي يسر وصولهم إلى الحكم هو انقسام المغرب إلى دول صغرى بربرية، أقواها برغواطة التي تم القضاء عليها من طرف يوسف بن تاشفين سنة 500هـ / 1106م. لقد قررت الإمارات

1. المغرب الذي تحدث عنه هنا لم يكن منتهيا بالحدود الحالية وإنما كان يمتد على كل المغرب العربي وجزء من إسبانيا.

2. دولة أسستها مختلف أعيان قبيلة صنهاجة الكبيرة في الصحراء.

3. تم الانتهاء من فتح المغرب في 1069 في لحظة الاستيلاء على فاس.

العربية في الأندلس، أن تستنجد بالمرابطين خوفا من السقوط تحت سيادة الملوك المسيحيين الذين أثقلوهم بالإتاوات، فأوفدوا إلى يوسف بن تاشفين أعيانا منهم كي يطلبوا منه التدخل باسم الإسلام. فكان أن وافق زعيم المرابطين على الذهاب إلى إسبانيا[4] ، وعلى هذا النحو استولت هاته الدولة البربرية على الأندلس. ووصلت قوة المرابطين أوجها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. فهيمنتهم كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب، من الأندلس الشمالية إلى السينغال أو النيجر، ومن المحيط الأطلسي إلى جزيرة بني ميزرانة (الجزائر) في الشرق. وهكذا تم إنجاز المرحلة الأولى من توحيد المغرب في عهد ملك واحد. وفيما يخص علاقة هذا الملك بالخليفة العباسي في بغداد، فإن الدولة المغربية الجديدة الحاكمة إن لم تبق مرتبطة به سياسيا فإنها على الأقل بقيت مرتبطة به على مستوى الوازع الديني، وهكذا فإن ابن تاشفين،[5] وبعد انتصاره على ملك قسطلونة ألفونس السادس، اتخذ اسم أمير المسلمين، وأخبر بذلك الخليفة العباسي (واتصلت هزائم النصارى على يد المرابطين مرارا وتسمى بأمير المسلمين وخاطب المستظهر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولا في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم)[6].

ولكن هاته الدولة المنحدرة من الصحراء لم تتمكن من الصمود طويلا أمام معطيات الحضارة الأندلسية المختلفة عنها كليا. فاتصالهم المفاجئ بحضارة في غاية الترف، لم يكونوا قد استعدو لها، قضى عليهم بنحو

---

4. لقد ذهب يوسف بن تاشفين إلى الأندلس حسب صاحب الحلل الموشية أربع مرات. ينظر الحلل ص 38 إلى 77 ط البيضاء 1979.

فقد أرسل الإمام الغزالي والقاضي الطرطوشي إلى ابن تاشفين حسب ابن خلدون رسائل إرشادية ودعاء بطريقة متشددة جدا إلى أن يحكم بالعدل وألا يبتعد أبدا عن الصراط المستقيم وأرسلا إليه في نفس الآن قرارهما المتعلق بملكيات الأندلس، هذا القرار الذي كان يسمح لهم أن ينفذ فيهم حكم الله. العبر، ج 2 ص 82.

5- إشارة إلى واقعة الزلاقة في سنة 1183/479.

6- ، خلدون: العبر، ج 6، ص 386.

ما قضى على أسلافهم الونداليين على نفس الأراضي من إفريقيا الشمالية قبل ذلك بثمانية قرون [7]. إلا أنهم في الحقيقة كانوا أول من صنع الوحدة السياسية في المغرب. أما فيما يتعلق بأتباعهم الموحدين فقد أكملوا توحيد الدولة، وبهاته الطريقة أسسوا الامبراطورية الواسعة للمغرب التي كانت منذ إرساء الإسلام في الغرب أول حكومة تجمع تحت سلطة واحدة كل إفريقيا الشمالية من خليج قابس إلى المحيط والأندلس المسلمة. فقد كان مؤسس هاته الدولة ابن تومرت (524 / 1129) يدرك أزمة العالم الإسلامي في هاته الفترة[8]. وسعيا للتقدم، فإن هذا الخليفة الموحدي رأى أن يؤسس امبراطورية إسلامية حقيقية عوض ولاية أو مملكة صغيرة. ولهذا السبب تسمى الخلفاء الموحدون باسم أمير المؤمنين. ويبدو أن هدفهم كان هو فتح مصر للانفتاح على الطريق نحو بغداد. ذكر المراكشي أن الخليفة يعقوب المنصور (ت 595هـ / 1198م) صرح للموحدين بالرحلة نحو المشرق. (... فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها، وقصد مدينة مراكش، وذلك في سنة 594. فبلغني من غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق، وجعل يذكر البلاد المصرية ومافيها من المناكر والبدع، ويقول : نحن إن شاء الله مطهروها)[9]. ولقد وصلت الامبراطورية الموحدية أوجها على عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل؛ أي طيلة القرن 6هـ / 12م تقريبا. وكانت أكبر امبراطورية بربرية لم تعرف لها إفريقيا الشمالية مثيلا. وبدأت هاته الدولة الحاكمة في الانحطاط مع انهزام "لس نفس" حاكم تولوز في سنة 1212 أمام مسيحيي الأندلس. وقد تفككت الامبراطورية وأصبحت إفريقيا والمغرب الأوسط مستقلين [10]. ولعل ما حصل بين آخر الخلفاء الموحدين من صراعات مع بعضهم البعض ومواجهات المرينيين هو ما أدى إلى زوال الدولة بشكل نهائي في سنة 667هـ / 1267م. تلك كانت وضعية المغرب السياسية من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. فماذا عن الحركة الفكرية وخصوصا المكتبات المغربية في تلك الفترة؟

---

7. دائرة المعارف الإسلامية (المرابطون) ط 1913.

8. سقوط الفاطميين وانحطاط العباسيين.

9. المراكشي، المعجب: ص 407

10- انقسم المغرب إلى ثلاثة دول لم تجتمع أبدا إلى يومنا هذا؛ إفريقيا في عهد الحفصيين، والمغرب الأوسط في عهد بني عبد الواد، والمغرب الأقصى في عهد المرينيين.

2. الحركة الفكرية

1.2 . تأثير الثقافة العربية الأندلسية

لقد توثقت الروابط بين الحضارة المغربية و الحضارة الأندلسية بعدالزيارات المتكررة التي قام بها ابن تاشفين للأندلس. وزاد من توثقها انضمام هذا البلد الأخير إلى الامبراطورية الموحدية الواسعة. فحصل هناك تواصل حميمي ودائم بين هذين البلدين. فقد تتلمذ البرابرة المغاربة في مدارس الأندلس : إن الأمر لا يتعلق أبدا بعلاقة مجاورة كما هو الأمر سابقا، بل أصبحنا بإزاء تعايش عريض تحت كنف الدولة المغربية الجديدة. فمن الصعوبة علينا أن نفرق في القرن السابع الهجري الثاني عشر الميلادي بين المغرب والأندلس، هذا البلد الأخير الذي تآخى فيه خلفاء هذين البلدين الكبيرين. فهؤلاء الخلفاء قد وصلوا إلى إسبانيا في القرن 5هـ/11م أي في فترة استبدل فيها حب الحرب والتعطش إلى الفتوحات بالآداب والشعر والملاهي. وأقام فيها ملوك الطوائف مجالس فاخرة وكان يحف بهم أعلام العصر وفحول الشعراء[11]، وكان الخلفاء المغاربة، على غرار الولاة العرب الأندلسيين، يستقطبون الأدباء توخيا لصنع المجالس الفاخرة وجلب العلماء والشعراء [12].

وقد أخبرنا صاحب القرطاس [13] بأسماء عدد من هؤلاء العلماء الذين استقطبهم ابن يوسف، والذين انماز بهم التاريخ الأدبي للمغرب مثل أبي القاسم بن الجد (المتوفى سنة 530هـ / 1167م)، الذي كان يعتبر من بلغاء عصره، وأبي بكر ابن القبطرنة (المتوفى سنة 525 / 1162) وابن أبي الخصال، وأخيه أبي مروان، وابن عبدون. وظهر نشاط ثقافي كبير جدا في المغرب بتأثير من الأندلس.

وتأسست في مراكش عاصمة الامبراطورية ثاني أكبر جامعة للمملكة بعد القرويين ألا وهي الجامعة اليوسفية (519هـ) نسبة إلى علي بن يوسف بن تاشفين. وقد استقطبت هاته الجامعة أشهر علماء العصر

11- بانقسام الولاة الأندلسيين فيما بينهم، وفي جو من التنافس خلقوا مراكز ثقافية هامة، فكل واحد منهم كان يبحث عن أن يستقطب إلى جانبه أكبر عدد ممكن من العلماء.

12- نلاحظ أن أغلب الفنانين على اختلاف أنواعهم كانوا ينحدرون من إسبانيا. فإسبانيا كانت مركز المواهب وقطبها.

13- ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 148.

مثل ابن رشد الجد وأبي عامر عثمان السلالجي الفاسي [14]. وكان هؤلاء العلماء كلهم تقريبا مالكيين. فكانت الكتب التي تدرس للطلبة هي بالأساس مؤلفات مرتبطة بمذهب الإمام مالك. وباعتبار أن المرابطين كانوا مالكيين متطرفين، فإنهم لم يسمحوا بدراسة مؤلفات المذاهب الأخرى، ولا مؤلفات أصول الدين، وكانوا يعتبرون دراسة هاته الأمور بدعة حظرها الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسلمون الأوائل. فقد كان الفقهاء يتمتعون بالحظوة والثقة الكاملة لدى أمير المسلمين " ولم يكن يدخل عنده أحد ما لم يكن فقيها مالكي المذهب [15]".

ولعل الكتاب الذين تفرغوا لقصور ملوك الطوائف كانوا يؤدون نفس المهمة لدى أمراء المسلمين في المغرب. فقد عهد بمهمة الكاتب أساسا إلى الأدباء المعروفين بثقافتهم، وموسوعيتهم، سواء لدى مجالس الأمراء البرابرة حكام إسبانيا[16] أو لدى مجالس الخلفاء في مراكش. وما فتئ علي بن يوسف بن تاشفين منذ بداية حكمه (500 هـ/537هـ) يستقطب إليه أهم الكتاب من الأندلس. وكان يفعل ذلك بكثير من الاهتمام هدفا في أن يَجْمَعَ إلى جانبه منهم مالم يجتمع لأمير آخر. يقول المراكشي : (فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى اشتبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصره من الأعصار. فمن كتب لأمير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة الحائز قصب السبق في البلاغة كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أخذها متأخرو الكتاب اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير

---

14 . ابن عثمان: الجامعة اليوسفية. ص 112.

15 . "شابروفيار" chabreviere : "تاريخ المغرب "Histoire du Maroc ص 190.

16 . ألف "ابن زهر أبو مروان" (1162) كتابا بعنوان الاقتصاد. وهو مخطوط من 140ورقة محفوظ في الخزانة الوطنية في باريز رقم 2959. وهو مؤلف كتب بأمر من الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي مُثِّلَ اسمه في البداية. ونصادف في نهاية الكتاب أيضا هاته العبارات: ملكية المرابطين هي قوة اللمتونيين. ينظر: "لوكلير" Histoire de la méde- : cine arabe Leclerc ج 2، ص 89ط 1980 .

استدعاء . . .) [17] . وفيما يخص الموحدين، فإنهم ومنذ وصولهم إلى الحكم، لم يدخروا أي جهد من أجل تأسيس المدارس، وتطوير الثقافة، واستقطاب العلماء والشعراء والفلاسفة، ومن أجل إقامة المناظرات داخل قصورهم. فقد كانت كل العلوم المعروفة في ذلك العصر تقريبا تدرس بأمر من هؤلاء الخلفاء. وكانوا هم بأنفسهم علماء شهيرين، فغالبا ماكانوا يترأسون بأنفسهم المناظرات. وهكذا فالخليفة يعقوب المنصور (595هـ / 1198م) كان عالما ومحدثا وفيلسوفا . ذهب المراكشي[18] إلى أن هذا الخليفة كان يحفظ مجموع الأحاديث النبوية لصحيح البخاري (253هـ / 867م) الذي حفظه في حياة أبيه قبل أن ينكب على دراسة القرآن وكان أيضا محبا للفلسفة. وكان يفتش أيضا عن العلماء وخاصة أولئك الذين كانوا يهتمون بالعلوم النظرية بحيث إنه جمع حوله ما لم يجتمع أبدا لأمير في المغرب. ومن ضمن هؤلاء العلماء الذائعي الصيت أبو بكر بن طفيل (581هـ / 1182م)، وأبو الوليد بن رشد [19] (595هـ / 1198م) اللذان مارسا على الفلسفة الوسيطية تأثيرا كبيرا . وعلى الرغم من أن هاته الدول البربرية كان قصدها هو خلق حضارة مغربية أصيلة وصحيحة فإنها لم تستطع التنصل من حضارة الأندلس وثقافتها .

2.2 . حركة التأليف

لا يمكن أن نتصدى لقضايا المكتبات دون النظر في أمر الكتاب الذي يعد لبنة جوهرية في هذا الصرح. فهاته المادة الأساس في التراث البشري (التي هي الكتاب) تزدهر حيث يزدهر الفكر. فهي مرتبطة في وجودها بالخزانات التي تحافظ عليها لتجعلها في متناول الجمهور والطلبة والباحثين.

فماذا عن الكتاب وحركة التأليف ودورها في إغناء المكتبة في المغرب أثناء هاته الفترة؟

من الطبيعي أن يترجم نشاط الحركة الفكرية في مجتمع معين بوفرة في تأليف الكتب المرتبطة بكل العلوم المدرسة في هذا المجتمع. فقد عرفت هاته الفترة التي نحن بصدد دراستها استقرارا سياسيا كبيرا،

---

17 . المراكشي، المعجب، ص 97.

18 . ينظر المراكشي: المعجب، ص 208.

19 . ينحدر الفيلسوفان من الأندلس.

ترتب عنه ازدهار في العلوم والآداب. وأتاحت هاته الفترة أيضا ظهور عدد من الأدباء والعلماء الذين تشهد كتبهم المحفوظة في الخزانات المغربية على شهرتهم وصيتهم. فقد كان أغلب العلماء في عهد المرابطين سنيين تابعين لمذهب الإمام مالك.

إن المرابطين الذين كانوا في الواقع متشبثين بهذا المذهب اجتهدوا في ألا يؤولوا إلا إلى المؤلفات المرتبطة به. فقد حَمَلوا الناس على أن يتخلوا عن الكتب الأخرى بما فيها في بعض الأحيان القرآن والحديث الشريف، وبألا يغترفوا إلا من منابع هاته المدرسة. فقد كان يطلب من الفقهاء بل كان يتم إرغامهم على ألا يتدبروا ويشرحوا إلا المؤلفات الشرعية المرتبطة بالمذهب المالكي. وفيما يخص كتب الفلسفة وأصول الدين فما كان لها مكان في مكتبة المرابطين [20].

ويجب أن نذكر من ضمن العلماء المغاربة الذين تميز بهم هذا الزمان القاضي عياض (544هـ / 1149 م). فقد انتشرت مؤلفاته المتعددة التي توصلنا بأغلبها من مثل الشفاء [21] والمدارك [22]، ودرست بشكل واسع، وشرحت في المغرب منذ عصر المؤلف إلى يومنا هذا، إلا أن الانتشار الحقيقي للكتاب لم يحدث أساساً إلا في عهد دولة الموحدين. فهؤلاء الأخيرون كانوا يدرسون العلوم التي كانت مهجورة ومهملة أو مجهولة من طرف أسلافهم.

وظهرت، علاوة على العلوم الشرعية، علوم أخرى في المغرب هي التاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، وعلم الفلك، والتصوف. فنحن نذكر، فيما يخص الفقه والتفسير، على سبيل المثال: تفسير القرآن للمزدغي الفاسي (ت 655 هـ /1257م)، واختصار الموطأ لابن تومرت (524هـ /1129م)، والاستدراك

---

20. لقد كانت مجموعات الخزانة المغربية في عهد المرابطين مكونة أساسا من مؤلفات الفقه المالكي. ويذكرنا هذا الوضع بخزانة الفاطميين في القاهرة في القرن 4هـ / 10م التي كانت مجموعاتها مقتصرة تقريبا على الكتب ذات النزعة الشيعية.

21. ليست هناك تقريبا أي خزانة عامة أوخاصة في المغرب لا تضم نسخة أو العديد من النسخ من الشفا. فالخزانة الملكية في الرباط تضم أكثر من مائة نسخة من الشفاء لعياض وكلها محفوظة.

22. هو سجل بليوغرافي للأئمة المالكيين.

والإتمام لكتاب السهيلي المسمى بالتعريف والإبهام لابن فرتون السلمي الفاسي (ت620هـ / 1261م). ونذكر فيما يخص أصول الفقه وأصول الدين كتابي الخليفة ابن تومرت: أعز ما يطلب، والعقيدة المرشدة، ونذكر فيما يخص مؤلفات السيرة برنامج [23] عبد الرحمن بن ملجوم (ت 603هـ/1206م)، وفهرست أبي الصبر أيوب (ت 628هـ/1207م) ، وبرنامج ابن القطان الفاسي (ت 628 / 1230م) وبرنامج ابن فرتون، والذيل على الصلات لابن بشكوال، وفي التاريخ والجغرافية أخبار المهدي للبيدق الصنهاجي، ونزهة المشتاق للإدريسي (ت 560 / 1164م). ونذكر فيما يخص النحو والفلسفة المؤلف الكبير لأبي موسى الجزولي الذي عنوانه المقدمة. ونذكر فيما يخص علم التنجيم «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات» لأبي حسن علي بن عمر المراكشي (ت 627 / 1129م). ونلاحظ فيما يخص التصوف [24] أن أكبر زعمائه في المغرب أولئك الذين استمروا أكثر شعبية من أوليائه [25]، قد عاشوا تقريبا في عهد الموحدين، وماتوا في نهاية القرن 6 هـ / 12م. فنحن مدينون إلى هاته الفترة بالمؤلف الأول الكبير في التصوف: التشوف [26] لابن الزيات التادلي (ت 627 هـ 1229م) ففي هذا المؤلف ترجم التادلي معظم المتصوفة الكبار في القرن 6 هـ / 12م. وفيما يخص مؤلفات الأدب وصلنا العديد من المؤلفات في الشعر المرتبطة بهاته الفترة، إذ ظهرت في المغرب قصائد المدح المرتبطة بمولد رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم. ونذكر على سبيل المثال الدر المنظم في مولد الرسول المعظم [27] لأحمد العزفي اللخمي المتوفى سنة 633 هـ، والتنوير في مولد السراج المنير لعمر بن دحية الكلبي (ت633 هـ / 1235م). ونذكر في الطب مؤلف الشريف الإدريسي (ت560هـ /1164م) الذي عنوانه: الكتاب الجامع لصفات أشتات النبات [28]. وفيما يتعلق بالفلسفة، كان البلاط

23. كلمة برنامج التي هي من أصل فارسي تسمية أعطاها الأندلسيون لمؤلفات التراجم. وعوض كلمة "برنامج" استعمل المغاربة "فهرست" التي هي بدورها من أصل فارسي.
24. لقد ساعد المرابطون على تطور الصوفية التي وجدت في المغرب، ولكنها لم تستطع أبدا الازدهار.
25. سيدي حرازم ومولاي بوعزة 1176 وأبو مدين بن مشيش وبلعباس 1188 وآخرون.
26. مؤلف حققه A. Faure في 1958 وأعاد تحقيقه أحمد التوفيق في سنة 1984م،

27. توجد نسخة من هذا المؤلف محفوظة في الخزانة الملكية في الرباط.
28. كان هذا الكتاب هو المرجع الوحيد الذي كان يرجع إليه ابن البيطار.

الموحدي يشجع على هذا العلم . وكان الخليفة يوسف بن يعقوب شغوفا به. فقد قام العالم ابن رشد بشرح وتلخيص آثار أرسطو بأمر من هذا الخليفة. قال المراكشي : (. . . وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه، ويقول لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه، قال أبو الوليد فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس)[29] . وابن رشد هذا هو الذي دعاه الأمير الموحدي أبو الربيع لشرح ألفية ابن سينا .

وكان الخلفاء الموحدون، علاوة على هاته الوفرة في التأليف، يحثون الكتاب على تأليف مؤلفات أخرى تدافع عن مبادئ دولتهم وترد على المكتوبات التي تنال منهم. وهكذا فقد دعا الخليفة عبد المومن الكتّاب الذين كانوا في خدمة البلاط إلى كتابة كتب ترد على الكاتب القرطبي أبي الحسين عبد الملك بن إياس الذي كانت كتاباته النقدية تهدف إلى النيل من شرائع الدولة الموحدية ومبادئها[30] .

وإذا كان المغرب في هاته الفترة قد عرف نشاطا أدبيا كبيرا فذلك يرجع في نظرنا إلى عاملين أساسين ؛ هما ازدهار الوراقة، ووفرة الورق. وترتكز الوراقة على نساخة الكتب، وتصحيحها ، وتجليدها ، وبالجملة كل ما يرتبط بصناعة الكتاب[31] ، وهي مهنة قام بها العديد من العلماء مثل السقر الذي كان كاتبا وقيما على الخزانة الملكية الموحدية. وفيما يتعلق بالورق فقد كان يوجد في المغرب بوفرة، في اللحظة

---

29. المراكشي : المعجب، ص 147قال المؤلف: «وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع. . .» ص 148.

30. "يوسف أشباخ" "تاريخ الأندلس"، Histoire de l'Andalousie ص 305.

31. ينظر ضمن الجزء الثاني، فصلنا عن الوراقة.

التي لم تكن دول أخرى قد توفرت عليه بعد [32]. وظهرت في فاس القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي المئات من مصانع الورق. وبناء على هذا النشاط الثقافي وهاته الوفرة في التأليف يبدو من الطبيعي أن نفترض وجود عدد من المكتبات. فماذا عن هاته المؤسسات في هاته الفترة؟ وما هي مختلف نماذج المكتبات التي يمكن أن نميز بينها انطلاقا من النصوص النادرة التي توصلنا بها؟

II – خزانات الكتب.

كتب "كاترمير" Quatremère بأن حب الآداب يفضي بنا دائما إلى حب الكتب [33]. إنه الواقع الذي عاشه المغاربة؛ خلفاء، وأمراء، وأعيان وعلماء. فشغفهم بالآداب والعلوم هو الذي كان وراء هاته الوفرة في الكتب لحظة ازدهار المكتبة المغربية. لقد لاحظنا، عبر التاريخ الثقافي للمغرب، أن الخلفاء كانوا يعرفون دائما طرق الحصول على الكتب الهامة التي يَحْتَاجُونَهَا. فالوسائل الموظفة للحصول على الكتب المكلفة كثيرا لم يكن لها مبرر إلا هذا الحب للآداب والعلوم الذي تحدث عنه "كاترمير". فقد نزع هذا الحماس وهذا الشغف بالناس إلى الحفاظ على الكتاب، ومن هنا جاء تأسيس المكتبة. وسيقودنا التحليل الشامل والمعمق للمكتبات المغربية في هاته الفترة حتما إلى التمييز بين ثلاثة أنواع من خزانات الكتب: أولا الخزانة الملكية، وبعد ذلك الخزانات الشخصية أو الخاصة، وأخيرا الخزانات العمومية.

1. خزانة الكتب الملكية

1.1. الأصل والتأسيس

خزانة الكتب الملكية [34] هي خزانة شخصية أسسها خليفة أو ملك. وهي تختلف عن الخزانات الخاصة بغنى مجموعاتها التي تتشكل في غالب الأحيان من الكتب النادرة، والفريدة، والنفيسة.

---

32 . سنرجع فيما بعد إلى هذا الموضوع الذي أشرنا إليه هنا.

33 . "Quatremère" Mémoire sur le goût des livres chez les orientaux في "المجلة الاسيوية"، 1838، ص 38.

34 . كان يجب أن ندمج الخزانة الملكية في إطار الخزانات الخاصة. ولكننا احترمنا التقليد المتبع في مؤلفات الحضارة العربية التي وبتناولها لقضايا الخزانات كانت تتحدث أولا عن المجموعات الملكية. فهاته الأخيرة كانت دائما أكثر غنى وأحسن تزودا من الخزانات الخاصة.

1.1.1 . خزانة الكتب الملكية عند المرابطين

رأينا في الفصل السابق أن المكتبة الأولى والوحيدة التي عرفها المؤرخون هي خزانة كتب الخليفة الإدريسي «يحيى الرابع» . وكان علينا أن ننتظر حتى زمن المرابطين لكي يتحدث لنا التاريخ من جديد عن خزانة كتب من هذا النوع. إن التاريخ في الواقع لم يقدم لنا ما يكفي من المعلومات عن أصلها وتأسيسها . وفي انعدام المعلومات بهذا الصدد يخبرنا ابن خلدون بأخبار غامضة وسطحية حينما يروي لنا تاريخ مصحف الخليفة عثمان في كتابه الشهير : العبر . (. . . منها مصحف عثمان بن عفان يزعمون أنه أخذ المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته «بغمراسن» ، وأنه ما كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ثم إلى خزائن الموحدين من خزائن لمتونة وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين. . .)[35] . إلا أننا قد عرفنا من خلال صاحب "الحلل" [36] أن ابن تاشفين الذي اشتهر بكونه مؤسس هاته الخزانة قد يكون حمل معه إلى المغرب أثناء رحلاته الكثيرة إلى إسبانيا العديد من الكتب ذات الخطوط المشرقية والأندلسية أساسا وإن لم يكن ابن تاشفين على جانب من الثقافة [37] . ويبدو أن الكتب الأولى لهاته المكتبة قد تكونت أولا من خزانة ملوك الطوائف الذين، وبعد أن صنعوا في إسبانيا مجالس هائلة، وحف بهم الشعراء والأدباء، تنافسوا في تأسيس خزانات كتب قد تكون انتهت بعد انقطاعهم إلى خزانات المرابطين. وتكونت في جانب منها من مجموعة خزانة الملوك الأمويين في إسبانيا التي تفرقت بعد غيابهم في القرن الخامس أثناء غزو البرابرة للأندلس. ويبدو جليا أن عددا من المخطوطات التي كانت في حوزة الخليفة الأموي حكم الثاني (ت 364هـ) قد انتهت إلى خزانة ابن تاشفين [38] . وفيما يتعلق بإغناء هاته المؤسسة بعد ابن تاشفين، فنحن نملك وثائق توضح المجهودات التي بذلها خلفاؤه، وخاصة ابنه علي، وذلك هدفا في جمع نفائس الكتب . فقد تربع علي بن

35 . ابن خلدون: العبر .ط: بولاق، ج 7، ص 83.

36 . الحلل الموشية: ينظر: رحلة «شبروفيار» ابن تاشفين إلى الأندلس.

37 . حسب "شابروفيار" فكر ابن تاشفين في شارلمان"تاريخ المغرب" Histoire du Maroc ص 174.

38 . مثلا: مصحف عثمان. فالخزانات المغربية قد بقيت محتفظة على مخطوطات كان يملكها الخلفاء الأمويون.

يوسف بن تاشفين على العرش انطلاقا من بداية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وهي الفترة التي لوحظت فيها الانطلاقة الحقيقية لرقي الخزانة في المغرب. وواصل هذا الخليفة عمل أبيه اعتبارا لثقافته الجيدة وتجميعه للعلماء وزود الخزانة بروائع المخطوطات التي بقي البعض منها محفوظا على مر القرون.

لقد جاء علي بن يوسف بن تاشفين بالكتب، حسب صاحب المعجب، من كل أقاليم الأندلس هدفا في جمع مكتبة عديمة النظير [39]. ومن بين المخطوطات الموجودة في خزانة القرويين والخزانة العامة بالرباط هناك نسخ من مؤلف أنجز خصيصا برسم خزانة هذا الخليفة المرابطي [40]. ونعثر في القرويين على مصدر المدرسة المالكية الموطأ مكتوبا على الرق (رق الغزال) في عدة مجلدات وحاملا اسم علي بن يوسف بن تاشفين. ففي الجزء الحادي عشر نقرأ التقييدة التالية مكتوبة بخط الناسخ (مما كتبه لخزانة أمير المسلمين ،ناصر الدين علي بن يوسف أدام الله تأييده ونصره يحيى بن محمد بن عباد اللخمي. وبآخر الجزء المذكور. وكان الفراغ منه بحضرة مراكش حرسها الله في شعبان من سنة اثنتين وخمسمائة. وفي آخر الجزء الحادي والثلاثين. وكتب بمدينة مراكش حرسها الله سنة ثلاث وخمسمائة، وفي بعض أجزائها أيضا وهو الثالث والثلاثون بخط ناسخه المذكور ما نصه :تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على محمد وآله وسلم وكتب بمدينة مراكش حرسها الله سنة ثلاث وخمسمائة) . ويحمل الجزء الثالث والثلاثين نفس الصيغة الموجودة في الجزء الواحد والثلاثين [41]. وعموما فمجموعات هاته المؤسسة الملكية كانت مكونة في عمومها من كتب المذهب. فبلغ الفقهاء : مثقفو الدولة في هاته الأيام مبلغا عظيما (ورَدَّ «أمير المسلمين» أحكام البلاد إلى القضاة، وأسقط مادون الأحكام الشرعية،(. . .) وكان محبا في الفقهاء

---

39. المراكشي: المعجب، ص 170.

40. رقم مخطوط القرويين هو 605. ورقم مخطوط الرباط هو ك 2947.

41- الفاسي: الخزانة العلمية. ص 9 (ونلاحظ أن هاته المخطوطات قد حبسها الخليفة المريني أبو عنان على القرويين. وهذا يعني أن هاته المخطوطات قد سرت أولا من خزانات الموحدين قبل أن تسقط في أيدي المرينيين.

والعلماء والصلحاء مقربا لهم صادرا عن رأيهم مكرما لهم)[42] .ولهذا السبب فقد نفقت كتب المذهب وعمل بمقتضاها . وانتشرت هاته الكتب وكثرت عبر انتساخ عيون آثار المدرسة [43] .وكانت مؤلفات أصول الدين والفلسفة محظورة من هاته المؤسسة الملكية المرابطية. فهاته المؤلفات الأخيرة هي في نظرهم بدعة مشبوهة وحداثة دخيلة إلى الدين. إذ غالبا ما تكون نتائجهاموضع شك وتسوق إلى فساد العقيدة. وكل من كان يتعاطى العلوم الفلسفية التي ازدراها الفقهاء المقربون من الخليفة، اعتبر كافرا. وهكذا فحينما دخلت مؤلفات الغزالي [44] إلى الغرب فإن المرابطين أحرقوها وهددوا كل من وجدت عنده بعض الأجزاء منها بعقوبة الموت أو المصادرة لممتلكاته. وأخيرا نقول إن هاته الخزانة الملكية كانت هائلة ومزودة أساسا بالكتب والمصنفات المالكية. وعجل تفكك الامبراطورية المرابطية بتشتت الخزانة الملكية التي سنراها تنبعث من جديد في ظل بلاط الدولة الموحدية.

2.1.1 . خزانة الكتب الملكية على عهد الموحدين

على الرغم من أن خزانة الكتب الملكية عند المرابطين كانت في غاية الثراء والشهرة، فإنها بقيت دون خزانة الموحدين ويرجع ذلك إلى ازدهار الحركة الثقافية على عهد الدولة الجديدة. فالمؤسسة الملكية الجديدة ستكتسي شهرة تتعدى نطاق الامبراطورية، وستدفع المؤرخين المغاربة المعاصرين ومن سيأتي بعدهم إلى أن يولوها أهمية كبيرة ضمن مكتوباتهم. وقد اشتهر الخليفة عبد المومن [45] بكونه مؤسس هاته الخزانة، إلا أنها لم تزدهر إلا بوصول ابنه أبي يعقوب يوسف إلى الحكم وكان هذا الأخير شغوفا بالعلم وطلبه. فتميزه بالذكاء وبعد النظر قد نزع به بعد أن درس النحو واللغة إلى أن يهتم بالفلسفة. وجمعت

42- ابن أبي زرع: روض القرطاس ج 2 : ص 37-38.

43- هاته الكتب هي بالأساس مؤلفات منتسخة عن الأصول ومتعلقة بالمالكية.

44- خاصة: إحياء علوم الدين لأن الغزالي أنكر فيه تطفل الفقهاء على السياسة.

45- مختصر الأغذية، مخطوط لابن زهر مبتور الأول محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 1/3477 . أنجز لأجل الخليفة عبد المومن.

بأمره في فروع العلوم الفلسفية كتب في حجم مكتبة حكم الثاني في قرطبة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، [46] فقد قدر صاحب نفح الطيب المؤلفات العلمية وحدها باثني عشر ألف كتاب [47]. وكانت مخطوطات الفلسفة بشكل خاص قد جمعت في أعداد هامة في هاته الخزانة. ولم يكن يوسف يتراجع أمام أي ثمن للحصول على الكتب التي كان يحتاج إليها. فهو لم يخصص فقط أموالا طائلة لشراء المخطوطات، بل إنه كان يلجأ في غالب الأحيان إلى مصادرة المؤلفات التي كان يرغب فيها [48]. أخبرنا صاحب المعجب بحكاية بهذا الصدد، قال أخبرني أبو محمد عبد الله الشذوني، أحد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجوم [49] «... قال كنت في شبيبتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صنعة الأحكام من رجل كان عندنا بمدينة إشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس فكان يعيرني إياها في غرائر أحمل غرارة وأجئ بغرارة من كثرتها عنده فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسر إلي أن خبرها أنهى إلى أمير المؤمنين فأرسل إلي داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي أرسل كافورا الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار وألا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها فأخبرت بذلك وأنا في الديوان فظننته يريد استصفاء أموالي فركبت وما معي عقلي حتى أتيت منزلي فإذا الخصي كافور الحاجب على الباب والكتب تخرج إليه فلما رآني وتبين ذعري قال لي لا بأس عليك وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم علي وأنه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال لي سل أهل بيتك هل راعهم أحد أو نقصهم شيئا من متاعهم، فسألتهم فقالوا لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيئا جاء أبو المسك حتى استأذن علينا

46- كانت خزانة الخليفة الأموي الحكم الثاني (ت 366) تضم حسب ابن خلدون أربع مائة ألف مجلد.

47- المقري: نفح الطيب، ج 1، ص 184. يعتبر المقري يوسف المؤسس الحقيقي لهاته الخزانة.

48- يذكرنا ذلك ب "ريشليوه" الذي كان يستعمل في غالب الأحيان القوة لمصادرة الكتب التي كان يحتاج إليها. وكانت خزانته مشتهرة بكونها واحدة من أغنى الخزانات في أوربا فقد أهدى أحد ورثته بعد موته مجموعاته إلى الصوربون. ومع ذلك فقد أدمج جزء منها في الخزانة الملكية اليوم. "الخزانة الوطنية"، ينظر "سفندال" "تاريخ الكتاب"، ص 180.

49. كان الخليفة يوسف يعرف جيدا هاته العلوم.

ثلاث مرات فأخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع. وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه» [50]

وتنضاف إلى الاقتناءات والمصادرات الهدايا القيمة التي كان الخلفاء الموحدون يتسلمونها برسم خزاناتهم العلمية [51]. وهكذا يخبرنا صاحب الاستقصا أن الخليفة الأيوبي صلاح الدين أهدى إلى الخزانة الملكية الموحدية مصحفين [52]. وأهدى الفيلسوف ابن رشد إلى نفس الخزانة مؤلفه عن الحيوانات. وألفت في عهد المرتضى 625هـ/ 1266م (آخر خليفة في الدولة الموحدية) عدد من المؤلفات برسم المجموعة الملكية. وذهب المقري إلى أن أحد الأدباء ألف كتابا في الموشح، وأهداه إلى الخليفة [53].

وما زالت بحوزتنا في خزانة القرويين بعض الكتب التي كانت تشكل مجموعة الخزانة الملكية في مراكش. نذكر على سبيل المثال : مؤلف حسن الرهوني المسمى نظم الدرر [54]، وهي قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في ستة آلاف وخمسمائة بيت . ونظم الرهوني أيضا[55] مؤلفين للعالم ابن القطان، هذا الأخير الذي ألفهما بإشارة من الخليفة عمر المرتضى [56]. ونذكر أيضا مؤلف ابن القطان المسمى : الروضة الباهية [57]، فالناسخ قد أشار في الورقة الأولى من هذا المخطوط إلى أن الخليفة المرتضى طلب منه أن ينتسخ عشر نسخ من هذا الكتاب، وكان ذلك في يوم الجمعة من شهر ربيع الأول سنة 663 هـ بمراكش. وظهرت مسألة أخرى أسهمت في إثراء الخزانة الملكية في نهاية الدولة الموحدية، ويتعلق الأمر بما

---

50. المراكشي: المعجب، ص 144-145. وباعتبار أهمية هاته الحكاية فإننا تمسكنا باستعادتها كلها.

51. وهكذا فإن هاته الخزانة قد ذكرت في الديباج لابن فرحون، ص 49.

52. الناصري: الاستقصا، ج 2، ص 182. فهذان المصحفان قد كتبا بخط المنسوب، ط 1954. إن هاته العبارة "الخط المنسوب" تشير إلى نموذج من الخط تتميز حروفه بالتناسب: تنظر، Arabica، يناير 1956 ص 104.

53. المقري: أزهار الرياض، ج 2 ص 230.

54. مخطوط محفوظ في القرويين رقم 40/291، وحبسه الخليفة السعدي المنصور.

55. كتاب الإحكام والإتمام لكتاب الإعلام، محفوظ في القرويين في نسختين محفوظتين تحت الأرقام : 40/243 و 40/249.

56- خصص الرهوني الأبيات الأخيرة لمدح الخليفة، وأشار فيها أيضا إلى المكان (مراكش)، وتاريخ إنجاز المخطوط 1262/661م.

57- مخطوط محفوظ في القرويين تحت رقم 40/292.

ينتسخه الخلفاء أنفسهم من مكتوبات. فنحن نجد في كتب التاريخ أن آخر خليفة موحدي عمر المرتضى كان موسوعيا. فقد كان يحب أن ينتسخ بيده ما يجدر بمكتبة القصر من كتب. ومن ضمن المؤلفات التي انتسخها بيده نسخة من موطأ مالك في سفرين. ونلاحظ في الصفحة الأولى الملحوظة التالية: « وتولى كتبهما بخط يمناه الكريمة المباركة سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المومن بالله تعالى المرتضى، وكان فراغه منه في التاريخ المرتسم فوق هذا بخطه المبارك نفعه الله تعالى بذلك. في السابع عشر من شعبان المكرم عام تسعة وخمسين وستمائة 659». [58] ورسم هذا الخليفة أيضا مصحفا في عشرة أسفار، ووضعه في مكتبه. وحينما شيد المرتضى في مراكش مسجد السقاية [59] فإنه حبس فيه هذا المصحف على الراغبين في تلاوة وترتيل القرآن الكريم ابتغاء وجه الله العظيم، والتماس أجزل الثواب بدار النعيم [60]. فقد تكونت هاته الخزانة الملكية إذن واغتنت بواسطة النساخة وبواسطة المؤلفات الجديدة التي ألفت خصيصا للخلفاء، وبواسطة مصادرة المكتبات الخاصة، وبواسطة الهدايا القيمة التي كانت تقدم لأمراء المؤمنين، وأخيرا بواسطة اقتناء الكتب الذي كان يتم بشكل منتظم جدا، وهكذا فقد أصبحت هاته المكتبة عن طريق الجمع بين كل هاته الوسائل مكتبة ملكية جديرة بهذا الإسم.

2.1. خزانة الكتب الملكية: التنظيم والمميزات

1.2.1. التنظيم

لم يحفظ لنا التاريخ معلومات عن التنظيم الإداري لخزانة الكتب الملكية. فنحن نفتقد إلى هاته المعلومات المرتبطة بالفهرسة والإدارة والتسيير. ولم تصل إلينا إلا بعض التفاصيل عن وظيفة المحافظ وتعيينه

58- الفاسي: الخزانة العلمية ص 16.

59. مسجد السقاية ليس شيئا آخر إلا مسجدا بن يوسف الثاني الذي أسسه علي بن يوسف بن تاشفين في بداية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. ينظر: "دوفردان" Deverdum Marrakech des origines à 1912 المجلد 1، 100 و 276.

60. هناك أربعة مجلدات من هذا المصحف القيم معروفة محفوظة بشكل جيد في الخزانة العمومية لمسجد بن يوسف في مراكش. والمجلد السابع معروض في الخزانة الكبيرة للمتحف البريطاني في لندن. ويوجد المجلد الثامن محفوظا في خزانة إيطالية. واكتشف مجلد آخر ربما هو السادس في تركيا. فقد أهداه "أتترك" إلى ضابط فرنسي. وباعه حفيد هذا الأخير منذ قريب في فرنسا بالمزاد

على رأس الخزانة. أما فيما يخص العناصر الأخرى المتعلقة بالتنظيم، فإنه إذا كانت خزائن الكتب الأندلسية التي حاكتها خزائن المغرب منظمة[61]، فستكون مكاتب المغرب مصنفة ومفهرسة، وفوق هذا فالمعلومات القليلة التي استطعنا الحصول عليها بخصوص تأسيس وتكوين مجموعات الخزانة الملكية الموحدية، من شأنها أن تجعلنا نعتقد بأن هاته المؤسسة كانت مصنفة ومنظمة. فنحن نعرف من خلال المقري أن جزءا من هاته الخزانة كان مخصصا فقط لمؤلفات مختلف الفروع العلمية التي بلغ عددها مائتي ألف مجلد. ويمكن أن نذهب إلى أن هناك رفوفا أخرى في نفس الخزانة كانت مخصصة لمعارف بشرية أخرى.

\ المحافظة على الكتب ومهمة المحافظ

كانت المكتبات العربية بشكل عام ومكتبات الغرب الإسلامي بشكل خاص كبيرة في العصر الوسيط. فقد كانت غابات واسعة يتعذر الدخول إليها بدون وجود المحافظين. فكيف يمكن الاختلاف إليها والاستفادة من ثرواتها بدون أن تكون منظمة؟ إن هذا هو السبب الذي من أجله كان الخلفاء المغاربة، على غرار من هم في مكانتهم في الشرق وفي الأندلس، يقومون بتعيين محافظين على رأس خزانات كتبهم. فقد سبق أن كانت مهمة المحافظ معروفة في العصر الوسيط. إذ كانت تعهد في أغلب الأحوال إلى أساطين الأدباء، والمتبحرين في العلم. إن هاته الموسوعية كانت ضرورية بالنسبة لهم للتسيير الجيد للإدارة، وتنظيم الكتب، وتصنيف المعرفة. وكان المحافظ يسمى صاحب المصاحف[62]. ويوجد اسم أول صاحب مصاحف عربي وصل إلينا في كتاب الأنساب للسمعاني؛ سعد، الذي كان يلقب بصاحب المصاحف، وكان مكتبيا للخليفة الأموي الوليد بن عبد الله[63].

---

61. يخبرنا ابن خلدون والمقري وآخرون أن الخزانة الملكية في قرطبة كانت مرفقة بأربع وأربعين فهرسة. ينظر العبرج 4، ص 146. وينظر أيضا نفح الطيب، ج 1 ص 184.

62. كان يسمى في الأندلس «صاحب الخزانة» يخبرنا ابن الأبار في التكملة ص 276 بخصوص ترجمة تليذالخصي بأن هذا الأخير كان خادما لحكم الثاني في قرطبة وصاحب الخزانة العلمية. وقد يكون القيمون المغاربة لقبوا بنفس اللقب في تلك الفترة.

63. يوسف العش: "دور الكتب العربية"، ص 18. إن كلمة مصحف التي ستشير فيما بعد إلى النص الكامل للقرآن بشكل حصري كانت تدل في هاته الفترة على الكتب المجلدة بشكل عام بصرف النظر عن معناها الأصلي المتعلق بالمصحف المجلد.

ونلاحظ أن عددا من علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي كانوا محافظين، ونذكر من صفوتهم مسكويه والتوحيدي فقد كانا صاحبي مصاحف في خزانة الأمير البويهي عضد الدولة، وخزانة العالم ابن العميد، وخزانة الأمير ابن عباد في فارس. ويحدثُ في بعض الأحيان أن تصبح مهمة المحافظ هاته وراثية. وهكذا فقد تم اختيار صاحب المصاحف في مسجد "المؤيدي" في القاهرة الذي تم تأسيسه في823 هـ / 1420م من أبناء صاحب المصاحف السابق البارزي[64] وكان هذا الإبن ثقة.

فماذا عن هاته الوظيفة في المغرب؟

كانت تعهد مهمة صاحب المصاحف في هذا البلد كما هو الأمر في الأقطار المسلمة الأخرى إلى أعلام ينتمون إلى أسر كبرى مشهورة بشرفها وفضائلها. وكانت تعهد أيضا إلى العلماء البارزين، والموسوعيين، والقضاة، وكانت تعهد إلى وزير في بعض الأحيان. اننا نفتقد إلى المعلومات المتعلقة بهاته المهمة بخصوص الخزانة الملكية المرابطية، ولكننا مقتنعون بأن أصحاب المصاحف كانوا يختارون بدون أدنى شك من الفقهاء. فقد كان لهاته الطبقة من الرجال أهمية كبيرة على عهد هاته الدولة.

وكان أمير المسلمين مقربا للفقهاء العارفين بعلم الفروع حسب مذهب مالك صادرا عن رأيهم. فكان من الطبيعي إذن أن تعهد إلى أحد هؤلاء الفقهاء مهمة هاته المكتبة العتيقة. أما فيما يخص المكتبة الملكية الموحدية، فقد احتفظ لنا التاريخ، لحسن الحظ بأسماء الأشخاص الذين أوكلت إليهم مهمة صاحب المصاحف. وهكذا تمت الإشارة في مقطع من الديباج لابن فرحون إلى اسم الشخص الذي اختاره الخليفة الموحدي عبد المومن لخدمة الخزانة. ويتعلق الأمر بالإمام أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر السرقسطي[65]، قاضي الدولة، ونحن نعرف القيمة الإدارية العالية التي كانت عليها وظيفة القاضي

---

64. يوسف العش: "دور الكتب العربية" ص 346 . فقد تمت ملاحظة هذا الأمر أيضا في أوربا. ففي فرنسا كانت مهمة الخزانة الملكية تنتقل في بعض الأسر المحظوظة حتى إنه يحدث في بعض الأحيان أن هاته المهمة تعهد إلى طفل في السابع من عمره. القس " دولوڤوا" : "المكتبات العمومية والمكتبة الملكية""مجلة العالمين"(R.D.D.M). ص 1051 سنة 1846.

65. كان قاضيا على التوالي في "قرطبة" وفي بلنسية ، وفي الأندلس وفي مراكش عاصمة الامبراطورية.

في تلك الفترة. (. . . وتولى أحكام مراكش، والصلاة بمسجد هامدة، ثم أحكام بلنسية، فكان بها قاضيا . ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب عبد المومن ألزمه خدمة الخزانة العالية، وكانت عندهم من الخطط الجليلة، التي لا يعين لها إلا علية أهل العلم وأكابرهم) .[66] ومن الملاحظ أن الخليفة الموحدي قد احترم العادة المشرقية في اختيار هذا العالم. فابن الصقر علاوة على مميزاته المهنية وعبقريته ، كان عارفا بالكتب ولوعاً بها . روى مترجموه أنه كان قد جمع خزانة كتب في مراكش لم يعرف لها مثيل[67] ، حتى إنه قد مارس مهنة الوراقة[68] ، في حانوت في فاس قبل أن يتبوأ وظائف القاضي وقيم الخزانة[69] ، ويظهر لنا هذا الأمر إلى أي مدى كان هذا الرجل مهيأ لتحمل مهام المحافظ، وهي المهمة التي أداها بقوة وحزم ونشاط. وقد عرفنا اسم الشخص الثاني الذي تم اختياره لمهمة محافظ الخزانة الملكية الموحدية من خلال نص قدمه لنا ابن عبد الملك في الذيل والتكملة. ويتعلق الأمر بالعالم والمحدث الكبير أبي الحسن علي بن القطان (ت 628هـ / 1230م) .[70]

لقد تعرضت الخزانة الملكية لنكبة الفوضى، وسرق جزء منها عقب الحروب الأهلية التي وقعت في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي بين الأمراء الموحدين. وأمر الخليفة العادل لحظة استقراره في مراكش بأن يتكلف علي بإعادة تنظيم ما تبقى من الخزانة العتيقة. فقد كان الخليفة فكر في وزيره علي أبي الحسن ابن جامع. وعلى إثر ما وقع في الأمر من خلاف فقد تحول إلى علي أبي الحسن بن القطان. ويبدو أن العادل الذي أراد أن يتكلف وزيره بكتبه لم يقدر كثيرا تعيين ابن القطان على رأس

66 . ابن فرحون: الديباج، ج1 ص 213.

67 . ينظر الباب الخاص بالخزائن الخاصة.

68 . ابن القاضي: الجذوة، ص 262. تنظر ترجمته في الديباج لابن فرحون والذيل والتكملة لابن عبد الملك، وفي الإحاطة، لابن الخطيب وفي تكملة ابن الأبار.

69 . لقد كان، حسب ما ذهب إليه ابن فرحون، أكبرخطاط في زمانه، ينظر ابن فرحون: الديباج، ج 1 ص 211.

70 . بخصوص ترجمة ابن القطان: ينظر الذيل والتكملة ج 8 ص 165. والتكملة رقم 1920 ، وجذوة الاقتباس رقم 517 والصلة رقم 268، وصلة الصلة ص 131 ، ونيل الابتهاج ص 200 ، ورحلة العبدري ص 140 ، وشذرات الذهب ج 5 ص 128 ، وتذكرة الحفاظ ج 4 ص 1704 . وطبقات الحفاظ ص 474، ونفح الطيب ج 3 ص 180 والإعلام ص 75 ط 198.

خزانته. ولعل ما يظهر من هذا المقطع لابن عبد الملك هو أن مهمة المحافظ كانت في بعض الأحيان مساوية لمهمة الوزير.[71]

ويظهر أيضا من مختلف الوثائق التي اطلعنا عليها أن المكتبيين والنساخ الذين كانوا في خدمة القصر قد حثوا الخلفاء المغاربة على بناء منتسخات ملحقة بالخزانة، وكان النساخ يمارسون فيها عملهم اليومي والفني بإخلاص.

2.2.1. المميزات

على الرغم من أننا لانعرف الكثير عن الخزانة الملكية فنحن يمكن أن نستخرج انطلاقا من المعلومات التي بين أيدينا خصيصتين متعلقتين بهاته المؤسسات: خاصيتها شبه العمومية، والكتابة على بواباتها.

\ خاصيتها شبه العمومية

اشتهر الخلفاء المغاربة بكونهم جمعوا في خزاناتهم عددا كبيرا من الكتب المنحدرة من كل أنحاء الامبراطورية الإسلامية. وكانت هاته المجموعات تضم في غالب الأحيان مؤلفات نادرة وقيمة. وباقتناع هؤلاء الخلفاء بأن خزاناتهم التي كانت على جانب من الثراء والأهمية يمكن أن تصلح مركزا للبحث، فإنهم قد فتحوها أمام العلماء والأدباء. وهكذا فقد كان العلماء ومثقفو البلاط يأتون للاستفادة من هاته الثروة وليكملوا عملهم بدقة كعلماء كبار، وشراح، ومجمعين، وكتاب. وإذا أردنا أن نصف هاته المؤسسات التي هي الخزانات العامة، فإننا سنقول مع يوسف العش إن لها على كل حال طابعا شبه عمومي.[72]

---

71. الفاسي: الخزانة العلمية، ص 68.

72. يوسف العش: "دور الكتب العربية"، ص 334.

\ الكتابة على بوابة المكتبات.

إنه تقليد قديم، وليس ظاهرة تختص بها الخزانة الملكية في المغرب. فنحن نجد في التاريخ أن الملك المصري رمسيس كتب على بوابة الخزانة «دواء الروح». [73] وشيد الملك "أزيما ندياس" في قصره في "ثيبا" خزانة واسعة كتب في مد خلها هذا الشعار الفلسفي «صيدلية الروح». [74] وقد وجدت هاته العادة [75] التي كان يجهلها المرابطون عند أتباعهم الموحدين. فقد كان هؤلاء الأخيرون ينحتون في مقدمات خزاناتهم إما آية قرآنية، وفي غالب الأحيان "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو بيتا شعريا كما هو الأمر عند الأمير الموحدي أبي الربيع الموحدي الذي أمر بكتابة بيتين كتبهما هو بنفسه على بوابة خزانته (السريع):

ارغـب إلى الرحــــمن يا من رأى خطي أن يعــفــو عن كــاتبــهْ

يـوم يـقــــــــول الـلـه أيـن الـذي خطتــــه يمـناك ألافـــأت بهْ [76]

2.خزانات الكتب الخاصة

1.2. الأصل و التأسيس

خزانة الكتب الخاصة هي مجموعة شخصية أسسها عالم، أو خليفة، أو أحد الأعيان، أو رجل عاشق للكتب. فقد كان يجمع المكتبات الخاصة في العصور القديمة الفلاسفة أو العلماء سواء في اليونان أو عند الرومان. وقد يكون أرسطو حسب ما ذهب إليه "سترابون"هو أول من جمع مجموعة خاصة [77].

---

73. "كان" Bibliothèque et humanisme J.cain، ص 6.

74. Revue des deux mondes :1846 ص 1406.

75. لقد كانت هاته العادة معروفة أيضا من طرف العرب. يخبرنا ابن الفوطي أن الخليفة العباسي المعتصم كان قد شيد خزانة واسعة وكتب على حيطانها أشعارا في مدح الملك وخزانته: تنظر: الحوادث الجامعة، ص 184.

76. ينظر ديوان أبي الربيع، ط: معهد مولاي الحسن تطوان.

77. "بنيو" Manuel bibliographique : G. Peignot، ص 9.

وكان "سسيرون" Cicéron الذي جمع ثروة عن طريق الفلسفة قد أسس مجموعات ثرية في كل منزل من منازله الأربعة عشر الموجودة في الريف [78]. ويخبرنا المسعودي، في العصر الوسيط الإسلامي أن معاوية مؤسس الدولة الأموية المتوفى سنة 60 هـ / 679 م كان يتوفر على خزانة خاصة، وكان يتصفح فهارسها في جنح الليل[79]. إلا أن أول خزانة كتب خاصة بمعناها الصحيح كانت هي الخزانة التي جمعها حفيده ، خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة 85هـ / 704م. وفي الأندلس يحتفظ لنا التاريخ بأسماء عدد من العلماء الذين كانوا يمتلكون خزانات كتب خاصة، من أهمها وأشهرها خزانة الأديب الأندلسي الكبير أبي المطرِّف المتوفى سنة 658هـ / 1260 م. وكانت النساء كذلك يجمعن خزانات كتب في مثل أهمية خزانات الرجال. يخبرنا ابن بشكوال أن عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (ت 400هـ / 1009م) كانت تمتلك خزانة علمية كبيرة.[80]

وفيما يخص المجموعات الخاصة المنتمية إلى العلماء المغاربة في تلك الفترة، فيجب علينا أن نتصفح كتب التاريخ والحضارة، وخاصة المجاميع البيليوغرافية بقصد جمع أسماء مالكيها. فكل عالم وكل كاتب كان قد جمع لنفسه مجموعة من الكتب، وكان شراء هاته المجموعة في حجم أهميته العلمية. وذكر صاحب التكملة مكتبة عبد الرحمن بن الملجوم (ت 604هـ / 1207م) التي انحدرت من مكتبة أبيه عيسى الذي كان هاويا للدواوين الشعرية القديمة [81]. وأغناها ابن الملجوم بعدد من المؤلفات التي كان يمتلكها [82] شيخه محمد الخزرجي الجياني. وذكر نفس المؤلف خزانة أخرى خاصة، ونعني بها مكتبة الشيخ عبد الرحمن بن يوسف بن الملجوم (ت 605هـ / 1208م) الذي هو من عائلة السابق، وزودها بمؤلفات الأدب

78. les bibliothèques publiques في مجلة les deux mondes سنة 1846 ط 1047.

79. المسعودي: المروج. ج 2 ص 72، القاهرة، 1349.

80. ابن بشكوال، الصلة، ج 2 ص 654.

81. تعود عائلة بن الملجوم إلى فترة الأدارسة وخزانتهم واحدة من أقدم الخزانات الخاصة في المغرب.

82. ابن القاضي: الجذوة، ص 267 و 281.

ودواوين الشعر القديم، [83] وكانت أغنى مجموعة خاصة في تلك الفترة. وروى المؤرخون أنهم رأوا صحائف كتبه غير المجلدة والمخرمة تباع في فاس بثمن ستة آلاف دينار[84]. ونذكر أيضا مكتبة محمد بن يحيى المسوفي حاكم فاس (ت 609هـ / 1212م) التي كانت على جانب من الأهمية [85]. وكان الإمام والعالم محمد بن عيسى الموسائي المتوفى سنة 639هـ / 1241م يتوفركذلك على مكتبة تحتوي على عدد هائل من الكتب.[86]

ونذكر أيضا مكتبة المؤرخ محمد بن أحمد السباعي المراكشي الملقب بابن الطراوة (ت 659هـ 1260 م)، وتتميز هاته المكتبة بمجموعة نسخها المأخوذة عن الأصول التي لم يتوقف مالكها أبدا عن إثرائها. ويخبرنا صاحب الإعلام أن هذا العالم المؤرخ قد جمع العديد من النسخ الأصلية إضافة إلى عدد من المخطوطات التي نسخها الشيوخ، وكبار المدرسين أو المكتوبة في محضره. فالعديد من المؤلفات تحمل تصحيحاته وشروحاته.[87]

إلا أن الخزانة الخاصة الشهيرة جدا في ذلك العصر كانت هي الخزانة التي جمعها العلامة وقاضي مراكش الكبير ابن الصقر المتوفى سنة 569هـ / 1173م [88] .فحينما ودع مدينة . بلنسية. التي كان فيها قاضيا للذهاب إلى مراكش، فإنه حمل معه خمسة أحمال من الكتب، وكانت مجموعته واحدة من أضخم المجموعات في العاصمة الموحدية [89].وذكر صاحب طبقات الأطباء الخزانة العلمية للطبيب عبد الله بن علي بن غلندو الأموي المتوفى سنة 581هـ / 1185م، وكان شاعرا وأحد أطباء الغرب الإسلامي الذائعي

83. ابن الأبار: التكملة ص 1652، تنظر أيضا الجذوة ص 253.

84. الذخيرة السنية، ص 45، ينظر أيضا المقري: نفح الطيب ج 2 ص 502.

85. المنوني: العلوم والآداب، ص 284.

86. نفسه، ينظر الذيل والتكملة ج 8 ص 510 ط 1984.

87. المراكشي: الإعلام ، ج 3 ص 148، ط 1936.

88. كان محافظا للخزانة الملكية عند الموحدين.

89. ابن فرحون : الديباج. ص 211ج 1 ص 1972.

الصيت وطبيباً خاصاً بالخليفة الأموي. جمع في مراكش مكتبة ضخمة تضم بشكل خاص مؤلفات العلوم والطب. ولاحظ مترجمه بأنه كان يكتب بخطين أندلسيين.[90]

وذكر المراكشي أخيرا في كتاب الإعلام المجموعة الخاصة لمحمد بن أحمد القيسي الرندي في مراكش. يقول إن هذا العالم لم يتوقف عن التماس المخطوطات التي كان شغوفا بها[91]. وتنضاف إلى هاته المجموعات الخاصة المحفوظة في المدن الكبرى لوسط المغرب خزانات أخرى موجودة في سوس في جنوب المغرب. ونذكر على سبيل المثال الخزانة "الكرسيفية" بأمانوز، لصاحبها شيخ المشايخ أبي يحيى أبي بكر بن النعمان المتوفى في جزولة سنة 685هـ / 1286م، وهو ينحدر من إسبانيا من عائلة يعود نسبها إلى الخليفة عثمان بن عفان. وكان يجلب المؤلفات من الأندلس، فقد اشترى منها عددا كبيرا لَحْظَةَ دخول الموحدين، وبقيت هاته الخزانة إلى القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي. وستتفرق وتغيب إلى الأبد بسبب الصراعات التي نشبت بين أحفاد هذا العالم. فقد حاول أحد أحفاده في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي أن يجمعها ولكن بدون جدوى. ولاحظ المختار السوسي بمعاينته لبعض مخطوطات هاته الخزانة أن أغلبها مكتوب بخطوط أندلسية ومصرية[92]. وتشير مؤلفات المختار وخاصة الجزء الثالث من كتاب "المعسول" و"من خلال جزولة"، إضافة إلى مجاميع أخرى في التراجم مثل التكملة لابن الأبار، والإعلام للمراكشي إلى عدد كبير من المكتبات الخاصة. ومن المؤكد أن التاريخ قد أهمل ذكر الكثير من الخزانات الأخرى أيضا[93]. فمما لا شك فيه أن حب العلم عند عرب الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس) كما هو الأمر عند شعوب أخرى، لم يكن دائما هو الحافز الوحيد الذي يبرر جمع هاته المكتبات. فما أكثر

---

90. ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء، ص 535 / 534، ط 1965، ينظر أيضا : "ليكلير" Histoire de la medecine arabe Leclerc، ج 2 ص96 ط 1980.

91. ابن إبراهيم المراكشي : الإعلام ج 4 ص 377.

92. المختار السوسي: المعسول، ج 3 ص 329.

93. وجب أن يكون علماء آخرون بدون أدنى شك قد توفروا على مجموعات خاصة هامة. ومن ضمنهم جعفر بن محمد بن عيسى، وهو فقيه وأديب وشاعر ينحدر من "ساناماريا" في الأندلس، وسيلتقي به ابن الملجوم في مراكش في سنة 545هـ. تنظر التكملة 283. وينحدر إبراهيم بن عبد الله اليابوري من بلنسية، وتوفي في سبتة سنة 636هـ تنظر التكملة ص 206.

ما قاد الافتخار والإعجاب بالنفس أحد الأعيان إلى أن يجمع في منزله كتبا فاخرة هي بالنسبة له شيء فاخر أكثر مما هي أداة لتحصيل المعارف المفيدة. ولم يكن من المألوف أن يهتم المالك دائما بمحتويات كتبه. يقول "كاترومير" «كان يتم التخلي عن المتين الراسخ لأجل الظريف المقبول. فقد كان يتم البحث عن المؤلف ليس لأنه مفيد ولكن لأنه جميل» [95]. وفي هذا الإطار يخبرنا المقري بقصة وقعت في قرطبة تستحق أن تذكر هنا لأنها يمكن أن تضيء لنا ما يمكن أن يكون قد حدث في المغرب، فالبلدان قد عاشا، كما نعلم، نفس التاريخ ونفس الحضارة. ويتعلق الأمر برجل مُقِلّ كان يتردد كل أسبوع إلى مقر البيع العمومي للكتب بهدف العثور على كتاب كان في أمس الحاجة إليه. فكان عليه أن ينتظر طويلا قبل أن يرمقه يوما في البيع بالمزاد. ونظرا لارتفاع الثمن بالمزاد بشكل كبير وتجاوزه لقيمة الكتاب، فإن هذا الرجل التمس من المنادي بأن يدله على الشخص الذي حرص على الحصول على هذا الكتاب. ويتعلق الأمر برجل يبدو عليه أنه غني جدا، وينتمي بدون أدنى شك إلى أسرة الأعيان. وحينما طلب منه تقديم البواعث التي حملته على الزيادة في ثمن الكتاب أجاب: (لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأحرجني، وحملني على أن قلت له نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك، يعطي الجوز من لا له أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلا...) [96].

ويجب أن نشير في النهاية إلى أن هاته المجموعات الخاصة تبقى ذات فائدة ثقافية واسعة في هاته الفترة بغض النظر عن البواعث التي كمنت وراءها.

---

94. لعل شكوى الفيلسوف اللاتيني "سينيك" من أن عددا من الجمعين لم يصلوا إلى المستوى الثقافي لعبيدهم لم تكن في عمومها بدون سبب.

95. "كاترومير" Quatremère Goût des livres chez les orientaux, ص 39.

96. المقري: نفح الطيب ج 2 ص 11.

2.2. خزانات الكتب الخاصة؛ التنظيم والمميزات.

لن نستطيع الحديث عما كانت عليه خزانات الكتب الخاصة في تنظيمها . فنحن لم نستطع أثناء أبحاثنا الحصول على أي فكرة متعلقة بهذا الأمر . أما فيما يتعلق بالمميزات فقد تمكنا من الوقوف بالخصائص التالية :

1.2.2. تشابه المجموعات.

نلاحظ من خلال ما ورد في مؤلفات التراجم تشابها فيما يتعلق بالكتب التي كانت تشكل هاته المجموعات الخاصة. إن هاته الأخيرة كانت مكونة في جزء كبير منها من مؤلفات الدين والأدب واللغة، ودواوين الشعر. ولكن كانت توجد أيضا بعض الخزانات التي كانت تتعدى ذلك إلى المؤلفات الفلسفية أو العلمية. فقد أخبرنا صاحب المعجب أن خزانة العالم المراني التي صادرها الخليفة الموحدي يوسف أبو يعقوب كانت تضم مجموعة هامة من كتب الفلسفة التي كثيرا ما كان هذا الخليفة شغوفا بها[97] . ويخبرنا ابن أبي أصيبعة أن الطبيب ابن غلندو كان يتوفر على مجموعة قد تكون تضم بدون أدنى شك مؤلفات في العلوم والطب.

2.2.2. الانفتاح على الجمهور

كانت خزانات الكتب الخاصة في المغرب، على غرار خزانات العصر الوسيط والأندلس، منفتحة على جمهور [98] منحصر ومحدود . فلم يكن يستطيع الدخول إلى هاته المكتبات إلا العلماء وأصدقاء أصحاب المكتبات الراغبين في التحصيل، والاستفادة من ثرائها وحدهم. ويخبرنا صاحب كتاب "بعض فقهاء مالقة" أن الخزانة الخاصة للمسوفي كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة للشيخ أبي محمد [99] .

97. المراكشي: المعجب، ص 206 .

98. سبق أن كانت هاته الظاهرة معروفة في روما : فقد كانت خزانة العالم الروماني "لوكولوس" منفتحة أمام العلماء الباحثين.

99. المنوني: العلوم، ص : 284.

فقد كانت هاته المجموعات الخاصة تستخدم إذن في خدمة أصحابها وأصدقائهم وطلبة العلم. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نعتبرها بحق خزانات شبه عامة. وتنضاف إلى هاته المميزات الأهمية التي كان يوليها بعض العلماء إلى النسخ المأخوذة عن الأصول وإلى المخطوطات التي ألفها كبار الشيوخ كما هو الأمر بالنسبة لابن طراوة في مراكش [100] فمن الواضح إذن أن هاته الخزانات الخاصة قد أسهمت بشكل واسع في ازدهار الحركة الثقافية في هاته الفترة.

3.خزانات الكتب العمومية

1.3. الأصل و التأسيس

إذا وصفنا هذا النوع من الخزانات ب "Publiques" فهو ترجمة للكلمة العربية "عامة" التي ألحقت بها حسب بعض المراجع التاريخية. ونحن لم نستطع اعتمادا على هاته المراجع التاريخية اكتشاف تحديد دقيق لهذا المفهوم. فما هي إذن خزانة الكتب العمومية؟ وما هي وظائفها؟ وهل كانت الخزانات العمومية في تلك الفترة تقوم بنفس المهام التي تقوم بها الخزانة العمومية اليوم؟

إن هاته الأسئلة هي التي يليق بنا الآن أن نجيب عنها. فالعبارة «خزانة عمومية» تشير اليوم إلى كل خزانة تسهم في فعل القراءة العامة. ويمكن أن نلاحظ فيها ثلاث وظائف: وظيفة علمية، ووظيفة تربوية، ووظيفة ترفيهية، أي أنها تتيح لأبناء المجتمع وسائل متنوعة للتعليم، والتثقيف، والتسلية.

إن خاصية العمومية في المكتبة ليست قديمة، فلم تظهر في أوربا إلا في القرن التاسع عشر الميلادي. وأكد "بوتي رادل" Petit Radel الذي خص مكتبة "مازارين" بالدراسة بأن هاته الأخيرة كانت هي أول مكتبة عامة في فرنسا [101]. ولم يتحدث المؤرخون عن المكتبات ذات الطابع العام في العصر الوسيط إلا

100. المرجع السابق ص : 285.

101. "Petit - Radel", Recherches sur les bibliothèques، ص 253 ط 1819 . إلا أن أول شبكة للخزانات العامة الفرنسية انحدرت بحق من ثورة 1789.

ابتداءً من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وكانت أول هاته المكتبات في الزمان هي دار العلم للخلفاء الفاطميين في القاهرة. ذهب ابن تغري بردي [102] إلى أنها كانت ضم أربعين حجرة مشيدة خصيصا لحفظ الكتب. وكان يسمح بالدخول إليها لكل شخص يرغب في التعلم وأخذ مبادئ الطريقة الشيعية للفاطميين. ويخبرنا "ياقوت" أن مدينة "مروة" في فارس كان بها في بداية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي عشر مكتبات عامة كانت تتزود باستمرار عن طريق الوقف. فكل الناس كان يمكنهم أن يدخلوا إليها لمطالعة الكتب وإستعارتها إذا رغبوا في ذلك [103].

و اعتبرت العديد من المكتبات في الأندلس عمومية، فقد أشار الغزيري في كتابه bibliotheca ar-abicohispana إلى مؤلف عربي مكتوب في القرن الرابع الهجري، يضم وصفا لخزانات الكتب العمومية في مختلف مدن الأندلس. وقد ارتفع عدد هاته المكتبات إلى سبعين في مدينة غرناطة وحدها[104] فهذا الخبر يجعلنا نذهب إلى أن قرطبة التي كانت عاصمة الأندلس، والتي حازت قصب السبق في عدد خزائنها [105] كانت مرفقة بعدد كبيرمن الخزانات العمومية.

لقد كان يجب أن يعرف المغرب، باعتبار علاقاته مع إسبانيا، خزانات مخصصة للمنفعة العامة على غرار خزانات العصر الوسيط وإسبانيا. إن أول خزانة وصفت "بالعامة" في المغرب هي تلك التي ذكرت في مقطع مقتبس من كتاب اختصار الأخبار لكاتب من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وهذا نصه: «وكان منها في زماننا سبع عشرة خزانة، تسع بدور الفقهاء والصدور، كبني القاضي الحضرمي، وبني ابن

---

102 . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة. ج 4، ص 101. فهاته الخزانة قد تكون حسب هذا المؤلف تحوي على أكثر من عشرة آلاف كتاب.

103 . ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 8 ص 36.

104 . الغزيري: Bibliothèca arabico-hispana، ج 2 ص 71.

105 . والدليل على ذلك هو الصراع الذي نشب بهذا الخصوص في محضر الخليفة الموحدي يعقوب ما بين ابن رشد وابن زهر. قال ابن رشد في جوابه على معارضه إذا مات في إشبيلية عالم، وسهرنا على بيع كتبه نحملها إلى قرطبة حيث نجد مكان بيع مؤكد: وإذا مات مطرب في قرطبة نذهب إلى إشبيلية لبيع آلاته. المقري: نفح الطيب، ج 1 ص 147 ينظر أيضا "كاترومير" goût des livres Quatremère ص 72.

أبي حجة، وأشباههم، وثمان موقفة على طلاب العلم»[106] . فأقدم خزانة كانت هي خزانة أبي الحسن الشاري التي كانت توجد في المدرسة التي شيدها بنفسه [107] . فكانت رهن إشارة طلبة العلم في شمال المغرب. وقد تم التركيز على خاصية العمومية لهاته الخزانة أيضا في مصادر أخرى من القرن الرابع عشر. وهكذا فابن الخطيب المتوفى سنة 776هـ / 1374م قد أسماها في كتابه معيار الاختيار «خزانة كتب العلوم» . ولفت ابن الغازي النظر في ذيل فهرسته إلى أن يوسف الأخصاوي المتوفى سنة 802 هـ / 1399 م زار الخزانة العامة في سبتة وبقي فيها ثمان سنوات. ومازالت بعض خروم هاته المكتبة محفوظة إلى يومنا هذا في خزانة القرويين.

وهكذا فإن أول ورقة من المجلد الثاني لكتاب: عقد الجواهر الثمينة لابن الشاس المصري تضم التقييد التالي: ينتمي هذا المخطوط إلى علي بن محمد الغافري الشاري. وأثبتت نفس صيغة التملك على أول ورقة من فصل منعزل من نوادر [108] ابن أبي زيد القيرواني. وأخيرا فإن آخر صفحة من مخطوط الإحياء للغزالي المحفوظ في القرويين بها تقييد بخط يد الشاري نفسه. قرأ هذا الكتاب كله علي بن محمد الشاري أعانه الله، وأفاد منه الشيء الكثير[109] والمكتبة الثانية التي اعتبرت عمومية هي التي أسسها الخلفاء الموحدون في الحاضرة الملكية في مراكش. ولم يكن لهاته المكتبة فيما يبدو طابعا عموميا . فقد كانت ملحقة بالمدرسة الملكية وكانت مخصصة للأمراء والأطفال من العائلة الملكية. ويشهد على هذا الأمر مرجعان تاريخيان يعود أحدهما إلى القرن 14 م والآخر إلى القرن 16 م. فأول نص هو نص ابن الفضل العمري المتوفى سنة 750هـ / 1349م المأخوذ من كتابه مسالك الأبصار. يقول فيه: (بنى يعقوب المنصور قصر الخلافة وسط المدينة التي

---

106 . الأنصاري: اختصار الأخبار ص 32.

107 . نظم القاضي ابن عمران قصيدة في واحد وأربعين بيتا يمدح فيها الشاري تنظر : صلة الصلة لابن زبير. وينظر أيضا الذيل والتكملة لابن عبد الملك، الجلد 8، ص 196، ط 1984.

108 . مخطوط على رق الغزال محفوظ في القرويين تحت رقم 783/40.

109 . فهرست خزانة القرويين.

اختطها خارج مراكش خاصة به ويخواصه. وفي رحبة القصر -قصر الخلافة- دار الكرامة والأضياف. وفي هذه الرحبة المدرسة وهي مكان جليل به خزائن الكتب. . .)[110] ويوجد النص الثاني في كتاب "وصف إفريقيا" لحسن الوزان. فقد كتب هذا الأخير مايلي: «هناك في الحاضرة أيضا أحد عشر أو اثنا عشر قصرا بناها يعقوب المنصور وزخرفها بإتقان. وبعيدا أيضا هناك قصر آخر جميل كان يستخدم مدرسة لأبناء الملك، وأطفال العائلة ونشاهد فيه قاعة مربعة رائعة جدا ومحفوفة ببهو ذي منافذ هائلة مزخرفة بزجاج ملون وحول هاته القاعة العديد من الدواليب الخشبية قد زخرفت بنقوشات مذهبة وغطيت من مواضع متنوعة بأصباغ ذهبية وسماوية رقيقة جدا . . .»[111] واكتست هاته المكتبة طابعا عموميا خاصة في عهد آخر خلفاء الدولة الموحدية كما يظهر ذلك تقييدان واردان في مخطوطين مختلفين كانا ينتميان إلى هاته الخزانة، وتم الحفاظ عليهما إلى اليوم في المغرب. ويوجد التقييد الأول في الورقة الأولى من السفر الثامن من كتاب«التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»[112] لابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة 463هـ / 1070م. وهذا نصه : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه . . . حبس سيدنا ومولانا الخليفة الإمام الموقن بالله تعالى. . . هذا السفر" الذي هو من" التمهيد" لابن عبد البر على المدرسة المباركة. تحبيسا تاما مؤبدا . . .» والتقييد الثاني الذي يطابق الأول يوضح المكان الذي كانت توجد فيه المدرسة وخزانة الكتب، ويوجد في مخطوط محفوظ في مراكش عنوانه: "الإنجاد في أبواب الجهاد"[113] لمحمد بن أصبغ الأزدي ويوضح «أن هذا المؤلف محبس على مدرسة قصبة مراكش حرسها الله» . وتنضاف إلى هاته المكتبات المتصفة بالعمومية، والمؤسسة لباعث المنفعة العامة، مكتبات المساجد ومكتبات الجوامع[114]، فهاته الأخيرة التي لم يكن المؤرخون يعتبرونها عمومية كانت

110 . ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، نقلا عن المنوني، العلوم ص 279.

111 . حسن الوزان "وصف إفريقيا" ج 1 ص 184.

112 . مخطوط محفوظ في الخزانة الملكية رقم 927.

113 . مخطوط محفوظ في خزانة بن يوسف في مراكش رقم 216.

114 . سنرجع إليها في الفصل الموالي.

تشكل مكتبات عامة حقيقية يستطيع الجميع أن يدخل إليها ، وكانت توجد فيها كل طبقات المجتمع ، وكان يتم تزويدها أساسًا بالوقف. فقد كان الواقفون الذين يُحبِّسُون كَتبهم في المساجد يشترطون أن تكون عطاياهم رهن إشارة كل الناس الذين يختلفون إلى هاته الأماكن المقدسة. و كانت هاته المجموعات المحبسة تعبر بإحكام عن الطابع العمومي لخزانات المساجد .

2.3. التنظيم والمميزات

إن المعلومات النادرة التي نمتلكها بخصوص خزانات الكتب العامة لا تمكننا من أن نستخرج مميزاتها . إلا أن هناك بعض الملحوظات التي تستحق أن نلفت إليها الانتباه : أولا إن المصطلح العربي "عامة"[115] ، الذي كانت تتم عبره الإشارة إلى هاته الخزانات ليس له نفس المفهوم الذي يوجد لدى كلمة عامة Publique اليوم. فخزانة الكتب العامة ، بالمعنى المعاصر للمصطلح يجب أن تستقبل كل طبقات الشعب. أما فيما يخص الخزانة العامة سابقا فإنها لم تكن تستقبل إلا جمهورا محددا ؛ جمهور طلبة العلم. إن جمهور الخزانات العامة كان واسعا ومتنوعا بالمقارنةمع الجمهور الذي كان يختلف إلى المكتبات الملكية والخاصة. ولم يمنع هذا من أن يبقى جمهورا محدودا ، فالفضوليون والذين هم مجرد غير معنيين مثلا لم يكونوا في الحساب. ومن الملاحظ أخيرا أن الخزانتين اللتين سميتا عامتين واللتين حافظ لنا عليهما التاريخ وأعني بهما الخزانة الموحدية في مراكش، والخزانة التي أسسها العلامة الشاري في سبتة كانتا ملحقتين بالمدارس وهي نوع من الثانويات التي كانت قد ظهرت في المغرب. فنحن نعتبر أنهما بداية خزانات المدارس ذات الطابع العمومي[116] وهو نموذج من المكتبات الذي بلغ أوجه في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي على عهد الدولة المرينية.

---

115 . لقد كان مصطلح "عامة" عزيزا على المغاربة فقد احتفظوا به دائما في أذهانهم. فالخزانة الوطنية التي تم تأسيسها في المغرب في زمن الحماية الفرنسية سميت عامة (الخزانة العامة).

116 . ينظر قسم: خزانات المدارس. في الفصل الموالي.

خاتمة

إن ما قمنا به من تقصيات جعلنا نلاحظ التطور العملي الذي عرفته خزانات الكتب المغربية، بَيْدَ أن هذا التطور بقي في نظرنا نسبيا . وأيضا فنحن قد تمكنا من أخذ صورة عامة دقيقة تقريبا عن هاته الخزانات التي سنحيط بها فيما يلي. ولاحظنا حضور بعض المميزات المشتركة فيما بينها .

ففي البداية كانت هاته الخزانات كلها تقريبا في متناول الأدباء وطلاب العلم. فخزانة الكتب الملكية، التي اعتبرت مؤسسة شبه عمومية، كانت مفتوحة أمام العلماء، وأمام المثقفين من حاشية السلطان. وكان يختلف إلى خزانات الكتب الخاصة التي اعتبرت مؤسسات شبه عمومية العلماء وخاصة الأعلام والرجال المثقفون من أصدقاء أصحاب هاته المجموعات الخاصة. وفيما يخص الخزانات العامة فقد كانت رهن إشارة جمهور واسع ومتنوع نسبيا . وبعد هذا فنحن نلاحظ على العموم تشابها بين الكتب التي كانت تشكل مجموعات مختلف خزاناتنا في المغرب. فقد كانت تضم هاته المجموعات جميعها كتب التفسير، ومجاميع الحديث، ومؤلفات الفقه، والأدب، واللغة. فقد كانت المكتبات المغربية تحظى بأهمية خاصة. فالكل كان يسهم في تزويدها بالكتب.

وكانت الخزانة الملكية والخزانات الخاصة تتزود أساسا عن طريق ابتياع الكتب. أما فيما يتعلق بالخزانات العامة فقد كانت تتزود أساسا بالوقف[117] . ولعل ما استطعنا جمعه من تفاصيل قليلة بخصوص مجموعات الخزانات المغربية في هاته الفترة يكفي للإشارة إلى ما كان يستشعره الخلفاء، وأصحاب المراتب العليا، والأعيان، والعلماء وعشاق الكتب من حماس في سبيل البحث عن الكتب. ولم يكونوا يذخرون شيئا من نفوسهم ولا أموالهم هدفا في الوصول إلى هذا الهدف النبيل.

---

117 . ينظر الفصل المتعلق بالوقف في الباب الثاني من هذا العمل.

إن المكتبات قد لعبت دوراً رئيسا في تألق الحياة الثقافية في المغرب. فهي قد أسهمت بشكل واسع في تطور الآداب والعلم في هذا البلد . ولعل شغف الخلفاء بالكتب ورغبتهم في نشر الثقافة ضمن شعوبهم هو ما حثهم على تشجيع العلماء والأدباء على تأليف مؤلفات برسم خزاناتهم. وتوخيا لإرضاء رغبة الخلفاء المرابطين فإن الفقهاء كانوا يكثرون من المؤلفات الفقهية وخاصة ما كان في علم الفروع. وشرع ابن رشد أيضا في شرح آثار أرسطو بإشارة من الخلفاء الموحدين. وكانت تنضاف إلى هاته الأمور الهدايا النفيسة التي كانت يقدمها الكتاب إلى الخلفاء المغاربة سواء في المغرب أو في الأقطار الإسلامية الأخرى.

وعلى الرغم من أن خزانات الكتب المغربية أضحت مشرقة وثرية في ظل الدولتين السابقتين، فإنها لم تكن قد وصلت بعد إلى أوجها . إنها ستنتظر زمن المرينيين لكي تعرف نهضة لم يسبق لها مثيل.

الفصل الثالث

ازدهار خزانات الكتب في المغرب

(من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي

إلى القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي)

ازدهرت خزانات الكتب المغربية في فترة طويلة، وترتب عن ذلك أن هاته الفترة قد اتسمت بأحداث حضارية وثقافية متميزة. توالى خلالها على عرش المغرب أربع دول حاكمة : ألا وهي دولة المرينيين، ودولة الوطاسيين ودولة السعديين، والدولة الحالية التي هي دولة العلويين.

إنها فترة ازدهر خلالها النشاط الثقافي في المغرب. ومع ذلك فإنها قد اتسمت بالانحطاط والركود، وخاصة في لحظة انقراض دولة وحدوث دولة أخرى. تأثرت الخزانات بهذا الواقع شأنها في ذلك شأن كل المؤسسات الثقافية والاجتماعية الأخرى بالمغرب. فقد تمت ملاحظة ازدهار خزانات الكتب المغربية انطلاقا من القرن 14 م مع تولي الدولة المرينية الحكم. ومن الواضح أن الذي ساعد على هاته النهضة هي حركة ثقافية نشيطة ظهر فيها ثلة من نوابغ المغرب. وازدهرت الخزانات الملكية والأميرية في أنحاء المملكة. وتضاعفت الخزانات الخاصة إلى جانب الخزانات العامة التابعة للمساجد والمدارس والزوايا. فقد أسهمت هاته الأخيرة في حفظ جزء كبير من تراثنا الثقافي المغربي عندما تم إرفاقها بخزانات قيمة.

فابتداءً من هذه الفترة شرعت كبار جوامع المملكة؛ مثل جامع القرويين بفاس، وجامع ابن يوسف بمراكش، في وضع مجموعاتها في بنايات خاصة أقيمت لحفظ الكتب.

إلا أنه وقبل أن ننكب على تحليل مختلف أنواع خزانات الكتب التي عرفت في هاته الفترة، يجدر بنا أيضا أن نقدم لمحة عن الحركة الثقافية التي كانت في الأصل السبب في ازدهار هاته المؤسسات العلمية.

I . الوضعية الثقافية في المغرب

1 . الحياة السياسية :

كانت الامبراطورية واسعة جدا ، وكانت تضم مناطق مختلفة كثيرا وشعوبا غرباء عن بعضهم البعض . ولم يكن هذا الوضع يسمح لهم بأن يحافظوا على وحدة هاته البلاد .

فقد عجز الخلفاء الموحدون عن أن يوقفوا الحركات الاستقلالية التي كانت تظهر في كل مكان [1] .

وبعد تفكيك الامبراطورية الموحدية في النصف الأول من القرن السابع الهجري استعادت الدويلات المحلية وأعني بها الحفصيين وبني عبد الواد استقلالها فاستقرت في كلّ من تونس وتلمسان .

فقد حافظ المرينيون الذين وصلوا إلى الحكم بعد تفكك هاته الامبراطورية على المغرب منعزلا عن إفريقيا والمغرب الأوسط . الجزائر . وبالتالي عن إسبانيا المسلمة بعد إعادة الفتح المسيحي [2] . وحاولت هاته الدولة أن تعيد بناء إمبراطورية السابقين ، ولكن بدون جدوى . فقد فشلت محاولات الخليفتين الكبيرين المرينيين أبي الحسن وأبي عنان . وانتهت الدولة سريعا إلى التفرقة [3] .

إن هاته الظروف لم تثبط المرينيين الذين ما انفكوا يهتمون بالآداب ويؤسسون المنشآت العلمية . فالحضارة الإسبانية . الموريسكية ستزدهر ازدهارا بالغا في المغرب على عهد هاته الدولة .

وقد أدت الحروب الأهلية بين الأمراء المرينيين إلى فناء دولتهم . وحملت إلى الحكم أبناء عمهم الوطاسيين [4] . ولم يحافظ هؤلاء الأخيرون على الحكم طويلا .

---

1. دائرة المعارف الإسلامية ط 1 مقال : المغرب (ج 3 ص 320) .

2 . إنه المغرب تقريبا في حدوده الحالية

3 . تمت استعادة تونس وتلمسان ولكن الحفصيين وبني عبد الواد قد استرجعوا أقاليمهم بسرعة .

4 . أعقب بنو وطاس أبناء عمهم بني مرين على عرش المغرب انطلاقا من محمد الشيخ الوطاسي الذي تولى الحكم في فاس رمضان 876هـ /1472م

فهم لم يستطيعوا إيقاف هجوم المسيحيين على المغرب. وكانت الصراعات الداخلية سببا في إضعافهم الأمر الذي حملهم على الفرار، وتعبيد الطريق أمام السعديين. ولم يبطئ السعديون، اعتباراً لأصولهم الشريفة، في أن يمارسوا تأثيراً كبيراً على قبائل جنوب المغرب الذين قدموا لهم كل المساعدات، فبدأت هاته الدولة في إعادة بناء المغرب مدعمة بهاته المؤازرة. واحتل المغرب ، في عهد المنصور الذهبي ، السودان الغربية التي حكمها لمدة خمسين سنة. إن اكتشاف معادن الذهب في هاته المنطقة مكن المغرب من أن يستفيد من استقرار كبير سياسي، واقتصادي، واجتماعي. وصنع المنصور لنفسه مجلسا فاخرا، وأدار به أكبر علماء العصر؛ وأقام علاقات خارج المغرب، وجمع أكبر وأضخم مكتبة خاصة في تاريخ المغرب. وبعد وفاة هذا الخليفة الضرب الألمعي 1012 هـ 1603 م دخل المغرب فترة من الإضطرابات وعدم الاستقرار، فقد أدت الخلافة إلى الصراع بين أبناء المنصور الذين طالبوا كلهم بالملك، فدمروا البلاد خلال نصف قرن، وتخاصموا على ما خلفه أبوهم من خيرات كثيرة. وأتاحت هاته الظروف ظهور النزاعات الفوضوية وانتشارها من جديد. وهكذا ظهر الدلائيون في وسط المغرب، وحركة أبي حسون السملالي في الجنوب، والعياشي في سلا، وأبناء المنصور في فاس، وفي مراكش، وأخيرا الشرفاء العلويون في سجلماسة. فهؤلاء الأخيرون هم الذين سيستولون على المغرب، وسيستعيد هذا الأخير ، بوصولهم إلى الحكم ، استقلاله ووحدته التي سيحتفظ عليها إلى يومنا هذا .

2 . الحركة الفكرية [5]

1 . 2 . حركة التأليف

نحن هنا لسنا بصدد تقديم وصف دقيق للحركة الفكرية في المغرب أثناء هاته الفترة الطويلة .إننا سنقتصر على ما يمس من قريب ازدهار وإثراء المكتبات المغربية ونعني بذلك تأليف الكتب. وتتمظهر هاته

5. لقد سبق أن نوقشت ثلاث أطروحات في الصوربون حول الحركة الفكرية في المغرب في عهد الدول الثلاثة الأخيرة.

1. بنشقرون : "الحركة الفكرية في عهد المرينيين والوطاسيين"1974 .

2. حجي : "الحركة الفكرية في عهد السعديين"1977 .

3. لخضر : "الحركة الفكرية في عهد العلويين"1971 .

الحركة الأخيرة، في نظرنا ، عبر مجموعة من العناصر مثل التأليف، والنساخة، والتبادل، والترجمة، وتجارة الكتب. فمن المفيد، قبل أن نعالج العناصر الآنفة الذكر، أن نشير، إلى تأثير هجرة العلماء الأندلسيين والعلماء الآخرين في إثراء المكتبة المغربية. إن هاته الهجرة قد بدأت منذ القرن الثاني الهجري، أي منذ أن طرد الخليفة الأموي الأندلسي حكم بن هشام علماء ضاحية قرطبة، ولم تنته إلا مع رحيل آخر الموريسكيين الذين طردهم الملك فيليب الثالث من الأندلس في1609 م . فأغلب المنفيين أو المهاجرين كانوا أدباء وعلماء، وحملوا معهم كتبهم.وبما أن المغرب كان أحسن ملجإ بالنسبة لهم، وأول دولة تستقبل الأندلسيين بعد إعادة الفتح المسيحي، فإنه من الطبيعي أن يختص بنصيب الأسد من التراث العربي الأندلسي الذي حمل خارج إسبانيا .وحصل ترحيل هذا التراث بشكل خاص في عهد الدولة السعدية التي تولت الحكم مباشرة بعد إعادة الفتح الإسباني. والتي كان أمراؤها وملوكها علماء يدرسون العلوم ويشجعون رجالات الأدب.

لقد كان عدد العلماء الوافدين على المغرب على عهد المرينيين وعلى عهد السعديين كبيرا .ونذكر منهم الأدباء، والفقهاء، واللغويين، والأطباء، والفلكيين، والشعراء، والموسيقيين.وانضافت إلى هاته الهجرات الأندلسية التي كانت في خدمة المكتبات المغربية هجرات أخرى من أصول مختلفة[6]، فأسهمت هاته الأخيرة بدورها في إنماء هاته المؤسسات.

إن المغرب قد بقي في القرن16 م، الدولة المسلمة الوحيدة المستقلة عن كل تأثير خارجي .ولهذا السبب، توافد عليه عدد من العلماء المنحدرين من المدينة ومن مكة، ومن القدس، وحتى من تركيا .لقد جاء مجموعة من العلماء ، بعد أن فتح السعديون السودان ، إلى المغرب توخيا للإستفادة من الثروات الباهرة التي كانت تحتوي عليها خزانات الكتب،ولكي يسهموا بدورهم في تحسينها وإغنائها[7] فلا شك أن

---

6. خاصة من المغرب الأوسط ومن إفريقيا.

7. تحتفظ الخزانات المغربية بمخطوطات لعلماء سودانيين وضمن هاته المخطوطات هناك نسخ بخط مؤلفيها : فالخزانة الملكية بالرباط تضم مثلا نسخة "نيل الابتهاج" لأحمد بابا التنبكتي.

نشاط هاته الأفراد الجديدة التي دخلت إلى المغرب سوف يؤثر بعمق في الحركة الفكرية، وسيسهم بشكل واسع في ازدهار المكتبة المغربية.

2 . 1.1 . تأليف الكتب ونساختها والتبادل بها

لقد ظهر في مغرب القرن الرابع عشر الميلادي أعيان العلماء وفحولهم، فقد تم تأليف المصادر الرئيسة لتاريخ المغرب في العصر الوسيط في هذا القرن. إنه قرن ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس، وابن خلدون صاحب الأثر العظيم العبر، والمقدمة الشهيرة، وعالم الفلك ابن البنا المراكشي الذي تجاوزت مؤلفاته الثمانين، ووسعت التاريخ العلمي في المغرب. إنه العهد الذي عرف ازدهار جنس «الرحلة» والذي يحتوي على أكبر الرحالين في تاريخ المغرب ونعني بذلك ابن بطوطة[8]، والعبدري صاحب الرحلة المغربية، وابن رشد[9]، وكثيرين آخرين .فعدد كبير من هاته الرحلات محفوظ اليوم في مختلف الخزانات المغربية.

ولوحظ نوع من التراجع في تأليف الكتب في القرن الخامس عشر الميلادي. وكان من وراء هذا الركود الأزمات السياسية الخطيرة التي عرفها المغرب والتي دمرت زوابعها المحرقة المدارس والمكتبات «إننا في تتبعنا للحركة الفكرية في المغرب ندهش في الحقيقة للقطيعة التي حصلت أثناء فترة بني مرين الأخيرة بمجرد ما ننتقل مباشرة من نشاط القرن الرابع عشر إلى ركود القرن الخامس عشر لا نجد أي اسم شهير لا من الأدباء، ولا من المؤرخين، ولا من الرحالين، ولا حتى من المترجمين، وكتاب المناقب باستثناء بعض المتصوفة والفقهاء الذين لم يستطع المجتمع أن يستغني عنهم في شؤونه اليومية»[10].

---

8. لقد كتب ابن بطوطة رحلته، حسب المؤرخين، بأمر من الخليفة المريني أبي عنان. ويبدو أن المخطوط الأصلي الذي أنجزه الكاتب ابن جزي قد حفظ في الخزانة الوطنية في باريس.

9. المخطوط الأصلي أو النسخة الأصلية لهاته الرحلة محفوظ في الأسكوريال.

10. حجي "الحركة الفكرية في عهد السعديين" أطروحة ج 1ص 170.

وسيتيح الإستقرار السياسي والازدهار اللذان عرفهما المغرب في القرن 16م في عهد السعديين من جديد ظهور عدد كبير من رجالات الأدب، ووفرة من المؤلفات المنتسخة بعناية بخطوط عديدة مغربية[11] وأندلسية ومشرقية . فقد كان الخلفاء في هاته الفترة، وخاصة المنصور الذهبي، يشجعون على الآداب، وأغدقوا على علماء زمانهم بكل أنواع التشجيعات المعنوية والمادية.

ومن ضمن المستفيدين من هذا الاهتمام المولوي بالآداب أحمد بابا التنبكتي (1626/1036) وهو صاحب عدد كبير من المؤلفات المحفوظة في أغلبها في الخزانات المغربية؛ والمقَّري (1631/1041) صاحب المؤلف الضخم عن تاريخ الأدب العربي في إسبانيا المسلمة الذي له عنوان خاطىء هو نفح الطيب، وأحمد بن القاضي (1025هـ/1616م) صاحب "جذوة الاقتباس"، و"درة الحجال"، و"المنتقى المقصور"؛ والفشتالي (1621/1031) صاحب مناهل الصفا عن تاريخ السعديين .وقد نبغ في الزوايا، التي كثرت في هاته الفترة تقريبافي كل أنحاء المغرب، عدد هام من رجالات الأدب والفقهاء؛ فالحسن اليوسي (1102هـ/1690م) وأبو عبد الله المرابط هما نموذجان من ضمن آخرين وسموا التاريخ الفكري للمغرب بمؤلفاتهم الهامة .

إلا أن الأحداث المأساوية التي ستزعزع المغرب غداة سقوط السعديين ستوقف النشاط الفكري، وستوقف بالتالي حركة تأليف الكتب .وبحدوث الدولة العلوية الشريفة ستبزغ إلى الوجود نهضة مرتبطة بالكتاب. فلقد شجع الخلفاء العلويون، الذين هم علماء وكتاب ورعاة الآداب، على تأليف الكتب التي تعالج تقريبا كل فروع النشاط البشري [12] .ونستشهد على سبيل المثال بمؤلفات الموسوعي عبد الرحمان الفاسي[13]، ومؤلفات عبد القادر الفاسي، وابن سليمان الروداني، وابن الطيب الشرقي، وابن إدريس

---

11. يمكن أن نتحدث عن خط مغربي انطلاقا من القرن 14م ينظر قسم الخط المغربي ...

12 .ينظر لخضر : "الحركة الفكرية على عهد العلويين"la vie intellectuelle sous les 'alawites" .

13 .فهو صاحب منظومة من 17000 بيت مسماة "الأقنوم" وعالج فيها 300 ميدان علمي. وتحتفظ نسخة من هذا المؤلف القيم المنجز بخط مغربي سنة 1279هـ في الخزانة المغربية الرباط تحت رقم 485.

العمراوي، والزياني[14]. إنها إذن حركة نشيطة في التأليف على عهد هاته الدولة. واستفادت المكتبة المغربية من ذلك استفادة كبيرة. وانضافت النساخة إلى حركة التأليف. فهاته الأخيرة أسهمت بشكل كبير في إغناء المكتبة المغربية .وبهذا الاعتبار، فالنساخة لم تقتصر على الكتب المغربية وحدها، إذ إن الكتب التي تم اقتناؤهامن الخارج كانت هي كذلك تستنسخ نسخا عديدة برسم المكتبات العامة والخاصة[15].

وسنرى أن غرف النساخة [16] في القصور الملكية كانت توجد بجانب المكتبات. فالنساخ الذين كان الخلفاء يكلفونهم بمهمة النساخة كانوا بارعين في هاته الصنعة. وكانوا يضاعفون من النسخ التي كان يوقفها الملوك على مكتبات المساجد أو يرسلونها هدايا وخاصة في إطار التبادل مع الدول الأجنبية [17] أما فيما يتعلق بتبادل الكتب فإن هذا الأمر لم يكن أقل أهمية من الوسيلتين السابقتين في إغناء المكتبة المغربية. فقد كان ذا أهمية قصوى سواء في اقتناء التراث العربي الإسلامي لصالح المكتبة المغربية أو في نقل المؤلفات المغربية إلى الأقطار الإسلامية الأخرى. وكان يتم أساسا عن طريق المسافرين المغاربة، وعن طريق المراسلات التي كان يقيمها الخلفاء والأمراء والعلماء مع الناس الذين هم في مكانتهم في الأقطار الأخرى. وفيما يتعلق بالمسافرين، وخاصة العلماء، فالرحلات التي كانوا يقومون بها إلى الخارج كانت تمكنهم من الالتقاء بالأعلام الشهيرين، وكانت تتيح فرصا لإجراء المناظرات وتبادل الكتب [18]. وقد تم هذا تقريبا في كل الأقطار والمناطق التي قطعها هؤلاء المسافرون العلماء. وأسهم الحج إلى مكة بشكل كبير في نشر الكتاب العربي ضمن المفكرين في العالم الإسلامي. وكانت الإجراءات تتم كما يلي : كان العالم من فاس

---

14. ينظر بهذا الصدد : ليفي پروفنصال : "تاريخ الشرفاء" باريس 1922.

15. إن المخطوطات الأجنبية التي تنحدر بشكل خاص من الشرق الأوسط قد انتسخت بسرعة ودرست وشرحت في مؤسسات التعليم قبل أن توضع في مختلف الخزانات.

16. سبق أن رأينا، حسب البكري، أن الخليفة الإدريسي يحيى الرابع كان يتولى أمر النساخ الذين كانوا ينجزون المخطوطات في منتسخات ملحقة بالقصر الملكي : ينظر البكري : المسالك ص 252.

17. ينظر فصل حول الوراقة في الباب الثاني من هذا العمل.

18. رأينا أن جنس الرحلة قد ازدهر في المغرب أكثر من الأماكن الأخرى. فالرحلة شكلت عنصرا هاما على المستوى التاريخي.

مثلا يحمل ضمن أمتعته عددا معينا من الكتب مما صنفه مواطنو الغرب الإسلامي. وفي طريقه كان يدخل في علاقة مع علماء الدول التي كان يجتازها وكان يفضي به الأمر إلى أن يتعرف على ما ظهر من جديد، والذي لم يصل بعد إلى المغرب. وكان يظفر من ذلك بنسخ مقابل كتبه الخاصة. وكان يصادف في وصوله إلى مكة علماء آخرين آتين من بلدان بعيدة، ومعهم هم أيضا كتب أبناء وطنهم. ونفس الإجراء كان يتكرر. وبهاته الطريقة كانت الكتب في المشرق[19] تدخل إلى بلدان الغرب الإسلامي، والعكس صحيح[20].

وفيما يخص تبادل الكتب مابين الملوك في المغرب، وملوك الشرق الإسلامي فسنعالجه في الفصل المرتبط بخزانات الكتب الملكية، لقد كان هذا النوع من التبادل أحد أهم الوسائل التي أسهمت في صنع مادة المكتبات الهائلة التي كان يتوفر عليها الخلفاء منذ دولة المرينيين إلى دولة العلويين.

2-1-2 ترجمة الكتب

أسهمت حركة ترجمة الكتب إلى اللغة العربية في إغناء المكتبة المغربية في هاته الفترة. إن هاته الحركة التي كانت في القرون الأولى من الإسلام نشيطة في المشرق قد توقفت في العصر الذي سمي بالانحطاط [21]، وبقيت مستمرة في المغرب بفضل تشجيعات الخلفاء وخاصة الخلفاء السعديين والعلويين. فقد تمت ترجمة عيون الآثار العلمية الغربية في بلاطاتهم. وكان الخلفاء يترجمون في بعض الأحيان، هم بأنفسهم، الكتب إلى العربية كما هو الحال بالنسبة للملك العلوي محمد بن عبد الرحمن (1873) [22]. فقد نقل هذا الخليفة الذي كان ضليعا في اللغات الغربية مؤلف العالم نيوطن (1727) حول علم الفلك إلى العربية.

---

19 .هذا ما يفسر وجود عدد من المخطوطات الفريدة في المغرب. ينظر تراث الخزانة المغربية في الباب الثاني من هذا العمل.

20 .ينظر الفاسي : "الخزانات في المغرب" هسبريس 1961.

21 .يبدو أن آخر كتاب تمت ترجمته إلى اللغة العربية هو "الشاه نامه" للفردوسي في القرن 7هـ/13م.

22 .ابن عبد الله "تاريخ المغرب" ص 181. ينظر أيضا مقال الكتاني : الكتاب المغربي وقيمته في مجلة البحث العلمي 1965. إن هذا الخبر، حسب هذا الأخير، قد أكده القنصل الفرنسي في طنجة في ذاك العصر : السيد "تيسو" M.Tissot. فالملك محمد بن عبد الرحمن، حسب ما نعرف، لم يكن يعرف إلا الفرنسية، ونحن نشاطر وجهة نظر المنوني الذي يؤكد أن كتاب نيوطن قد ترجمه إنجليزي من "مالطا" دخل إلى الإسلام وذلك بإشارة من محمد بن عبد الرحمن ينظر : مظاهر يقظة المغرب ج 1. ص 45،.

ونذكر من ضمن المؤلفات الأخرى المترجمة : «مغني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب»[23]. فهذا المُصنَّفُ الذي كتب في لغة أجنبية أهداه، حسب المقري، عالم روماني كبير إلى الخليفة السعدي المنصور الذهبي الذي فوض ترجمته إلى العلامة والطبيب أبي القاسم الغساني [24]. ونذكر أيضا كتاب "العز والمنافع" الذي كتبه بالإسبانية التونسي إبراهيم ابن غانم وترجمه إلى العربية أحمد بن قاسم الحجري المراكشي، باتفاق مع صاحبه في 1048هـ / 1638 م [25]. وترجم الطبيب والرياضي الحسين بن أحمد المسفيوي وهو تلميذ الغساني [26] كتاباً آخر في الطب من الإسبانية أو من البرتغالية. وتمت أيضا ترجمة رسالة تعالج حركات النجوم مسماة : "زيج زكوط"؛ كتبها "إبراهيم الصالما نقي" بالعبرية في 877هـ /1472م. وترجمها نفس المؤلف أحمد الحجري [27] إلى اللاتينية أولا، وبعد ذلك إلى الإسبانية، وأخيرا إلى العربية. إلا أن أهم مؤلف ترجم إلى العربية حسب الكتاني هو "الجامع المغرب النافع المعرب" الذي هو في الأصل كتاب في علم الفلك كتبه العالم الفرنسي "لالند "(1807).

وقد أنجز الترجمة العربية في 1852م مجموعة من المترجمين بإشارة من الملك العلوي محمد الرابع [28]. ولم تقتصر الترجمة على الكتب فقط ، بل إنها مست أيضا الفهارس. وهكذا ففهرس المخطوطات العربية في الاسكوريال في إسبانيا (1760-1770) الذي ألفه باللاتينية السوري غزيري، ترجم إلى العربية بإشارة من الملك العلوي مولاي سليمان (1822). وتوجد هاته الترجمة في شكل نسخة بخط مؤلفها

---

23. يزعم الأستاذ حجي أن هاته اللغة كانت هي البرتغالية أو الإسبانية تنظر "الحركة الفكرية على عهد السعديين" ج1 ص 245.

24. قال المقري إنه التقى بالغساني في فاس، تنظر : روضة الآس ص 217.

25. محمد حجي "الحركة الفكرية على عهد السعديين" ج1 ص 163.

26. نفسه.

27. نفسه

28. الكتاني إبراهيم : الكتاب المغربي وقيمته. في مجلة البحث العلمي سنة1965. وتضم الترجمة الغربية ثلاثة مجلدات مع مقدمة كتبها الملك محمد الرابع (1873). فهذا المخطوط محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 6282 ينظر : فهرس الخزانة الحسنية ج3 ص 175.

ووحيدة محفوظة في الخزانة الملكية في الرباط [29] . وإذن فإن ما نفيده مما سبقت الإشارة إليه، أن المكتبات المغربية قد غنمت بشكل واسع من حركة الترجمة هاته التي ما انفك الخلفاء يشجعون عليها .

2 . 2 . التجارة في الكتب

قلنا إنه حيث يكون الكتاب مزدهرا يكون الفكر أيضا ، والعكس صحيح . فهناك حيث يزدهر النشاط الفكري يزدهر الكتاب، ويكثر، ويغني المكتبات . فقد ازدهرت تجارة الكتب وخاصة في المدن التي توجد فيها الجوامع مثل فاس ومراكش . وقد كانت المكتبات توجد في مقدمات هاته المساجد التعليمية . وإلى جانب المكتبات كانت تباع الكتب المخطوطة بالمزاد في كل أسبوع على دكة ملحقة عادة بالمسجد[30] . فدكة فاس مثلا كانت توجد في الجزء الجنوبي الشرقي من القرويين . إن الكتب كانت تباع بالمزاد . وكان يفعل هذا المزاد المكتبيون والبائعون المتجولون ومحبو الكتب، والأساتذة والطلبة . إن عادة البيع العمومي هاته كانت قديمة . فقد كانت تتم أولا في الأندلس قبل أن تدخل إلى المغرب في القرن الخامس عشر أي في عهد الوطاسيين [31] . فهذا الشكل من بيع الكتب مازال مستمرا إلى يومنا في المغرب وخاصة في فاس ومراكش .

إن تجارة الكتب قد وصلت ذورتها على عهد السعديين [32] . فالنشاط الاقتصادي والاجتماعي الذي عرفه المغرب على هاته الفترة قد أسهم بشكل واسع في ازدهارها . يقول "مارمول" Marmol في وصفه

---

29 . مخطوط أصلي محفوظ تحت رقم 6792 .

30 . كان يقام البيع بالمزاد في فاس يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ، وكان يقام في مراكش كل خميس في الصباح .

31 . إننا مدينون" لنيكولا كلينار" بالأخبار المفصلة المتعلقة بهذا الشكل الجديد من بيع الكتب في المغرب . تنظر : "رسائل لاتينية لكلينار" في مجلة هسبريس 1934 . فهذا الشكل الجديد من بيع الكتب قد ظهر في أوربا في السنوات الأولى من القرن 17م . وكانت المبادرة الأولى لهولندا ، فقد كانت الصفقات الأولى لبيع الكتب تتم بالمزاد في "ليد" ينظر : "تاريخ الكتاب" "لسفندال" ص 178 .

32 . لم تكن تجارة الكتب مزدهرة دائما . فهي قد تراجعت بشكل خاص في فترات الانحطاط كما يشير إلى ذلك حسن الوزان الذي وصف المغرب في نهاية العهد الوطاسي وفي بداية القرن الخامس عشر وأضاف "الوزان" في حديثه عن المائة متجر لباعة الكتب المنتشرة في مقدمة الكتبية في مراكش في عهد الموحدين «ونحن نبحث كثيرا الآن بغاية التمكن من الحصول على واحدة في كل المدينة» ينظر "وصف إفريقيا"ج1 ص 194 .

لمراكش عاصمة الدولة السعدية : «يتوفر المغرب (مراكش)[33] على أزقة جميلة، وأماكن منظمة جدا يقيم فيها الفنانون. وتباع فيها السلع والكتب بوفرة [34]» .

لقد كان اقتناء الكتب العربية في المغرب، على الرغم من توفرها ، محظورا دائما على الأجانب. فمن عادة المغاربة أن يمنعوا الكفار؛ يعني اليهود والمسيحيين، من الحصول على المخطوطات العربية. فلقد مكث "نيكولاكلينار" Nicolas clénard أستاذ اللغات في "لوڤان"، في فاس خمسة عشر شهرا في 1540م. واستقبله الملك المغربي أحمد الوطاسي وأذن له في أن يحمل معه بعض المخطوطات العربية بناء على معرفته بالعربية. وعند انصرافه منعه أحد مسلمي الأندلس من أن يحملها معه [35]. وقد عبر "كلينار" في رسالته المؤرخة بـ 1541/04/09م عن خيبة أمله بإزاء المتزمتين المسلمين : يقول في حديثه عن بيع الكتب بالمزاد «يمكن للمسيحيين أن يدخلوا إلى مكان المزاد إلا أنهم يتجشمون خطر الموت رجما طالما أنهم يثيرون الشكوك في أن المخطوطات قد تركت لأياد أجنبية عن الإسلام»[36]. وستبقى هاته الحقيقة حاضرة إلى بداية القرن 20 م فقد أعلن الباحث الفرنسي "ل.مرسيي"L. Mercier بأنه واجه كثيرا من الصعوبات في الحصول على الكتب بسبب كونه مسيحيا [37]. وإذا كان الأمر على هذا الحال، فإننا لا نستثني إلا عددا من المخطوطات التي بيعت أو أهديت إلى الكفار بحسب تعبير تلك الفترة. فنحن نقرأ في مؤلفات التاريخ أن لويس الرابع عشر قد اشترى كتباً من المغرب ... ويخبرنا "دوكستر" أن لويس الرابع عشر قد كلف سفيره "دو مونسو" في 1667 م بأن يذهب إلى المغرب من أجل أن يبتاع له مخطوطات عربية.

---

33. بقي "المغرب" إلى حدود القرن العشرين يعني دائما مدينة مراكش.

34. "مارمول"Marmol : "تاريخ الشرفاء" ص 47.

35. دوشينيي "Recherches Historiques sur les Maures De chénier" ص 8 ط : 1787.

36. «Notes sur les lettres latines de N. Clénard» في مجلة "هسبريس"1934.

37. "مرسيي" "L.Mercier" "Sur quelques Mss arabes" في مجلة "Archives marocaines" 1906.

وعقد الملك الفرنسي هذا القرار بناء على طلب رحالة غربي كان قد رأى في المغرب كتبا يونانية مترجمة إلى العربية، ومحفوظة في خزانة القرويين الشهيرة. وكتب لويس الرابع عشر أيضا إلى سفيره في المغرب "أمان" مكلفا إياه بأن يهيئ مقر بعثة إلى المغرب مهمتها البحث فيه عن المخطوطات، ودعا إلى إخبار ملك المغرب لكي ييسر لهم المهمة [38].

ولقد تمكن المستشرق الهولندي "جوليوس" الذي قضى سنتين في المغرب في القرن 16م هو بدوره من الحصول على عدد من المخطوطات. ومن ضمن الكتب التي اشتراها كتاب الطب الذي كان ألفه ابن بكلارش في النصف الأول من القرن 5 هـ/11 م تلبية لطلب الخليفة المستعين بالله. ومازالت أجزاء من هذا المخطوط محفوظة إلى يومنا هذا في خزانة القرويين. وقد يكون "جوليوس" حسب التازي هو بدوره اشترى مؤلف ابن الصاحب "الصلاة" المعنون "المن بالإمامة"[39].

أما فيما يخص الكتب المهداة إلى الكفار فالنماذج منها عديدة. إن الخليفة السعدي أحمد المنصور. على سبيل المثال لا الحصر، قد أهدى كتبه المخطوطة إلى زواره الهولا نديين وخاصة إلى المستشرق "إربنيوس" 1623 [40]. وترتب عن حركة التأليف هاته التي نشطت بشكل واسع في هاته الفترة من أوج المكتبة في المغرب تيسير ظهور صنف من الناس سيتخصصون في معرفة الكتب؛ في معرفة عناوينها وأصحابها؛ إنهم المترجمون، وكبار محبي الكتب. فقد ظهر هؤلاء المترجمون، حسب المؤرخين، في المغرب انطلاقا من القرن 15م. ونحن مدينون لصاحب "دوحة الناشر" في معرفة اسم أول مترجم مغربي أبي

---

38. ينظر: "دوكستر"H.de castries " المصادر الدفينة لتاريخ المغرب" "Sources inédites de L'histoire du Maroc " السلسلة الثانية الدولة الفيلالية "Archives et bibliothèque de France" ج 1 ص 245-246 ج 6. 222.

39. التازي: جامع القرويين ج 2 ص 419.

40. لقد عبر بعض المؤرخين المغاربة عن تحفظهم من زيارة "إيربنيوس" المغرب. ويذهب محمد حجي المتخصص في عهد السعديين إلى أن هاته الزيارة كانت في وقتها المناسب.

عبد الله الحساني الذي كان ضليعا في معرفة الكتب، قال عنه ابن عسكر : « ... نشأ بدرعة وقرأ الفقه على عدة من المشايخ، وكان كثير الحفظ والمطالعة ومعرفة أسماء الكتب ونسبتها لم أرمثله في ذلك تولى خطة الفتوى بحضرة مراكش بعد موت أبي الحسن السكتاني ومات أواخر سنة خمسة وستين مطعونا في الوباء المشهور الذي وقع في تلك السنة لقيته وشاركته في مسائل عدة فرأيت منه حفظه وكثرة اطلاعه على مظان المسائل في الدواوين العجب رحمه الله»[41] ونذكر أيضا كُتُبِّيا كبيرا من القرن 18م نقل إلينا القادري صاحب "نشر المثاني" ترجمته. ويتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي 1116هـ/1704م الذي خص مؤلفا ترجم فيه أعيان عصره. وقام أيضا بترجمة الشيوخ الذين زاولوا مهنته التدريس، ولم يخلفوا كتبا بهذا الصدد. فكان كتابه كتاباً في التراجم . وأكد القادري أنه « لم يؤلف في فنه مثله» [42].

تلك كانت حركة تأليف الكتب في هاته الفترة فماذا أفادت المكتبات المغربية من ذلك؟

II . خزانات الكتب

إن ما سيبذله المرابطون وخاصة الموحدون من مجهودات مستمرة في مجال خزانات الكتب ستأتي أكلها على عهد الدول الموالية، وخاصة دولة المرينيين. فالتراث الوافر والإرث العلمي والأدبي الذي انتقل إلى بني مرين عبر الدولة السابقة هي العوامل الحقيقية التي أدت إلى الازدهار الكبير للخزانة المغربية انطلاقا من القرن 14م .

لقد انهمك المرينيون ، وبعدما آنسوا عقلية جديدة مثيرة لرغبة جامحة في القراءة والتثقيف لدى كل الطبقات الاجتماعية، أولا في بناء المدارس المرفقة بخزانات الكتب، وبعد ذلك انهمكوا في تشييد

---

41. ابن عسكر : دوحة الناشر، ص 70 ينظر أيضا ابن القاضي : درة الحجال ج 2 ص 51.

42. ينظر المنوني : دور الكتب ص 16 . ينتمي هذا المخطوط إلى الخزانة الملكية بالرباط. فقد كان المترجمون عديدين بمافيه الكفاية في عهد العلويين. ونذكر على سبيل المثال : البوعزاوي (1337) الذي كان كتبيا أمينا على مكتبة القرويين. وكان يمتلك خزانة كبيرة خاصة حفظت بعض كتبها في القرويين : ينظر العابد الفاسي : الخزانة العلمية ص 69.

المكتبات في وسط المساجد الكاتدرائية الكبيرة في أهم المدن، وأخيرا باشروا تأسيس الزوايا للطلبة والفقراء. فقد كانت خزانات الكتب الملتحمة بهاته المؤسسات تمون في جزء كبير منها من طرف الخلفاء. وعلى هذا الأساس ظهر منظور جديد للخزانة على اعتبار أنها مؤسسة للدولة. فالمجهودات التي بذلتها الدولتان الأخيرتان؛ ونعني بهما السعديين والعلويين في تأسيس خزانات كتب أخرى في وسط مدارس أخرى وزوايا أخرى تؤكد هاته الأوضاع. إن التراث المجموع في مختلف خزانات كتب المملكة [43] يشهد أن الدول المتتابعة لم تدَّخر أي جهد، ولم تتوقف أبدا عن تموين وإغناء هاته المؤسسة ولو أثناء الاضطرابات والثورات.

وإذا كان الخلفاء يولون أهمية كبيرة لهاته المؤسسات ذات المنفعة العمومية، فهم لم يهمشوا، لهذا الاعتبار، مجموعاتهم الخاصة الموجودة في وسط قصورهم الملكية. فقد حظيت المكتبة الملكية للخليفة السعدي المنصور الذهبي مثلا بشهرة كبيرة، وتم تزويدها بمؤلفات ذات أصول مختلفة. فقد كان هؤلاء الخلفاء يقيمون علاقات مع ملوك آخرين، ولم يكونوا يترددون في تبادل الكتب معهم في هذا النطاق. إن العلاقات الجيدة التي تربط الخليفة المريني أبا الحسن ونظيره المصري المملوك محمد قلاوون، والكتب التي كانا يتبادلان بها فيما بينهم هي مثال على ذلك. فقد كان الخلفاء المغاربة المعروفون بموسوعيتهم وحبهم للكتب يكاتبون مراسلين خاصين كانوا ينتقلون عبر مختلف العواصم من مثل بيزنطا، والقاهرة، ومكة، توخيا لأن يشتروا أو ينتسخوا الكتب التي كانوا يرغبون فيها ...

أما فيما يتعلق بالمكتبات الخاصة فهي تفوق الحصر [44] ولم يكن العلماء وحدهم هم الذين تمكنوا من جمع مجموعات شخصية، فقد كانت وفرة الكتب في هاته الفترة تتيح تقريبا لكل فئات الأمة من أن يجمعوا

---

43. ينظر فصل المخطوطات في الخزانة المغربية في الباب الثاني من هذا العمل.

44. سنذكر بعضها على سبيل المثال: ينظر فصل الخزانات الخاصة.

مكتبات خاصة. فنحن نلاحظ في مراكش عاصمة المملكة على عهد الدولة السعدية في القرن 16/10م أن كل منزل تقريبا كان بارجة فكرية. إن المكتبات الخاصة قد ارتبطت في اتساعها. بازدهار الفكر وانتشار الكتاب فدراسة مختلف المكتبات في ذلك العهد يؤدي بنا بالضرورة إلى تحليل كل فئة من المكتبات توخيا لإظهار أصلها، وواقعها، وتنظيمها، والمميزات الخاصة التي تتماز بها.

1. خزانة الكتب الملكية [45]

1-1 الأصل والتأسيس

1-1-1 خزانة الكتب الملكية على عهد المرينيين والوطاسيين

إذا كانت الحركة الفكرية في المغرب في القرن 14م والقرن 15م موضوعا لعدد من الأعمال. فإن معرفتنا بالخزانة الملكية عند المرينيين، وأبناء عمهم الوطاسيين، ناقصة جدا. إننا نلاحظ مرة أخرى عدم اكتراث المؤرخين المغاربة بتراثهم. فقد جمعت المعلومات المتعلقة بهاته المؤسسات الملكية انطلاقا من إشارات مكتوبة في مخطوطات أهداها أصحابها إلى مختلف الخلفاء أو أنجزوها بإشارة منهم. وتعود أقدم المخطوطات التي تطابق إهداءاتها الدولة المرينية إلى يعقوب بن عبد الحق، وابنه أبي يعقوب يوسف[46]، وعلى الرغم من أن هذين الخليفتين الأولين كانا مهتمين بإعادة بناء إمبراطورية أسلافهم الموحدين، فقد اشتهروا بوضع أسس مكتبة دولتهم الملكية التي زودها وأغناها ورثتهم. وإذا كان أصل هاته المؤسسة غير واضح بجلاء، فنحن نتوفر مع ذلك على عدد من المعلومات التي من شأنها أن توضح لنا واقعها. إن المؤلفات التي أنجزت برسم هاته الخزانة، والمخطوطات التي تم التوصل بها كهدايا أو في إطار التبادل مع الخلفاء كانت إحدى أهم العناصر المشكلة لمجموعة هاته المؤسسة الملكية. فقد كان يطيب لهؤلاء الخلفاء أن

---

45. لن ندرس في هذا الباب إلا خزانات كتب الملوك. أما فيما يخص خزانات الأمراء والعائلة الملكية فستعامل معها في إطار الخزانات الخاصة.

46. أهدى محمد السبتي الدراج مؤلفه: "الإمتاع والانتفاع في معرفة أحكام السماع" إلى الخليفة يوسف فهذا المخطوط محفوظ في الخزانة الوطنية في مدريد. وتوفر في الخزانة العلمية في الرباط على نسخة متشابهة له محفوظة تحت رقم 3663 ب.

ينشدوا من العلماء والأدباء كتابة الرسائل والمؤلفات بشأن مواضيع بعينها . وكانت النسخ الأولى موجهة بطبيعة الحال إلى خزانة الملك. وعلى هذا الأساس، توجه الخليفة أبو سليم إلى القنصل وكاتب المجلس الملكي أبي القاسم ابن رضوان طالبا منه أن يؤلف كتابا عن سياسة الملوك. وماهي إلا أيام قلائل حتى مثُل الكاتب أمام سيده، وسلم إليه باكورة عمله : "الشهب اللامعة في سماع السياسة الجامعة"، قال ابن شقرون «يتعلق الأمر بمؤلف أصلي غاص بالمعلومات عن السياسة العامة للملوك وعن المؤسسات الإدارية التي جرى بها الأمر آنذاك»[47]. ومن ضمن المخطوطات التي أنجزت برسم هاته المكتبة على عهد نفس الخليفة أبي سليم: «عمل من طب لمن حب» لابن الخطيب [48] وفي نفس السياق أيضا أحضر الخليفة أبو عنان كاتبه ابن جوزي وكلفه بكتابة رحلة ابن بطوطة التي كان يرغب في وضعها ضمن مجموعته الخاصة. ووصلت الخزانة الملكية المرينية على عهد هذا الخليفة أوجها، وكان أبو عنان، الرجل المتفاني في خدمة الأدب وجمع الكتب[49]، يتوفر على مكتبتين كانت توجد أكبر هما في القصر الملكي في فاس، عاصمة المملكة، والأخرى هي مكتبته المتنقلة التي كان يحملها معه في رحلاته. إنها نوع من المكاتب السيارة الملكية التي كان الخليفة يصحبها معه في تنقلاته، فهي خزانة متنقلة، أو إنها ببساطة خزانة كتب متحركة لم يكن الخليفة ينفصل عنها أبدا[50].

إننا مدينون بهاته التفاصيل لرجل يسمى يوسف الحزام الذي نقل لنا كلامه ابن فرحون في "الديباج" من خلال ترجمة ابن عربي المعافري. وهذا ما قاله يوسف الحزام «رأيت تأليف القاضي أبي بكر بن العربي

---

47 . ابن شقرون : "الحركة الفكرية على عهد المرينيين"ص 46-47.

48 . المخطوط الأصلي (بخط مؤلفه) محفوظ إلى يومنا في خزانة القرويين (ينظر : المنوني : الخزانة الملكية. في مجلة الإعلامي العدد 2-1981م وتوجد نسخة من هذا المؤلف محفوظة في الخزانة الوطنية مدريد. ننظر «Notes critiques sur les Mss Arabes de la B.N de Madrid، دورمبورغ (Dermbourg)، ص 36 باريس 1904 . وتوجد نسخة أخرى قديمة محفوظة في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 1/3477).

49 . إن هذا الاهتمام المريني بالأدب والفكر سيصل ذروته مع أبي عنان. إذ سيظهر أكبر رجالات الفكر في هذا العصر مثل ابن الحاج، وابن خلدون، وابن الخطيب، وكثيرين آخرين.

50 . إنها عادة قديمة سواء في المشرق أو في المغرب. فنحن نعاين في المؤلفات التاريخية أن "شارلمان" كان يحمل معه في رحلاته خزانته المتنقلة. وكان الأمير العالم ابن عباد يتوفر هو أيضا على خزانة متنقلة كانت تتطلب عشرة جمال لحملها. وتم تجاوز ذلك بعد ظهور كتاب الأغاني للأصفهاني القرن 4هـ /10م. ينظر الجزنائي. زهرة الآس ص 69 :

في تفسير القرآن المسمى «أنوار الفجر» (51) كاملا في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عنان: فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن : علي بن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد : عثمان بن يوسف بن عبد الحق. وكان السلطان أبو عنان إذذاك بمدينة مراكش، وكانت له خزانة كتب يحملها معه في الأسفار، وكنت أخدمه مع جماعة في حزم الكتب ورفعها فعددت أسفار هذا الكتاب. فبلغت عدتها ثمانين مجلدا. ولم ينقص من الكتاب المذكور شيء»(52) فهذا المقطع يحملنا على الاعتقاد بأن أبا عنان كان يتوفر على خزانة كتب كبيرة تضم ترواث عجيبة. فكل الخلفاء الآخرين تقريبا قد تصرفوا بهذا الشكل، وأمروا كتاب القصر أن يؤلفوا كتبا برسم مكتباتهم. وهكذا فقد أهدى مؤلف الذخيرة السنية (53) مخطوطه إلى الخليفة يعقوب أبي يوسف الذي كان قد أمره بتأليفه. فمازالت مخطوطات عديدة تحمل إهداءات مكتوبة إلى هؤلاء الخلفاء، محفوظة إلى يومنا سواء في المغرب أو في الخارج. فنحن نجد في بعض الأجزاء من القرآن (54) إضافة إلى نسخة من شمائل (55) الترمذي إهداءات باسم الخليفة المريني أبي سعيد محفوظة أولاهما في المكتبة العامة في الرباط ثانيهما في الخزانة الوطنية في تونس. وأنجزت مخطوطات أخرى برسم المكتبة الملكية على عهد أبي فارس مثل "السلسل العذب" (56) للحضرمي ، و"الدوحة المشتبكة"(57) للمديوني، و"تخريج الدلالات السمعية"(58) للخزعي. وعلاوة على الكتب المؤلفة لأجله، فإن مكتبة المرينيين الملكية كانت تغتني أيضا من التبادل في الكتب الذي أقامه الخلفاء مع ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى. وهكذا يخبرنا صاحب الاستقصاء أن أبا الحسن المريني (59) كان يتبادل الكتب مع الناصر محمد قلاوون

---

51. هو تفسير للقرآن يوجد في ثمانين ألف ورقة فكان يتوجب على ابن عربي أن يقضي عشرين عاماً من العمل من أجل تحريره
52. ابن فرحون الديباج المذهب سيرة أبي بكر بن عربي ج2 ص 255.
53. مؤلف منسوب إلى ابن أبي زرع.
54. محفوظ في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم ك 2949
55. مخطوط محفوظ في الخزانة الوطنية في تونس تحت رقم 4089. تنظر فهرسة مخطوطات الخزانة الوطنية في تونس.
56. حقق الفاسي هذا المؤلف ونشره في مجلة معهد المخطوطات العربية، ج1. مجلد 10 ص 27-98
57. المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية ص 10.
58. هذا المخطوط محفوظ في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم 1397.
59. كانت قد أنجزت مجموعة من المخطوطات المحفوظة إلى يومنا لأجل هاته الخزانة على عهد الخليفة أبي الحسن. وهكذا ألف أبو الحسن المراكشي مؤلفين في الطب وأهداهما إلى خزانة هذا الخليفة. وألف أيضا ابن مرزوق مؤلفه المعنون "المسند الحسن في مآثر أبي الحسن " لأجل الخليفة المريني. إنها دراسة وافية متعلقة بالخليفة المريني أبي الحسن حققها ليفي بروفانصال وتم نشرها في مجلة هسبريس 1925.

من مصر [60] ، ونحن لا نتوفر على عهد الوطاسيين إلا على معلومات قليلة متعلقة بهاته المؤسسة الملكية. وقد تم ذكرها مرة واحدة بمناسبة إهداء كتاب من القاهرة إلى الخليفة أبي العباس أحمد الوطاسي. يخبرنا صاحب "دوحة الناشر" بما يلي في هذا الشأن « ... وذكر لي الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الشريف وغيره أن الفقيه الخطيب أبا علي حرزوز المكناسي نقل للشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر الرجراجي هذه السلسلة النورانية من خزانة السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي، وقد أهديت إليه من الديار المصرية ... وفيها أن الشيخ عبد الرحمن المدني أخذ عن شيخه تقي الدين الصوفي ...»[61].

2-1-1 خزانة الكتب الملكية على السعديين

إذا كنا نفتقر إلى المعلومات الدقيقة المتعلقة بخزانات الكتب الملكية عند الدولتين السابقتين، فإننا على النقيض من ذلك نتوفر على كثير من المعلومات المتعلقة بأصول الخزانات الملكية و تأسيسها على عهد السعديين والعلويين.

يخبرنا التاريخ فيما يتعلق بخزانة الشرفاء السعديين بأن هاته الأخيرة تعود في أصلها إلى مؤسس هاته الدولة نفسه محمد القيم الذي كان عالما وولوعا بالكتب. وتكونت هاته الخزانة في مجموعتها الأولى من المخطوطات التي حصل عليها الأميران السعديان أحمد الأعرج ومحمد أمغار لحظة إقامتهما في عاصمة الوطاسيين. فالخليفة أحمد الوطاسي، وبملاحظته لثقافة هذين الأميرين العالية، وذكائهما الثاقب، عينهما معلمين لأبنائه، فكانت أبواب خزانة الملك مفتوحة لهما على مصراعيها. فلم يتردد الأميران في أخذ الكتب والأبحاث التي انتهى بها المطاف بطبيعة الحال إلى الخزانة السعدية [62]. وقد ازهرت الخزانة الملكية لهاته الدولة على عهد الخليفة الكبير المنصور الذهبي. فهذا الأخير كان محبا للعلوم جماعا للكتب في أنواعها

---

60 .أحمد الناصري : الاستقصا ج 3 ص 127.

61 .ابن عسكر : "دوحة الناشر"ص5.

62 .ينظر المختار السوسي : المعسول ج 3 ص 332.

بما لم يجمعه أحد من الملوك من قبله. يقول الإفراني : « ... وكانت للمنصور عناية تامة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها من كل جهة، فجمع من غريب الدفاتر مالم تكن لمن قبله ولا يتهيأ لمن بعده مثله وجل كتبه طالعه كله ووقف عليه بخطه، ونبه على الغامض وشرح الغريب ...»[63].

إن المنصور، وسعيا إلى تزويد خزانته بالكتب ، كان يرسل إلى كل الأقطار الإسلامية (القاهرة، مكة، استانبول)تجارا أمناء، وكان يسلمهم مبالغ هائلة مكلفا إياهم بأن يشتروا له الكتب[64]. فنحن نقرأ في إحدى الرسائل السعدية التي حققها العالم عبد الله گنون أن موظفي القصر السعدي كانوا يذهبون دائما إلى الشرق الأوسط، وكانوا يعودون بالمؤلفات، بعد أن يفرغوا الأكياس المليئة بالذهب التي كانت تحملها قوافلهم [65]. وبما أنهم كانوا يعرفون شغفه الدائم بالكتب. ومبادرته إلى اقتنائها بالأثمنة الباهضة، فقد كانوا يحملونها له من كل البلدان، وكان المنصور يرعى أيضا في قصره الخطاطين البارعين، والنساخ الأكفاء كما كان يرعى رجالاً متضلعين في فن الخط و فن التجليد.

إن الناس قد بدأوا في هاته الفترة يكتبون بماء الذهب عوض المداد أو بالعنبر المرشوش بماء الورد، وبدأوا ينشفون بواسطة التبر عوض التراب [66]. وكانت هاته المؤسسة الملكية السعدية تضم أيضا المترجمين. فزيدان ابن المنصور ووارث سره قد أبقى الدومينيكي الإرلندي "أنطوار دوسانت ماري" سجينا في مراكش، وذلك لكي يترجم له إلى اللغة القشتالية ما كان يتوفر عليه من كتب لاتينية. وبعد ذلك ترجمها رجل مرتد إلى اللغة العربية. فكان يجب على هذا الدومينيكي أن يقضي ثمان سنوات في قصر الخليفة للقيام بمهمة المترجم [67].

إن خزانة الكتب الملكية على عهد السعديين، على غرار الخزانات الملكية السابقة، قد اغتنت بهدايا قيمة قدمها لها الكتاب المحليون بالإضافة إلى كتاب الأقطار الإسلامية الأخرى. فقد كان العلماء المغاربة

63. الإفراني : نزهة الحادي ص :136.

64. گنون : رسائل سعدية ص 80-81 ينظر الناصري، الاستقصا. ج 5 ص 79

65. المرجع نفسه.

66. نفسه.

67. ينظر : "دوڤردان" Deverdun Marrakech des origines à1912 ج 1 ص 434.

يؤلفون الكتب ويهدونها إلى الخلفاء . ويخبرنا صاحب "روضة الآس" [68] أن المئات من المؤلفات في شتى المواضيع المعرفية إنما كتبت برسم خزانة المنصور الذهبي . ونذكر على سبيل المثال الكتب التي ألفها العالم عبد الواحد الرجراجي التي هي في أغلبها كتب في أصول الدين ، وفي اللغة ، وصنعة الشعر ، من مثل : ترتيب ديوان المتنبي [69] .

وألف العالم والبحاثة سعيد الماغوسي الذي عاصر الذهبي بدوره كتبا برسم المكتبة الملكية ، وبهذا الصدد نحن مدينون للإفراني بالتفاصيل التالية : «ومما تيسر به تهيئا وعجبا خزانته (خزانة المنصور الذهبي) على سائر الخزائن الملوكية تآليف الإمام الفاضل العلامة الرحالة أبو جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي التي فيها شرح لامية المعجم أملاه كله أو بعضه في المشرق وهذبه بالمغرب وخدم به المنصور وله شرح على درر السمط في أخبار ابن الأبار ...» [70] لقد كان الخلفاء السعديون ، على غرار سابقيهم المرينيين ، يطلبون من المسافرين أن يكتبوا رحلاتهم برسم مكتباتهم وهذا ما جعل الذهبي يدعو سفيره التمكروتي في "إستانبول" إلى كتابة رحلته مع ملحوظاته في السفر .

فتمت الاستجابة إلى الملك ، وقدم التمكروتي كتابه النفحة المسكية إلى الخليفة [71] . وأفادت خزانة الكتب الملكية على عهد السعديين أيضا من العلاقات الجيدة التي حصلت بين الخلفاء والعلماء ، والملوك ، وكبار الشخصيات من الدول الإسلامية الأخرى . فنحن نقف في التاريخ على أن الخليفة المنصور الذهبي قد عقد علاقات مع علماء ينتمون إلى العديد من العواصم الإسلامية . فقد كان يتراسل مثلا مع الكاتب أبي الحسن البكري [72] ، الذي كان ينتمي إلى إحدى العائلات البورجوازية الكبيرة في مصر . ويخبرنا صاحب

---

68 . المقري : روضة الآس ص 69-70 .

69 . نفسه .

70 . الإفراني : نزهة الحادي ص 119 نشير إلى أن الخزانات المغربية والأجنبية مازالت تحتفظ دائما بالمصاحف والمقالات والكتب التي أنجزت برسم هاته المجموعة الملكية . وهكذا تحتفظ خزانة المتحف البريطاني في لندن على مصحف جميل مزخرف ومكتوب في 975هـ 1567م لأجل خزانة الخليفة السعدي عبد الله الغالب ينظر : Supplément to catalogue of the arabic Mss in The British Museum لوندر 1894 ، ص 43 رقم 168 . وفي الخزانة العامة بالرباط هناك نسخة محفوظة من المؤلف الكبير الصوفي "التشوف إلى رجال التصوف" للزيات التادلي المتوفى سنة 627 هـ 1229 م يحمل قيد التملك باسم الخليفة السعدي أبي فارس عبد الله الواثق . فهذا المخطوط محفوظ تحت رقم ج 859 .

71 . التمكروتي : النفحة المسكية ص 4 ترجمة وتحقيق دوكستر .

72 . تنظر ترجمته في ريحانة الألباء للخفاجي ص : 315

«الخزانة العلمية» بالرسالة التي بعثها المنصور الذهبي إلى هذا العالم «ووجهنا إليكم بهذه العجلة مع مبلغها الفقيه الخير الأرضى أبي محمد عبد العزيز الثعالبي القادم على تلكم البلاد بنية طلب العلم ولقاء مشيخته ورواته وجلب الذخائر الثمينة من مصنفاته» [73] . وجوابا على هاته الرسالة أرسل البكري إلى المنصور عددا من المصنفات وخصوصا فهرسته التي ألفها خصيصا لأجله. وبعث المنصور أيضا رسالة إلى العالم الكبير المصري أبي زيد عبد الرحمن الحميري متضمنة لقائمة تحمل عناوين المؤلفات التي كان يرغب فيها . والتي رآها جديرة بمكتبته وأقرب إليه من حبل الوريد [74] .

إن علاقات الخليفة المنصور لم تكن مقتصرة على مصر ، وإنما كانت تمتد إلى الأقطار الإسلامية الأخرى، وخصوصا تركيا . وعلى هذا النحو كان يتراسل مع العالم التركي مصطفى بن حسن الجَنَبي 1590/ 999 الذي توصل منه بكتاب : "العلم الزاهر" [75] . فصاحب "الريحانة" يخبرنا أن المنصور كان في علاقة دائمة مع العالم ابن شهاب الدين الشنواني . فقد أرسل إليه هذا الأخير كتبه، وهذا ما قاله الخفاجي بهذا الصدد : «ولما بلغه شرح توضيح ابن هشام الذي صنفه الأستاذ الخال في مجلدات أرسل إليه عطية جزيلة ورجا منه إرسال نسخة وصورة ما كتبه إليه من عبد الله المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين الشريف الحسني أمد الله بعزيز نصره أوامره»[76] وكانت هاته الأخيرة تضم أمداحا . وقد نشد السلطان نسخة منها . وكان العم الأموي المعني هو أبا بكر إسماعيل بن شهاب الدين الشنواني المتوفى سنة 1019هـ/1610م، والشرح هو "التهذيب" لابن هشام في عدة مجلدات . وفي إطار علاقات الخليفة المنصور مع العلماء التركيين، كان يراسل الموسوعي والبحاثة محمد أمين الدفتري المتوفى سنة 1019هـ/1610م . يخبرنا

---

73 . العابد الفاسي : الخزانة العلمية ص 42 .

74 . نفسه .

75 . نفسه .

76 . الخفاجي : الريحانة ص 143 ينظر أيضا القادري : نشر المثاني : ترجمة "غرول " ص 167 في مجلة الوثائق المغربية ج 21 ، ينظر أيضا العابد الفاسي : الخزانة العلمية ص 40 .

المحبي أن هذا الأخير كان يجمع نفائس الكتب وكان يرسلها إلى المنصور الذهبي [77]. إن الخلفاء السعديين قد وسعوا دائرة علاقاتهم لتشمل المستشرقين الأوربيين، وذلك توخيا لإثراء مجاميعهم الملوكية الخاصة. ذهب المقري إلى أن الخليفة المنصور كان قد أهداه أسقفي أوربي كبير [78] كتابا في الطب مكتوبا باللاتينية.

وتوصل الخليفة زيدان خليفة المنصور من المستشرق الهولندي "إيربنيوس" 1623 بإنجيل مكتوب باللغة العربية [79]. وتوصل نفس الخليفة من "جوليوس" تلميذ "إيربنيوس"بمؤلف "العهد الجديد" وبمصور جغرافي بالعربية، كما يظهر ذلك "ليون غودار" في كتابه "تاريخ المغرب". «أرسلت الأراضي المنخفضة في 1622 وفدا رسميا جديدا يدين بنجاحه إلى العالم "جوليوس" تلميذ " إيربنيوس". فقد أهدى "جوليوس" إلى الأمير العربي مؤلف "العهد الجديد" ومصورًا جغرافيا بالعربية. وكان زيدان فوق ذلك يهتم بهاته الكتب أكثر من الجواب عن السفراء. فلكي يعجل "جوليوس" بنهاية ضجرهم أرسل التماسا بالعربية أعجب فيه الأمير العربي بالخط والتحرير» [80]. إن هاته الهدايا القيمة، وهاته المخطوطات الأصلية، وهاته المصاحف الرقية المزخرفة التي كان يتوصل بها الخلفاء السعديون هي التي جعلت من هاته المكتبة أول مجموعة ملكية لم يشهد لها مثيل. فقد كانت كل الكتب تقريبا إما تحفا في فن الخط، أو منتسخة بخط أعلام مشهورين، أو نسخا بخط أصحابها.

وقد بقيت هاته الخزانة الكبيرة [81] والرائعة مزدهرة على عهد مولاي زيدان، وشاء الحظ أن ينتهي جزء كبير من هاته الخزانة إلى خزانة الأسكوريال في إسبانيا [82]. ويتفرق ما تبقى شذرمذر إلى المجموعات الخاصة.

---

77. المحبي : خلاصات الآثار ج 4 ص253. القاهرة 1284هـ.

78. المقري : روضة الآس ص 217 ويتعلق الأمر بكتاب "مغنى الطبيب عن كتب أعداد الحبيب"

79. "دوڤردان" Deverdun : "مراكش" ج1ص 435ينظر أيضا : "دوكستر"، السلسلة الأولى الأراضي المنخفضة 3 ص 359.

80. "ليون غودار" L.Godart «Description et histoire du Maroc» ص 483. ويظهر لنا هذا الكتاب إلى أي درجة كان الخليفة شغوفا بالكتب.

81. قد تكون وصلت حسب محمد الفاسي إلى 32000 مجلد ونحن نذهب إلى أنها قد تكون ضمت أكثر من هذا ينظر "دعوة الحق" العدد 3 ص22 سنة 1958.

82. ينظر محنة الخزانة المغربية في الباب الثاني من هذا العمل.

3-1-1 خزانة الكتب على عهد الدولة العلوية

تعود الأصول الأولى لخزانة الكتب الملكية على عهد العلويين، شأنها في ذلك شأن خزانة الكتب الملكية عند السعديين، إلى مؤسس هاته الدولة نفسه ونعني به الشريف مولاي رشيد [83]. ففي عهد هذا الخليفة الذي كان عالما وراعيا للآداب، أنعش النشاط الفكري في المغرب. وازدهر هذا النشاط بوصول العلماء والأدباء الذين تتلمذوا في مراكز دراسية وفي زوايا منعزلة. وقد صنع العلويون خزانة البلاط [84] مما غنموه من كتب الزوايا وكتب الدول السابقة وعلى هذا النحو، نقل مولاي رشيد عددا كبيرا من كتب الزاوية الدلائية [85] إلى قصره في فاس لتشكيل نواة للخزانة الملكية عند العلويين. وستغتني هاته الأخيرة كثيرا بما كان قد تبقى من الخزانات الملكية والأميرية عند السعديين من جهة، ومن الاقتناءات والنساخة والهدايا النفيسة التي كان يتوصل بها مولاي رشيد من جهة أخرى.

وأحدث مولاي رشيد ديوانا لانتساخ المخطوطات أسماه «ديوان الوراقة» وجعله متصلا بالخزانة، توخيا لتزويد المكتبة الملكية ومكتبات أمراء هاته الأسرة الشريفة. وكان كاتبه الأول هو المؤذن الكاتب السجلماسي [86]. ومع موت مولاي رشيد نقلت هاته المكتبة إلى مكناس التي أصبحت عاصمة المغرب على عهد الملك مولاي إسماعيل. وقد شيد هذا الأخير، بناية خاصة تسمى "دويرة الكتب" لحفظ الكتب الملكية التي وصلت على عهد خلافته الطويلة إلى اثني عشرة ألف مخطوط [87]. وفي القرن 18 ستقام المكتبة الملكية في مراكش التي أصبحت من جديد عاصمة المغرب على عهد الملك محمد بن عبد الله، وسيتم نقلها أخيرا إلى الرباط بشكل نهائي؛ الرباط التي تم اختيارها لأن تكون عاصمة للمملكة غداة

---

83. أقيمت الخزانة في القصر الملكي في فاس، عاصمة المملكة

84. يذكرنا هذا بوضع الخزانة الأوربية غداة الإصلاح الديني في القرن 16م. فقد استعان الملوك من مختلف الدول بمجموعات الخزانات الرهبانية المهملة لتزويد خزاناتهم الخاصة ينظر "سفندال" Svend Dahl، Histoire du livre "تاريخ الكتاب"، ص 144.

85. يبدو أن جزءا من مجموعة خزانة الزاوية الحمزية قد تم نقله إلى فاس بعد أن أبعد مولاي رشيد شيوخها.

86. ابن زيدان: الاتحاف ج 4 ص 381 ينظر أيضا القادري نشر المثاني، مخطوط الخزانة العامة رقم ك 2253.

87. الزياني: الترجمانة ص 12. ينظر أيضا: الإفراني روضة التعريف ص 68-69. ينظر أيضا عبد السلام بن محمد بن عبد الله العلوي: درة السلوك ص 215 مخطوط الخزانة الملكية محفوظ تحت رقم 237.

استقرار الحماية الفرنسية سنة 1912 . إن المعلومات الوافرة التي جمعناها بخصوص المكتبة الملكية على عهد العلويين مكنتنا من أن نضع اليد على العوامل الرئيسة التي كانت وراء تأسيسها عبر تاريخ هاته الدولة.

فيجب علينا ، قبل كل شيء ، أن نشير إلى ما يتميز به الخلفاء من معرفة واهتمام بالأدب. فقد كانوا كلهم تقريبا كتابا . فآثارهم التي ترتبط بمجموعة من الفروع العلمية مازالت إلى يومنا هذا محفوظة في الخزانات المغربية [88] . إن تبحرهم في المعرفة، وحبهم للأدب، وشغفهم بالكتب، قد شجع العلماء الذين وجدوا إلى جانبهم الحماية، والسند، والممول المادي، والمعنوي. فأغلب المخطوطات الأصلية أو مبيضات الآثار العلمية والأدبية الكبيرة المنجزة في المغرب؛ والمحفوظة إلى يومنا هذا مازالت تحمل إهداءات باسم هؤلاء الملوك. ومن ضمن المؤلفات المهداة إلى المكتبة الملكية نذكر "روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف"[89] الذي كتبه الإفراني المتوفى سنة 1150 ، وأهداه إلى الخليفة مولاي إسماعيل. ونذكر أيضا آثار الموسوعي والبحاثة والمؤرخ الكبير أبي القاسم الزياني 1249هـ/1833م التي أهداها إلى الملك مولاي سليمان 1822م، ومن ضمن ما أهدى إليه كتاب "البستان" و"ألفية السلوك في وفيات الملوك" و"شرحه الترجمان المعرب"[90] . فكل هاته المؤلفات أنجزت بطبيعة الحال برسم المكتبة الملكية. ولم يكن الملوك العلويون يكتفون فقط بالمؤلفات التي كان يهديها إليهم كتابهم المقربون، بل كانوا يأمرون أيضا هؤلاء الكتاب بتأليف الكتب التي كانت تنقصهم، والتي كانوا يعتبرونها خليقة بأن توضع في مكاتبهم الملكية. وعلى هذا النحو ألف محمد بن ريسون العلمي التطواني (1236هـ/1820م) «فتح العالم الخبير في تحديد النسب بأمر من الأمير» بإشارة من الملك محمد بن عبد الله. إنه كتاب أنساب دون فيه المؤلف كل فروع الشرفاء العلويين [91] . وألف العالم محمد بن عبد القادر السلاوي بإشارة من هذا الخليفة نفسه «إدراك الأماني من كتاب

---

88 . تحتفظ الخزانة الملكية تقريبا بكل النسخ المكتوبة بيد ملوك هاته الدولة. ونذكر على سبيل المثال "الفتوحات الإلهية" وهو مؤلف للملك محمد الثالث. والبحوث الفقهية التي ألفها الملك مولاي حفيظ (1912).

89 . مخطوط من الخزانة الملكية نشر على نفقة المطبعة الملكية في سنة 1964 .

90 . قام "هوداس" Houdas بتحقيق هذا المخطوط وترجم جزءا منه باريس 1886 . ينظر الزياني : الترجمانة الكبرى ص 571-572

91 . مخطوط محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 112 وأنجز بخط مغربي

الأغاني»[92] وهو تلخيص لكتاب الأغاني للإصفهاني المتوفى سنة 356 هـ الذي أراد الملك محمد الثالث إحياءه من جديد. ونذكر أيضا كتاب "الجيش العرمرم"[93] للمؤرخ محمد أكنسوس المتوفى سنة 1294هـ/1877م والذي ألفه بإشارة من الملك العلوي محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 1873. ولقد كان الملوك العلويون، شأنهم في ذلك شأن السعديين، في علاقة مع الخلفاء الآخرين والعلماء الشهيرين في الأقطار الإسلامية الأخرى، وذلك توخيا للحصول على الكتب التي كانوا يرغبون فيها، ولم تكن موجودة عندهم، وذلك عبر التبادل أو عبر الاقتناء.

وكانت لمحمد بن عبد الله (المتوفى سنة 1790م) علاقات مع مجموعة من علماء العصر الوسيط ومع علماء استانبول [94]. فقد أمده هؤلاء الأخيرون بمجموعة من المؤلفات التي سيفيد منها العلماء المغاربة فائدة كبيرة. فقد كانت هاته الكتب مخصصة بطبيعة الحال للمكتبة الملكية. وكان الحسن الأول (المتوفى سنة 1894م) يتراسل هو أيضا مع العلماء والشخصيات الأجنبية المرموقة بغية الحصول على ما جد من كتب. وقد بحث في أي مكان وبإلحاح عن المصنفات المرتبطة بالكيمياء، وذلك لشغفه بهذا العلم. وقد مكنته علاقاته الجيدة مع الملوك المصريين من أن يستعير المخطوطات المتعلقة بالكيمياء من الخزانة الخديوية. وكان الحسن الأول ينتسخ هاته المخطوطات قبل أن يرجعها إلى الخديوي[95]. وزودت هاته المكتبة الملكية أيضا بالمؤلفات المكتوبة بلغات أجنبية، وخاصة الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية. ونحن نعرف أن العلماء في مكتبة محمد بن عبد الله كانوا يبذلون مجهودا كبيرا من أجل ترجمة مختلف كتب العلوم إلى العربية. فقد كان يشتغل في قصر هذا الخليفة العديد من متعددي اللغات الذين كانوا يتقنون مهنة

---

92. المخطوط الأصلي محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 2706. والكتاب ألف في 25مجلدا ضاع منه الجزء 18أنجز في 1180 هـ في حياة مؤلفه بخط مغربي.

93. يؤكد أكنسوس في التمهيد أن هذا المؤلف قد ألف بطلب من الخليفة. فالمخطوط محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 26. وقد طبع طباعة حجرية في فاس في 1918 في مجلدين. ينظر بروكلمان الملحق II ص : 885.

94. تضم خزانة القرويين حاليا وثائق مرتبطة بهاته المراسلات. ينظر الفاسي : الخزانة العلمية ص 57.

95. "سلمون" "Notes sur L'alchimie à Fès G. "Salmon" في مجلة «archives marocaines»1907 مجلد7.

الترجمة [96] ، وكان اقتناء الكتب من أهم عوامل إغناء المكتبة الملكية على عهد دولة العلويين .وعلى غرار الملك مولاي رشيد فإن الملوك الذين أتوا بعده لم يتراجعوا أمام أي عقبة ،ولا أي ثمن للحصول على المجموعات النفيسة. فهم لم يكونوا يتفننون فقط في إرسال العلماء من ضمن كتابهم وخدامهم إلى الخارج لكي يشتروا لهم الكتب، ولكنهم كانوا يكلفون الحجاج باقتناء الكتب التي قد يجدونها معروضة للبيع في الأقطار التي كانوا يعبرونهاوهم سائرون إلى مكة. أخبرنا الرحالة عبد السلام الناصري (المتوفى سنة 1824م) في كتابه "طلعة المشتري" بحكاية في هذا الصدد ، فقد وجد الناصري أثناء سفره إلى مكة مصنفا قيما من أحاديث البخاري معروضا للبيع عند كتبي في ليبيا . وكانت النسخة مكتوبة بخط أبي علي الصفدي، وكانت تساوي سبعين دينارا حسب تقدير الناصري الذي لم يستطع الحصول عليها لثمنها المرتفع؛ فهي نسخة نادرة تضم روايات علماء الحديث في القرون الماضية منذ عياض المتوفى سنة 544هـ/1149م إلى ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852 هـ /1448م. فهي كانت المصدر المعتمد الذي يحكمونه في حالة الاختلاف. إن ابن الناصر الذي كان يقدره كثيرا الملك العلوي مولاي سليمان قد أخبر هذا الأخير بتعلقه المطلق بهاته النسخة لحظة عودته. فبعث الملك العالم مبعوثا له مع مبلغ قدره ألف مثقال [97] للحصول على الكتاب. فكان من البائع أن قبل البيع، ووعد الملك بأن يحمل إليه المخطوط بنفسه، ولكنه منع من السفر بسبب الأحداث التي وقعت ما بين أتراك تونس والجزائر [98] . وتكفينا هاته الحكاية الوجيزة للوقوف بشغف الخلفاء العلويين، وسرعتهم في البحث عن الكتب، واقتناء نفائسها . فقد كان الملوك العلويون يشترون المكتبات الخاصة المعروضة للبيع بعد موت أصحابها [99] ، وذلك هدفا في إثراء المكتبة الملكية. وكان هؤلاء

---

96 . ينظر الفصل الثالث ، الباب الأول : حركة "التأليف"

97 . عملة العصر.

98 . الناصري «طلعة المشتري»ج 2 ص 164 ينظر أيضا "كتاب المزايا" لمحمد بن عبد السلام الناصري، ينظر أيضا : محمد لخضر "الحركة الفكرية على عهد العلويين" ص 295.

99 . ما أكثر العلماء والأدباء في المغرب الذين قضوا كل حياتهم في جمع خزانة كتب ستتعرض بعدهم للتشتت أو للبيع بثمن بخس إلى الكتبيين والى محبي الكتب. وتضم كتب التراجم نماذج عديدة من ذلك .

الخلفاء يستولون أيضا على خزانات الكتب الخاصة التي أصبحت بدون وارث شرعي(100)، بل إنهم كانوا يلجأون حتى إلى المصادرة لها إذا كانت هاته الأخيرة تحتوي على مخطوطات تعنيهم. فقد صادر الملك الحسن الأول المتوفى سنة 1894م المكتبة الخاصة لليهودي مخلوف أمسلم التي كانت تحتوي على كثير من المؤلفات المتعلقة بالعلم الذي كان يهتم به(الخيمياء) (101). وكانت المكتبات العامة كذلك في متناول هؤلاء الخلفاء الذين لم يكونوا يترددون في استخدامها لصالح مكتباتهم الخاصة. فنحن نعلم مثلا أن الملك مولاي حفيظ (المتوفى سنة 1937) استولى على عدد من الكتب المنتمية إلى عدة مكتبات عامة، ونعني بها مكتبة ابن يوسف في مراكش، ومكتبة المسجد الكبير بالرباط، وأخيرا مكتبة القرويين في فاس. إن حدثا من هذا القبيل سيكون موضع انتقاد لاذع إذا لم يكن الباعث من ورائه، في الواقع، الشغف الكبير بالعلم والمعرفة. فمولاي حفيظ الفقيه، ورجل العلم، كان يأخذ من المكتبات ما يحتاجه من كتب في التأليف، وكان يوقف هاته الكتب على نفس هاته الخزانات (102). وفوق هذا فالسلطان مولاي حفيظ لم يكن السياسي الوحيد الذي استفاد من المكتبات العامة. فقد سبقه أبوه الحسن الأول الذي كان يقضي كل أوقاته في دراسة الخيمياء، إذ جمع كل المخطوطات المرتبطة بهذا العلم من مكتبات القرويين، و الجوامع التعليمية الأخرى. فقد بلغنا أيضا من خلال وثيقة نقلها لنا "دوگاستر" Castries المتوفى سنة 1927م (103) أن الخليفة السعدي أحمد المنصور جاء إلى مراكش عاصمة المملكة بمخطوطات من القرويين، كان يحتاجها هو والمقربون منه من الأدباء. فهؤلاء الخلفاء العلماء ومحبو الكتب المنبهون كانوا يعتنون بالعلوم والفنون، فهم كانوا على العموم محبين للكتب. إن تصرفهم بإزاء كتب الخزائن العامة لم يكن له هدف آخر غير خدمة العلم..

---

100. "لوتورنو" Le tourneau؛ "فاس قبل الحماية" (Fès avant le protectorat) ص 473.

101. "سلمون" G. Salmon (Notes sur l'alchimie à Fès) في مجلة Archives mocaines، 1907. مجلد 7.

102. صادرت الحماية الخزانة الخاصة لمولاي حفيظ. وشكلت قسطا من المجموعات الأولى لمخطوطات الخزانة العامة بالرباط التي أسستها الحماية الفرنسية في 1920.

103. "دوكستر" "de castries" المصادر الدفينة لتاريخ المغرب : SIHM السلسلة الأولى، الأراضي المنخفضة 3/ ص 359.

كان هذا حديثنا عن أصل و تأسيس المكتبة الملكية على عهد الدولة العلوية، فماذا عن تنظيمها ومميزاتها ؟

2-1 خزانة الكتب الملكية : التنظيم والمميزات.

1-2-1 التنظيم

إن المؤرخين المغاربة القلائل الذين حاولوا توضيح بعض مظاهر خزانة الكتب الملكية في المغرب قد أهملوا الكلام عن تنظيمها الإداري بشكل نهائي تقريبا . والمعلومات التي توصلنا بها في هذا الباب لم تتحدث عن مهمة محافظ هاته الخزانة إلا عبر تفاصيل غير كافية بالرغم من أهميتها . وستعهد هاته الوظيفة التي سبق التعرف عليها ومزاولتها في الفترات السابقة كالمعتاد في الدول الجديدة إلى العلماء والأدباء المعروفين بعلمهم، وتبحرهم، وأمانتهم. ولقد توصلنا بأسماء بعض هؤلاء القيمين الأجلاء الذين أنيطت بهم هاته المهمة الهامة. فالمعلومات المرتبطة بهاته الوظيفة غائبة على عهد بني مرين. . في غياب حديث التاريخ عن شكل هاته المؤسسة الملكية في هاته الفترة فإنه صمت أيضا عن الحديث عن تنظيمها . ومع ذلك فصاحب "زهرة الآس" أنبأنا أن الخليفة المريني أبا عنان عين قيِّماً على رأس مكتبة القرويين في سنة 750هـ/1349م [104] وسيكون من الغريب إذن ألا يفعل هذا الخليفة بخزانته الملكية الرائعة نفس الشيء . ونحن نذهب إلى أنه كان يجب أن يعهد بهاته المهمة إلى أحد علماء الفترة البارزين. وفي عهد السعديين نجد أن المعلومات المتعلقة بالخزانة الملكية هي أيضا نادرة.

فعلى الرغم من أن خلفاء هاته الدولة قد جمعوا خزانة كتب لم تتهيأ لأحد قبلهم، فإن التاريخ لم يحدثنا عن العلماء الذين عهدت إليهم بالتوالي مهمة محافظ هاته المؤسسة السعدية، بيد أن الشهرة التي كانت تتمتع بها هاته المكتبة، والكتب النفيسة التي زودت بها ، والتي جمعت من كل أقطار العالم تحملنا

104 .الجزناتي : زهرة الآس ص 76.

على الاعتقاد بأن هاته المؤسسة العلمية السعدية كانت منظمة، وكان يعهد بها، بدون شك إما إلى علماء مشهورين بكفاءتهم العلمية، أو إلى الموظفين السامين [105]. ويؤكد لنا الإفراني، الذي سبق أن تعرفنا عليه، أن خزانة كتب الخليفة المنصور الذهبي كانت إحدى الخزانات الملكية الأكثر تنظيما وبهاء بدون أن يخبرنا، لهذا السبب، عن تنظيمها، ولا عن الأشخاص الذين أوكلت إليهم مهمة المحافظ [106].

وفي عهد العلويين فإن التاريخ أطنب هاته المرة فيما هو متعلق بهاته المؤسسة. فقد حفظ لنا لحسن الحظ كثيرا من الجزئيات المتعلقة بهاته الوظيفة. وهكذا فقد أخبرنا صاحب «سناء المهتدي» أن السلطان مولاي اسماعيل المتوفى سنة 1140هـ/ 1727م قد عهد بمسئولية خزانته العظيمة إلى شيخه الوزير العالم البارز أحمد بن حسن اليحمدي، وقد عينه أمينا للخزانة التي كانت تضم، حسب "الزرويلي" مجموعات قيمة ما كانت تتوفر عليها خزانات العباسيين في بغداد [107]

إن الملك الألمعي والبحاثة محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1205هـ/1790م قد جمع مكتبة هائلة، وعين على رأسها العالم والقاضي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن السيد العلوي [108]. وقد أنبأنا "لومبريير" أن هاته المجموعة الملكية الضخمة التي زودت بعيون الخط العربي قد تطلبت تعيين محافظ آخر لم يصلنا اسمه [109]. وتدل الأمثلة المذكورة على أن الخزانة الملكية في عهد دولة العلويين كان على رأسها دائما محافظ أو محافظان. وكان يتم اختيار هذين الأخيرين دائما إما من ضمن المتبحرين في المعرفة، أوالوزراء، أو قضاة المملكة. فمهمتهم كانت هي السهر على التصنيف وحفظ الكتب، والعمل المكتبي العام. وكانت هاته المؤسسة مزودة بدون شك بقاعة الترجمة، ومنتسخ، ومحترف للترميم، والتجليد، حيث كان الباحثون، والكتاب، والمجلدون، يزاولون مهنة التجليد، ومهنة الترميم. ونقف في التاريخ على أن السلطان

105. حينما شيد المنصور الذهبي خزانة القرويين أراد أن يكون محافظ هاته المؤسسة هو أحد أبناء الشيخ أبي المحاسن الفاسي، إلا أن هذا الأخير قد رفض الطلب بأدب ينظر : مرآة المحاسن : ص 30.

106. الإفراني : نزهة الحادي ص 137.

107. الزرويلي : سنا المهتدي ص 11. مخطوط في الخزانة الملكية، رقم 521.

108. الكتاني : فهرس الفهارس، ج2 ص 381، ينظر أيضا ابن زيدان : الإتحاف ج 3 طنجة 1936 ص 185.

109. "لومبريير" Lemprière : Voyages ص 202، ط 1790.

محمد بن عبد الله جنّد مجموعة من النساخ لانتساخ الكتب النادرة التي جاء بها من خزانة القرويين في مراكش، عاصمة مملكته بقصد وقفها على الخزانات ذات الطابع العام في القاهرة، والإسكندرية، ومكة، وخاصة خزانات المغرب، وقد أخبرنا صاحب "الإتحاف" بعناوين عدد من المؤلفات المتنسخة بإشارة من هذا الملك العلوي : كتاب "العبر" أو "تاريخ البرابرة" لابن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1406م، و"قلائد العقيان" لابن خاقان المتوفى سنة 535هـ، 1141م، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان المتوفى سنة 681هـ/1282م، و"الأغاني" للإصفهاني المتوفى سنة 356هـ/966م، و"نفح الطيب" للمقري المتوفى سنة 1041هـ/1631م، وكثير من المؤلفات الأخرى [110].

إن المجموعات الغنية لهاته المكتبة الملكية قد دعت أصحاب المصاحف إلى تصنيفها وفهرستها إذ يصح لنا أن نقول، منطلقين مما يوجد اليوم من لوائح محفوظة في المكتبة الملكية في الرباط [111]، إن الفهرسة التي تم القيام بها بعيدة عن أن تكون فهرسة منهجية، إنها ضرب من اللوائح الحاملة لعناوين المؤلفات في المكتبة بدون أي تصنيف، ولا أي منهج. إن السلطان مولاي إسماعيل الذي أمر محافظي مكتبة القرويين بفهرسة كتب هاته الخزائن كان عليه أن يقوم بنفس الأمر بالنسبة لخزانة كتبه العامرة الموجودة في مكناس[112]. ويذهب العابد الفسي إلى أن خزانة القرويين كانت تحتوي على فهارس متعلقة بخزانة كتب الحسن الأول. وضاع منا اليوم [113] عدد كبير من المؤلفات الواردة في هاته الفهارس. إن خزانة الكتب الملكية على عهد العلويين، شأنها في ذلك شأن خزانات المرينيين والسعديين، قد عهد بها لأحد المحافظين، وأرفقت بفهارس منهجية إلى حد ما. وعموما فالمعلومات التي تمكنا من الحصول عليها بخصوص التنظيم الإداري لخزانة الكتب الملكية لحظة ازدهارها ترتبط بوجه خاص بمهمة محافظ الخزانة التي عهد بها كالمعتاد

110 . ابن زيدان : الإتحاف ج 3 ص 251.

111 . تشير الأرقام 4263 و 6586 و 4429 و4259 و4433 و8252 و4883 و4428 إلى لوائح محتويات الخزانة الملكية في عهد الملوك مولاي عبد الرحمن والحسن الأول ومولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ.

112 . الفاسي : الخزانة العلمية ص 56.

113 . الفاسي : الخزانة العلمية ص 60.

إلى العلماء والأدباء المشهورين بمعرفتهم، وتبحرهم، واستقامتهم. أما فيما يتعلق بما نتوفر عليه من تفاصيل مرتبطة بالفهارس، فهي تبقى غير كافية على الرغم من أهميتها .

2-2-1 مميزات خزانة الكتب الملكية

لم تكن خزانات الكتب في المغرب قبل حدوث دولة بني مرين تتوفر على بناء خاص حسب ما نرى. فليس هناك نصوص واضحة متعلقة ببنايات الخزانات قبل القرن 13، سواء تعلق الأمر بخزانات الملوك، أو خزانات المساجد، أو الجوامع. إننا نفتقد إلى التفاصيل المتعلقة بتشييد بناء مخصص للخزانة الملكية على عهد المرينيين والسعديين [114]. وهذا لا يعني أبدا أن المجموعات الملكية لم تكن تتوفر على محل خاص. إذ كيف يمكن لملوك هذين الدولتين أن يزودوا المساجد والمدارس بخزانات واسعة دون أن تكون لهم فكرة صنع نفس الأمر بالنسبة لخزاناتهم الخاصة؟

أما فيما يتعلق بتشييد بنايات لحفظ الكتب في وسط القصور الملكية على عهد دولة العلويين، فقد تمكنا من الحصول على مافيه الكفاية بهذا الصدد، فقد عرف مولاي رشيد مؤسس الدولة العلوية، حسب المؤرخين المغاربة ، بأنه أول من بنى خزانة في قصر فاس لمكتبته الخاصة. وجمع بعده الملك مولاي إسماعيل خزانة عظيمة، شيد لأجلها في قصر مكناس محلا أسماه "دويرة الكتب"، ومازالت آثار هاته المؤسسة العلمية باقية إلى اليوم. وقد شيد الملك مولاي عبد الرحمن بن هشام، هو بدوره، خزانة كبيرة في قصر فاس. وسيتم توسيع هاته الأخيرة من طرف حفيده الملك مولاي حسن الذي أقام فيها مختبرا للكيمياء [115].

114 . زار "موكي" المغرب في 1605 ووصف القصر السعدي "البديع" بكثير من الدقة والوضوح. ولم ينبس ببنت شفة عن الخزانة وبنايتها . ينظر "الرحلة إلى إفريقيا "Voyage en Afrique ص 160 ط : 1830 .

115 . "لوتورنو" le Tourneau "فاس قبل الحماية" ;Fès avant le protectorat ص 473 .

إننا نلاحظ، من هذا المنطلق، أن كل هاته المكتبات كانت تشيد مرتبطة بالقصر الملكي. وفوق ذلك، فموقع الخزانة الملكية الحالية دليل على ما ذهبنا إليه. إلا أن أهم خاصية للخزانة الملكية هي بشكل خاص طابعها شبه العام، فقد أشرع الملوك المغاربة خزائنهم دائما أمام الباحثين والأدباء. يخبرنا صاحب "دوحة الناشر" أن الملك الوطاسي أبا العباس أحمد كان قد أشرع خزانة كتبه لعلماء العصر توخيا لكي يستفيدوا من كتبها المفيدة. ومن ضمن هؤلاء العلامة حرزوز المكناسي[116]. وقد صنع الملوك السعديون نفس الأمر ، إذ كانت خزانة كتبهم القديمة في متناول العلماء في كل فترة. فقد أفاد الكثير من الأعلام في ذلك الزمان، وخاصة على عهد المنصور الذهبي من كتب هاته المجموعة الملكية التي اعتبرت، حسب المؤرخين، أهم وأغنى خزانة كتب مغربية. ويؤكد أحمد بابا التنبكتي في مستهل مؤلفه "نيل الابتهاج" أنه أفاد كثيرا من كتب أحمد الذهبي في تأليف هذا المؤلف [117]. وأكد العالم الرحالة أحمد الحجري الفجائي في رحلته "الشهاب إلى لقاء الأحباب" أنه كان يحضر إلى محاضرات أحمد المصيوب الفاسي في مراكش التي كانت تقدم في علم الفلك. وأنه كان يستفيد كثيرا من مكتبة الملك الذهبي التي كان يدخل إليها كلما احتاج إلى ذلك [118]. و يخبرنا صاحب "اليواقيت" أن الخليفة الذهبي كان قد أعار خمسمائة كتاب مخطوط من مكتبته إلى العالم والكاتب أبي جمعة الماغوسي المراكشي لكي يكتب هذا الأخير كتابه "درر السقط في مناقب السبط"[119]. وكانت عادة المولى زيدان ولد المنصور الذهبي، أن يستدعي الباحثين من ضمن العلماء للإفادة من ثروات مكتبته القيمة. فقد وضع هذا الملك السعدي مجموعته الخاصة منذ بداية ملكه في فاس في متناول أحمد المقري المتوفى سنة 1041هـ صاحب "نفح الطيب" و"أزهار الرياض".

---

116 . ابن عسكر : دوحة الناشر، ص5.

117 . تنظر مقدمة ثلاث نسخ مخطوطة من "نيل الابتهاج" محفوظة في الخزانة الملكية في الرباط تحت أرقام 1896-2358-4206.

118 . دوحة الحق، السنة 2، العدد 3، 1958 ص 22.

119 . محمد زفير الأزدي : اليواقيت الثمينة، ج1، ص 162.

إن الملوك العلويين، على غرار أسلافهم، لم يبخلوا أبدا بكتبهم. فملوك هاته الدولة الذين كان لهم شأن في العلم والتنقيب، قربوا إليهم أهل العلم، وجعلوا مكتباتهم الملكية رهن إشارتهم من أجل العمل، والبحث، والاحتكاك. فنحن نقرأ في مقدمة "سنا المهتدي" أن الخليفة مولاي إسماعيل كان قد جعل مكتبته تحت تصرف شيخه ووزيره اليحمدي [120]. وسيطّلع هذا الأخير الذي ستوكل إليه فيما بعد مهمة المحافظة على ثرواتها الأدبية، وسيفيد منها إفادة كبيرة. ويؤكد صاحب "زهرة البستان" أن مكتبة هذا الملك العلوي كانت في متناول كل علماء الدولة الذين كانوا يرغبون في الذهاب إليها للإطلاع على الكتب التي لم تكن توجد في أماكن أخرى [121]. وأكد هذا الخبر الأمير العلوي عبد السلام بن محمد بن عبد الله في مؤلفه "درة السلوك" [122]. وأخيرا فإن المكتبة الملكية على عهد العلويين تميزت بكونها أصبحت مكتبة متخصصة تقريبا في القرن 19. فقد كانت مجموعة المكتبة الملكية في عهد مولاي سليمان 1232هـ 1822م، حسب الزياني، تتكون بشكل خاص من كتب التاريخ التي كان هذا الملك شغوفا بها [123] واستهوت الملك محمد بن عبد الرحمن المؤلفات العلمية بسبب ميله إلى العلوم. فقد أتى بالمؤلفات العلمية من أقاصي الأرض لترجمتها ودراستها [124]. وستتميز المكتبة الملكية في عهد ولده الملك الحسن الأول المتوفى سنة 1894 بهذا الطابع العلمي. فقد حاول هذا الأخير الذي كان ولوعاً بالكيمياء أن يحصل على كل المؤلفات المتعلقة بهذا العلم. فحصل على كتب الكيمياء من خزانة القرويين، ومن مكتبة إسبانيا، ومن مكتبات استانبول، وأخيرا من المكتبة الخديوية في القاهرة[125]، وتم إنشاء مختبر وعلى هذا النحو أسس الحسن الأول مكتبة

---

120. الزرويلي : سنا المهتدي ص 11، مخطوط رقم 521 من الخزانة الملكية.

121. ابن العياشي : زهر البستان، ينظر أيضا المانوني "الخزانة الملكية" في مجلة الإعلامي، العدد 2 : 1982 مخطوط الخزانة الملكية الرباط رقم 237.

122. عبد السلام بن محمد بن عبد الله : درة السلوك ص 238 مخطوط الخزانة الملكية الرباط رقم د 237.

123. الزياني : الروضة السليمانية فصل : مولاي سليمان مخطوط الخزانة العامة رقم د 1275.

124. تنظر الصفحة 61 من هاته الدراسة.

125. الكتاني : المكتبات الإسلامية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 3002.

متخصصة [126]، تكونت مجموعاتها أساسا من مؤلفات العلوم، وخاصة الكيمياء. فقد كانت تضم المكتبة الملكية حسب "سلمون"Salmon نصوصا عربية بحروف عبرية متعلقة بالكيمياء مثل "الوافي في تدبير الكافي". وهي نصوص مجهولة في أوربا . وهذا ماقاله هذا الأوربي بهذا الشأن «لقد كان مولاي الحسن يقضي كل أوقات فراغه في دراسة الكيمياء بصحبة خيميائيين اثنين من المغرب : محمد المازور واليهودي مخلوف أمسلام. ففي القصر كان هناك مختبر للخيمياء في قاعة توجد فيها أوعية كبيرة وإناءات سبق استعمالها لهذا العمل وتم التخلي عنها اليوم»[127]. تلك كانت مميزات خزانات الكتب الملكية في هاته الفترة من تألق المكتبات المغربية. فيبدو إذن أن هاته المؤسسة العتيقة قد لعبت دورا أساسا في تطور العلم والأدب في المغرب. إن هذا الدور ستقوم به أيضا المكتبات الخاصة التي كانت عديدة في هاته الفترة.

2. خزانات الكتب الخاصة

2 - 1 الأصل والتأسيس.

عرف المغرب، ابتداء من القرن 14م، ظهور ثلة من أساطين الفكر والعلم سيتركون بصماتهم في التاريخ طوال عدة قرون. فقد وصل المجتمع المغربي إذن إلى درجة من الثقافة وإلى وضع اجتماعي واقتصادي يسّرا جمع الكتب. فانضافت إلى خزانات الكتب الخاصة للأدباء خزانات الأمراء والقضاة، والموظفين السامين في الدولة. وأصبح الناس المثقفون من ضمن التجار الأغنياء والرحالين أيضا يتوفرون على خزانات كتب خاصة. فحظي الكتاب بأهمية بالغة، وتنافس علماء ومثقفو الدولة على اقتناء الكتب وانتساخها، ووصل هذا الواقع ذورته في القرن 10 و11هـ على عهد الدولة السعدية. فنحن كنا نعاين عند كل طبقات الدولة التي كانت تمتد في ذلك العصر إلى حدود نهر السينغال [128]، وتقريبا عند كل الأسر

---

126 . تجب الإشارة إلى أن الخزانات المتخصصة قد ظهرت في أوربا في القرن 19م. فخزانة الحسن الأول التي اعتبرت خزانة المختبر هي بهذا المعنى خزانة متخصصة.

127 . "سلمون" Note sur L'alchimeà Fès : G. Salmon في مجلة Archives marocaines، المجلد 7 سنة 1007.

128 . لقد سقط السودان في عهد الملك المنصور الذهبي تحت هيمنة المغرب. وكان عدد من العلماء المنحدرين من هاته الدولة يتوفرون على مكتبات خاصة.

حتى الأكثر فقرا منها الحفاظ على الكتب، والتعهد بها، واحترامها. فقد كان كل مسكن بارجة ثقافية في ذاته. وتعد المكتبات الخاصة المجموعة في هاته الفترات بالآلاف .فيتعذر علينا حصرها. ويكفي أن نستشهد ببعض المكتبات منها التي تنتمي إلى مختلف الفئات الاجتماعية من الدولة.

1-1-2 خزانات الكتب الأميرية

لم يكن هناك تقريبا أي أمير غير متوفر على مجموعة من الكتب ذات أهمية كبيرة. فكتب التاريخ والحضارة تزخر بأسماء الأمراء الذين كانوا يتوفرون على مكتبات في المغرب. ونعرف جملة من المكتبات الأخرى عبر قيود التملك التي كان يصنعها هؤلاء الأمراء في مؤلفاتهم.

ويجب أن نذكر من ضمن خزانات الكتب الأميرية التي أشار إليها المؤرخون خزانة الأمير مولاي رشيد ابن الملك العلوي محمد بن عبد الله. إن هاته الخزانة التي كانت توجد في سجلماسة كانت تتسع بشكل خاص لمؤلفات الفلسفة والأدب [129] . ونذكر أيضا خزانتي كتب الأميرين مولاي سليمان ومولاي الحسين[130]، إضافة إلى خزانة الأمير مولاي عباس في مكناس[131] والأمير مولاي علي بن السلطان مولاي عبد الرحمن [132]. ونذكر أخيرا الخزانة الخاصة للأمير أبي حسون السملالي في "إليغ" جنوب المغرب [133].

فقد عزم هذا الأمير، بوصوله إلى الحكم، على بناء قصره ومكتبته مقلدا بهما قصر ومكتبة المنصور الذهبي. ويحيطنا صاحب "إليغ" علما بأن هاته الخزانة الأميرية الغنية كانت مفتوحة أمام العلماء المقربين من الأمير[134]. وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، فإن هناك مكتبات أميرية خاصة أخرى لم نجدها في كتب

129 .الناصري : الاستقصا، ج 8 ص 66.

130 .المنوني : دور الكتب ص 102-103. فالمؤلف في هذا المخطوط من الخزانة الملكية يشير إلى 128 خزانة من ضمن أشهر الخزانات في المغرب، وذلك عبر تاريخ المغرب الإسلامي من الأدارسة إلى الآن.

131 .ابن زيدان : الإتحاف، ج5 ص 413.

132 .ابن زيدان : الإتحاف، ج5 ص 240.

133 أنشأ العلماء وخاصة المرابطون الزهد خزانات قيمة في سوس (جنوب المغرب) حيث حصلت هناك نهضة ثقافية ملحوظة وخاصة ابتداء من القرن 16م

134 .المختار السوسي : إليغ ص 142-143.

التاريخ والحضارة. ولم تعرف اليوم إلا عبر المصاحف والمؤلفات المحفوظة في المكتبات المغربية والأجنبية؛ هاته المصاحف والمؤلفات التي انتسخت برسم خزانات كتبهم.

وهكذا نحن نعرف من خلال حردمتن "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" أن هذا الكتاب انتسخ برسم الخزانة الخاصة لأمير سبتة أبي القاسم بن أبي العباس العزفي [135]، ووقفنا على مكتبة الأمير السعدي محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ عبر نسخة من القرآن مرسومة برسم هاته المجموعة، ومحفوظة في المكتبة العامة في الرباط[136]. وتحتفظ الخزانة الوطنية في القاهرة بنسخة من القرآن مرسومة بخط مغربي جميل برسم الخزانة الخاصة للأمير علي ابن الملك محمد بن عبد الله[137]، وهناك مصحف آخر رسم في 967 هـ برسم الخزانة الخاصة للأميرة السعدية مريم ابنة الخليفة محمد الشيخ محفوظ في المكتبة العامة بالرباط[138]. وهناك مكتبة أخرى خاصة لأميرة علوية لم نتعرف عليها إلا من خلال مؤلفات تحمل علامة التملك باسمها ، محفوظة في القرويين، ويتعلق الأمر بالأميرة للافاطمة الزهراء ابنة الملك حسن الأول المتوفى سنة 1894م التي حبست جزءا وافرا من مجموعتها الأميرية على مكتبة جامع فاس[139]. إن المكتبات الأميرية كانت توجد تقريبا في كل مكان من المغرب. فالأمراء كانوا يمثلون الملوك في كل مدن المغرب تقريبا. وكانوا ينشئون في هاته المدن خزانات كتب خاصة ليستفيد منها من حفّ بهم من أدباء.

135 .المنوني : الخزانة الملكية، في مجلة الإعلامي، مجلد 2، ص124.

136. محفوظ تحت رقم : ج 606.

137 . فهرست مخطوطات المكتبة الخديوية في القاهرة ط 1310 ج1 ص 3.

138 . ينظر الفصل المخصص الوقف.

139 . المنوني : الخزانة الملكية في مجلة الإعلامي مجلد 2 ص 125.

2-1-2 . خزانات كتب الوزراء

كان يجب على الوزير، لتعزيز مكانته المرموقة، أن يكون متوفرا على خزانة كتب كبيرة. يخبرنا صاحب "النزهة" أنه على الرغم من أن عبد العزيز الوزكيطي وزير وحاجب الملك السعدي أحمد المنصور كان ذا ثقافة محدودة، فإنه كان يتوفر على خزانة ضخمة تضم خمسة آلاف كتاب [140]. وعموماً فإن الملوك المغاربة كانوا يختارون وزراءهم في الغالب من ضمن الشخصيات المعروفة بعلمها وتبحرها.

فقبل أن ينادي الملك على مولاي إسماعيل اليحمدي ليتولى وظيفة الوزير كان هذا الأخير يمتلك خزانة كتب خاصة مدهشة إن بعض الوزراء المتضلعين في العلم كانوا، على غرار الملوك، يحثون الكتاب على تأليف ما يرغبون فيه من كتب ... وعلى هذا النحو كلف الوزير والعالم المريني أبو زيد عبد الرحمن القبيلي المكودي بأن يشرح المنظومة النحوية التعليمية الشهيرة لابن مالك التي لم تكن معروفة بما فيه الكفاية. فأنجز المكودي العمل وأهدى أول نسخة إلى مكتبة الوزير [141]. لقد كانت المكتبات الوزيرية متعددة. وتقدم لنا مؤلفات التاريخ والحضارة عددا كبيرا منها فكانت مجموعات هاته المكتبات تتكون أساسا من الاقتناءات، والنساخة، والهدايا التي كان يتسلمها الوزراء.

3-1-2 خزانات كتب الأدباء والقضاة والشخصيات البارزة.

هاته الخزانات لايأتي عليها الحصر. فنحن لانكاد نجد، ابتداء من القرن الرابع عشر، إنسانا مثقفا لا يتوفر على خزانة كتب خاصة. ومن ضمن المكتبات المشهورة في العهد المريني نذكر مكتبة العلامة عبد المهيمن الحضرمي. إن ابن خلدون الذي كان أستاذا في علم الحديث تباهى بموسوعية معارفه، وتباهى بشكل خاص بغنى مكتبته التي كانت تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف مجلد [142].

---

140 . الإفراني : نزهة الحادي ص 152 ينظر أيضا ابن القاضي : "درة الحجال" ج 1 ص 129 .

141 . ابن شقرون : "الحركة الفكرية على عهد المرينيين" ص 47.

142 . ابن الأحمر : روضة النسرين ص77 ، ينظر أيضا المقدمة ج 4 ص 203.

لقد اتسم العصر السعدي بازدهار المكتبات الخاصة في كل المملكة سواء في المدن أو في الأرياف. ويجب أن نذكر من ضمن أهم وأقدم المكتبات الخاصة في هاته الفترة مكتبات عائلات الغرديس وبني الملجوم[143]، وبني القاضي في فاس. ففيما يتعلق بخزانة الغرديس، فهي خزانة قديمة تعود إلى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي. إن أسرة الغرديس قد عرفت دائما منذ هاته الأزمنة بكبرها، وغناها، وبعلمها بوجه خاص. فقد عمل العلماء الذين انحدروا من هاته الأسرة إلى جانب الأمراء الغراويين في نهاية الأدارسة، وعمل آخرون منهم إلى جانب المرابطين والموحدين والمرينيين[144]. وفي القرن 10هـ /16م سقطت هاته المكتبة في يد سليل هاته الأسرة محمد بن القاضي الغرديس. وكانت خزانة كتب بني ملجوم أسباط القائد العربي المهلهل بن أبي صفرة هي أيضا قديمة وكبيرة على غرار الخزانة السابقة[145].

ومع ذلك فإن خزانة كتب بني القاضي الذين يرتبطون بالأمير موسى بن أبي العفية عاهل المغرب في نهاية الفترة الإدريسية كانت أهم خزانة في هذا الباب. تكونت مجموعاتها من مؤلفات الرياضيات، والهندسة، وعلم الفلك، والفقه، والأدب[146]. وأصبحت المكتبات الخاصة ابتداء من القرن 10هـ/16م مزدهرة ومتعددة في سوس (جنوب المغرب) وفي السودان [147]. أما فيما يتعلق بمكتبة سوس فنحن مدينون للعلاّمة المختار السوسي المتوفى سنة 1964 بالتفاصيل الدقيقة التي قدمها لنا بخصوصها. إن مؤلفاته المتعددة من مثل «من خلال جزولة»، و"المعسول" تخبرنا بما فيه الكفاية عن أصل وتأسيس وواقع عدد كبير من المكتبات الخاصة. فنذكر منها على سبيل المثال خزانة الكاتب الرحالة محمد بن أحمد الحضيكي المتوفى سنة 1189هـ [148]. فهي كانت تضم ألفا وتسعمائة مخطوط، وبقيت بعض المخطوطات منها الحاملة

143 . خزانة خاصة سبق أن عرفت في القرن 12 في عهد الموحدين.

144 . حجي : "الحركة الفكرية"، ج 1 ص 252.

145 . نفسه.

146 . نفسه.

147 . لقد أصبحت السودان (مالي والتشاد) التي فتحها السعديون تنتمي في النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى المغرب.

148 . إنه مؤلف ثلاثين مؤلفا ورحلة. ومن ضمن مؤلفاته الكبيرة هناك الطبقات أو فئات علماء سوس.

لقيد التملك باسم هذا العلاَّمة موجودة إلى القرن العشرين [149]. وأعظم خزانة عرفت في هاته المنطقة كانت هي خزانة كتب الشيخ ماء العينين في تيزنيت، فقد كانت، حسب المختار السوسي الذي تمكن من زيارة ما تبقى منها غنية بالمخطوطات المكتوبة بمختلف الخطوط العربية. ونعني بها الخط الصحراوي، والشنقيطي، والسوسي، والسوداني، والفاسي، والتونسي، والمكناسي، والمشرقي، والمصري. وكانت معظم كتب هاته الخزانة الخاصة منحدرة من الهدايا التي دأب ماء العينين على تسلمها من ملوك المغرب وملوك الشرق الأوسط [150]. ويجب أن نذكر من ضمن خزانات الكتب الأخرى الخاصة في سوس خزانة ابن الأعمش المتوفى سنة 1275هـ في تندوف، وخزانة الشيخ الحسين بلقاسم السوقي الإفراني، وأخيرا خزانة أولاد جرار بجانب تيزنيت.

وفيما يخص المكتبات الخاصة في السودان المغربي فكانت متعددة ومزدهرة خاصة في مدينة تنبكت فقد كانت أسر بني "أقيت" و"بگيو" تتوفر على أغنى المكتبات المعروفة في تلك المنطقة. وأهم مكتبة في عائلة أقيت حسب أحمد بابا هي مكتبة أحمد بن عمر بن محمد أقيت أب العالم و الكاتب البارز أحمد بابا التنبكتي. فقد كان صاحبها جماعا للكتب، ملتمسا لأعلاقها ونفائسها [151]، أما فيما يخص مكتبات أسرة "بغيع الونكري" فإن أهمها كانت هي مكتبات محمد بن محمود أستاذ أحمد بابا. وليس هناك أي موظف كبير وشخص بارز كما أشرنا إلى ذلك آنفا لم يكن يمتلك مكتبة على جانب من الأهمية. إن صاحب الاستقصا، على سبيل المثال أحاطنا بمجموعة من النماذج نذكر منها المكتبة الهائلة الخاصة للقاضي عياض من سلا [152]. إننا قد وقفنا على أصل وتأسيس المكتبات الخاصة في هاته الفترات، فماهي الآن الخصوصيات التي تميز هاته المكتبات ما بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر.

---

149. المختار السوسي، المعسول. ج 327.

150. نفسه ص 328، ويجب أن نشير إلى أن جزءا من هاته الخزانة انتهى إلى الخزانة العامة في الرباط.

151. أحمد بابا، كفاية، ص 157، ينظر أيضا. فتح الشكور ص 29.

152. الناصري أحمد : الاستقصا، ج4 ص 201.

2-2 مميزات خزانات الكتب الخاصة

يبدو أن خزانات الكتب الخاصة كانت تحظى ببناء خاص في هاته الفترات من أوج المكتبات المغربية. وإذا كنا نشكو من ندرة في المعلومات بهذا الخصوص، فإن مقطعين من "مرآة المحاسن"يمكناننا بالمقابل من أن نذهب إلى أن أصحاب المكتبات الخاصة كانوا يخصصون موضعا من سكناهم للكتب يقول صاحب "المرآة" : « ...ولما كنت ابن نحو عشر سنين بعثني والدي مع أخي وعمي وسيدي الحسن بن المهدي إلى شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار فدخلنا إليه بموضع كتبه وخلوته من داره التي بقرب حمام القلعة ... »[153] . وأكد نفس المؤلف في زيارته لشيخه العلامة أبي القاسم بن القاضي أن هذا الأخير قد استقبله في محل الكتب «وكنت أجالسه كثيرا وأدخل معه إلى داره ومحل كتبه»[154]. وتتميز المكتبات الخاصة أيضا بتشابه المجموعات. فانطلاقا من الأمثلة التي سبق ذكرها ، والمتعلقة بهاته الخزانات يبدو لنا أن نفس المجموعات تقريبا توجد في كل مكان.

فقد كانت توجد في هاته المكتبات كتب الآدب إلى جانب أصول الدين والتاريخ، وكتب الفلسفة [155] إلى جانب علم المناقب، وكتب التصوف إلى جانب الكتب العلمية. ونجم هذا الخليط عن الأهمية التي كان يوليها أصحاب هاته المكتبات إلى العلوم المدرسة في المغرب في هاته الأزمنة. إلا أن الميزتين الهامتين اللتين امتازت بهما هاته المكتبات هي : إتاحة الفرصة للكتاب والأدباء لدخولها ، وتيسير إعارة الكتب.

1-2-2 انفتاحها أمام جمهور المثقفين

لقد كانت خزانات الكتب الخاصة على غرار الخزانة الملكية مفتوحة لجمهور محدود . وكان الأدباء أصدقاء ملاك هاته الخزانات هم الأكثر حظوة ضمن هذا الجمهور. وهذا ما جعلنا نعتها بأنها خزانات شبه

---

153 .الفاسي (محمد)، مرآة، ص 161.

154 .الفاسي : مرآة ص 163.

155 .يخبرنا الناصري بأن خزانة الأمير الرشيد بن محمد بن عبد الله كانت تتكون أساسا من مؤلفات الفلسفة والأدب. وكانت تتكون خزانة كتب الشريف بن إسماعيل أساسا من مؤلفات الأدب والتاريخ. ينظر الدرر المرصعة ص 167 -169 ، مخطوط الخزانة العامة، ك 265.

عامة [156]. ولم يفت الكتاب الذين كانوا يفيدون من ثروات هاته الخزانات أن يذكروها في مقدمات كتبهم. فالونشريسي قد أنبأنا بأنه كان يختلف في جمعه لمادة أثره الفقهي الهام "المعيار" [157] إلى المكتبات الخاصة لابن غرديس والمنجور. واستعان أحمد المنجور بنفس المكتبات في إنجاز أبحاثه. وذكر العلامة ابن القاضي في مقدمة "درة الحجال" المكتبات الخاصة التي أفادته كثيرا في تصنيف كتبه. إنه رجع، قبل كل شيء، إلى كتب شيخه وصديقه العلامة أحمد بن علي المنجور الفاسي المتوفى سنة 995هـ [158]. وأفاد بعد ذلك من المكتبة العامرة للعالم السوداني أحمد بابا التنبكتي المتوفى سنة 1032هـ [159]. ويخبرنا أحمد المقري المتوفى سنة1041هـ أن مكتبة عبد الواحد الرجراجي كانت في كل الأوقات مفتوحة أمام العلماء. وأكد أنه قد أفاد منها هو نفسه كثيرا. يقول: «لقيته بمراكش حماها الله، وهو ابن أخي قاضي الجماعة بها الفقيه المعقولي، له مشاركة تامة في العلوم، يستظهر مختصر خليل، ويشارك في الأصلين، والمنطق، والبيان، واللسان، وغير ذلك ... وله تآليف أنبأت بقوة إدراكه، منها اختصاره منظومة ابن زكرى في علم الكلام. حذف منها ما تكرر وزاد زيادات ليست فيها، وصدر منه هذا التأليف برسم الخزانة المنصورية عمرها الله ... وهب لي حفظه الله حواشي[160] اللقاني على توضيح الإمام خليل بن إسحاق المالكي رحمه الله، وتلك الحواشي لم يرها أهل تلمسان قط. فلما قدمت بها وشاهدوها سروا بها كثيرا، وكان ذلك لتشوقهم لحضرة الإمام مثيرا» [161].

---

156. تنظر الصفحة 49.

157. تم نشره من طرف وزارة الأحباس المغربية في 13 مجلداً في 1981، ينظم المنوني، دور الكتب ص 32.

158. ابن القاضي: درة الحجال ج 1 ص 15.

159. كانت خزانة أحمد بابا تضم 150 مخطوطاً نادراً وقيماً ينظر ابن القاضي: درة الحجال ج 1 ص 15.

160. حواشي اللقاني على توضيح الشيخ خليل.

161. المقري روضة الأس ص 315 وأكد المقري في هذا الكتاب أن اللقاني أخبره بمؤلفات في أصول الدين وفي اللغة ألفها برسم خزانة العاهل السعدي المنصور.

2-2-2 سهولة الإعارة

كانت الخاصية الثانية الأساس التي تميزت بها المكتبات الخاصة هي إعارة الكتب، فإذا كانت الكتب المحبسة في مختلف المكتبات العامة تمنع من الإعارة خارج القاعة أو المسجد، فإن الكتب الخاصة كانت تعار إلى من له رغبة في ذلك. وتضخمت هاته الظاهرة في عهد الدولة السعدية بشكل خاص يقول محمد حجي: «كانت تعار الكتب من منزل إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى. لذلك فإن بعض العلماء كانوا يشكلون خزانة كتب مجاورة لقاعة الاستقبال وذلك لتمكين الزوار من القراءة، والنساخة، ومطالعة الكتب»[162].

لقد كانت المكتبة الخاصة للغرديس مفتوحة أمام العلماء، وكان الغرديس سموحاً بإعارة الكتب إليهم. يقول أحمد المنجور بشأن صاحب هاته المكتبة التي أفاد منها كثيرا«انتفع به الشيخ في الاستعانة بخزانته العلمية التي احتوت على فنون العلم والتصانيف المعتبرة في النوازل وغيرها، وبها استعان الشيخ على تصنيف كتاب النوازل» [163] فقد كان أحمد بن أحمد أقيت أب أحمد بابا التنبكتي سموحا بإعارة كتبه إلى كل الذين ينشدونها منه «كان ... جماعا للكتب وافر الخزانة محتوية على كل علق نفيس سموحاً بإعارتها»[164]. والمكتبة الخاصة الكبيرة الأخرى التي كانت تعير الكتب هي مكتبة محمد بن محمود شيخ أحمد بابا. يقول هذا الأخير بشأنه : «وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم ولا يفتش بعد ذلك عنها كائنا ما كان من جميع الفنون فضاع له من ذلك جملة من كتبه نفعه الله بذلك وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتابا فيعطيه له من غير معرفته من هو. فكان العجب العجائب في ذلك إيثارا لوجهه تعالى، مع محبته للكتب، وتحصيلها شراء ونسخا. وقد جئته يوما أطلب منه كتب نحو ففتش في خزانته، فأعطاني كل ما

162. محمد حجي "الحركة الفكرية" ج. 1 ص. 252.

163. المنجور : الفهرسة ص 51. وينظر أيضا ابن القاضي، الجذوة151 و 154 وينظر أيضا المراكشي : الإعلام ج 2 ص 79 ينظر أيضا حجي: "الحركة الفكرية "ج 1 ص 253.

164. السعدي : تاريخ السودان ص 42.

ظفر به منها»[165] فقد كان الطلبة والفقهاء والمدرسون يختلفون دائما إلى الخزانة الخاصة لسيدي أحمد بوعلي الوزاني. فالكل كان بإمكانه أن يعير الكتب. وأغلب المؤلفات المعارة لم تكن تعاد إليه أبدا[166]. وهاته ليست إلا نماذج من ضمن العديد من الأمثلة الأخرى من المكتبات الخاصة المفتوحة أمام العلماء. والتي كان أصحابها سموحين بإعارة كتبها. فهاته الضروب من الاهتمامات لم يكن لها هدف آخر غير خدمة العلم. إلا أننا في مقابل عمل هؤلاء الذين لم يكونوا أبدا بخيلين بمؤلفاتهم نجد إهمال وسوء نية المستعيرين. فلاشك في أن العديد من الكتب المستعارة قد غَبَرَتْ للأبد، وكم من خزانة كتب خاصة قد أفرغت من ثرواتها بسبب الإعارة، وسنشرح لاحقا أن الإعارة كانت ظاهرة مشؤومة بالنسبة لخزانات الكتب المغربية[167]، فهي كانت تشكل، على حسب تعبير أبي علي اليوسي، الشر الأكثر خطورة على الخزانات.

تلك كانت مميزات خزانات الكتب الخاصة التي من المؤكد أنها كانت أقل هيبة وأقل كِبَراً من خزانة الكتب الملكية. بيد أنها لم تكن أقل منها قيمة وبهاءً. فماذا عن خزانات الكتب العامة في هاته الفترة من ازدهار الخزانات المغربية.

3. خزانات الكتب العمومية

كانت الحاجة ماسة إلى خزانة كتب عامة تستقطب عامة الناس ابتداءً من النصف الثاني من القرن 13م. فقد قام المرينيون الذين شعروا بالأمر بتأسيس المكتبات العمومية وتحسين أحوالها هدفا في إرضاء شعب طموح إلى تحصيل المعارف. وهكذا فإن كل مسجد كبير في المملكة قد خص بخزانة كبيرة مجهزة جدا. وشهدت الجوامع بناء خزاناتها أو توسيعها وذلك لكي تتمكن من استقبال مزيد من طلبة العلم.

---

165. السعدي: تاريخ السودان ص 44.

166. ابن حمزة المكاسي: الكوكب الأسعد ص 162 طبعة حجرية 1906.

167. ينظر فصل: المكتبة المغربية: إعارة الكتب.

وبحدوث هاته الدولة ظهر إلى الوجود ضربان من خزانات الكتب؛ ويتعلق الأمر بخزانات المدارس، وخزانات الزوايا.

وعموما يمكن أن نحدد خزانات الكتب العامة في هاته الفترة من أوج المكتبات المغربية في ثلاثة أضرب : خزانات المساجد، والجوامع، وخزانات المدارس، وأخيرا خزانات الزوايا.

1-3 خزانات كتب المساجد والجوامع

1-1-3 الأصل والتأسيس

1-1-1-3 خزانات كتب المساجد

من المؤكد أن خزانات الكتب العامة في المساجد كانت توجد تقريبا في أي مكان من المغرب قبل وصول الملوك المرينيين إلى الحكم. وأسس الموحدون منها نماذج في فاس، وفي مراكش، وفي أماكن أخرى. ولكننا انطلاقا من القرن الرابع عشر لانكاد نعثر على مسجد كبير من المملكة لم يجهز بخزانة تحتوي، علاوة على نسخ القرآن، ومجموعات الحديث على مؤلفات العلوم الدينية، والمعاجم والتصوف، وغير ذلك. فمن الصعب علينا أن نصنع جردا شاملا لهاته الخزانات. لذلك سنكتفي بالاستشهاد ببعض النماذج من ضمن خزانات مساجد المدن الرئيسة في المملكة. ففي فاس العاصمة العلمية للمملكة تم تزويد العديد من المساجد الكبرى بخزانات في غاية الأهمية. ونذكر على سبيل المثال خزانة مسجد "فاس الجديد" التي أسسها الملك العلوي مولاي رشيد في 1079هـ/1668م، ونحن نستطيع أن نقرأ على بابها اليوم الكتابة التالية «الحمد لله وحده! هاته خزانة أمر بتأسيسها وبنائها الإمام الأوحد والمتميز أمير المؤمنين الواضع ثقته في الله سيدنا المبجل مولاي رشيد ابن سيدنا علي الشريف سبط الحسن (ابن علي بن أبي طالب) أطال الله بقاءه وقوى شوكته ! بتاريخ 1محرم من سنة 1079هـ/ 1669م» [168]. فقد زود الملك المولاى رشيد هاته المكتبة

168. "بل" A.Bel : Inscriptions arabes de Fès ص 112.

بمخطوطات نفيسة كتب أغلبها بخطوط أندلسية ومغربية [169]. ويجب أن نذكر أيضا خزانة كتب مسجد الحي (الرصيف). فقد قام المستشرق الشهير "راسي"[170] بفهرس يضم جزءا وافرا من مجموعة هاته المكتبة، ونشره في طنجة سنة 1883م. وكانت مراكش المدينة العتيقة الثانية في المغرب تضم مجموعة من المساجد المرفقة بخزانات هامة. ونذكر على سبيل المثال مسجد الشرفاء الذي أسسه الملك السعدي عبد الله الغالب في 965هـ، وأرفقه بمكتبة عظيمة اشتغل فيها العالم أحمد بابا كثيرا، وكانت هاته الخزانة ذات فائدة كبيرة في تأليف "نيل الابتهاج"، و"كفاية المحتاج" [171] الذين كانا من أهم أبحاث علامة تنبكت. فهاتان المجموعتان تشهدان ماكان يتمسك به هذا العالم من عناية مستمرة في التنقيب في هاته المكتبة العامرة بالمقارنة مع فترة خزانة كتب القرويين في فاس[172]. فلقد أنشأت مسعودة الوزكيطية أم الملك السعدي أحمد المنصور المتوفية سنة 1012هـ مسجد باب دكالة وأرفقته بخزانة كتب كبيرة [173]، في نفس الفترة الزمنية وفي نفس المدينة. وحبست عليه عددا هاما من الكتب، مازال البعض منها الذي يحمل وقفيه باسمها محفوظا في المكتبة العامة لابن يوسف بمراكش [174]. ونذكر أخيرا خزانة كتب مسجد أبي العباس السبتي التي أسسها الملك السعدي أبو فراس. يقول الوفراني [175]: « ... ويلقب من الألقاب السلطانية الواثق بالله وكان عظيم البطن أكولا مصابا بمس الجن. ويقال إنه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ العارف بالله أبي العباس السبتي، وشيد بناءه، وشحن الخزانة التي بقبلة الجامع المذكور بنفائس الدفاتر، وتحف الكتب كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة ذلك الولي بالبر ...»[176] فقد بنى العاهل العلوي مولاي إسماعيل في مكناس مسجد "لالا العودة" في 1090هـ، وشيد داخل هذا المسجد غرفة مرفقة برفوف حائطية

---

169 . ألحقت هاته الخزانة بالقرويين في سنة 1956 بأمر من الملك محمد الخامس. فمن ضمن مؤلفاتها تاريخ ابن حيان.

170 . "باسي" R.Basset «Les Mss arabes de deux Bib de Fès» في مجلة "Bull de correspondance africaine" 1883.

171 . هما إضافتان إلى الفهرسة التي خصصها ابن فرحون 1396/799 في الديباج للرجال المشهورين في المدرسة المالكية.

172 . محمد حجي "La vie intellectuelle sous les sa'dides" ج 1 ص 185.

173 . المقري : روضة الآس، ص 63.

استعملها خزانة للكتب. فكانت هاته الأخيرة أكثر الخزانات غنى لمدة طويلة في هاته المدينة العتيقة[177].
وأرفقت مدينة الصويرة التي أعاد بناءها الملك العلوي محمد الثالث في القرن 18م، بمسجد كبير خصه الملك بخزانة ممتازة، وزودها بمجموعة من نفائس الكتب. وقد شيد نفس الملك المسجد الكبير في مدينة الرباط، وعين على رأسه محافظا [178].

وشيد المهاجرون الأندلسيون الذين عمروا المغرب في القرن العاشر هـ/16م في نفس المدينة المسجد الكبير لقصبة الأوداية . فقد ملأ هؤلاء الأخيرون هاته الخزانة بمؤلفات ورثوها من الجنة المفقودة؛ الأندلس، وبمؤلفات أخرى اشتروها من الشرق أثناء حجهم لبيت الله الحرام [179]. وتم إرفاق المسجد الكبير (المحمدية) بتارودانت الذي بناه السعدي محمد المهدي الشيخ في حوالي 935هـ/1528م بخزانة كتب كبيرة. ومازال هناك في فاس مخطوط محفوظ حبسه الملك زيدان حينما كان حاكما على هاته المدينة [181].

فالمسجد الأعظم بآسفي كان هو بدوره مرفقا بخزانة كتب عامرة بالمخطوطات النادرة والفريدة في بعض الأحيان. وفي هذا المكان اكتشف العلامة الكتاني كتاب "البرصان والعميان" للجاحظ الذي اعتبره الباحثون في عداد المفقودات. وهو الآن محفوظ في خزانة القرويين[182]. ويخبرنا صاحب "اختصار الأخبار" أنه كانت توجد بسبتة العديد من خزانات الكتب أهمها خزانة المسجد الكبير في المدينة الموجودة في باب الشوائين [183].

وكانت كل المدن الكبرى الأخرى في المملكة مثل طنجة،ووزان، وتطوان، وسلا، تضم مساجد

---

174. مثل النسخ 64 و 112 و136 و449.

175. الوفراني : نزهة الحادي، ص 191. وينظر أيضا روضة الآس ص 59.

176. توجد بعض المخطوطات المنتمية إلى هاته الخزانات في الأسكوريال؛ فالمخطوط رقم 1840 الذي حبس على خزانة السبتي محفوظ في الخزانة الإسبانية.

177. "تراس"H.Terrasse «La mosquée lalla Aouda à Meknès» في المجلة الإفريقية 1938 .

178. بوجندار :مقدمة الفتح ص 149.

179. مخطوط يحمل صيغة التحبيس على هاته الخزانة محفوظ في خزانة مكناس تحت رقم 58 . ويتعلق الأمر ب "عمدة القاري في شرح البخاري" للعيني. ويضم هذا المؤلف في الأصل تسعة مجلدات ولم يبق اليوم إلا المجلد 1و3 و5 و9. محفوظ تحت رقم 409.

180. ينظر "حجي" "الحركة الفكرية". ج 1 ص 250.

181. يتعلق الأمر ب "مشارق الأنوار" لعياد المنشور في 1979 من طرف وزارة الأحباس المغربية.

182. فهرس القرويين ص 32.

مرفقة بخزانات كتب عامرة. يخبرنا صاحب "من خلال جزولة" أن الخزانات العامة لكبار مساجد مدن سوس في جنوب المغرب كان عددها عشرين [184]. ولقد كانت خزانات كتب المساجد، شأنها في ذلك شأن جميع الخزانات العامة الأخرى في المغرب، تتزود وتغتني أساسا بالوقف والهبات. وكان يتشكل الوقف من المخطوطات ومن المجموعات، ومن أجزاء من الخزانات أو من خزانات برمتها تمّ تسبيلها على خزانات المساجد. فقد أوصى سيدي أحمد بو علي الوزاني حسب حمزة الوزاني بثلث خزانته الخاصة لفائدة خزانة المسجد الكبير في وزان [185].

2-1-1-3 خزانات كتب الجوامع

الجوامع هي مؤسسات كان يتم فيها التعليم العالي، فقد ظهرت الجوامع المغربية الأولى على غرار الأقطار الإسلامية الأخرى في المساجد. وأول جامع بني في المغرب في القرن 3هـ/9م كان هو جامع القرويين في فاس [186]، وفي نفس الفترة الزمنية وفي نفس المدينة تم تشييد جامع الأندلسيين [187]. وقد أخبرنا الجزنائي في وصفه للتدريس بهاته الكلية الثانية بأن المنافسة قد احتدت بين هاتين المؤسستين في هاته الفترة الباكرة من تاريخ المغرب(188). وفي بداية القرن السادس الهجري تم تأسيس جامع ابن يوسف. وكان لمدة طويلة المنافس الأساس للقرويين. فهاته الجوامع قد أرفقت في فترة باكرة بخزانات كتب كانت، على هذا النحو، خزانات جامعية. فكان لها تاريخ مجيد سواء من خلال شهرة علمائها، وطلبتها، ومكتبييها، أومن خلال غنى مجموعاتها وسنقتصر على دراسة المكتبات الأكثر تمثيلية منها، ونعني بها خزانتي الجامعين الأساسين؛ القرويين في فاس، وابن يوسف في مراكش.

---

183 . الأنصاري : الاختصار مجلة هسبريس 1931.

184 . المختار السوسي : من خلال جزولة ص 73.

185 . وقسم الثلثان إلى 27 جزءا لفائدة الورثة. ينظر محمد بن حمزة المكاسي المتوفى سنة 1230هـ /1814م. "الكوكب الأسعد" ص 162 طباعة حجرية في فاس 1906/1324.

186 . تعتبر اليوم أقدم جامعة عربية.

187 . تأسست في 245هـ. وخصها العاهل المريني عثمان بن أبي سليم بخزانة في 816هـ. ينظر "تراس" "مسجد الأندلسيين في فاس" ص 12.

أ. خزانة كتب جامع القرويين*.

إذا كانت الحكاية الإسلامية التي وردت في القرطاس وزهرة الآس تشير بالضبط إلى التاريخ الذي تأسس فيه جامع القرويين، فإنها في المقابل تحجم عن ذكر الفترة التي أرفق فيها هذا الجامع ببناية خاصة بالمكتبة. والخبر الأول الذي وصلنا يهم مشروع العاهل المريني أبي عنان في القرن 14م. فمن المؤكد أن المحاضرات كانت تعطى في الجامع الشهير في فترة باكرة، وأنها اكتست طابعا جامعيا ابتداء من القرن الثالث الهجري. ومن هذا المنطلق يجوز لنا أن نوافق على أن هاته المؤسسة التي كانت تحظى بمثل تلك الشهرة، وبمثل تلك الشمولية، لا يمكن إلا أن تكون مرفقة منذ تشييدها بمجموعات من الكتب في حجم شهرتها[189]. إلا أن أول بناية أنشئت خصيصا لكي تكون مكتبة القرويين كانت هي مؤسسة أبي عنان في سنة 750/1350م. ولعل ما يخلد هذا التأسيس هو النقش المصنوع على الخشب فوق الباب، والذي مكن العاهل المريني من أن يتمدح بالخلافة «الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره وأعز نصره بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة رزقنا الله خيرها[190]».

لقد زود أبو عنان، حسب وثيقة الهبة هاته، المكتبة الجديدة بالكتب المرتبطة بمختلف فروع المعرفة؛ الدين، والطب، والفكر، وعلوم أخرى بحسب فروعها المتنوعة؛ والأقسام والأصناف وذلك هدفا لتيسير العمل على الطلبة والباحثين، وأعلن الملك أن هاته الكتب مؤسسة خيرية (لفائدة هاته الخزانة ولفائدة الطلبة)، في سبيل المجد (الذي اكتسبه) وأملا في جزاء من الله العلي [191]. وفي جنوب مسجد أبي عنان تم بناء خزانة ثانية مسماة «خزانة المصاحف» للفائدة العامة ، والطلبة المبتدئين والراغبين في تلاوة القرآن.

---

188 . الجزنائي زهرة الآس ص 94.

* باعتبار شهرة هاته الخزانة وأهميتها. فإنها تستحق أن تكون موضوع دراسة خاصة.

189 . إن غياب المعلومات حمل بعض المعاصرين على أن يتساءلوا حتى عن وجود خزانة في القرويين قبل القرن 14م. تنظر زهرة الآس : ص. 148. الهامش 2.

190 . ينظر الجزنائي : زهرة الآس ص 69.

يقول عنها الجزنائي « ... وسهل بها على الناس تلاوة القرآن في كل المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن أراد التلاوة فيها بعد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مر الأعوام والليالي والأيام» . (192)

ويبرهن بناء خزانة "المصاحف" بشكل جيد على المظهر الجامعي الذي اكتسبه جامع القرويين بعد أن أحدث أبو عنان الخزانة الكبيرة المزودة أساسا بما يحتاجه الطلبة والباحثون من كتب. فمما لا شك فيه أن الخليفة المريني استوحى في تأسيسه لخزانتين في مسجد القرويين الوحيد أمثلة موجودة سواء في الشرق الإسلامي أو في أوربا . و يخبرنا صاحب "معجم البلدان" أن مسجد "مروة" في فارس كان مرفقا في بداية القرن 7هـ/13م بخزانتين للكتب «إحداهما يقال لها العزيزة وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ... وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها . والأخرى يقال لها الكمالية لا أدري إلى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفى ...»(193) . وكانت خزانة الصوربون(194) مكونة كذلك من قسمين: «المكتبة الكبيرة؛ وبها الكتب الكثير الاستعمال مشدودة بسلاسل والمكتبة الصغيرة وتضم إما مزدوجات وإما كتبا ليست جارية الاستعمال»(195) . إن أبا عنان وتوخيا منه لأن يجهز جيدا الخزانة الكبيرة للقرويين الحديثة البناء نقل إليها من قصره عددا كبيرا من المؤلفات التي كان يتوفر عليها (196) . ويبدو لنا أن هاته

---

191 . تنظر تفاصيل هاته الحادثة في زهرة الآس ص 77 .

192 . نفسه ص 69 .

193 . ياقوت الرومي : معجم البلدان ج4 ص 509 .

194 . إن جامعة الصوربون، حسب بعض المؤرخين العرب، اتبعت في تأسيسها جامعة المستنصرية في بغداد التي أسسها الخليفة البغدادي المستنصر .

195 . "سفندال" Svend Dahl " تاريخ الكتاب" Histoire du livre" ص 66 .

196 . يذكرنا هذا التصرف بما كان يصنعه خلفاء الشرق الإسلامي بإزاء الخزانات العامة . وهكذا فابن الطقطقي يخبرنا أن الخليفة العباسي الناصر كان دعا الفيلسوف الكبير الرازي المتوفي سنة 606هـ لاختيار أهم مخطوطات الخزانة الملكية لكي يهديها إلى خزانة المدرسة النظامية ينظر : الفخري ص269 .

ومن جهة أخرى فإن هنري الرابع ملك فرنسا كان قد مكن العلماء من أن يتصفحوا كتبه وتوخيا لتعميم استعمالها فإنه قد نقلها إلى "كوليج دو كيرمون" في سنة 1595 تنظر مجلة العالمين R.D.D.M ص 1048 سنة 1846 .

الخزانة قد اغتنت كثيرا بالكتب في عهد الملوك الذين جاءوا بعد هذا الخليفة المريني، حتى إنه قد انتهى إليها ثلاثة عشر حملا من الكتب التي أرسلت من إسبانيا في سنة 1285هـ والتي وضعت في بادئ الأمر في المدرسة التي أسسها الخليفة المريني يعقوب بن عبد الحق. فقد بالغ في الاعتناء بهاته المكتبة كل الخلفاء الذين توالوا على عرش المغرب تقريبا. فما من ملك إلا وكان إسمه مسجلا على قرآن أو مخطوط حبسه على هاته الخزانة. فقد بذل الوطاسيون على رغم اهتمامهم بالحروب الداخلية، والغارات البرتغالية، والإسبانية، مجهودا جبارا للسير بهاته الخزانة قدما. ولم تكن المجهودات التي بذلها السعديون أيضا بأقل من ذلك. ولقد وسع المنصور الذهبي هاته الخزانة ببناء خزانة أخرى مواجهة للأولى في نهاية القرن 16 م / 9 هـ، وزودها بمجموعات كبيرة جاء بها من الخارج. إنها اللحظة التي تزودت فيها هاته الخزانة بروائع الكتب التي مازالت توجد فيها إلى اليوم[197]. واهتم الملوك العلويون بدورهم بهاته الخزانة العلمية، فالملك مولاي سليمان مثلا قد اشترى مكتبة شيخه ابن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة 1214هـ/1799م ووضعها في متناول أبنائه واشترط أن تعود هاته المجموعة إلى القرويين بعد موت ورثة شيخه [198]. فكان يجب أن تكون هاته الخزانة قيمة كما تؤشر على ذلك صفات المالك الذي كان له باع في الفقه والتفسير. إن خزانة القرويين هي أقدم المكتبات في المغرب وأشهرها [199]. فقد اعتبرها المغاربة أول خزانة كتب في العالم. ولإعطاء فكرة رفيعة عن ثرائها الكتبي كان المثقفون يقولون «الذي يدخل القرويين يسمع عمل العث وهو يقرض الكتب»[200].

197 . لقد زود الذهبي، القرويين شأنه في ذلك شأن سابقيه، بالعديد من المخطوطات القيمة التي ينحدر كثير منها من الشرق. وأنفس هاته المخطوطات نسخة كبيرة من القرآن مكتوبة بالتركية ومزخرفة بزخارف فارس. وتضم الخزانة ترجمة إلى العربية لأنجيل سانت ليك ومؤلف ابن رشد الرقي الذي أوجب التضحية بقطيع من 300 غزالة (كل صحيفة في رق غزال) : ويتعلق الأمر بالبيان والتحصيل "لابن رشد الجد" 308 صفحة:

198 . الفاسي : الخزانة العلمية ص 57 ينظر فصل الوقف (الوقف المعقب).

199 . تضم اليوم أكثر من 3000 مخطوط و900 رزمة من الخروم (مفككة) وصحائف غير مرتبة.

200 . "دوكستر" H.de Castries " المصادر الدفينة لتريخ المغرب" S.I.H.M ص 246 ج1، وثائق وخزانات فرنسا.

ب. خزانة كتب جامع ابن يوسف في مراكش

على الرغم من أن جامع ابن يوسف في مراكش كان هو المنافس والقرن الأساس للقرويين لمدة عدة قرون، فإنه لم يحظ ببناية في مثل روعة البناية التي أحدثت لحفظ كتب القرويين. فكان يجب أن ننتظر حتى القرن العاشر الهجري لكي ترفق هاته المؤسسة الجامعية بمقر يليق بالمكتبة. وشيد هذا المقر الملك السعدي عبد الله الغالب بمناسبة بناء المدرسة التي توجد اليوم على مقربة من مسجد ابن يوسف. إن الخزانات الجديدة على غرار كل خزانات المساجد في هاته الفترة كانت تفضي إلى الجامع بباب مشرع للمسلمين وحدهم. ومع أن خزانة ابن يوسف كانت دون القرويين، فإنها كانت تضم مجموعات قيمة أنشئت بوجه خاص من الوقف [201] وتشير فهرسة وضعت لهاته الخزانة [202]، في نهاية القرن 17م أن هاته المؤسسة كانت غنية جدا. فهي كانت تضم مخطوطات متعلقة بالفروع العلمية التالية : المصاحف وعلوم القرآن، والأحاديث النبوية، وأصول الدين، والتصوف، والقانون، والقضاء، وفقه اللغة، والنحو، والبلاغة، والتاريخ، والترجمة، والفلسفة، والمنطق، والعلوم الرياضية، والطب، والأدب، ومؤلفات تركية [203] وتحتفظ اليوم بألف مخطوط؛ منها مخطوطات قيمة سواء من وجهة النظر الفنية أو الوثائقية[204]. وبهذا فهي أقل ثراء عما كانت عليه سابقا.

إن جامعي القرويين وابن يوسف لم يكونا الوحيدين اللذين أرفقا بخزانات كتب. إذ صنع نفس الأمر بمساجد أخرى وهكذا أرفقت جوا مع الأندلس والرصيف في فاس، والكتبية، وباب دكالة، والشرفا في مراكش، بخزانات ثرية وكبيرة، ولكنها لم تصل أبدا إلى الثراء والشهرة اللتين كانت عليهما خزانة القرويين

201 . أهدى السعديون العديد من المصاحف الفاخرة لهاته البناية، ومازالت توجد بعضها في خزانته.

202 . اكتشفه "دوفردان" في سنة 1938 . ينظر سجل الفهارس في مجلة هسبريس ص 55 سنة 1944 . فهذا الفهرس محفوظ اليوم في الخزانة العامة بالرباط.

203 . نفسه

204. تعود المصاحف في مالكا وإشبيليا وقرطبة إلى القرن 5 وإلى القرن 6 هـ وهي مؤلفات متعلقة بالحديث والقضاء وغالبا ما نجدها بالغة الزخرفة. وتوجد خزانة ابن يوسف اليوم في السكن الهائل للكلاوي باشا مراكش قديما .

وخزانة ابن يوسف طيلة قرون، وصولا إلى عهد الحماية. فقد استأثر هذان الجامعان الهامان بالتعليم العالي بشكل عملي ابتداء من مستهل القرن العشرين، وتم إدماج مجموعات المساجد الأخرى في خزانتيهما الخاصتين الشيء الذي يؤاتي طابع الخزانة الجامعية فيهما.

3-1-2 خزانات كتب المساجد والجوامع؛ التنظيم والمميزات.

3-1-2-1 التنظيم

إذا كان ما نتوفر عليه بخصوص أصل وتأسيس المكتبات ضئيلا، فإننا لا نكاد نتوفر على شيء عن تنظيمها. ولحسن الحظ فقد وصلتنا بعض التفاصيل المشتتة في كتب التاريخ والحضارة بالإضافة إلى ما سلطته رسالة من القرن 15م من بعض الضوء على هاته المسألة. والرسالة موضوع الحديث هي «الرسالة المجازة في معرفة الإجازة» لعلي بن ميمون المتوفى سنة 917هـ التي موضوعها هي معرفة إجازات التعليم. وهذا مقطع منها «وتأتي خزانة الكتب التي يطالع طلبة العلم فيها على ما يحتاجون إليه المشايخ وغيرهم كل واحد على مايشتهي وذلك لأن فاس المذكورة فيها خزانتان عظيمتان مشهورتان لهذا في جامعي الجمعة، وهما المسجدان الأعظمان بل ثلاثة كل خزانة فيها كتب موقوفة على طلبة العلم للمطالعة كل يوم على يد وكيل ناظر على ذلك حافظ له يجلس المطالعون بين يديه في موضع خاص حتى إذا قضى كل واحد غرضه يرد الكتاب إلى الوكيل فيرده الوكيل إلى الخزانة من صلاة الظهر إلى صلاة العصر ... وأما الثالث الذي هو دونهما فيمكن عد كتبه بلا مشقة والله أعلم فنقعد في الخزانة للمطالعة إلى أن تقام صلاة العصر فترد الكتب إلى خزانتها وتسلم بيد الوكيل وننصرف بعد صلاة العصر إلى بيوتنا بالمدرسة»[205].

تقدم لنا هاته الرسالة التي تتحدث بدون شك عن مكتبات المساجد تفاصيل عن المحافظ وتصرفه بإزاء الطلبة الذين يأتون للمطالعة .فهي تطابق الرأي الذي يذهب إلى أن خزانات المساجد، وخزانات الجوامع كانت تحت مسئولية قيم يتعهد بتنظيمها. فنحن قد عرفنا من خلال ما قاله الجزنائي أن العاهل المريني أبا

205. ابن ميمون : الرسالة المجازة : تنظر أيضا مجلة رسالة المغرب العدد11 ص42-43 سنة 1943.

عنان عين محافظًا على رأس الخزانة التي أنشأها في القرويين للطلبة. وصنع نفس الشيء بالنسبة للخزانة الصغيرة التي خصصها للمصاحف والموضوعة في متناول الجمهور والطلبة المبتدئين والراغبين في تلاوة القرآن.

ومع ذلك فالجزنائي لم يقدم لنا إسمي هذين القيمين، وهذا ما قاله بهذا الخصوص «وعين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة»[206] . وأراد أحمد المنصور أثناء إعادة بناء هاته المكتبة في القرن 16/10م على عهد السعديين أن يكون محافظ القرويين هو أحد أبناء الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي [207]، غير أن هذا الأخير رفض الطلب الملكي بأدب [208]، ولم يقدم لنا العربي الفاسي الذي أحاطنا علما بهذا الخبر اسم القيم الذي أوكل إليه المنصور أمر الخزانة. ولعل أول اسم وصلنا لمحافظ خزانة القرويين هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن الفاسي المتوفي سنة 1179هـ [209].

وفيما يخص الخزانات الأخرى لمساجد المملكة فقد عهد بها دائما إلى قيم مكلف بتنظيمها. يخبرنا أبو جندار مثلا باسم محافظ مكتبة المسجد الكبير في الرباط في عهد الملك مولاي محمد بن عبد الله [210] . ويتعلق الأمر بالعلامة ابن القاسم السجلماسي الذي عينه هذا الملك محافظا، وذلك بمناسبة بناء هذا المسجد وهاته المكتبة الرائعة. فقد كان يتم التعامل مع القيمين دائما بشكل جيد، وكان هؤلاء الأخيرون يستفيدون من المساعدات والتقديرات التي كان الملوك يخصون بها هاته المؤسسات العلمية.

---

206. الجزنائي : زهرة الآس ص 69.

207. لقد سبق أن قلنا إن هاته الوظيفة كانت توكل في كل الأوقات إلى الشخصيات الكبرى.

208. العربي الفاسي : مرآة المحاسن ص 30.

209. الفاسي : فهرست القرويين ج 1 ص 25 .

210. أبو جندار : مقدمة الفتح ص 149 ط 1926.

وكانوا يتلقون المكافآت الشهرية لتأمين معاشهم. يقول الجزنائي «وعين لها قيما ... وأجرى له على ذلك جراية مابدة تكرمة وعناية ...»(211) . فكيف كان هؤلاء المحافظون المأجورون يصنفون الكتب؟ وهل كانوا يعتمدون تصنيفا معينا؟ فقد كانت توضع الواحدة فوق الأخرى (212)، وتصنف حسب تصنيف نسقي : فهناك أولا المصاحف ثم مصنفات الحديث، وبعد ذلك مؤلفات الفقه، والأدب، والنحو، وأخيرا مؤلفات التاريخ، والتنجيم، والطب ومواد أخرى (213).و اقترح العلامة أبو الحسن اليوسي في القرن 11هـ /17م تقريبا نفس التصنيف الذي كان قد اقترحه الهيثمي قبله في فتاويه، فكان يجب أن تكون المصاحف بالنسبة له على رأس الكتب (214)، وتأتي بعد ذلك كتب التفسير، ثم الأحاديث النبوية الشريفة، والفقه، وأصول الدين، وأصول الفقه، والنحو، والبلاغة، ومؤلفات الفلسفة، و أخيرا الكتب المصنفة في العلوم النظرية (215). وإذا استثنينا مؤلفي الهيثمي واليوسي، فإن كتب التاريخ والحضارة في المغرب تفتقر بشكل كبير إلى المعلومات حول تصنيف وترتيب الكتب في هذا النوع من الخزانات العامة.

2-2-1-3 المميزات

فيما يتعلق بمميزات المكتبات موضوع حديثنا هناك ميزتان رئيسان : السماح للجمهور بالدخول، وإعارة الكتب. لقد كانت خزانات المساجد والجوامع مفتوحة أمام كل من يرغب في الاطلاع على مؤلف معين. وكان يتردد إلى خزانات الجامعات الطلبة الذين كانوا يتابعون دروسهم العليا بوجه خاص وفيما يخص إعارة الكتب فكانت تتعلق بوجه خاص بخزانات الجوامع، واستعمل هذا الإجراء في القرويين انطلاقا من القرن 14م. يخبرنا الجزنائي «أن العاهل المريني أبا عنان نجز لها من قيد لإخراجها من هذه الخزانة

---

211 . الجزنائي : زهرة الآس ص 69.

212 . وهذا ما تشرحه العادة الشرقية في أن تكتب باختزال عنوان الآثار على الحافة الفوقية أو التحتية.

213 . ابن حجر الهيثمي : الفتاوي الحديثية ص 163.

214 . لقد خص محافظو خزانة الفاطميين في القاهرة المصاحف بقاعة خاصة.

215 . اليوسي : القانون ملزمة 19 ص2.

وإبرازها وردها لصيانتها في موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها ...»[216] وهناك رسالة لابن ميمون تخبرنا بما فيه الكفاية عن الإجراء المتبع في القرن 15م للحصول على الكتب عبر الإعارة. وحينما كانت تختفي الكتب المعارة فإن المكتبة توقف الإعارة لمدة محددة، وحينما يتم إرجاع هاته الكتب فإن الإعارة تستأنف لفائدة الطلبة. واستثنيت بعض الكتب المحبسة على الخزانات العامة من الإعارة تجنبا لاختفائها. ولم تكن بعض المؤلفات الأخرى تعار إلا برهن وثيق لحفظ صحتها لفترة محددة كما تظهر ذلك وقفية ابن خلدون المكتوبة بيده على الورقة الأولى من المجلد الثالث لكتاب العبر الذي وقفه على القرويين في القرن 14م. يقول «أتحفت بهذه النسخة منه خزانة السلطان ... أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان ... أمير المؤمنين أبي الحسن ابن السادة الأعلام من بني مرين ... وبعثه إلى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم، وكرسي سلطانهم» واستثنى ابن خلدون مؤلفه هذا من الإعارة إلا لثقة أمين برهن وثيق وألا تتعدى فترة الإعارة شهرين على الأكثر ...[218].

وعلى الرغم من هاته القيود فإن إعادة الكتب قد انتشرت في المكتبات العامة.

2-3 خزانات كتب المدارس

1-2-3 الأصل والتأسيس

لقد تزامن تأسيس المدارس المرفقة بالمكتبات العامة مع مرحلة تطور الحضارة والثقافة العربية في المغرب، وكانت هاته المؤسسات العلمية التي أنشئت في المغرب في نهاية القرن 13م وخاصة خلال

---

216 . الجزنائي : زهرة الآس ص69.

217 . إن خزانة القرويين، حسب التازي، قد توقفت عن إعارة الكتب في نهاية حكم الوطاسيين بناء على غياب العديد من المؤلفات، ينظر التازي جامع القرويين ج2 ص425.

218 . يوجد هذا المؤلف الذي يحمل عبارة التحبيس بيد ابن خلدون نفسه اليوم في القرويين. ومما تجب الإشارة إليه أن هاته الهبة لابن خلدون تمت الإشارة إليها في "المقدمة.

القرن 14م [219] تستعمل في نفس الآن مدارس وإقامات للطلبة. وعلى هذا النحو فهي بمثابة المؤسسات الخيرية التي يجب أن تؤدي مهمة ثقافية واجتماعية في نفس الآن [220]، فقد أسهمت المدارس، إلى جانب المساجد والجوامع بشكل خاص، في تطوير التعليم العالي للشعب المغربي. والمدارس التي بنيت في المدن العتيقة من مثل فاس ومراكش قد اعتبرت ملاحق للجوامع، ويبدو لنا من الضروري قبل أن ندرس خزانات كتب هاته المؤسسات العلمية الجديدة أن نحدد أولا ماهي "مدرسة" فكلمة "المدرسة"، هي صيغة عربية منحدرة من "درس" قرأ تعلم مأخوذة من العبرية أو من الآرامية [221].فهي تعني أولا كتابا أو مسجدا "مسيدا"، كما يظهر ذلك البيت الشعري التالي للشاعر العربي دعبل الخزعي المتوفى سنة 246هـ 860 م.

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

ولم تأخذ هاته الكلمة معنى ثانوية التعليم، وإقامة للطلبة، إلا بعد ذلك بقليل. وارتبطت كلمة "مدرسة" في الشرق الإسلامي بالعالم والوزير السلجوقي نظام الملك[222] المتوفى في سنة 485 هـ/1072 م، مؤسس "النظامية" في بغداد في القرن 11/5م. وعارض ذلك بعض المؤرخين العرب بدعوى أنه قد سبقت النظامية مدارس كانت توجد في بلاد الإسلام [223] مثل المدرسة التي أسسها أبو الحسن البستي المتوفى سنة 277 هـ/ 890 م وذلك بمسقط رأسه في القرن الثالث الهجري، وكانت هاته المدرسة مرفقة بمكتبة وإقامة بالإضافة إلى منح للطلبة الأجانب. والمدرسة التي أسسها العلماء الشافعيون لشيخهم العلامة النيسابوري المتوفى في سنة 349 هـ 960 م [224]. لقد احتار المؤرخون في المغرب، شأن نظرائهم في الشرق

---

219. القرن الذي ظهر فيه أكبر مفكري المغرب، وألفت فيه أهم الآثار التاريخية والأدبية في هذا البلد. ونشير إلى أن إنشاء المدارس في المغرب قد تزامن تقريبا مع ظهور الجامعات الأوربية التي أعطت انتعاشا للحركة الفكرية.

220. تذكرنا هاته المدارس بمؤسسة الصوربون التي خصصت لإيواء طلبة علم اللاهورت الذين لم يكن لهم ما يكفي من العائدات لتأمين معاشهم وذلك برعاية ملكية.

221. مسجد في "دائرة المعارف الإسلامية" ص 362 ج3 ط 1936.

222. عرف بأنه مؤسس أول "مدرسة" في الشرق الأوسط النظامية.

223. يؤكد كاتب مقال "المامون العباسي" المنشور في "الموسوعة البريطانية" أن هذا الخليفة قد أسس مدرسة في خراسان في إيران حينما كان فيها حاكما. ينظر: Ency-Britannica الجلد 11 ص417-418، William Benton, publisher 1943-1973.

224. طلاس. المدرسة النظامية ص 13.

الإسلامي، في كتابة تاريخ المدرسة. فعدد كبير منهم يؤكد أن المدرسة هي مؤسسة مرينية بوجه خاص، يقول ابن مرزوق: "قد قدمنا أن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس وبعدوة القرويين منها"[225].

إلا أن هناك مؤرخين آخرين يعارضون هذا الرأي على أساس أنه قد سبق أن وجدت مدارس في مختلف مدن المملكة قبل حدوث هاته الدولة . فقد بنى المرابطون في فاس "مدرسة الصابرين"، التي أسسها يوسف بن تاشفين أثناء سفره إلى هاته المدينة في سنة 462 هـ [226] .

وتم تأسيس مدارس أخرى على عهد المرابطين. يخبرنا صاحب "اختصار الأخبار" أن العلامة الشاري السبتي أسس في سبتة مدرسة للطلبة الراغبين في تعلم الفقه المالكي[227]. ويخبرنا العمري أن ثمة مدرسة كانت توجد في القصر الموحدي في مراكش، يقول بهذا الصدد "بنى يعقوب المنصور قصر الخلافة وسط المدينة التي اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه ... وفي رحبة القصر. قصر الخلافة. دار الكرامة والأضياف وفي هذه الرحبة المدرسة وهي مكان جليل به خزائن الكتب ..."[228].

ويخبرنا حسن الوزان بعد قرنين من الزمان بكثير من التدقيق عن هاته المدرسة نفسها : «توجد في القلعة أيضا مدرسة رائعة جدا، أو على الأصح إقامة للدراسة وللسكن. وتضم ثلاثين غرفة. وقاعة في الأسفل كانت تعطى فيها الدروس سابقا. وكل طالب تم قبوله في هاته المدرسة كانت تتكفل المدرسة بنفقته وكسوته مرة في كل عام»[229] ويخبرنا الوزان في مقطع آخر عن خزانة هاته المدرسة التي تحولت في عصره إلى خم للطيور «ففيما يخص مكتبة الخلفاء، فقد تحولت إلى خم وعشش الحمام في دواليب الكتب

225 . ابن مرزوق المسند الصحيح ص 246 نسخة مرقونة.

226 . لقد سميت هكذا لأنها آوت آخر المقاومين الموحدين. وسميت أيضا مدرسة أبو مدين، ولقد حدد الحفريون مكان هاته الخزانة المفقودة اليوم بفاس وهو المكان المسمى "باب الحمراء" ينظر التازي "جامع القرويين"ج 1 ص123.

227 . الأنصاري : اختصار الأخبار ص 9، في مجلة هسبريس سنة 1925.

228 . نقلا عن المنوني : العلوم : ص 279.

229 . حسن الوزان : "وصف إفريقيا"، ج 1 ص 103 . نحن مدينون لهذا العالم بالتفاصيل المرتبطة بالشروط التي يجب أن يرضخ لها الطالب لكي يقبل في مدرسة معينة.

والمخطوطات»[230] . وكانت توجد مدرسة أخرى، حسب نفس المؤلف، في القصبة في مراكش «لم يكن يقطن في مدرسة القصبة إلا خمسة تلاميذ أو ستة كان يدرسهم قارئ وفقيه مغمور للغاية» [231] .

وعلاوة على الأمثلة الآنفة الذكر فقد أكدصاحبا الحلل والقرطاس أن الخليفة الموحدي يعقوب كان قد بنى المدارس في المغرب، وفي تونس، وفي الأندلس[232] . فلم يبق هناك شك إذن في أن المدارس قد وجدت في المغرب قبل حدوث دولة بني مرين . لكن من المؤكد أن هؤلاء الملوك تنافسوا بحماس من أجل إرفاق المدن المغربية بهاته المآثر الفخمة التي مازالت إلى الآن تحظى بالتقدير، ولم تتوقف الدول الأخرى كما لم يتوقف الأغنياء عن توسيع هاته المدارس أو تأسيس مدارس جديدة، لكن مؤسسي هاته المدارس فهموا أن عملية التدريس لا يمكن أن تكتمل إذا لم تصبح المكتبة ملحقة بالمدرسة. وهذا ما جعل المؤسسات الجديدة مرفقة كلها تقريبا بخزانات الكتب. ومازال البعض منها يحتفظ بالكتابة على أبوابها مثل تلك التي أسسها أبو عنان في القرن 14م. «لقد أمر بتشييد هاته الخزانة السعيدة سيدنا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين، خادم الله الفارس، شدد الله حكمه وقوى عزيمته! بتاريخ شهر شوال من سنة 750. جزانا الله من خيرات هاته السنة» [233] . وتنحدر مجموعات مكتبات المدارس من الاقتناءات، والعطايا، والوقف. فقد اعتاد الملوك أن يزودوا كل إقامة بعائدات هامة مخصصة لنفقتها، ولتسييرها، ولإيواء الطلبة، ومؤونتهم ولتأجير عدد محدود من الأساتذة. وترد تكاليف المكتبة بما فيها شراء الكتب في ميزانية التسيير. وإذا كان الملوك هم الذين يتكلفون بمصاريف مدارس المدن، فإن مصاريف منشآت المراكز القروية، وخاصة سوس في جنوب المغرب كانت تتكفل بها الجماعة [234] .

230. حسن الوزان : "وصف إفريقيا"، ج 1 ص 175 .

231. نفسه : مخطوطات محبسة على خزانة مدرسة القصبة مازالت توجد إلى اليوم. ينظر وقف الكتب.

232. الحلل الموشية ص 55 وروض القرطاس ص 138 .

233. "Inscriptions arabes de Fès "A.Bel ص 257 .

234. المختار السوسي : سوس العالمة ص 25 .

وكانت تتكون مجموعات هاته المكتبات أيضا من الإهداءات فقد أسس العاهل المريني يعقوب بن عبد الحق مدرسة الصفارين، وهي أقدم مدرسة في فاس وأرفقها بخزانة كتب أوقف عليها المجموعات التي تسلمها من شانجة ملك قسطلونة [235]. ويوضح بند من بنود معاهدة السلم التي عقدها يعقوب مع العاهل الإسباني التنازل عن كل الكتب العربية التي كانت توجد في حوزة المسيحيين واليهود لدولهم، وهذا ما يخبرنا به صاحب القرطاس بهذا الصدد«ولما صرفه إلى بلاده (صرف أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق لشانجة) أمره رحمه الله أن يبعث إليه بما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين ومصاحفهم فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من الكتب ككتاب الله العزيز وتفسيره كابن عطية والثعالبي. ومنها كتب الحديث وشروحها كالتهذيب، والاستذكار، وكتب الأصول، والفروع، واللغة والعربية، والآداب وغيرها، فأمر رحمه الله بها فحملت إلى مدينة فاس فحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي كان بناها نفعه الله تعالى بقصده»[236]. وكان الملوك السعديون والعلويون يصنعون نفس الأمر، ومثال ذلك الكتب التي أهداها عبد الله الغالب السعدي ومولاي رشيد العلوي إلى مدارس آبن يوسف[237] في مراكش والشراطين في فاس. أما فيما يتعلق بالوقف فقد كان العامل الأساس في إغناء هذا النوع من المكتبات العامة [238]. وشدد عليه الملوك والخواص على حد سواء. وهكذا فقد حبس العاهل الموحدي عمر المرتضى كتاب الأنجاد والتمهيد لابن عبد البر على مدرسة القصبة في مراكش [239]. يخبرنا ابن

---

235. يذكرنا هذا السلوك بالتصرف الذي قام به "روبيردوصوربون" (وهو رجل متدين) الذي أعطى كتبه إلى الكلية التي أسسها في القرن 13م (الصوربون حاليا). ينظر "سفندال" "تاريخ التاريخ"Histoire du livre Svend dhal ص66 ط : 1960م.

236. ابن أبي زرع القرطاس ص 8 م33 ونشير إلى أن المجموعات موضوع الكلام كانت قد نقلت فيما بعد إلى خزانة القرويين. ولقد تساءل "بل" في فهرسته للقرويين المنشور في سنة 1918 ص 3هامش A 2 عما آلت إليه هاته الكتب «أين هي مثلا الأحمال الثلاثة عشر من الكتب التي سلمها شانجة» إلى الأمير المريني يعقوب والتي حبست على مدرسة فاس الجديد، كما يخبرنا بذلك مؤلف القرطاس؟» ونفس الأسئلة توجد في أطروحة آبن شقرون "الحركة الفكرية في عهد المرينيين"-La vie intellectuelle sous les mérinides ص 56 ط : 1974. ويوسعنا أن نقول إلى هذين الباحثين الشهيرين إن الأجيال الشهيرة قد أكتشفت في 1934 في حجرة قديمة مغبرة في القرويين تنظر مجلة المغرب 1934.

237. "مارمول" Marmol "تاريخ الشرفاء" : Histoire des chérifs، ص 3 ص 225.

238. ينظر فصل الوقف.

239. المخطوطان محفوظان اليوم في خزانة بن يوسف في مراكش ينظر فصل الوقف.

مرزوق أن أبا الحسن المريني حبس الكتب على جل المدارس قائلا : "وهذه المدارس مع ما حبس في جلها من أعداق الكتب النفسية والمصنفات المفيدة" [240] فقد حبس نسخة من "البيان والتحصيل" على مدرسة عدوة الأندلس في فاس في سنة 728هـ . فهذا المخطوط الذي يوجد اليوم في القرويين والمصنوع من رق الغزال هو من عيون آثار هاته الخزانة.

ونحن نلاحظ فيما يتعلق بطبيعة مجموعات خزانات كتب المدارس، أنها كانت مكونة مما كان يدرس في هاته المؤسسات من علوم. توجد في ورقة تأسيس المدرسة البوعنانية [241] العبارة التالية : «بمثل ما كان التعليم الذي كان يعطى في هاته المدرسة يعني العلوم الدينية فإنه كان يعني العلوم النظرية ونعني بها الفلسفة والرياضيات والطب إلخ ...» [242] فقد كانت مجموعات خزانة هاته المدرسة إذن متنوعة. فخزانة مدرسة "السبعين" في فاس التي كان يتم فيها تدريس القراءات السبع بوجه خاص كانت تحتوي على الكتب المتعلقة بهذا النوع من علوم القرآن ... وكانت تتكون مجموعة خزانة مدرسة العطارين في فاس، حيث كانت تقدم فيها دروس الفقه [243] وحدها من مؤلفات العلوم الشرعية.

ولم تكن مجموعات العديد[244] من الخزانات الكائنة في سوس في جنوب المغرب مختلفة عن مجموعات خزانات المدارس الأخرى في المغرب. فقد كانت كل العلوم التي تدرس وتلقن في فاس حسب المختار السوسي موجودة في مدارس «سوس» (245). ونشير في نهاية هاته الفقرة إلى وجود نوع آخر من خزانات كتب المدارس في المغرب، ويتعلق الأمر، بخزانة "المارستان"[246] التي كانت في نفس الآن مركزا

240. ابن مرزوق : المسند ص 247.

241. مدرسة شيدها العاهل المريني أبوعنان.

242. "لشيوني"Luccioni : "المؤسسات الخيرية بالمغرب" Les fondations pieuses au Maroc ص 90.

243. يوضح لنا مترجمو الرياضي ابن البنا المراكشي المتوفى (سنة 1339) والنحوي المكودي 807هـ والفقيه ابن الفتوح المتوفى سنة 818هـ والمشترائي الدكالي المتوفى سنة 1032 أن هؤلاء العلماء لم يكونوا يدرسون إلا الفقه في مدرسة العطارين في فاس.

244. لقد وصل عددهم حسب المارشال "ليوطي" مائتين في بداية القرن العشرين ينظر المختار السوسي : سوس العالمة ص 13.

245. المختار السوسي : سوس العالمة ص 20. يعدد المؤلف في هذا الكتاب كل العلوم التي كانت تدرس في هاته المعاهد.

246. "بيمارستان" كلمة مركبة من أصل فارسي "بيمار" (مريض، عاجز، معتوه) و"ستان"(مكان دار) يعني إقامة مخصصة للمرضى

استشفائيا ومدرسة للطب. فنحن نقرأ في كتب التاريخ أن العاهل المريني أبا عنان بنى في سلا سنة 757هـ /1356م مستشفى ومدرسة للطب والجراحة [247] فلازمها أطباء شهيرون وكانت تتم فيها علاجات هامة.

وإذا كانت تنقصنا المعلومات عن وجود خزانة كتب مرفقة بهاته المدرسة، فإننا نذهب في المقابل، إلى أن هاته المدرسة كانت مرفقة على غرار المارستانات في الدول الإسلامية[249] بخزانة كتب تضم بدون أدنى شك مؤلفات طبية.

وانتهت مجموعات خزانات المدارس انطلاقا من القرن 19م إلى خزانات المساجد الكبرى في مختلف المدن المغربية. كان هذا حديثنا عن أصل وتأسيس خزانات كتب المدارس فماذا الآن عن تنظيم هاته المؤسسات ومميزاتها.

2-2-3 خزانات كتب المدارس: التنظيم والمميزات.

لا تسمح لنا المعلومات الضئيلة المتعلقة بهاته المكتبات بأن تتبين سيرها، ومع ذلك يخبرنا التازي[249] أن كل مدرسة كان يعهد بها إلى قيم أو محافظ كان يهتم، علاوة على مسئولية الخزانة، بإدارة المدرسة، وبتنظيم المحاضرات، وتوزيع المنح على الطلبة الذين كانوا يقطنون فيها.

وفي القرن 19 الذي انحطت فيه المكتبات المغربية كانت مهمة المحافظ تعهد إلى أحد فقهاء المدرسة. ومع ذلك فالتنظيم الإداري في مكتبات هاته المؤسسات لم يكن مختلفا عن تنظيم ضروب أخرى من الخزانات العامة.

---

247. إن هذا الخليفة قد حول ساحة لبيع الزيت مسماة (أسكور) إلى مدرسة للطب ينظر "لشيوني" "التقرير الاجتماعي والاقتصادي عن المغرب "Bull écom et Soc.du Maroc ص 462، 16 سنة 1953 انظر أيضا "المؤسسات الخيرية في المغرب" : les fondations pieuses au Maroc ص 94.

248. كانت توجد في العديد من دول الشرق الإسلامي مثل مصر والعراق في نفس الفترة مارستانات مرفقة بخزانات كتب.

249. التازي : جامع القرويين، ج2، ص439.

أما فيما يتعلق بالميزات؛ فنحن يمكن أن نستخرج ميزتين من خلال ما حصلنا عليه من معلومات ، الانفتاح أمام الجمهور وإعارة الكتب. فقد كانت خزانات كتب المدارس، علاوة على طابعها الجامعي الذي اكتسته منذ ظهورها ، منفتحة أمام الجميع. فهي شأن كل الخزانات العامة الأخرى لم تكن تحصر تعاملها في نطاق المدارس التي توجد ضمنها ، ولكنها كانت توسعه لصالح الباحثين الأجانب.

أما فيما يتعلق بإعارة الكتب،فهناك ندرة في المعلومات بهذا الشأن. ومع ذلك فهناك "فتوى" نقلها لنا الونشريسي في (المعيار) بخصوص المؤلفات المحبسة على المدارس تمكننا من أن نؤكد العمل بإعارة المخطوطات في هاته المدارس. وقد سئل المفتي عن صيغة التحبيس التي تمنع إخراج ومطالعة كتابين دفعة واحدة، فأظهر إمكانية إخراج مجموعة من الكتب في نفس الآن إذا كان القارئ جديرا بالثقة.وقد استوحى فتواه من مبدأ العرف الذي يتحكم في إعارة الكتب المحبسة على المدارس، فتكون الإعارة ممكنة إذا كانت من إجماع المدرسين في المؤسسات(250).

فإذا ارتكز المفتي على ما يسمى بالعرف فلأن إعارة الكتب الموقوفة والمخطوطات المقتناة أو المهداة كان أمرا معمولا به.

3-3 خزانات كتب الزوايا

3-3 الأصل والتأسيس

لن نزعم أننا سنتعقب هنا تاريخ الزوايا المغربية، بل سنقتصر فقط على دراسة خزانات كتب هاته المؤسسات التي لعبت، حسب معرفتنا ، دورا أساسا سواء في تطوير المعرفة العلمية أو حفظ التراث العربي في المغرب.

---

250 . الونشريسي : المعيار، ج7 ص340.

فقد عرف المغرب منذ زمان، باكر، هذا النوع من المؤسسات. يخبرنا صاحب "المرقي في أخبار سيدي محمد الشرقي" أنه كانت توجد هناك زوايا في تادلة في القرن 4هـ/10م [251]. وكانت تسمى "رباطات" وهي بنايات ذات طابع ديني، ولم تأخذ اسم "زوايا" إلا في القرن 7هـ/13م. ومن ضمن الرباطات المسماة هكذا رباط الشيخ الزاهد أبي محمد صالح الماجري (631 هـ) التي توجد في مدينة آسفي [252].

ولقد شيد العديد من الملوك المغاربة الزوايا في مختلف مدن المغرب، وخصصوها للمهاجرين المعدمين والطلبة المعوزين.فقد خصص ابن مرزوق في حديثه عن السلطان المريني أبي الحسن الفصل الثاني والأربعين للزوايا التي بناها هذا العاهل. ونشير إلى أن هاته الأخيرة كانت تطابق ماكان يسمى في الشرق "رباط" أو"خانقة" يقول : «قلت والظاهر أن الزوايا عندنا بالمغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين»[253] . فقد ظهرت الزوايا انطلاقا من القرن 15م تقريبا في كل مكان من المغرب. ولعل السبب الأساس الذي كمن وراء هاته الكثرة هو عدم قدرة الملوك المغاربة على مواجهة حملة المسيحيين ضد المغرب. فقد وضعت هاته الغارات المسيحية حدا للمراكز النشيطة للدراسة في الجوامع وفي المدارس. فبدأت هاته الأخيرة تنحط في بداية القرن 10هـ/16 لفائدة الزوايا التي تكاثرت في وسط البلاد وعرفت تطورا كبيرا.

وأرفقت هاته المؤسسات التي بدأت تكتسي مظهرا عسكريا بالمدارس. وأنيطت مهمة التدريس في هاته المدارس بعلماء كبار كانوا في نفس الوقت مرابطين في هاته الزوايا. وكان الناس يتوافدون على هاته الزوايا من أي مكان طلباً للعلم من شيوخ عرفوا بمعرفتهم وورعهم. فأكبر الكتاب المغاربة في القرن 11هـ/17م قد انحدروا من هاته المؤسسات التي قامت بوظيفة ثلاثية : دينية، واجتماعية، وفكرية. وكانت كل هاته

251. المختار السوسي : سوس العالمة ص 15.

252. حجي : الزاوية الدلائية ص15.

253. ابن مرزوق المسند ص 250.

الزوايا تتوفر على خزانات من الأهمية بمكان. وباعتبار عددها الكبير فإننا لا نقترح للدراسة إلا البعض منها مما هو أكثر تمثيلية فيما يخص رفعة مرابطيها وغنى مجموعاتها الكتبية.

1-1-3-3 خزانة كتب زاوية الدلائيين [254]

تأسست الزاوية الدلائية في عهد السعديين حوالي 974هـ/1567م في الأطلس المتوسط وتنحدر من الشاذلية مثل أغلب الجمعيات الدينية في المغرب. ولم يكن لهاته الزاوية في الأصل هدف آخر غير نشر الطريقة. وقد أصبحت هاته الزاوية بسبب تقهقر حالة المدارس في المدن، شأنها في ذلك شأن العديد من الزوايا الأخرى، مركزا للتدريس[255]. إن سقوط السعديين قد دفع عددا من الطلبة والعلماء إلى أن يختلفوا إلى الدلائيين لكي يدرسوا أو ليحضروا محاضرات الشيوخ الكبار، وليفيدوا من ثراء الخزانة التي كانت تضم عشرة آلاف كتاب مخطوط [256]. وممن تجب الإشارة إليه من شيوخ هاته المؤسسة محمد بن أبي بكر الدلائي أحد البارزين في القرن 17م [257]، ومحمد أبا عبد الله المرابط، وأحمد بن القاضي المكناسي، وأحمد بن عمران الفاسي، وحمدون البار، ومحمد بن سودة، وابن سعيد الماغيتي [258] ومن ضمن طلبة الزاوية : الحسن اليوسي، وأحمد المقري، والعربي بن أبي المحاسن الفاسي [259]. وكانت العلوم التي تدرس في الزاوية هي التفسير والأحاديث النبوية، وأصول الدين، وأصول الفقه، والتصوف، والمنطق، والتنجيم، وفقه اللغة، والبلاغة، والأدب [260]. فقد كانت الخزانة العامرة لهاته الزاوية بمقارنة بعض المؤرخين لها مع

---

254. ينظر فيما يخص الزاوية الدلائية بحث حجي : الزاوية الدلائية الرباط1963م.

255. كانت المدرسة الملحقة بهاته الزاوية تضم أربعمائة حجرة تنظر الزاوية ص 71.

256. عبد السلام القادري : تقايد تاريخية ص 11وعبد الحي الكتاني، المكتبات الإسلامية مخطوط رقم ك 3002 ص 19.

257. هناك قول مأثور، على رواية صاحب "نشر المثاني" أنه لولا ثلاثة رجال عبد القادر الفاسي، ومحمد بن أبي بكر الدلائي، ومحمد بن ناصر الدرعي لضاع العلم كلية من المغرب في القرن 11هـ بسبب الفتن المدنية العديدة التي هيمنت في هذا البلد.

258. كانوا كلهم كتابا بارزين.

259. هم أصحاب "محاضرات"و"نفح الطيب"و "مرآة المحاسن".

260. حجي : الزاوية الدلائية ص 69.

خزانة (الحكم الثاني) في قرطبة [261] تضم مؤلفات مرتبطة بالعلوم التي كانت تدرس فيها. واغتنت مجموعتها أساسا بالاقتناءات والهبات، والوقف، والنساخة بوجه خاص. وعمل الشيوخ على جلب الكتب سواء من المغرب أو من الشرق الأوسط. وكان أتباع الزاوية يوقفون كتبهم على الخزانة. وآخرون كانوا يقضون كل أوقاتهم في انتساخ المؤلفات المرتبطة بالدروس التي كانت تلقن. وعدد كبير من العلماء المذكورين آنفا [262] استفادوا من ثراء هاته المكتبة في تأليف مؤلفاتهم. فقد انتهت خزانة الدلائيين في جزء كبير منها ، بعد أن فكك العاهل مولاي رشيد الزاوية، إلى الخزانة الملكية عند العلويين. إذ حبّس مولاي رشيد، حسب عبد الحي الكتاني، جزءا منها على المسجد الكبير في مكناس[263]. وتم إدماج مصنفات منها في خزانات الزاوية العياشية، وخزانة مدينة بزو[264].

2-1-3-3. خزانة كتب الزاوية العياشية [265]

شيد الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي الزاوية العياشية بتوجيه من شيخه محمد بن أبي بكر الدلائي وذلك في سنة 1044هـ على السفح الصحراوي لأعالي الأطلس المتوسط، في أسفل الجبل العياشي لشمال تافيلالت.

وعرفت الزاوية منذ تأسيسها نشاطا فكريا كبيرا. فكان أساتذة [266] هاته الزاوية، الذين تتلمذوا على الدلائيين، يدرسون كل مواد الدراسات الإسلامية. وكانت تدرس هناك مواد أخرى مثل المنطق،

261. نفسه ص 71، ينظر أيضا : تقاييد تاريخية.

262. أبو علي اليوسي وأبو عبد الله المرابط وكثيرون آخرون فبعد زوال الزاوية دعا مولاي رشيد عددا من أساتذته إلى الاستقرار في مكناس وفي فاس. فقد أحاط الملوك العلويون العالمين المذكورين آنفا بالاهتمام وكانا ينتميان إلى الحاشية.

263. الكتاني (عبد الحي)، المكتبات الإسلامية ص : 19.

264. نفسه ص 20. ونشير إلى أن المخطوطات النادرة وفي بعض الأحيان الفريدة تم اكتشافها حديثا في هاته الخزانات ومثال ذلك اكتشاف العلامة الكتاني لكتاب «البرصان والعرجان والعميان» للجاحظ في مدينة بزو.

265. عرفت أيضا ب "الحمزية" اسم أحمد أحفاد العياشي، مؤسس الزاوية.

266. بوصول الملك العلوي مولاي رشيد إلى الحكم نقل إلى فاس علماء هاته الزاوية التي أدمج جزءا من خزانتها في الخزانة الملكية. وأجاز خلفه السلطان مولاي إسماعيل لعلمائها العودة إلى مقرهم. فسرعان ما أعادت الزاوية نشاطها الثقافي.

والهندسة، والطب. وتضم إحدى فهارس خزانة الزواية مؤلفات متعلقة بهاته المواد. وأغتنت الخزانة التي لم تكن في بادئ الأمر إلا الخزانة الخاصة لأبي بكر ، بالاقتناءات والعطايا، والوقف. فشيوخ الزاوية العياشية على غرار الشيوخ الآخرين لم يتراجعوا أمام أي ثمن لاقتناء المخطوطات الضرورية للطلبة. فقد جاءوا بها بشكل خاص من فاس، ومن الشرق الإسلامي. وفوق هذا كانوا ينتسخون هم أنفسهم المؤلفات التي كانوا في حاجة إليها [267] أو كانوا يأمرون بانتساخها. وكانوا يستعيرون من أجل هذا المخطوطات من فاس، ومن زاويا أخرى مثل الزاوية الناصرية في تمكروت [268].

وكانوا يقومون أيضا بالتنسيخ الجماعي. ويدل حرد متن المخطوط رقم 505 أن هذا المؤلف انتسخه ثلاثة عشر شخصا آخرهم هو كاتب هاته السطور عمر بن محمد بن أبي بكر في سنة 1080هـ. وكانوا يشتغلون أيضا بمقابلة المخطوطات وتصحيحها. توجد في حرد متن الجزء الثاني من الإحياء للغزالي [269] الذي كتبه أبو سليم العياشي [270] التقييدة التالية «قوبل هذا المخطوط عن الأصل».

وأغنيت الخزانة أيضا بالوقف والهبات. فكثير من المؤلفات المحبسة على هاته الخزانة والحاملة لصيغة الوقف توجد اليوم ضمن رفوفها، فمازالت على وجه أول ورقة من المخطوط رقم 311 صيغة الهبة إلى الخزانة كتبها الأمير العلوي عبد الملك بن السلطان مولاي إسماعيل بخط يده.

---

267. لقد كان شيوخ هاته الزاوية كلهم نساخا. وتحتفظ الخزانة إلى يومنا هذا بمخطوطات انتسخوها بأنفسهم.

268. يضم الملف 319، حسب المنوني، رسالة الشيخ أحمد بن ناصر إلى شيخ الزاوية العياشية يسأله فيها إرجاع حاشية الطيبي على الكشاف" التي كان استعارها للنساخة تنظر مجلة تطوان عدد 8 ص100.

269. مخطوط من الزاوية محفوظة تحت رقم 488.

270. إن أبا سليم المتوفى في سنة 1090، 1679م صاحب رحلة طبعت العديد من المرات وترجمها إلى الفرنسية "بير بروجر""A Berbrugger" ضمن سلسلة "الأكتشاف العلمي للجزائر" l'exploration scientifique de l'Algérie

3-1-3-3 خزانة كتب الزاوية الناصرية في تمكروت

بنيت هاته الزاوية المنحدرة من الشاذلية في سنة983 هـ في الأطلس الكبير من طرف الشيخ عمر بن محمد الأنصاري، أحد أعيان درعة وزهادها . ولم تكن في الأصل إلا مركزا صغيرا كان يتم فيه تدريس "أوراد الشاذلية" وقد جاء العلامة محمد بن ناصر في 1040 لتعليم الطريقة وأعطى في نفس الوقت محاضرات إلى "الطلبة"[271] . وهكذا أصبحت الزاوية مركزا للتدريس تجاوزت شهرتها حدود منطقة درعة. ومن ضمن الطلبة الذين أعجبوا بابن ناصر أبو علي اليوسي الشهير، وعبد الملك التاجموعتي والرحالة الكبير أبو سليم العياشي. إن هذا الطموح الثقافي قد أدى إلى جمع خزانة كتب جديرة بالزاوية، انحدرت كتبها من الاقتناء، ومن النساخة، ومن الوقف، ومن الهبات ومن عطايا السلاطين، وخاصة شيوخ الزاويا . وهكذا اقتنى محمد بن ناصر العديد من النسخ، وقدم ثمانمائة مثقال [272] مقابل نسخة "الحلية" لأبي نعيم [273] واشترى الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1240هـ في رحلته إلى استانبول مؤلفات منها كتاب "الكمال" للحافظ عبد الغني المقدسي[274] في مجلدين بثمن بخس، وذلك برسم خزانة الزاوية. وتم ابتياع الكتب حسب صاحب المزايا من مكة والمدينة، ومصر، وطرابلس، وتونس [275].

وشكلت النساخة إحدى أهم مصادر إغناء هاته الخزانة فنظرا لعجز الشيوخ عن شراء كل المصنفات التي كانوا يحتاجون إليها، فإنهم كانوا يعملون على انتساخها بأنفسهم. يخبرنا صاحب "طلعة المشتري" أن

---

271 . يركز منهج التدريس عند الشيخ الناصري على الاكتفاء بإعطاء توضيحات عن النص نفسه ومن مقاطع الشرح المتعلق به. ينظر: طلعة المشتري ج1 ،ص 159 .

272 . عمله عربية.

273 . "بودان" M.Bodin : "زاوية تكروت" في مجلة arch.berbères المجلد 3-1918 ميكرو فيلم من الخزانة الوطنية في باريس رقم 432 .

274 . "لخضر""الحركة الفكرية على عهد العلويين" "Vie intellectuelle sous les Alaouites" إن الشيخ ولعدم استطاعته في ليبيا الحصول على نسخة من "البخاري" لثمنها المرتفع فإنه انتهز التقدير الذي يوليه به الملك العلوي مولاي سليمان، فاقترح عليه أن يشتريه. ينظر : الناصري طلعة المشتري : ج2 ص 164 .

275 . الناصري : المزايا ص 47.

محمد بن الناصر انتسخ هو بنفسه مخطوطات في لحظة من حياته وصل فيها فقره إلى درجة لم يجد فيها ثمن اقتناء حصيرة لافتراشها . وأرسل إليه أحد تلامذته حصيرا لافتراشه، فاستغنى عنه الشيخ لصالح كتبه، ووضعه تحتها لحفظها من الرطوبة [276].

إن كل شيوخ الزوايا تقريبا قد انتسخوا المخطوطات في واقع أمرهم أو عملوا على انتساخها . وهكذا فعبد الله بن ناصر انتسخ بيده كتاب "القاموس" للفيروزابادي، والأمالي للقالي، وبعض الأجزاء من العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة 328هـ . واغتنت الخزانة أيضا بالعطايا ، والهبات، والوقف. فكان العلماء، والطلبة يتنافسون في إهداء المخطوطات إلى مكتبة الزاوية. وهكذا أهدى الفقيه عبد الرحمن المكناسي نسخة قديمة وقيمة من صحيح البخاري إلى الشيخ الناصري. وأهدى تلامذة "الشيخ الآخرون، ومنهم اليوسي، نسخا أخرى من نفس الكتاب[277]وفيما يتعلق بالهدايا ، فكان من المعتاد تقريبا بالنسبة لشيوخ الزاوية أن يوصوا بمجموعاتهم لصالح المكتبة. يروي لنا الكتاني أنه من ضمن هؤلاء الذين رضخوا للعادة الشيخ محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف[278].

وبخصوص الوقف فقد كان متزامنا مع تأسيس مكتبات الزوايا . وتحمل نسخة من كتاب : "المنصف من الكلام على مغني ابن هشام"للشمني والتي أنجزها ابن ناصر نفسه الوقفية التالية : «حبس هذا المؤلف أبو عبد الله بن ناصر على خزانة هاته الزاوية»[279] وما من شيخ إلا وحبس كتابا أو عدة كتب على هاته الخزانة. كما لم يفت السلاطين أن يصنعوا نفس الأمر. وهكذا فالملك محمد بن عبد الله حبس نسخة من "البيان والتحصيل" لابن رشد، وعددها 18مجلدا ، على الزاوية الناصرية. وتحمل آخر ورقة من آخر مجلد علاوة على الوقفية الإشارة التالية : أنجزت هاته النسخة في فاس بإشارة من الملك محمد الثالث في شهر

---

276 . الناصري : الدرر المرصعة ص 311. ينظر أيضا "بودان" : زاوية تمكروت في مجلة Ach.berbères المجلد 3 . 1918.

277 . الكتاني : المكتبات الإسلامية ص 47.

278 . نفسه.

279 . هذا المخطوط محفوظ في خزانة الزاوية تحت رقم 637.

صفر سنة 1178هـ (280) . وتم إدماج المكتبات الخاصة بالإضافة إلى خزانات كتب فروع الزاوية في هاته الخزانة. وهكذا فقد ألحقت مكتبات العلماء أحمد بن إبراهيم السبعي، وأبي العباس الهشتوكي، وأبي علي الدمناتي بالمكتبة الناصرية(281) . وانتهت المخطوطات المحبسة على الناصرية في الرباط، وفاس، وتطوان إلى تمكروت (282) . فقد اشتهرت هاته المكتبة بكونها واحدة من أثرى مكتبات المغرب وأروعها . فهي تضم اليوم 4000 مخطوط ، يوجد ضمنها أقدم مخطوط عربي في العالم (283) .

4-1-3-3 خزانة كتب زاوية "بوجعد"(284)

أسس العالم الزاهد محمد الشرقي (285) زاوية أبي الجعد، المتفرعة عن الناصرية، في درعة سنة 954هـ . وبنى الشيخ على مقربة من الزاوية (286) مدرسة (287) كان يعطي فيها محاضرات للطلبة الذين يتوافدون عليها من أهم مدن المغرب، وأصبحت أبو الجعد في عهد خلفائه مركزا فكريا استمرت شهرته إلى السنوات الأخيرة ، وذلك لعبقرية شيوخه رؤساء زاوية شرقاوة، وحبهم للعلم، والاهتمام الكبير الذي أولوه للطلبة الذين يؤمونهم للأخذ والتحصيل.

وكانت المكتبات الخمسة التابعة لهاته الزاوية خاصة وعامة في نفس الآن. فقد كانت مفتوحة أمام الجميع. فقد وضعها المالكون الذين هم شيوخ المؤسسة رهن إشارة العلماء والباحثين والطلبة" وذلك حفاظا

280. مخطوط محفوظ في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم ق 439.

281. الناصري : المزايا ص 47.

282. مثل النسخ الموجودة تحت الأرقام 214، و 284، و1478، و 1866 و 1047.

283. يتعلق الأمر ب"حذف من نسب قريش" للسدوسي : ينظر الفاسي : "الخزانات بالمغرب" في مجلة هسبريس 1961 وتم نقل جزء من هاته المكتبة الذي يقدر بألف مؤلف إلى الخزانة العامة في الرباط في 1985.

284. بخصوص هاته الزاوية يجب العودة إلى "سيمتيير"J.Cimetière Origine et fondation de BouGad في مجلة "العالم الإسلامي" RMM 1913 و"نيجل" Neigel "مدارس ومكتبات أبي الجعد" Les medersas et les bibliothèques de BouGad في نفس المجلة 1913.

285. إنه سليل الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب

286. هناك فوائد متعددة في أن نميز بين الزوايا التي هي في أصلها جمعيات دينية مثل زاوية الدلائيين والزوايا التي تنحدر من الشرق والتي يشار إليها غالبا باسم الحرم.

287. على الرغم من انتماء هاته المدرسة للزاوية فإنها ليست مختلفة عن مدارس المدن المغربية، فهي تستقبل الطلبة بشكل جيد، وتتكلف بمؤونتهم والنفقة عليهم.

على رغبة هؤلاء الأخيرين في القراءة والأخذ من المصادر. ويتبين الطابع الخاص لهاته المكتبات من كون هؤلاء المالكين أحرارا في أن يهبوا مجموعاتهم لهاته المؤسسة أو تلك. وعلى هذا الأساس، وهب أحد الشيوخ جزءا كبيرا من مكتبته لخزانة كتب المدينة المقدسة. وكانت الاقتناءات والنساخة تشكل أهم عوامل إغناء هاته المكتبة. ولم يكن يتم الوقف إلا نادرا. وفي بداية القرن العشرين تم إثراء مكتبات الزاوية بالمطبوعات الحجرية. وفيما يخص نوعية المعارف في الكتب [288]، فهي من نفس طبيعة المؤلفات الموجودة في المؤسسات المشابهة، فالمحاضرات التي كانت تقدم في أبي الجعد لا تختلف عن الدروس التي كانت تعطى في تمكروت. وعلاوة على هاته الزاوية الكبيرة وما يشابهها من فروع، بالإضافة إلى زوايا أخرى مرفقة بمكتبات منتشرة تقريبا في كل مكان من المغرب، فإنه لم تكن هناك تقريبا أي مدينة أو أي مركز لا توجد به زاوية أو عدة زوايا مرفقة بخزانة كتب من الأهمية بمكان. ففي مدينة آسفي هناك عدة زوايا انحدرت مجموعاتها بشكل خاص من الوقف. فقد انتهت مجموعة كبيرة من الكتب التي حبسها أحد أعيان المدينة. إدريس بن همة [289] إلى الزاوية الدرقاوية. وفي نفس المدينة أرفقت الزاوية القادرية بخزانة تضم ثلاثة وتسعين كتابا، والزاوية التجانية بخزانة تضم ثلاثة وأربعين كتابا [290].

وتوجد في ضريح مولاي عبد الله في مدينة وزان خزانة كتب هامة جدا كانت، حسب "بوميي"، ضخمة للغاية في القرن 19 م [291]، وكانت المؤلفات من الكثرة بحيث إن أبا العباس الهلالي المتوفى سنة 1175هـ/1761م أثناء زيارته لهاته الخزانة مكث فيها يومين دون أن يتوصل إلى مطالعة بداياتها. وآلت هاته الخزانة إلى الضياع. فقد تم بيع كتبها بثمن بخس خارج فكيك من طرف حفيد شيخ الزاوية عبد الجبار البرزوزي الفكيكي الذي أسسها في بداية القرن 10هـ/16م [292].

288. إنها بشكل خاص مؤلفات القانون، والقضاء، و أصول الدين، واللغة والنحو، والأدب.

289. تضم هاته الخزانة حاليا 124 مجلد ينظر الكانوني آسفي ص 152.

290. نفسه.

291. "بوميي" "وصف موجز للمغرب" Description sommaire de Maroc ص 41.

292. الكتاني، فهرس الفهارس ج 2 ص 263، ينظر أيضا حجي : "الحركة الفكرية" أطروحة ج1 ص 251.

وتخلو مكتبات الزوايا الأخرى في الوسط القروي من نفائس الكتب، فهي لا تضم أي أثر من الآثار الرئيسة في الأدب العربي. يقول "برونل" «إن هذا النوع من المكتبات غير ذي جدوى. وفوق ذلك فمن العبث تقديم الاسم الفاخر للمكتبة لبعض العشرات من الكتب التي هي في أغلب الأحيان بدون فائدة ومهملة»[293]. أما فيما يتعلق بالخزانات العامرة، فيمكن أن نؤكد أنها تحتفظ بمفاجآت كبيرة للباحثين. فهاته المؤسسات الدينية تضم في بعض الأحيان، علاوة على المخطوطات النادرة والقيمة، وثائق [294] تاريخية في غاية الأهمية.

خزانات كتب الزوايا: التنظيم والمميزات

التنظيم

إننا نجد خزانات كتب الزوايا هي الأكثر تنظيما ضمن كل الخزانات العمومية. فقد كان يعهد بها دائما إلى قيم أو محافظ لم يكن سوى شيخ الزوايا نفسه، والذي كان يتكلف بالاقتناءات، والنساخة، وصنع الفهارس. وباختصار؛ بكل الأعمال الإدارية المكتبية. ومثال ذلك محمد بن ناصر شيخ الناصرية، والعياشي محافظ الزاوية العياشية. إن أول فهرس عرف عن الزاوية الناصرية كان هو الفهرس الذي صنعه الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي بكر الناصري في سنة 1336هـ. ويضم ألفي مخطوط من ضمنها مجاميع [295]. وتحتفظ المكتبة الوطنية في باريس بفهرسة تضم مخطوطات خزانة الزاوية الحمزاوية [296]. فقد

---

293. "برونيل" Brunel "الرهبانية المتطرفة في الإسلام" «Le monachisme errant en Islam» ص 22 ط 1955.

294. كانت خزانة زاوية الدلائيين تضم حجرة مخصصة للوثائق. يخبرنا صاحب «البدور الضاوية» أنه من ضمن الوثائق المحفوظة في هاته المؤسسة "يمين الولاء" الذي أعده سكان مدينة فاس في القرن 17/11م للشيخ محمد الحاج الدلائي. ينظر سليمان الحوات: البدور الضاوية. الصحيفة 111/6 ينظر أيضا: حجي الزاوية الدلائية ص 154. وقد اكتشف الكابتان هنري وثيقة ذات قيمة كبيرة في سنة 1936 في زاوية سيدي أبي يعقوب. ينظر "دراغ" Dragues "نبذة عن التاريخ الديني في المغرب" "Esquisse d'histoire religieuse au Maroc" ص 135.

295. هناك نسختان من هذا الفهرس محفوظتان واحدة في الخزانة الملكية والأخرى في الخزانة العامة تحت رقمي 5657 و975.

296. محفوظ تحت رقم 4725.

باشر المحافظون في صنعهم لهاته الفهارس تصنيفا نسقيا . فصنف أبو العباس بن ناصر مثلا مجموعات خزانة كتب تمكروت انطلاقا من فروع المعرفةوتشير العلامات إلى مختلف العلوم[297] .

وتم تصنيف آخر فهرس في تاريخ خزانة كتب الزاوية العياشية بالطريقة التالية؛ المصاحف، وكتب التفسير، وعلوم القرآن، والتصوف وأحاديث الرسول (ص)، والفقه، والنحو، والبلاغة، وفقه اللغة، والدواوين الشعرية، والمنطق، والرياضيات، والطب، وتاريخ الرحلات.. وعلاوة على هاته الفهارس المنجزة نسقيا توجد أخرى لا ترضخ لأي منهج. فهي ضرب من اللوائح مثل فهرس المؤلفات التي اقتناها أبو سليم العياشي من الشرق الإسلامي لصالح الخزانة الحمزية، وفهرس الكتب التي وهبها أبو الحسن الجبلي[298] لنفس هاته الخزانة.

وأرفقت خزانات كتب الزوايا الكبرى أيضا بمحترفات الترميم، والتجليد، والزخرفة. فقد زخرف محمد بن يوسف بن موسى العياشي العدد الثاني من قاموس الفيروزبادي، وذلك لصالح الخزانة العياشية[299] . وشغلت مسألة صيانة الكتب بال المحافظين إلى أقصى درجة. فهؤلاء الأخرون كانوا يستعملون كل الوسائل لحفظ المخطوطات من الرطوبة والعث. وهو السبب الذي يفسر قلة المخطوطات التي توجد في حالة سليمة

المميزات

كانت خزانات الزوايا ، علاوة على طابعها الجامعي ، مفتوحة أمام الجمهور. فالعلامة عبد الكبير الفاسي مثلا اعترف بأنه أفاد من الخزانة العياشية في تأليف كتبه[300] .

---

297 . الناصري : الدرر المرصعة ص 55.

298 . الفهرسان محفوظان اليوم في خزانة هاته الزاوية.

299 . المأموني الزاوية الحمزية في مجلة : تطوان العدد 8 ص102 السنة 1968 .

300 . المرجع السابق ص 106 .

أما فيما يتعلق بإعارة المخطوطات فقد كان مسموحاً به لكل أساتذة وطلبة الزاوية. يروي لنا صاحب دوحة الناشر أن خزانة زاوية الهبطي في الريف (شمال المغرب) كانت تعير المؤلفات للطلبة [301].

وكانت إعارة الكتب في الزاوية العياشية منظمة بشكل جيد. فقد كانت تسجل عناوين الكتب المعارة، وأسماء المستعيرين في سجل للإعارة. وإذا تجاوز المستعير الفترة المحددة للإعارة، فإنه ينبه إلى هاته المخالفة عن طريق المكاتبة. ويضم الملف المحفوظ تحت رقم 388 رسالة اعتذر فيها محمد طلحة أهوس لشيخ الزاوية محمد بن عبد الله العياشي لعدم إعادته المخطوطات التي استعارها في الوقت المحدد.

وكانت خزانة كتب زاوية تمكروت تستعمل تقريبا نفس النظام. فقد كان يعهد بملف الإعارة، حسب الناصري، إلى أكثر الناس كفاءة وقدرة، وإلى أكثرهم معرفة بالكتب من أعضاء الزاوية. وكان الشيخ في كل سنة وبدقة في آخر يوم من شهر رمضان يخرج ملف الإعارة لكي يتأكد من أن كل المخطوطات المعارة قد أرجعت[302].

وكانت خزانة كتب تمكروت تقوم بالإعارة بينها وبين الخزانات [303]. فلقد وصلتنا مراسلات بهذا الصدد بين هاته الخزانة والخزانة الملكية. فالشيخ يوسف الناصري يطلب من الخزانة الملكية "البيان" لابن رشد لانتساخه عبر رسالة إلى الملك محمد بن عبد الله، وفي جواب هذا الأخير يخبر الشيخ بأنه طلب من علماء فاس أن ينتسخوا له المؤلف، وبأنه سيوفيه به بمجرد ما تسمح الفرصة بذلك[304].

ويعبر الملك العلوي مولاي سليمان في رسالة أخرى لشيخ تمكروت علي بن يوسف الناصري عن أمنيته في استعارة كتاب التفسير وكتاب النزهة لابن كثير [305] لأجل المكتبة الملكية. وكتب الملك مولاي عبد الرحمن رسالة ثالثة إلى شيخ تمكروت أبي بكر بن علي الناصري بخصوص كتاب حاشية الطيبي على

---

301. ابن عسكر : دوحة الناشر ص 12. ينظر أيضا المهدي الفاسي : ممتع الأسماع ص 76.

302. الناصري : المزايا ص 47 ويؤكد المؤلف استخدام نفس النظام في خزانة القرويين.

303. الإعارة بين المكتبات كانت تستخدم بشكل خاص في انتساخ المخطوطات المفتقدة من هاته المكتبة أو تلك.

304. ابن زيدان : النهضة العلمية ص 34-35.

305. المرجع السابق ص 42.

كشاف الزمخشري الذي كانت أعارته المكتبة الملكية للنساخة يقول بهذا الصدد «مازالت حاشية الطيبي عند الناسخ. إن الكتاب قد استغلق خطه، فعزت على الناسخ قراءته. وسيصلك المخطوط بمجرد ما سينتهي الناسخ من عمله»[306].

إن أبحاثنا قد حملتنا على الوقوف على أن المكتبات المغربية عرفت انطلاقا من القرن الرابع عشر الميلادي ازدهارا لا مثيل له. وكان تنامي الحياة الثقافية، وظهور كبار العلماء، وإحداث مراكز جديدة للتدريس مثل المدارس، والزوايا، والعلاقة التي تمت بين الملوك الولوعين بالكتب والعلماء من الأمور التي أسهمت في هذا الإزدهار.

فقد كانت المكتبات الملكية، والخاصة والعامة، قد جمعت آلاف المخطوطات القيمة ومازال عدد منها محفوظا فيها ولا نعثر عليه في مكان آخر. فالمغاربة، وبوجه خاص الملوك، كانوا يجدون نخوة في أن يتوفروا على مخطوطات قيمة. فلم يكونوا يتراجعون أمام أي ثمن للحصول على مؤلف كانوا يرونه جديرا بمكتباتهم الخاصة. ولعل بقاء عدد من عيون الآثار يعزى إلى هاته العقلية العلمية، وهذا الحب والولع بالكتب.

إن انفتاح هاته المكتبات أمام الجمهور، واليسر في تبادل مخطوطاتها، والإعارة المسموح بها سواء للقراء أو لخزانات الكتب الأخرى (بين الخزانات) كل هذا يجعلنا نذهب إلى أن المكتبات قد أسهمت بشكل واسع في تطوير المعرفة في المغرب.

وفي القرن 19 آلت المكتبة المغربية إلى التقهقر. فماهي الأسباب الكامنة وراء هذا المآل؟ وماهي المجهودات المبذولة لتدارك ذلك سواء من طرف الأوربيين الذين سيحتلون المغرب ابتداء من بداية القرن 20 أو من طرف المغاربة أنفسهم؟ وكيف تم الانتقال من المكتبة التقليدية إلى المكتبة العصرية. إننا سنجد الإجابة عن كل هاته الأسئلة في الفصل الموالي.

---

306. المرجع السابق ص 57.

الفصل الرابع

من المكتبة التقليدية
إلى
المكتبة العصرية

عرف المغرب في القرن التاسع عشر الميلادي تراجعا في نفوذه الفكري، ونهاية لزمن الأعلام الكبار والمكتبات الشهيرة، بالرغم من أن تاريخه السابق كان حافلا بالعلماء منذ عهد المرابطين. فقد بدأت العديد من مراكز الدراسة مثل المدارس والزوايا، تفرغ شيئا فشيئا لفائدة بعض الجوامع التي استأثرت في كليتها تقريبا بالتعليم العالي. ولم يخرج هذا الأخير عن نطاق مؤلفات النحو، والفقه، وبعض مؤلفات أحكام النجوم التي تساعد الفقهاء على ضبط أوقات الصلاة. ولم تكن المناهج التربوية المتبعة في المغرب تدعو الطلبة إلى أن يترددوا إلى المكتبات، وهو الأمر الذي أدى بهاته الأخيرة إلى الافتقار أو إلى الاندثار. فقد اختفت الكتب، أثناء الحماية، أو مزقت وذلك خوفا من أن تنتهي إلى أيدي الكفار. فالمكتَبات إذن كانت في حالة يرثى لها.

لقد أصبح تنظيم هاته المؤسسات من جديد ضربةَ لازب. وتعهد "الحاميون" الفرنسيون والاسبانيون بأن يقوموا بهاته المهمة على الوجه الصحيح. وسيواصل المغاربة هذا العمل بعد الاستقلال. ولكن هل نعرف الأسباب التي كمنت وراء الوضع الذي آلت إليه خزانات الكتب في نهاية القرن 19م وبداية القرن العشرين؟ وما هي الإجراءات التي اتخذت سواء من طرف الحماية أو من طرف المغاربة لوقف هاته الحالة من التقهقر وإعادة الحيوية إلى مجال الخزانات؟ فهذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الفصل.

I- خزانات الكتب غداة الحماية

1- أسباب افتقار خزانات الكتب

1.1- حالة التدريس

كانت حالة التدريس سببا من الأسباب الرئيسة التي كانت وراء تقهقر خزانات الكتب المغربية. فقد كان التدريس مقلدا وعقيما، وكان يتطلب الذاكرة والحفظ. ولستُ مكررا كل الانتقادات التي وجهت إلى المناهج التربوية التي كانت سارية المفعول في المغرب. فلقد سبق أن أخبرنا ابن خلدون بكثرة الحفظ وجودته في تحصيل العلوم [1]. وقدم تلميذ قديم في القرويين التفاصيل التالية عن مسار التدريس. «كان الطلبة يكتفون بسماع وتقييد شروحات الشيخ وتوسعاته. ولم يكونوا أبدا يناقشون هذا الأخير حينما يتكلم. فأحدهم يقرأ النص، والشيخ يعيد المقطع ويشرحه .يشرحه في بداية الأمر من حيث الكلمات ومفهومها العام، وأخيرا من حيث قيمتها التقنية. فيعمل على استخراج صوابها أو ينتقد استعمالها. وبعد ذلك يذكر الشراح ويناقشهم ويمر إلى أصحاب الحواشي...» [2] إن هذا الأسلوب في التدريس لم يتغير، سواء تعلق الأمر بالآداب، أو بالعلوم. فالشيخ كيفما تكلم فإنه لا يخطئ، ولم يكن ينتقد أبدا في شروحاته التي هي مقدسة. فالطلبة لم يكونوا يحسون بالحاجة إلى الذهاب إلى الخزانة لتَدْعِيم أو إكمال الدرس الذي تلقوه مشافهة من الشيخ.

وأصبحت المكتبات التي تخلى عنها الطلبة والإدارة على حد سواء ضربا من المطامير المهجورة.

---

1. ابن خلدون: "المقدمة" ص 443 - 44.
2. "رونو" H.P.J. Renaud "تدريس العلوم الدقيقة" « l'enseignement des sciences exactes» في مجلة Archeion، المجلد 13 ص 326 سنة 1931.

2.1. إبادة مجموعات الكتب وتبعثرها

لقد حلت الجوامع في القرن 19 مَحَلَّ المؤسسات الأخرى، وارتبطت بتدريس العلوم الإسلامية فقط. فكان أن أفرغت المساجد التدريسية الأخرى لصالح هاته المؤسسات. واكتفت المدارس بضمان المؤونة والسكن المجاني للطلبة، ولم يبق العلماء يقدمون المحاضرات في الزوايا. أما الطلبة فإنهم لم يبقوا يختلفون إلى خزانات كتب الجوامع الدائمة الانفتاح والتي زودت بقسط من خزانات المؤسسات الأخرى إلا نادرا. إن الملوك وتوخيا منهم لتحسين الوضعية الثقافية المتدهورة في البلد، قد التفتوا إلى هاته المكتبات وخاصة إلى القرويين، وفرقوا على العلماء كتبا ضاعت إلى الأبد. يخبرنا "ليون غودار" في وصفه لوضع خزانة القرويين أن الملك المولى سليمان (المتوفى سنة 1822م) قد وزع النزر القليل الذي كان قد تبقى من كتب القرويين [3] مباشرة بعد توليه الحكم. ونفس الأمر صنعه الملك مولاي عبد الرحمن (المتوفى سنة 1859 م). فقد وزع ألف مخطوط على علماء المغرب [4]. واستدعى سيدي محمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة 1873م) كل العلماء، وأزال من خزانات كتب المساجد، وخاصة من القريين، كل المؤلفات التي لا تصب في مواضيع دينية [5]. وبقي مصير هاته المؤلفات العلمية بالنسبة لنا مجهولاً.

ونظرا لأن هؤلاء الملوك كانوا كتابا ومنقبين، فإنهم استعاروا هم بدورهم مؤلفات لأنفسهم. فقد أقام المولى الحسن الأول (المتوفى سنة 1894م)، والذي كان شغوفا بالكيمياء، مختبرا في قصره في فاس، وجمع مكتبة ضخمة مكونة أساساً من مؤلفات هذا العلم والتي انحدرت من المكتبات العامة، ومن مصادرة المكتبات الخاصة، التي ظن الملك أنها تضم هذا النوع من الكتب [6]. يقول "رونو" بهذا الصدد «إذا كانت

---

3. "ليون غودار" L.Godart: "Le Maroc note d'un voyageur" ص 123.

4. ابن عبد الله: معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 124.

5. لقد تم هذا الأمر في محضر البارون " إيمي داكان" وزير فرنسا في طنجة في عهد الامبراطور الثاني. فهذا الأخير تمكن من قراءة هاته المؤلفات المنبوذة" تنظر: مجلة هسبريس سنة 1943 ص 77- 78.

6. من ضمن الخزانات المصادرة هناك خزانة اليهودي مخلوف أسلام. فقد كان هذا الأخير يهتم بالكيمياء وكان يتوفر على خزانة متعلقة بهذا العلم.

قد كثرت المؤلفات العلمية في خزانات كتب القصور الشريفة، فسيكون ذلك في عهد الحسن الأول بسبب ميله إلى العلوم وخاصة الكيمياء»[7]. وقام الفقيه والأديب والكاتب الكبير المولى حفيظ (المتوفى سنة 1937م) كذلك، حسب بعض المؤرخين، بتجريد المكتبات العامة من كتبها. فقد أغنى المولى حفيظ حسب "رونو" و"لشيوني" خزانته الخاصة على حساب مخطوطات القرويين وخزانة المسجد الكبير في الرباط[8]. يقول "دوفردان"حينما كان المولى حفيظ خليفة على أخيه المولى عبد العزيز في مراكش فإنه فتح أبواب اليوسفية يوما وفي غياب القيمين أخذ هو بنفسه العديد من المخطوطات لإثراء مكتبته، وفي المقابل فإنه وهب للخزانة أغلب المطبوعات التي نجدها فيها اليوم»[9]. فمن الواضح أن موقف هؤلاء الملوك العلماء بإزاء التراث ليس له تفسير آخر غير حبهم للعلم، ورغبتهم القوية في الحفاظ عليه.

3.1. الخوف من مصادرة الكتب

إن وضع الخزانات المؤسف، وتأهب الأجنبي لاستعمار المغرب[10] دفعا المغاربة إلى أن يخفوا تراثهم المكتوب توخيا لئلا يسقط في أيادي الكفار. فقد كانوا غيورين جدا على ماكانوا يمتلكونه، ولم يكونوا يريدون أن يراهنوا به بأي ثمن. فالزوايا قد انطوت على ذاتها، وانعزلت كليا عن العالم الخارجي. وأحس كثير من الأئمة بحيطة غريزية تقريبا بإزاء الأجانب الذين أظهروا كثيرا من الفضول بإزاء تراث هاته المؤسسات الإسلامية. وقامت بعض الزوايا من مثل زاوية تمكروت بدفن كتبها خوفا من أن تنتهي إلى أيدي الكفار.

---

7. "رونو" "Un prétendu catalogue" في مجلة" هسبريس ص 78 سنة 1934.

8. "لشيوني" "les bibliothèques habous au Maroc" Bull. écon. et social du Maroc المجلد 19 ص 235 - 236 سنة 1955.

9. "دوفردان" والمسعودي: (Note sur la bibliothèque de la medersa Ben youssef) 1938 ميكروفيلم الخزانة الوطنية في باريس العدد 511، ينظر أيضا "مراكش" ج 1، 570.

10. تشابه هاته الفترة التي عاشها المغرب في القرن 15م أثناء الاجتياحات الأجنبية الإسبانية والبرتغالية للمدن الساحلية المغربية. فوجدت المخطوطات ملاذها في الزوايا التي كانت في منأى عن هاته الاجتياحات.

ودفنت المخطوطات حتى في المكتبة الملكية، فنحن نعلم أن الملك مولاي يوسف قد أخفى كتبه في القصر الملكي في فاس(11). فقد كانت دائما لدى المغاربة هاته الروح في المحافظة، وهذا الحذر بإزاء الأجنبي وبالفعل لم يستطع الكفار في كل الأوقات أن يدخلوا إلى خزائن الكتب، ولا أن يحصلوا على المخطوطات العربية. وهو السبب الذي من أجله كان مدخل الخزانات المتصل بالمساجد يوجد بداخل المسجد. وكان المسلمون وحدهم هم الذين يستطيعون الدخول إلى هاته المكتبات(12). وحتى اقتناء الكتب كان محظورا على المسيحيين واليهود. فقد حاول المستشرق "بلج كلينار" انطلاقا من القرن 16م شراء كتب من فاس(13) بدون جدوى. ويخبرنا "سلمون" أن "مدارسيا" ظن أن بوسعه شراء المخطوطات للمسيحيين، فكان أن أقصي من المدرسة(14).

2. المعاصرون وآراؤهم بخصوص وضعية المكتبات

لقد أثارت الوضعية التي آلت إليها المكتبات المغربية في القرن 19م وغداة الحماية انتباه عدد من المؤرخين والرحالين يقول "غودارت" «لقد عرف "إيرينيوس" في 1613 من شهود عيان أن مكتبة(15) هاته العاصمة (فاس) كانت تضم في هاته الفترة اثنين وثلاثين ألف مخطوط. فتم البحث عنها اليوم بدون جدوى»(16). وقد استشعر علي باي العباسي نفس الإحساس بإزاء وضع المكتبات يقول «فهاته المستودعات العلمية هي تقريبا فارغة، وهاته المقرات الفكرية مطفأة»(17).

11. التازي: جامع القرويين ج 3 ص 670. ونشير إلى أن هاته الكتب المتبقية بعد الاستقلال شكلت المحتوى الأولي للخزانة الملكية الحالية.

12. فيجب أن ننتظر إلى عهد الحماية لكي تزود هاته الخزانات بأبواب أخرى غير تلك الموجودة في المساجد.

13. "لوتورنو" le tourneau: (Note sur les lettres de N. cleynart) في مجلة: هسبريس. 1934.

14. "سلمون" Salmon: "catalogues des Mss" في "الوثائق المغربية" A.M ص 201 سنة 1905.

15. خزانة القرويين.

16. "جودرت" L. Godart. Le Maroc, note d'un voyageur. 59 1858 ص 124.

17. علي باي العباسي " ليون غودار" "الرحلة إلى إفريقيا وآسيا" "Voyages en Afrique et Asie" ج 1، ص 117، باريس 1814.

وأبدى "بوميي"[18] نفس الملاحظة بخصوص المكتبات العامة في مراكش، يقول بهذا الصدد «لقد أغلقت المكتبة في مراكش، منذ زمان، وكان الناس يظنون أنه لا يوجد فيها إلا الدود والغبار»[19]. وافترض "دوفردان" أن "بوميي" يتحدث عن خزانة كتب مسجد الشرفاء التي نقلت المؤلفات منها تحت رعايته إلى خزانة كتب مسجد بن يوسف[20].

وتنضاف إلى هاته الشهادات شهادة "شارم" G. charmes . الذي ذهب إلى أن العامل الديني هو الذي كان من وراء الحالة المتدهورة للخزانات والمساجد يقول «لقد حصل التعصب الإسلامي في الخزانات والمساجد بوحشية شرسة. فكل كتاب ليس كتابا دينيا كان مآله التمزيق والتقطيع والإحراق بدون رحمة» [21]. وأكد هاته الشهادات الباحث الموهوب "ألفرد بل" الذي تم تكليفه منذ السنوات الأولى من الحماية بإعادة تنظيم خزانة كتب القرويين. يقول «فوجدنا المكتبة على حالة يرثى لها لا ترى إلا أوراقا مشتتة ومجلدات متخرقة لا أول لها من آخر ومصاحف في رق الغزال على أشكال وهيئات تستوجب حيرة الفكر وقلق البال من حالتها التي هي أشبه شيء بأشلاء عثابها تحت التراب»[22].

II– المكتبات على عهد الحماية وبعد الاستقلال

طمعت العديد من القوى الأجنبية في المغرب منذ القرن 19م. وكانت هاته القوى في النهاية هي فرنسا وإسبانيا اللتين نجحتا في إقامة حماية محلفة على المغرب، وكان ذلك عن طريق اتفاقية فاس الموقعة سنة 1912 . إن ما أنجزته هاتان القوتان في ميدان الثقافةذا أهمية لا نظير لها . فمنذ استقرار فرنسا في المغرب انهمكت هاته الأخيرة في دراسة أحسن تنظيم في الميدان الثقافي وخاصة ميدان المكتبات التي بقيت مهملة لمدة طويلة. فقد أعدت قوائم المخطوطات ووضعت الفهارس، ورممت المخطوطات وجلدتها ، وجددت

---

18 . قنصل فرنسي في المغرب. ترجم القرطاس لابن أبي زرع.

19 . "بوميي" "وصف موجز للمغرب" "Description sommaire du Maroc" ص 42 - 43 باريس 1868 .

2 0 . "دوفردان" "Deverdun" "مراكش من العصور الأولى إلى 1912" "Marrakech des origines à 1912" ج 1 ص 569 .

21 . "شارم" G. charmes "Une ambassade au Maroc" ص 300 باريس 1887 .

22 . "ألفريل" البرنامج ص 5.

خزانات الكتب القديمة، وأعادت تدبيرها، وأحدثت خزانات أخرى. ولعل ماأنجزته إسبانيا بشأن الخزانات كان أقل أهمية مما صنعته فرنسا واتسم عملها بالبطء. فكان يجب أن ننتظر حتى الأربعينات لكي نقف على ظهور مشاريع طموحة مثل إحداث الخزانة العامة في تطوان في 1940، ومديرية الوثائق والخزانات في 1943. ولم يستطع الإسبانيون أن يكملوا مشاريعهم بسبب الاستقلال (1956). وبعد الاستقلال تابعت السلطات المغربية هاته المجهودات الرامية إلى إعادة التنظيم.

فماهي إذن الإنجازات التي تمت في ميدان المكتبات منذ بداية القرن إلى يومنا هذا؟

1- إعادة تنظيم المكتبات

1.1. القوائم والفهارس

إن الوضع الذي لا نشك فيه من كون تراثنا الهائل المحفوظ في مكتباتنا المغربية لا يورث، دعا إلى اتخاذ تدابير فعالة سواء فيما يتعلق بالمحافظة عليه أو تنميته والإكثار من مجموعاته.

فبعد أن قامت الحماية ببحث معمق في المدن المركزية فإنها، ولتأكيد المحافظة على المكتبات المنتمية إلى المنشآت المحبسة [23]، ولوقايتها من السرقة ومن الضياع ومن التلف بالرطوبة، والديدان، والقوارض، صنعت قائمة عامة للمؤلفات الموجودة في هاته المكتبات، لأن إحصاء مجموعة خزانة كتب معينة هو اهتمام أولي وأساس. وعلى الرغم من النقص الحاصل في هاته الفهارس والراجع إلى غياب الكفاءة، فإنها أظهرت للفرنسيين أن المكتبات كانت توجد ليس فقط في المراكز الجامعية، ولكن تقريبا في كل أنحاء المغرب. لقد كان من اللازم إعادة تنظيم شاملة لسبب أن المكتبات أنشئت كلها داخل المساجد أو الزوايا في حجرات ضيقة مفتقدة إلى الهواء والنور حيث كانت الكتب محتشدة بشكل عشوائي، وأن الكتب قد هاجمتها كلها الرطوبة، والعث، وتسير إلى الضياع لا محالة في أقرب وقت، وأن عدداً كبيراً من المؤلفات

---

23 . لقد كانت كل الخزانات العامة قبل الحماية تنتمي إلى منشآت التحبيس. وأحدث الفرنسيون منذ استقرارهم في المغرب مديرية التحبيس التي ستتكفل بهاته المسئولية.

قد اختفى ومؤلفات أخرى مازالت معارة عند الخواص لمدة العديد من عشرات السنين. وقد أعطيت الأولوية لخزانة كتب القرويين التي كانت تتمتع بشهرة كبيرة. واشتهرت بأنها كانت تتوفر على أغنى مجموعة من المخطوطات العربية في المغرب. فابتداء من سنوات الحماية الأولى تم تعيين لجنة [24] مؤقتة مكونة من عالمين من جامعة القرويين ألاوهما عبد الحي الكتاني وعبد الواحد الفاسي، وذلك لمساعدة المستشرق "ألفربل" مفوض الكاتب العام للحكومة الشريفة في فاس. فقد كانت مهمة هاته اللجنة أن تعالج ما تبقى من الكتب في الخزانة. وأن ترجعه إلى حالة جيدة، وأن تكمل ماهو غير كامل وإن بالبحث عن ذلك خارج فاس، وأن ترتب المخطوطات وتقيم أهميتها وتفهرسها[25]، يقول "ألفردبل" : (... ونُظِر في إصلاحها وتنميرها وإتمام الناقص منها ولو بالاستكتاب من الجهات البعيدة والزج بها في صف واحد مع إخوانها مكاتب الشرق والغرب المتمدن وعمل فهرس جامع يبحث عن كل كتاب بأتم تعاريفه وصفاته) [26] . وبعد سنتين من العمل ظهر أول فهرس منهجي في المغرب [27] . وانتقل هذا المشروع الذي تم أنجز في فاس إلى خزانة كتب جامعة ابن يوسف في مراكش، وإلى مدن أخرى في المملكة. فكثيرة هي المكتبات المحبسة التي تم إحصاؤها وعنونتها وترتيبها [28] سواء في المساجد أو في حجرة للنظارة مكلفة بذلك [29].إن هاته الفهارس التي صنعها علماء البلد وراجعها وأكملها المختصون والتي انتقتها إدارة الأحباس واستعملتها ، قد شكلت اللبنة الأولى لنشر الفهارس المنهجية. إن إعادة تنظيم المكتبات هو هم ملازم لوظيفة هاته المؤسسات فهلا يكون إرجاع الهدف الحقيقي لهاته المكتبات بهذا الشكل هو تسهيل أبحاث العلماء والمساعدة على نشر الثقافة ضمن الجمهور العريض)؟ [30] .

---

24. اقترح هاته اللجنة وزير التعليم والعدالة في تلك الفترة العلامة أبو شعيب الدكالي.

25. كان المستشرقون الفرنسيون حسب "داغر" هم أوائل من قام بالفهارس المنهجية لمخطوطات خزانات إفريقيا الشمالية. ينظر دليل العارب، بيروت 1947 ص 89.

26. برنامج ألفردبل ص 4.

27. "باسي" Basset هو أول من أنجز فهرس للقرويين في سنة 1883، ونشره بعنوان "مخطوطات مكتبتي فاس؛ القرويين والرصيف" "les Mss de deux bibliothèques de Fès Quarawiyyin et Rcif ونشره في Le bulletin de correspondance africaine 1883

28. لقد سبق أن أشعر "باسي" "ألفردبل" أنه ينوي الشروع في نشر كل فهارس الخزانات المنتمية إلى خدمة الأحباس المغربية. ينظر برنامج ألفردبل، ص 3، هامش 1.

29. إنهم النظراء المسئولون عن التحبيس هم المكلفون بإدارة الأحباس وصنع الفهارس لكل الخزانات المحبسة.

30. اعتمد وزير الأحباس بعد الاستقلال على هاته الفهارس للعثور على المخطوطات الضائعة وطبعها ونشرها.

2.1. إعادة تنظيم خزانات الكتب

استطاع الإسبانيون ، عبر تجميع الكتب[31] في منطقة شمال المغرب ، أن يكونوا خزانة كتب داخل الكتابة العامة للحكومة. واكتفى هؤلاء في غياب الأشخاص المؤهلين بالعمل الإداري توخيا لصيانة الكتب والحفاظ عليها . وبالجملة فكل ما تم القيام به في هاته المنطقة أثناء العشرين سنة الأولى من الحماية لا يخرج عن نطاق المحاولات التجريبية. وفي باقي البلاد فإن الحماية الفرنسية وبعد أن درست اللوائح والفهارس المصنوعة، وبعد أن عاينت الوضع المقلق للمكتبات المغربية، وبعد أن وضعت في الحسبان اقتراحات التقنيين والقيمين، قررت رسميا إعادة تنظيم هاته المؤسسات. فقد أصدر المندوب السامي[32] تعليماته في رسالة 23 يونيو 1931 إلى مديرية الشؤون الشريفة بأن تنظم المكتبات على أسس جديدة وبأن يعهد بها إلى خدمة مراقبة الأحباس. وفي سنة 1931م تم الاتفاق بين هاته المصلحة والخزانة العامة[33] للحماية على الأساس التالي:

1. المحافظة على المكتبات الموجودة وتحسينها وإعادة تنظيمها

2. تأسيس خزانات كتب جديدة مشابهة لتلك التي توجد مسبقا بقدر الاستطاعة. وستتكفل الأحباس بأعمال البناء والتنظيم، بينما ستأخذ الخزانة العامة على عاتقها التنظيم والإدارة التقنية للمنشآت الجديدة لإكمال مجموعة الأحباس التي تكون في الغالب غير كافية[34] . وعلى إثر هذا الاتفاق أعيد تنظيم عدد من المكتبات وتوسيعها وتحسينها . وبنيت على هذا النحو في 1932 خزانة كتب جديدة في موقع مجاور

---

31 . مجموعة مرسولة من إسبانيا(200 كتاب). وهي مجموعة "لوفاسور" le vasseur. هدايا قدمها محمد بن يعيش و "كليمان سيرديغا" و "إلفاريسانز توباو". ينظر "فيرناد فلدوراما مارتيني"" Historia de la accion cultural de Espanàna en Marruecos ص 695.

32 . "القديس لوسيان"

33 . سبق أن بنيت الخزانة العامة في هاته الفترة. وسنعود إليها لاحقا.

34 . ينظر بخصوص الاتفاق الشهير"لشيوني". Luccioni . "المكتبات المحبسة في المغرب" les bibliothèques habous au Maroc في Bull. économique et social du Maroc ، ص 235 مجلد 19 سنة 1955.

للمسجد الكبير في الرباط [35] وتضم صحنا ، وقاعة للمطالعة ، ومستودعا للكتب ، وملحقات متنوعة. وعهد بها إلى مديرية الخزانة العامة التي بعد أن زودتها بالعديد من المؤلفات من كل الأنواع متممة بذلك مجموعة الأحباس ، نظمتها تبعا للطرق الحديثة[36]. ففي فاس وبعد التدابير التي اتخذتها الحماية لتدارك الوضع السيء الذي كانت توجد عليه خزانة القرويين ، فإن هاته الأخيرة عرفت نجاحا باهرا ، فقد تردد إليها آلاف القراء ، واتضح من جديد عدم كفاية الأمكنة على حفظ المخطوطات والمطبوعات ، وعدم كفايتها على أن تمكن من العمل المعقلن لمصلحة إعادة التنظيم. وعلى هذا الأساس قرر المسئولون سنة 1983م أن تقوم الأحباس بدعم من الدولة ببناء مكتبة كبيرة ذات تقنيات هندسية عصرية دون أن تخل لهذا الاعتبار بجمالية مسجد القرويين الجليل [37] .وهكذا تم بناء وتأثيث المكتبات الجديدة باتباع طرق التنظيم والترتيب المتبعة في المكتبات العصرية [38].

ورغم ما خضعت له خزانة كتب المسجد الكبيرمن إصلاحات ، فقد نزعت إدارة الأحباس إلى بناء مقرين جديدين يضمان قاعة كبيرة للمطالعة ، وحجرتين مخصصتين للمستودع ، ولترتيب الكتب ، والملحقات. واتخذت الإجراءات الضرورية لإعادة تنظيم وتسيير هاته المكتبة.

وفي مراكش ، كان يوجد النصيب الأوفر من الكتب المحبسة في جناح يفضي مباشرة إلى قاعة الصلاة في مسجد ابن يوسف عبر باب مخصص للمسلمين. وعلى الرغم من توسيع وتحسين الأمكنة القديمة لهاته الخزانة فإنها بقيت عاجزة عن أن تستوعب الكتب والمجموعات التي كانت ترد إليها . فكان من الضروري

---

35. يتعلق الأمر في الحقيقة بعملية تجديد ، لأنه كانت توجد مسبقًا خزانة في هذا الموقع.

36. "لشيوني" Luccioni . "المكتبات المحبسة في المغرب" Les bibliothèques habous au Maroc ، ص 236.

37. ابن زيدان : الدرر الفاخرة، ص 166 - 168.

38. بعد إعادة تنظيم خزانة القرويين، وبعد تجميع مجموعات الخزانات الملحقة، لم تبق أرقام الجرد الجديد مطابقة للبيانات السابقة لدرجة أصبحت فيها أرقام القائمة المطبوعة التي نقلها بروكلمان في "تاريخ الأدب العربي" "Geschichte der arabishen literatur" غير مفيدة. وكان هذا التغيير من وراء إنجاز فهرس ثان منضاف إلى الفهارس السابقة من طرف المستشرق "شاخت" Schacht. ونشر في: Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de lévi - Provençal ج 1 ص 271. تحت عنوان: Sur quelques Mss de la bibliothèque de la mosquée Quarawiyyin

بناء خزانة كتب جديدة. يقول "لشيوني" : لقد أصبحت المكتبة الجديدة بعد أربعة عشر شهرا من العمل تضم ثلاثة أقسام رئيسة.

1- إعداد معقلن لمستودع الكتب انطلاقا من الجناح القديم.

2- المكتبة بمعناها الصحيح مؤلفة من حجرة واسعة للقراءة وحجرة للدراسة، ومستودع خاص بالمخطوطات القيمة [39]، ومكتب كبير للمكتبيين، وأخيرا صحن بحوض من الرخام.

3. مركز طبي. اجتماعي للطلبة [40]

وفي مدينة وزان كان ضريح مولاي عبد الله الشريف يتوفر على مكتبة تضم واحدة من أهم المجموعات في المغرب، وأعدت الأحباس قاعات جديدة مكيفة ومتقنة في هندستها مكنت من وضع الكتب وتصنيفها في شروط جيدة.

وشكلت مجموعات المساجد أضرحة مدن المملكة الأخرى في عهد الحماية موضوعًا لنفس الاهتمام. فالحماية ، وبعد ماقامت به من تجديد في التأسيس والتنظيم والفهرسة في المغرب، وملاحظتها لحالة الخزانات المزرية، بادرت إلى جمع كل الخزانات في خزانة كتب واحدة [41].

وهو ما أدى إلى حماية الكتب التي هاجمها العث والعفونة والرطوبة، ومعالجتها ، وتنظيمها ، وترتيبها ، ووضعها في متناول الجمهور. وهكذا نلاحظ أن كل مجموعات المساجد التدريسية الأخرى تقريبا مثل مجموعات "الرصيف" و"فاس الجديد" ومجموعات المدارس، وبعض فروع الزوايا المنشأة في مدينة فاس، قد انتهت إلى خزانة كتب القرويين.

---

39. وهو ما نسميه اليوم "قاعة الاحتياط"

40. "لشبوني" "المكتبات المحبسة في المغرب""Bibliothèques habous au Maroc" . ونشير إلى أن الخزانات توجد حاليا في الإقامة الرائعة للكلاوي الذي كان باشا مراكش في عهد الحماية.

41- إن الحسن الأول (المتوفى سنة 1894) وبملاحظته لتراجع الخزانات المغربية، أمر بأن تجمع الخزانات في واحدة.

وتم نقل كتب كل المساجد الصغرى إضافة إلى مجموعة الزاوية العلمية إلى خزانة كتب المسجد الكبير في مكناس. وأدمجت في خزانة ابن يوسف في مراكش خزانات مساجد باب دكالة، أو سيدي بلعباس، والكتبية، ومسجد الشرفاء في حي المواسين [42]. وواصل المغاربة بعد الاستقلال هاته المهمة. فعلاوة على صغريات المكتبات العامة أدمجت المكتبات الخاصة الرئيسة للمدن الكبرى، ومثال ذلك نقل المجموعات الخاصة من مثل مجموعات زوايا سوس في جنوب المملكة إلى معهد الدراسات الإسلامية في تارودانت في 1957م. وعلى هذا الأساس تم الحفاظ على عنصر من العناصر القيمة في تراثنا الروحي والعلمي، بالاعتماد على المجهودات سواء التي بذلتها الحماية أو التي بذلها المغاربة.

2. تأسيس خزانات كتب جديدة

لم ينحصر عمل الحماية في صنع الفهارس، وتجديد المكتبات القديمة، ولكنه امتد إلى تأسيس ضروب جديدة من خزانات الكتب مما أدى إلى تطوير البحث العلمي في المغرب. فابتداء من السنوات الأولى من الحماية سترفق معاهد التدريس والبحث المنشأة في الرباط بأهم خزانات الكتب. وسيتم تأسيس خزانتين عامتين، في الرباط وفي تطوان . وسترفق الحواضر الكبرى في المملكة بنوع جديد من الخزانات، ونعني بها المكتبات البلدية. وستراقب إدارة الوثائق والمكتبات التي أسسها الإسبان في تطوان في سنة 1943م كل خزانات كتب منطقة الشمال في البلد. [43]

وستتم مواصلة عمل الحماية بعد الاستقلال. وستظهر خزانات كتب عامة أخرى. إذ ستبذل وزارات الشؤون الثقافية والتخطيط مجهودا كبيراً في هذا الميدان. [44]

42- لقد تم نقل مجموعات هذا المسجد في 1938 إلى خزانة ابن يوسف بتعهد من "غاستون دوفردان". ينظر: "مراكش من العصور الأولى إلى 1912" "Marrakech des origines à 1912" ج 1 ص 265.

43. إن الخزانات العامة والبلدية في النطاق المغربي الذي هو تحت الحماية الفرنسية سيرضخ لمراقبة الخزانة العامة في الرباط.

44. إحداث المركز الوطني للتوثيق ومعهد علوم الإعلام على التوالي في 1968 و 1974.

فكيف نشأت هاته المؤسسات الجديدة، وماهو الدور الذي لعبته سواء في المحافظة على التراث أو في تطوير البحث العلمي؟

1.2. خزانات كتب الدراسة والبحث

1.1.2. خزانة كتب "القسم التاريخي"

تم إحداث هاته الخزانة عن قرار وزاري في 13 شتنبر 1919 وكانت مهمتها «البحث في وثائق وخزانات كتب فرنسا والخارج عن كل وثيقة هامة عن تاريخ المغرب وإرسالها ونشرها» [45]. إن بداية القسم التاريخي في المغرب قديمة جدا سابقة حتى عن إقامة الحماية. فقد فكر الكونت "هانري دوكستر" [46] ابتداء من 1902م في غياب مؤلفين عرب محدثين وجديين، ووثائق مغربية، في أن يبحث في أهم الدول الأروبية عن الوثائق الديبلوماسية أو وثائق أخرى يمكن أن تساعد على صنع تاريخ للمغرب. ولم يبطء "دوكستر" في هذا العمل، فقد نشر هذا العالم في 1905م نتيجة أبحاثه الأولى، وهو المؤلف المعنون ب "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب" les sources inédites de l'histoire du Maroc [47].

وقررت الحماية الفرنسية في 1918 تقديرا منها لما يكتسيه هذا العمل من أهمية خاصة أن تعنى به، وأن تمكن المؤلف من متابعته، والسير به قُدُماً. وهكذا أصبح مكتب الدراسات الذي أنشأه "دوكستر" في باريس مصلحة تابعة للحماية، إذ اعتبر قسما تاريخيا ضمن مديرية المعلومات والشؤون الأهلية. يقول

---

45. "جوتلند" Gottland "La section historique du Maroc" ينظر أيضا: "دومبين" G.Demonbynes "L'oeuvre française en matière d'enseignement au Maroc" ص 244 - 245.

46. في ظهير 11 يوليوز 1914 تم تعيين الكولونيل "هنري دوكستر" مستشارا تاريخيا للحكومة الشريفة بمهمة إعداد تنظيم مصلحة الوثائق.

47. قسم هذا المؤلف إلى سلسلتين تطابقان الدولتين الأخيرتين اللتين حكمتا المغرب: السلسلة الأولى 1530 - 1660 الدولة السعدية، والسلسلة الثانية 1660 - 1847 الدولة الفيلالية إلى معاهدة لالا مغنية (معاهدة وضع الحدود بين فرنسا والمغرب). وتضم كل سلسلة ستة أقسام فرعية مطابقة للدول التي انحدرت منها فرنسا، وانجلترا وإسبانيا، والبرتغال، والأراضي المنخفضة، ومستودعات متنوعة في (إيطاليا وألمانيا، والنمسا، وبلجيكا، والدنمارك... إلخ)

"غوتلند" Gotteland : «لقد ارتبطت المصلحة من جديد بالمديرية العامة للتعليم الرسمي وذلك بعد أن قضى "دوكاستر" نحبه في 1927 م، واستقرت منذ 1 ماي 1929 في "باريس" 4 زنقة "ليل"[48]. وقد جعل السيد "لوماركيزدودامبيار" وارث الكونت دوكستر، متبعا في ذلك رغبة الأب الذي تبناه، الخزانة التي جمعها هذا الأخير في متناول القسم التاريخي» [49]. فلم يكن هذا القسم مركزا للوثائق المرتبطة بتاريخ المغرب فقط، بل كان أيضا خزانة كتب تضم أغلب المؤلفات الضرورية للبحث في تاريخ المغرب. وقررت الحماية بمقتضى ارتباطه بإدارة التعليم الرسمي أن تعتبره فرعا للخزانة العامة في الرباط تحت اسم "القسم التاريخي" في المغرب [50]. فانصهرت الخزانتان في إطار تعاون تام.

ولم يسترجع المغرب مع الاستقلال إلا جزءا من هاته الخزانة، وذلك بواسطة سفارة المغرب في فرنسا. [51]

2.1.2. خزانة كتب القسم الاجتماعي

إن للقسم الاجتماعي الذي أنشأته الحماية، والذي تم إلحاقه بالشؤون الأهلية، أصولا قديمة جدا سابقة حتى عن الجامعة نفسها، شأنه في ذلك شأن القسم التاريخي. فابتداء من 1904م استقرت بعثة علمية فرنسية في طنجة[52]. وكان هدفها هو أن تهيء، بمعرفة الوسط الأهلي، شروط النفوذ الفرنسي في المغرب. وإن كان هذا الهدف مغلفا بالعلمية في الظاهر. وكانت هاته البعثة تنشر أعمالها في سلسلة أحدثتها تسمى "الوثائق المغربية" Archives Marocaines ونشرت فوق هذا "مجلة العالم الإسلامي[53]

---

48. الموقع الحالي لخزانة مدرسة اللغات الشرقي.

49. "غوتلند" Gotteland : " القسم التاريخي في المغرب" ص 17.

50. مرسوم وزاري في 10 / 04 / 1931.

51. لقد اختفى جزء وافر من هاته الخزانة.

52- أسس البعثة العلمية في طنجة من طرف "لوشاتوليي" Le chatelier، وكان على رأسها بقليل بعد إحداثها، المستشرق اللامع والشهير "ميشوبولير"- Michaux "Bellaire ينظر :"دوموبين"Demonbynes l'oeuvre française en matière d'enseignement au Maroc ص 224.

53- في 1927 استبدلت هاته المجلة ب " مجلة الدراسات الإسلامية" التي كان يديرها "ماسينيون" في استقلال عن القسم الاجتماعي.

وكانت البعثة[54] "La revue du monde musulman" مجهزة بخزانة كتب رائعة وغنية من ضمنها مخطوطات ومؤلفات ترتبط بتاريخ المغرب، انحدرت أساسا من الاقتناءات. وقامت سلطات الحماية بعد ذلك بنقل البعثة إلى سلا. ونقلت معها أيضا المكتبة الرائعة والقيمة التي كانت تتوفر عليها. فمجموعاتها القيمة كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة للباحثين المغاربة والأجانب الذين كانوا يهتمون بالتاريخ وبالحضارة في المغرب[55].

3.1.22. خزانات كتب المدرسة العليا للعربية واللهجات البربرية ومعهد الدراسات المغربية العليا

أحدثت الحماية الفرنسية، منذ استقرارها في المغرب في 1912 المدرسة العليا للعربية، واللهجات البربرية [56]. وكان هدفها هو أن تمكن النازحين الجدد من تعلم العربية وخاصة البربرية الشائعة جدا في المغرب.[57]

وأرفقت المؤسسة الجديدة منذ وقت باكر بخزانة كتب مزودة بالمؤلفات المقررة في التدريس. وكانت هاته المؤلفات ترتبط أساسا بالتاريخ المغربي. قال "ليڤي پروفانصال" بهذا الخصوص: «لقد عملت المدرسة العليا للعربية واللهجات البربرية منذ تأسيسها سنة 1912 على أن تجمع أكبر عدد ممكن من مؤلفات التاريخ الأدبي والسياسي للمغرب والأندلس المسلمة. فقد تمكنت في مدن المغرب الكبرى، وخاصة فاس ، من شراء بعض المخطوطات القديمة، وانتساخ البعض مما تمت الإشارة إليه في الخزانات الخاصة[58]. وكانت تتوفر هاته الخزانة في 1918 على 126 مخطوط من المؤلفات التي لم يسبق الاطلاع عليها أو المؤلفات النادرة وتم

54- لقد اعتادت البعثة خلال السنوات الأولى من وجودها أن تنشر في الصفحات الأخيرة من مجلة "الوثائق المغربية" قائمة المؤلفات التي تمكنت من الحصول عليها وجعلها في الخزانة. فالمجلدان 6 و 7 من سنة 1906 يضمان الكتب التي اشتريت حديثا من مثل البدور الضاوية للحوات الذي يتعقب تاريخ زهاد الزاوية الدلائية الشهيرة. ومخطوط الطب بالعبرية منحدر من الخزانة الخاصة لليهودي " مروبي رابو" تنظر مجلة "هسبريس" ص 77 الهامش 5 سنة 1934.

55- قام "بلوشي" E. Blochet بفهرسة لكتب البعثة العلمية «فهرس متحف البعثة العلمية في المغرب» 1909 ينظر "أسعد داغر: "دليل الأعارب" ص 90 بيروت 1947.

56- أحدث الإسبانيون في منطقة الشمال (تطوان) سنة 1929 "أكاديمية العربية والبربرية" وستصبح فيما بعد مركز الدراسات المغربية

57. كانت المدرسة العليا تصدر سلسلة باسم "الوثائق البربرية"

58. ليڤي پروڤانصال "المخطوطات العربية في الرباط" المقدمة 1921.

تطعيمها في نفس السنة باقتناء مكتبة العلامة الحاج المختار السوسي الذي وافته المنية في مكناس. فانضافت إلى ما كان يوجد من كتب عربية 340 كتاب مطبوع، و396 كتاب مخطوط دون إحصاء أجزاء الكتاب الواحد (59).

وكانت مكتبة المدرسة العليا هي أول ما جمع في المغرب من كتب ومخطوطات مرتبطة بتاريخ وحضارة الغرب الإسلامي. فقد تركت المدرسة العليا في 1920 مكانها لمعهد الدراسات العليا المغربية الذي كان مؤسسة للبحث ومنشأة للتعليم في نفس الآن. وشكلت خزانة كتب المدرسة القديمة أول مجموعة خزانة المعهد الجديدة. (60)

واهتم ليڤي پروڤانصال مدير المعهد في هاته الفترة أيضا بالمكتبة، ونشر أول فهرس منهجي ومفصل للمخطوطات العربية المحفوظة في التراب المغربي. يقول: «لقد كانت هاته السلسلة الأولى تضم عددا لا بأس به من الآثار المغربية الصميمة المتعلقة أساسا بالقانون والأدب بمعناه الصحيح والتاريخ وعلم المناقب. ومن هاته الآثار المنتقى المقصور لابن القاضي والتقاط الدرر للقادري إلخ...» (61). وتضم هاته المكتبة أيضا آثارا عربية مكتوبة خارج المغرب. منها ذخائر نفيسة وجديدة في هاته الفترة مثل كتاب ابن ليون التجيبي (المتوفى سنة 750هـ) ؛ "النخبة العليا من أدب الدين والدنيا". (62)

لقد كانت خزانة كتب معهد الدراسات العليا المغربية، شأنها في ذلك شأن الخزانتين السابقتين، ذات فائدة كبرى بالنسبة للمستعربين الفرنسيين الذين كانوا يهتمون بالدراسات المغربية. (63)

---

59. نفسه

60. منذ أن تأسس معهد الدراسات العليا المغربية أصدرنشرية معهد الدراسات العليا المغربية وستنضاف في 1921 إلى "الوثائق البربرية". التي كانت تنشر منذ 1915 من طرف المدرسة العليا للعربية واللهجات البربرية، وسيؤدي هذا الانصهار إلى ظهور مجلة "هسبريس" التي ستصبح في 1960 "هسبريس تمودا" بانضمامها إلى مجلة المنطقة الشمالية "تمودا"

61. " ليڤي پروڤانصال" "المخطوطات العربية في الرباط المقدمة 1921.

62. نفسه: هذا المخطوط محفوظ اليوم في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم د 1265.

63. حينما قررت الحماية الفرنسية أن تنشىء خزانة عامة مفتوحة أمام الجميع، اختارت في بداية الأمر المعهد نفسه كموقع لها والذي شكلت مكتبته أول مجموعة من هاته الخزانة.

4.1.2. مكتبة المعهد العلمي الشريف

قررت الحماية الفرنسية انطلاقا من 1914، وباقتراح من الأستاذ "لويس جونتل"Louis Gentil أن تحدث معهدا لتنظيم الأبحاث المرتبطة بالاكتشافات العلمية في البلد. يعني أن تشجّع وتنسق الدراسات التي كانت تتم في المغرب في استقلال عن أعمال التاريخ، والحفريات، واللسانيات،و الاتنوغرافيا، وعلم الاجتماع التي هي مجال الآداب. (64)

وتأسس المعهد العلمي المرتبط بإدارة التدريس في 1920م، وبدأ في العمل انطلاقا من 1921م (65). ويضم المعهد علاوة على أقسامه الإدارية، ومختلف أقسامه العلمية ومختبراته، خزانة علمية. وتشكل هاته الأخيرة حسب القرار الوزاري ل 6 مارس 1921 قسما من الخزانة العامة التابعة للحماية (66). ويذهب "غوتلند" إلى أنها كانت تجمع شيئا فشيئا عن طريق الهبات والعطايا من مثل مجموعة كتب علم الإحاثة التي كانت في حوزة الخزانة الخاصة للجيولوجي "بيرجرون" Bergeron والتي أرادت زوجته أن تعيدها إلى المعهد العلمي. وقد أكمل الأستاذ "لويس جونتل" هاته الهبات بمجموعة من المجلدات عن الجيولوجيا العامة. واغتنت المكتبة بموت الأستاذ "بتاندي"Battandier من جديد بمجموعة هامة جدا من مؤلفات علم النبات عن الشمال الإفريقي الأخضر (67). وكانت ترد إليها المجلات الهامة جدا في العالم بأسره عبر الانخراط أو عبر التبادل مع منشورات جمعية العلوم الطبيعية في المغرب. وأرفقت هاته المكتبة منذ تأسيسها بمحترف للتجليد.... وتم الشروع في وضع صندوق البطاقات (المؤلفات، المواضيع). وأسهمت هاته المكتبة بشكل بارز في تطوير البحث العلمي في المغرب. وكانت خزانات الدراسة والبحث (68) تنتمي أولا للخزانة العامة للحماية، ولكن منذ 1924 بدأت تنفصل عنها وأصبحت مستقلة. تلك كانت أوائل خزانات كتب الدراسة والبحث في المغرب. فماذا عن المكتبات العمومية. وبالتدقيق عن المكتبات العامة والمكتبات البلدية؟

---

64. "غوتلند" المعهد العلمي الشريف" ص15 L'institut scientifique chérifien.

65. مكن تأسيس هذا المعهد من إحداث جمعية العلوم الطبيعية في المغرب في 19 يونيو1920 التي كان هدفها هو جمع أعمال المعهد العلمي. وتلقت مساعدة عن هذا الأمر. وكانت تنشر أيضا أعمال أعضائها المتعلقة بالتاريخ الطبيعي للمغرب. وكانت دوريتها تسمى "منشورات جمعية العلوم الطبيعية في المغرب" Bull de la société des scientifiques du Maroc.

66. قرار 6 مارس 1921 فصل 6 رقم 3.

«مهمة المعهد العلمي هي جمع عناصر الخزانة العلمية المخصصة لتأسيس قسم الخزانة العامة للحماية وضمان حفظ ومراجعة المؤلفات التي تشكل هذا القسم».

67. "غوتلند" المعهد العلمي الشريف" L'institut scientifique chérifien ص 33.

68. نشير إلى خزانات الثانويات الجديدة التي أنشئت في المغرب على عهد الحماية وخاصة ثانوية مولاي إدريس في فاس، وثانوية أبناء الأعيان في أزرو، وثانوية مولاي يوسف في الرباط، وثانوية محمد الخامس في مراكش. فكل مؤسسة قد زودت منذ إحداثها بخزانة تتكيف مع حاجياتها. ومع الأسف فإن مجموعاتها التي كانت تتنامى باستمرار قد ضاعت اليوم. (فالمستشرق البارز "بلات" أخبرني بأنه وجد عند كتبي في الجزائر نسخة من قاموس "كاسيمرسكي" الذي كان ينتمي إلى ثانوية ليوطي بالبيضاء)

2.2. المكتبات العمومية

إن المستعمر، وبوقوفه على أن خزانات كتب الدراسة والبحث لا يمكن أن تستقبل إلا عددا محدودا من الباحثين المتخصصين، فإنه شعر بضرورة بناء خزانات كتب مفتوحة أمام الجميع. وهكذا ظهر نوعان من المكتبات المخصصة لعامة الشعب، المكتبات العامة، والمكتبات البلدية.

فماهي المعلومات التي نتوفر عليها بخصوص هاته المؤسسات من حيث النشأة والتأسيس والتنظيم والمميزات؟ وماهو الدور الذي لعبته في نشر الثقافة أثناء الحماية وبعدها؟

1.2.2. المكتبات العامة

1.1.2.2. المكتبة العامة في تطوان

فكر الإسبانيون في الثلاثينيات بجدية في إحداث خزانة كتب متخصصة في قضايا شمال المغرب. وإلى حين 1939 استقرت خزانة كتب صغيرة لعبت دور الخزانة العامة في مركز الأبحاث المغربية.

وجاء مبعوث من هيئة الجامعة في نفس السنة، هو "غيستافينو غلان" Gustavino Gallent إلى تطوان بوجه خاص، وذلك لإحداث الخزانة العامة [69]. واستقرت هاته الخزانة في أسفل بناية مركز الدراسات المغربية C.E.M. وضمت حجرة للمطالعة وملحق للموظفين المساعدين.[70] وفي 1940 سيفتتح أول قسم للمكتبة العامة، ويتعلق الأمر بالقسم العمومي الذي سيتكون من دمج المجموعات التالية.

| قسم الدراسات الجامعية: 1198 مجلد

| دولاب لضباط الصف في تطوان: 1143 مجلد

---

69. "فرناندو ڤالدرمارتنز (Fernando Valderrama Martinez)
Histoire de la accion cultural de Espanà en Marruecos 1912 - 1956 ص 696.

70. نفسه

| دولاب لضباط الصف في سبتة: 1143 مجلد

| خزانة بلدية في المنطقة: 869 مجلد [71]

وينضاف إلى القسم العمومي القسم المركزي وقسم الأطفال، وشعبة المخطوطات والنوادر، وقاعة للدوريات. [72]

إن المجموعة الأولى المتكونة تقريبا من 4500 مجلد والتي شكلت مهاد الخزانة العامة كانت تغتني بواسطة الاقتناءات وخاصة الهبات. وهكذا ففي فبراير 1944 تم اقتناء المكتبة الخاصة للشريف سيدي أحمد بن درقاوي التي كانت تحتوي على 3423 مجلد مطبوع و500 مخطوط [73] وفي نفس السنة تم اقتناء مكتبة "لادرون" ل "غيفارا دولاراش" التي كانت تحتوي على بعض المخطوطات العربية. وفي 1945 تم إدماج خزانات كتب أخرى خاصة في الخزانة العامة، من مثل خزانة الأستاذ "رشارد أورساتلي" في طنجة التي كانت توجد فيها أشياء من ضمنها أسطرلاب مغربي من القرن 18م، مع مزولة (ساعة شمسية) ومجموع منتسخ يضم مختلف آثار العلوم الفلكية. [74]

وانتقلت الخزانة العامة في 1945 إلى المقر الذي توجد فيه اليوم. وستنجح في أن تحافظ على طابعها كمكتبة أساس في المنطقة سواء من حيث الصفات أو من حيث حجم المجموعة الببليوغرافية.

التنظيم والمميزات:

أشرف مدير المكتبة العامة في تطوان الأستاذ "غيورمو غيستافينو غلان" على تنظيم المكتبة بطريقة عصرية. وزود مختلف أقسام هاته المؤسسة بفهارس أنجزها مختصون درسوا في تطوان [75]. وأعد

71. المرجع نفسه ص 697.

72. انطلاقا من 1920م شرع في تنظيم قاعة للدوريات في كنف الإقامة الإسبانية العامة. وارتبطت في 1943 بإدارة الوثائق والخزانات. ينظر: Historia de la accion de cultura ص 712.

73. المرجع السابق، ص 699.

74. نفسه

75. ابتداء من 1 مارس إلى 15 أبريل 1945م. بدأت تعطى دروس في تخصص في الوثائق والخزانة لفائدة الهيئة الإدارية ويضم البرنامج المقترح والمسير من طرف مدير الخزانة نفسه: علم الحفريات، والبيليوجيا، وعلم الوثائق، والمهام المكتبية، وتاريخ الثقافة، وتاريخ الفن.

"غلان" Gallent هو بنفسه العديد من الفهارس من مثل "فهرس المؤلفين" في 1941، وفهرس قسم نوادر من الخزانة في 1942، وفهرس موضوعات الكتب الإسلامية والإفريقية في 1952م. ووضع أحمد المكناسي فهرس المؤلفين، وعناوين القسم العربي في 1952م. ووضع البستاني فهرست المخطوطات العربية. وخضعت المطبوعات والمخطوطات للتصنيف العشري العالمي.

وتمتاز المكتبة العامة، فيما يخص المميزات بكونها تمتلك فهرسا عاما لخزانات كتب المنطقة. وذلك للحصول على المعلومات البيبليوغرافية [76]. فقد كانت كل خزانة كتب تسلم هاته الأخيرة نسختين من فهرسها. إن المكتبة العامة، وعلاوة على ترخيص المطالعة في عين المكان، كانت تسمح للزوار بإعارة الكتب إلى المنازل. فقد أرفق القسم العمومي انطلاقا من 1944 بمصلحة للإعارة. [77]

واختصت المكتبة العامة بالإيداع القانوني. وأقامت علاقات تبادلية مع دول أخرى، وفي 1953 توسعت هاته المصلحة عن طريق إحداث إدارة التوزيع وتبادل المنشورات. وعلى هذا النحو كانت الخزانة العامة تستقبل كل المنشورات التي كانت تصدرها معاهد البحث في تطوان، والمنظمات الرسمية لوزارة التربية الوطنية.

وعلى الرغم من أن المكتبة العامة في تطوان تجمع أعمال التوثيق البيبليوغرافي للمنطقة، فهي مراقبة تقنيا من طرف مديرية الوثائق والمكتبات، شأنها في ذلك شأن كل المكتبات الأخرى العمومية. إن إعادة توحيد الدولة بعد الاستقلال سينزع عن المكتبة العامة في تطوان الدور الذي كانت تقوم به سابقا كمكتبة أساس في المنطقة. وسترضخ هاته المكتبة، في غياب مديرية الوثائق والخزانات، ككل المكتبات العمومية الأخرى في المغرب، لمراقبة وزارة الشؤون الثقافية. [78]

---

76. تمركزت مصلحة المعلومات البيبليوغرافية في الخزانة العامة للحماية، وجمع فيها فهرس عام لكل خزانات المنطقة .وجمع فيها أيضا أكبر عدد من السجلات البيبوغرافية والفهارس المطبوعة الموجودة خارج منطقة الحماية. الفصل 17 من مرسوم 17 / 02 / 1943 من البيان الرسمي 28 / 02 / 1943 .

77. يسمح الفصلان 15 و 16 من تنظيم إدارة الوثائق والخزانات والإعارة بين الخزانات. البيان الرسمي رقم 32 من 20 / 11 / 1944 م.

78. إن الخزانة العامة في الرباط هي التي لعبت دور الخزانة الوطنية في المغرب إبان الاستقلال.

2.1.2.2. خزانة الكتب العامة في الرباط

لقد أيقنت الحماية الفرنسية، وبعد أن قامت بجرد الثروات الببليوغرافية في المغرب، بضرورة إقامة خزانات كتب عمومية مفتوحة أمام الجميع. وعلى هذا النحو تقرر في 1919م إحداث خزانة عامة في الرباط. وقانون هاته الخزانة المحدد بالظهير[79] يسطر طابعها العام. وباعتبار كونها مؤسسة مدنية. فقد عهد بإدارتها لمجلس يرأسه المدير العام للتعليم العمومي، ومشكل من ممثلي جلالته، ومن طرف الحكومة، والإدارة، ومن مندوبي المستعمر.[80]

لقد شكلت خزانة كتب معهد الدراسات المغربية العليا المهاد الأولي للخزانة العامة. وكانت هاته المجموعة تتعلق أساسا بالتاريخ، وحضارة الغرب الإسلامي. [81]

وأغنيت المكتبة العامة أيضا بعدد من المكتبات الخاصة من مثل مكتبة ماء العينين، ومكتبة الأديب الحاج المختار بن عبد الله بن باشا مكناس، ومكتبة النادي الألماني في طنجة، ومكتبة الحاكم العام "كلوزل" Clozel، ومكتبة "برنار" Bernard الموظف الجزائري، ومكتبة قنصل فرنسا "لوريش" M. leriche. وفي 1936 أدمجت فيها نهائيا خزانة القسم الاجتماعي المقامة في سلا، وبعد الاستقلال انضافت إليها مجموعة من المكتبات الخاصة التي صادرتها الدولة. فخزانة كتب الگلاوي وخزانة كتب العلامة عبد الحي الكتاني [82] كانتا من أهم هاته الخزانات.

---

79. ظهير 1 نونبر1926 .

80. الخزانة العامة للحماية: من 1912 إلى 1930 ص 18.

81. لقد أخذت الخزانة العامة في الرباط على عاتقها جمع كل الكتب المرتبطة بالتاريخ، وبإفريقيا الشمالية، والغرب الإسلامي. فقد اعتبرت هذا القسم في الأربعينيات من أغنى الأقسام في الخزانة العامة، واعتبرت مجموعته من أكمل خزانات العالم.

82. يشار إلى الخزانتين بالحرفين ج و ك. ونشير إلى أن خزانة الكتاني كانت أهم خزانة وأثرى مجموعة خاصة في المغرب. فقد تجاوزت قيمة محتوياتها ثلاثة ملايير في 1950 حسب مالكها. وقد خصها "بوجندار" Bou Jandar بعدة مقالات منشورة في اليومية المغربية "عرب السعادة".

\ التنظيم والمميزات

\ التنظيم

تضم المكتبة العامة مجموعة من المصالح عهد بكل مصلحة منها إلى محافظ.

أ) مصلحة المطبوعات

لا يحتوي هذا القسم من المكتبة على الكتب المطبوعة فقط، ولكنه يضم أيضا الدوريات. وتنحدر أوائل الكتب المطبوعة بوجه خاص من الاقتناءات المتفردة للمكتبات الخاصة. فهاته المجموعة اليوم هي حصيلة الاقتناءات المنتظمة [83]. وفيما يخص الدوريات [84]، فقد انخرطت المكتبة العامة في عدد كبير من المنشورات. وأصبحت العشرات من المجلات تصلها بالتبادل. وأقامت في عهد الحماية مع معهد الدراسات المغربية العليا روابط حميمية. ومكنتها هاته العلاقة من الحصول على مجلة «هسبريس» لسان المعهد، وأن تستعملها كأداة للتبادل.

فقد كان التصنيف العشري العالمي [85] هو نظام التصنيف الفعلي في هاته المصلحة.

ب) مصلحة الوثائق والمخطوطات

قامت المكتبة العامة مقام الوثائق الوطنية [86]. فقد سبق قسم الوثائق إنشاء الخزانة نفسها. فحينما تم تعيين "دوكستر" de Castries في 1914م مستشارا تاريخيا للحكومة أنيطت به في نفس الآن مهمة إعداد مصلحة للوثائق [87]. ومع ذلك كان يجب أن ننتظر إلى حين 1921 لكي يتم الشروع في تنظيم قسم الوثائق.

---

83. تضم مصلحة المطبوعات اليوم 600.000 مجلد.
84. 5000 عنوان اليوم.
85. التصنيف العشري العالمي.
86. يمكن ظهير 1926 الخزانة العامة في الرباط من أن تتسلم الوثائق الإدارية، وتحافظ عليها بعد مضي سنتين في إدارتها الخاصة. وقرر في 1952 تشييد بناية خاصة بالوثائق مجاورة للخزانة العامة.
87. كان يتعلق الأمر في تلك الفترة بالوثائق التاريخية.

فقد كانت المجموعة الأولى قبل الحماية [88] مكونة من وثائق القنصليات الفرنسية. وأصبح المغرب من بعد الاستقلال يتوفر على منظمة وطنية، المركز الوطني للتوثيق [89] الذي سيكون دوره هو ضمان المحافظة على ربائد الدولة، والوثائق التاريخية. فالبناية التي اتسعت للوثائق [90] اتسعت أيضا للمخطوطات [91]. وعهد بهاته المصلحة منذ تأسيسها إلى مستعربين أكفاء مثل "ليڤي بروڤانصل" L. Provençal و"كُولاَن" G.S.Colin [92].

ت) مصلحة الرشوم والمسكوكات

كانت مصلحة الرشوم في البداية فقيرة. يقول "غوتلند" بهذا الصدد ونحن لا نتجاوز الإشارة إلى اقتنائها في 1926 لقطعة متفردة تقريبا، وذلك في اللحظة التي كانت تهم فيها بالسفر إلى أمريكا. ويتعلق الأمر ب "الأوراق الخمسة السليمة عن منظر مراكش" "لأدريان ماطان" Adrien Mathan 1641" [93]

أما فيما يتعلق بالمسكوكات، فالمصلحة تضم أغلب ضروب عملات الأسر الحاكمة المغربية. وانحدرت مجموعتها الأولى حسب "غوتلند" Gottland مما تم اقتناؤه ل "رولاند ماريشال" M. Rouland Mareschal في 1922- 1924 ومن مستودع وافقت عليه مصلحة الأحباس في 1930م [94].

لقد كانت مسئولية المكتبة العامة منذ حدوثها تعهد دائما لمحافظ يراقب ويوجه العمل المكتبي. وفي 1920م تقلد السيد " دوسينيڤال" مسئولية هاته المنظمة الجديدة. فحدد القواعد النهائية للتصنيف، واعتمد

---

88. أقدم وثيقة هي جريدة القنصلية سنة 1767. ونشير إلى أن الوثائق تعد اليوم بالملايين.

89. أحدثت وزارة التخطيط المركز الوطني للتوثيق سنة 1968. فهذا المركز مجهز بالآلات ويتوفر على مكتبة خاصة بالميكروفيلم.

90. تضم مصلحة المخطوطات أيضا ملفات الوثائق الإدارية والتاريخية التي صنفت ضمن الكتب المخطوطة ورقمت بنفس ترقيم الكتب. ويحال على كل ملف بجذاذة خاصة كما هو الأمر بالنسبة للمخطوطات. وكانت قد اختلطت أقسام الوثائق قديما في العصر الوسيط بالمخطوطات ولم يستمر هذا المجال مع النهضة واختراع المطبعة.

91. يتجاوز عدد المخطوطات في الخزانة العامة 30.000 مخطوط اليوم.

92. إننا مدينون "لليڤي بروڤانصال" بأول فهرس للمخطوطات في الخزانة العامة في الرباط. ووضع تابعوه فهارس أخرى وهم من ضمن المستشرقين والمغاربة مثل "بلاشير" و "علوش" ونشير إلى أن هاته المصلحة تحتوي أيضا على الميكروفيلمات التي عددها اليوم 2300.

93. "غوتلند" Gottland: "الخزانة العامة ووثائق الحماية" Bibliothèque générale et archives du Protectorat. ونشير إلى أن عدد المرشومات تتجاوز اليوم 500.

94. نفسه

قانون فهرس موحد على الجذاذة (فهرس الموضوعات، وفهرس المؤلفين المغمورين). ولعل العمل المكتبي الذي شرع فيه محافظو هاته المؤسسة لم يكن يهم المكتبة العامة فقط، بل كان يمتد إلى المكتبات الأخرى في المملكة. وقد اتخذت الخزانة العامة نفسها للم مجموعات كل المكتبات العامة والخاصة وفهرستها [95]. فحينما يتم إنجاز هاته الفهارس المشتركة بدقة ستمكننا من أن نتعرف على المكتبة التي تم فيها حفظ هذا المخطوط أو ذاك بشيء من الضبط. وباعتبار أهمية هذا العمل وصعوباته المتعددة فهذا المشروع بقي حبيس الورق.

مميزات خزانة الكتب العامة في الرباط

تتشابه مميزات الخزانة العامة في الرباط التي تقوم اليوم مقام الخزانة الوطنية مع مميزات الخزانات الوطنية في الدول الأوربية.

فهي الوحيدة المكلفة بالإيداع القانوني الذي يرغم الناشر على تقديم أربع نسخ للخزانة العامة[96]. وكانت قد أحدثت ببليوغرافية وطنية تقوم كل سنة بنشر مجلة "هسبريس"، وتقوم بدور المركز الوطني للإعلام الببليوغرافي : وأنشأت بهذا الصدد مجلة أسبوعية للإعلام تعرف الجمهور عن طريق الصحافة بعناوين المؤلفات، ومقالات المجلات أو الجرائد التي تصل إلى الخزانة. فقد باشرت نشر الببليوغرافية الماضية: وعلى هذا النحو بدأت انطلاقا من العشرينيات في صنع ببليوغرافية وافية للأعمال المنشورةعن المغرب والسابقة عن ظهور مجلة "هسبريس".

---

95. لقد أفادت الخزانة العامة من فهارس عامة أنجزتها العديد من الخزانات في العواصم الأوربية مثل: الفهرس الذي وضعته الخزانة العامة "للاهاي" والذي كان معمولا به لدى خمسين خزانة هولندية. أو الفهرس المنجز في الخزانة الوطنية في باريس الذي يضم مجموعة دوريات 70 خزانة فرنسية تقريبا. ويذكرنا المشروع الطموح للخزانة العامة بالمشروع الضخم الذي قام به القيمان البلجيكيان "دولافونتين" و "أوتليت" اللذان كانا يفكران في فهرس عالمي للمطبوعات. ولم ينته هذا المشروع نظرا لضخامته.

96 – عهد بالإيداع القانوني للخزانة العامة بظهير 01 / 11 / 1926 . وفي فرنسا كان "فرانسوا الأول" هو الأول الذي أنشأ الإيداع الضروري وذلك بأمر الطابعين الفرنسيين بأن يسلموا خزانة الملك نسخة من كل الكتب التي طبعوها وذلك في 1537. ينظر "سفندال" Svend Dahl "تاريخ الكتاب" Histoire du livre ص 154 .

وتتوفر الخزانة العامة، علاوة على هاته المميزات، على حق مراقبة كل المكتبات العمومية الأخرى في المملكة. فهاته المكتبات ترضخ لمراقبتها بظهير 01 - 11 - 1926م، «تتكلف مفتشية المكتبات المغربية بإعداد توزيع مساعدات المكتبة العامة بين الخزانات والقيام بتوحيد أساليب التصنيف والفهرسة، وبتجميع الأعمال البيليوغرافية للتوثيق» [97]. وتقوم المكتبة العامة أيضا بإعارة الكتب [98]. وستنهض المكتبات البلدية الحديثة التأسيس في المدن الكبرى للمملكة بتسيير الإعارة والسير بها قدما.

تلك كانت المعلومات التي نتوفر عليها بخصوص المكتبة العامة في الرباط [99] من حيث تأسيسها وتنظيمها الإداري ومميزاتها.

فماذا عن المكتبات العمومية الأخرى وخاصة المكتبات البلدية؟

1.2.2. الخزانات البلدية

إن المغرب، وتوخيا منه لمواجهة حاجيات النمو الديمغرافي السنوي، نزع إلى تأسيس خزانات كتب أخرى عمومية ألا وهي الخزانات البلدية إلى جانب الخزانات العامة في الرباط وتطوان.

فهاته الخزانات البلدية هي خزانات عمومية في خدمة الجماعات المحلية. وهي المنافذ الرئيسة للمطالعة العمومية. وتتكاثر مجموعاتها عبر ما تقوم به المدن من اقتناءات [100]. ولعل الأسباب التي كانت وراء حدوثها متعددة؛ فأولا أحدث الغياب شبه الكلي لخزانات كتب المساجد والمدارس التي قامت لمدة قرون مقام المكتبات العمومية فراغا كان يجب أن يملأ. وثانيا لم يعمل تطور التعليم والرقي الثقافي في المغرب إلا على إحداث خزانات كتب مفتوحة أمام كل فئات الشعب. وأخيرا كان يجب أن يجعل الكتاب في متناول الجمهور المغربي خارج العاصمة مقر الخزانة العامة. وبالفعل فقد أنشئت تقريبا في كل مدينة من مدن البلاد

97- فصل 5 من ظهير 01 / 11 / 1926.

98- كانت إعارة الكتب مرخصا بها مجانا لكل الأشخاص الراغبين في التعلم: من 3 إلى 5 كتب لمدة 15 يوما. والكتب المخطوطة لم تكن تعار: فقد كانت تراجع في عين المكان.

99 هي اليوم الخزانة الوطنية في المغرب وتميل إلى أن تصبح وسيطا، لأنها تجمع كل نوع من الوثائق المطبوعة أو غير المطبوعة.

100. تهتم بذلك المجالس البلدية اليوم.

من الشمال إلى الجنوب مكتبة بلدية. وفيما يتعلق بخزانات كتب شمال المغرب، فقد كانت تراقبها وتوجهها مديرية الوثائق والمكتبات [101]. وفيما يخص خزانات كتب المدن المغربية الأخرى فقد كانت تتعهدبها الخزانة العامة في الرباط، وترضخ للتسيير التقني لهاته الأخيرة. وكلفت الحكومة الخزانة العامة بأن تتصل بالسلطات المؤهلة في كل مدينة للحصول من البلديات على موقع مخصص للخزانة طبقا لما هو منصوص عليه في قرارات التنظيم.

تقوم المكتبات البلدية[102] بمهمة جسيمة، إنها تسهم في فعل القراءة بين الأوساط الشعبية عبر ترويج الثقافة الأدبية والوثائقية. فاعتمادا على التعاون المباشر والدينامي المقام بين المكتبة العامة والمكتبات البلدية، فإن هاته الأخيرة تقوم في يسر بدور الخزانة العمومية. فهي تشكل تقريبا فروعاً للخزانة العامة، إذ تلعب دور الوسيط بين هاته الأخيرة ومختلف فئات القراء. إذ يمكن للقراء في الواقع أن يستعيروا كتب الخزانة العامة بطلب بسيط من خزانتهم البلدية. فهذا الأسلوب الجميل يصلح لنشر الثقافة والعلم ضمن مختلف فئات الوطن المغربي.

إن انتقال المكتبات المغربية من الوضع التقليدي إلى الوضع الحديث تم اعتمادا على المجهودات سواء التي بذلتها الحماية أو التي بذلها المغرب المستقل. فقد وضعت لبعض المكتبات قوائم وفهارس، وتم تجديد وإعادة تنظيم مكتبات أخرى، وأحدثت مكتبات لم تكن موجودة. لقد أكدت المكتبات المغربية من جديد بخروجها من فترة طويلة من الإهمال والعجز مسئوليتها الثقافية، إذ تم العثور على جزء وافر من التراث العربي المغربي مصونا [103]. وأفاد المغاربة في الواقع إفادة كبيرة من المجهودات التي بذلها الأوربيون في هذا المجال، فهم واصلوا العمل الذي بدأته الحماية. [104]

---

101 . نشير إلى أن الخزانات البلدية كانت توجد حتى قبل إحداث الوثائق والخزانات. فالخزانة البلدية في تطوان قد تأسست في 1932 ، وخزانة العرائش في 1934 وخزانة الشاون في 1940.

102 – إن الخزانات البلدية هي التي لها مهمة أكثر اتساعا وجمهورها ومجموعاتها أكثر تنوعا وطرق استعمالها أكثر استيفاء (توثق وتفيد كل مواطن في جميع المجالات)

103 – أنشأت وزارة الشؤون الثقافية في 1969م جائزة الحسن الثاني. فهاته المبادرة قد حرضت المغاربة على الوعي بتراثهم الثقافي وشمله بعنايتهم. وبإحداث هاته الجائزة ودت الوزارة لو تدخل في المجموعات العمومية على الأقل نسخ أهم المخطوطات التي كان يمتلكها الخواص إن لم تكن النسخ الأصلية.

104 – تم إحداث معهد علوم الإعلام في 1974 . لتكوين إعلاميين تكون مهمتهم هي الاهتمام بالوثائق والمخطوطات.

الباب الثاني :

بنية خزانات الكتب بالمغرب



الفصل الأول : محنة المكتبة المغربية

عرفت خزانات كتبنا شأن كل خزانات العالم العديد من النكبات التي تعزى إلى الحشرات القوارض، وإلى الفتن السياسية، وإلى السرقة والنهب. واستطاعت العديد من العوامل المخربة أن تلحق أضرارا بالمكتبات المغربية. فهل بذل الملوك المغاربة مجهودا معينا يهدف إلى إعادة ترميم المجموعات المتآكلة، وجمع التراث الوطني المكتوب المتفرق داخل البلد وخارجه؟

I – إبادة المخطوطات وتبعثرها

1 . الأسباب الطبيعية : الحشرات

لقد كانت مصائب الشروط غير المناسبة لصيانة المخطوطات فوائد بالنسبة للحشرات القارضة للكتب، والعث المخرب لها، والأرضة، وكل القوارض.. فقد استفادت هاته الأعداء الخطيرة من هاته الأمور لكي تقوم بعملها. إن المستودعات القديمة، وغير الملائمة التي كانت توضع فيها الوثائق، لم تكن فقط غير قادرة على ضمان صيانة هاته الأخيرة بشكل جيد، بل إنها أسهمت بشكل كبير في إتلافها. فحينما نقف على السرعة التخريبية للأرضة والحشرات الأخرى المخربة للكتب ندرك بسهولة الآلاف من المخطوطات التي يجب أن تتلف تباعا بدون أن نتمكن من فعل أي شيء بإزائها. فلا تخل مكتبة في المغرب من مخطوطات متآكلة كليا أو جزئيا بواسطة الحشرات. لقد كان المثقفون في السابق يقولون بصدد ثروات خزانة القرويين المتآكلة بواسطة الأرضة: «الذي يدخل إلى القرويين يسمع العث وهو يلتهم الكتب».[1] ودفعا

---

1 . "دوكستر" "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب" : (SIHM) فرنسا، ج 1 . ص 246.

للهجومات المتخفية للحشرات القارضة تم اتخاذ العديد من الاجراءات. ففي الفصل الأخير من كتاب "التيسير في صناعة التسفير" يعرض لنا المؤلف الوسائل التي استخدمت سابقا للقضاء على العث (يبخر بأعضاء الهدهد وريشه فإنه يقتل الأرضة). [2]

ويخبرنا نفس المؤلف أيضا بأنه عرف من سيدي محمد السامري بأن الذي يكتب على أول ورقة وآخر ورقة من المخطوط الحروف ي-ك-ي-ك-ت-ج. يضمن سلامته للأبد. ويؤكد الإشبيلي أن هذا الإجراء قد سبق تجريبه وضمن جدواه [3]. وعلى الرغم من كل المحاولات، وكثير من الوسائل المستعملة في هذا الباب. فالعث والأرضة قد أضاعا عددا غير يسير من المخطوطات إلى الأبد.

2. الأسباب البشرية

1.2. الإهمال وإخفاء الكتب للاستئثار بها أو غلول الكتب

لقد أدى الإهمال وإخفاء الكتب للاستئثار بها إلى ضياع جزء كبير من التراث الوطني المكتوب في المغرب. فبالإضافة إلى الشروط الرديئة للمحافظة على المخطوطات، هناك الإهمال والحسد اللذان يؤديان بالعلماء إلى أن يتلفوا المخطوطات أو يغلقوا عليها إلى الأبد. فكثيرة هي المخطوطات التي ضاعت بسبب الإهمال. ونذكر، على سبيل المثال، بعض المكتبات العامرة في زوايا سوس في جنوب المغرب التي زارها المختار السوسي. وقد أخبرنا هذا الأخير بأنه في زيارته للزاوية اليعقوبية في "تكركوست" لاحظ هو بنفسه أن أغلب المخطوطات العديدة التي تتناول الحديث والفقه، والتي كانت تشكل ثروة خزانته، قد ضاعت منذ زمان بفعل الإهمال. ويضيف أن التي بقيت منها لم تكن محفوظة جيدا إلى درجة أنها كانت معرضة للمطر [4]. ولقد زار السوسي هو بدوره واحدة من أغنى المكتبات الخاصة في هاته المنطقة، بل حتى في

---

2. الإشبيلي: التيسير في صناعة التسفير. ينظر الفصل الأخير ص 40

3. نفسه

4. المختار السوسي: من خلال جزولة. ج 3، ص 161

المغرب، ألا وهي خزانة كتب محمد بن عثمان التمنرتي المتوفي سنة 1050هـ. فقد حكى أحد أحفاد هذا الأخير وكان جاهلا بأنه قد ورث بالفعل جزءا من مكتبة جده الأسبق، وكانت الكتب مكدسة في صندوق. والتهمت كلها تقريبا بواسطة العث قبل أن يلقيها في بئر بأمر من أحد أصدقائه[5]. إن هاته الحالات من الإهمال المترتب عن الغباوة، ومن غياب الاهتمام المترتب عن الجهل لم يكونا مع الأسف هما وحدهما ما يهدد المخطوطات. ففي الواقع، كثيرة هي الخزانات العمومية والخاصة التي ضاعت للأبد بسبب نفس الأوضاع[6]. أما فيما يخص إخفاء الكتب للاستئثار بها أو غلول الكتب، فهو يتعلق بإخفاء أو الإغلاق على الكتب ربما إلى الأبد هدفا في ألا يستفيد منها الآخرون. وكثيرا ما نصادفه عند العلماء. فنحن نعرف موقفهم الحسود في الغالب حينما يتعلق الأمر باكتشافات أو بأشياء دفينة. فقد كان الناس إذا وجدوا أنفسهم صدفة في منافسة على شيء معين، أو إذا اشرأبت الأعناق إلى ما يمتلكونه، أو ما ينوون امتلاكه، يستعيرونه بسرعة، ويشترونه، ويحصلون بأي وسيلة على الوثائق التي تعود إليه. فيصبح عمل المنافس الذي نخشاه مستحيلا. فنحن نعرف أمثلة من ذلك. يخبرنا "التوري" في كتابه "تاريخ الشرفاء" بأنه صادف بربريا يتباهى بكونه الوحيد الذي يمتلك مفتاح مغارة كانت تضم عددا من المؤلفات منذ زمن المسيحيين. وبأنه لم يكن يعنيه أن يكتشف "توري" أو أي أحد هاته الذخائر ويستفيد منها [7]. ورفض مستأثر آخر بالكتب من الزاوية اليعقوبية أن يطالع أي كان من العلماء على خزانته الثرية التي كان قد ورثها عن أجداده. فالمختار السوسي قد صنع كل شيء من أجل أن يطالع عليها ولكن بدون جدوى [8]. إن ظاهرة إخفاء الكتب للاستئثار بها كانت معروفة عند العلماء المغاربة سواء في الماضي أو الحاضر، فكثيرة هي المخطوطات الفريدة التي تمّ الإغلاق عليها في المكتبات الخاصة. وأفاد منها فقط أصحابها[9]. يقول

5. المرجع السابق. ص 9

6. لقد سبق أن أشرنا إلى أن خزانة مدرسة بن يوسف في مراكش كانت مسدودة لمدة خمسين سنة. فكثير من الكتب فسدت بسبب الفئران، والأرضة، وعدم الاعتناء.

7. "توري" : **Torrés**"تاريخ الشرفاء" Histoire des chérifs. ص 152 ط: 1667.

8. المختار السوسي: من خلال جزولة ج 3 ص 161.

9. بعض هاته المخطوطات هي ملك الدولة . وقد كانت بعض الشخصيات الكبرى باغتنامها لمسئوليتها العليا تستعير هاته المخطوطات بدون أن ترجعها أبدا.

"شارم" G.charmes «إنه إذن من الأولى بنا أن نقوم بأبحاث مثمرة عند الخواص منه في المساجد . ولكن الخواص إذا عرفوا قيمة ذلك صدفة فسيكونون غيورين جدا على ما يملكون ولا يريدون أن يثيروا الشكوك في وجوده بأي ثمن»[10] . فالإهمال وإخفاء الكتب للاستئثار بها يشكلان إذن جرحين من ضمن كثير من الجروح الأخرى التي أنزفت تراث المكتبات المغربية.

2.2. إحراق الكتب

إحراق الكتب هو أحد العوامل التي كانت وراء ضياع كثير من المجموعات النفيسة ، فهذا الأمر يهم كل الدول الإسلامية ، ولا يقتصر فقط على المغرب . فقد كانت كثير من المؤلفات في القرون الأولى من الهجرة غنيمة للنيران المحرقة ، وذلك لأسباب عقدية . وكان التراث الشيعي والمعتزلي هو الأكثر تضررا من كل ذلك . وفي إسبانيا المسلمة أحرق الأمير ابن عباد مؤلفات ابن حزم في قرطبة لأنها كانت تبشر بالظاهرية [11] . وانتهت مؤلفات الفيلسوف الأندلسي ابن مسرة إلى نفس المصير في الساحة الكبرى بقرطبة [12] .

وكانت ظاهرة إحراق الكتب في المغرب عملة رائجة ، وخاصة في القرن الثاني عشر الميلادي . فلقد أكب المرابطون والموحدون ، كل دولة من جهتها ، على إبادة حقيقية لمؤلفات الفلسفة والشروح للمذهب المالكي ، الأمر الذي حرمنا من عدد من الكتب التي لا نعرف منها إلا العناوين ، والتي كان الحظ وحده قادرا على إيجادها اليوم . فلقد اعتبر الفقهاء المرابطون ذوو المذهب المالكي المتطرف الفلسفة بدعة دخيلة على الدين ، وغالبا ما تؤدي نتائجها بالنسبة لأنصار المذهب إلى اختلال في الإيمان . إن كتب الفلسفة وأصول الدين التي أنكرها الفقهاء قد أصبحت مرفوضة إلى درجة أصبح فيها حضورها يعتبر خطرا في خزانة كتب معينة ، وأن إبادتها أصبحت ضرورية بالنسبة لكل إنسان متدين . فقد وصلت عداوة المرابطين لهاته الكتب إلى

---

10 . "سفارة في المغرب" ص 300 ط. 1887 .

11 . المقري: نفح الطيب، ج 2 ص 141 .

12 . ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ج 1 ص 120 .

ويخبرنا الصفدي أن محمد بن عبد الله بن أبي عمر المنصور وزير الموعياد في إسبانيا المسلمة أحرق مؤلفات علوم الأوائل. ينظر: الوافي بالوفيات، ج 4 ص 160 مخطوط خزانة أحمد الثالث في اسطانبول رقم 2920 . ينظر أيضا يوسف العش: "دور الكتب العربية" ص 298 .

درجة أنهم كانوا يعاقبون كل من درسها أو توفر عليها عقابا شديدا . يقول المراكشي[13] : (ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أَمَرَ أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك. . .) [14] فمؤلفات المذهب المالكي هي وحدها التي كانت مقبولة إذن واتخذت قبلة للمسلمين. وأكثر الفقهاء المرابطون من الشروحات والحواشي على هاته المؤلفات إلى درجة أهملوا معها القرآن والحديث تقريبا . وهو الأمر الذي أدى إلى إزعاج الدولة التي جاءت بعدهم. فقد أذان الموحدون العلماء المالكيين الذين تخلوا عن الأخذ من المصادر التراثية لكي يدرسوا مؤلفات انحدرت هي نفسها من كتب التابعين، ولكي يختصروا المختصر. إن الملوك الجدد قد أذانوا إذن مؤلفات علم الفروع. فقد أمر الخليفة يعقوب المنصور المتوفى سنة 594هـ بأن تحرق كتب المذهب المالكي المفتقدة إلى استشهادات من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن القرآن. (وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب[15] المذهب بعد أن يجردها ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد ، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار. . .»[16].

وهكذا ضاع علم الفروع مما دفع الناس إلى ترك المصادر الأولى في الشرع الإسلامي، ونعني بها القرآن والحديث. واقتنع الملوك الموحدون أن الإكثار من المؤلفات المرتبطة بنفس الموضوع تضر حتى باكتساب

---

13 . إن هاته المؤلفات قد أغاظت المالكيين لأسباب عقدية ولموقفها المعادي للفقهاء . فلقد أظهر الغزالي في كتابه "الإحياء"، أن الفقه كما يفهمه المالكيون ليس إلا شعورا زمنيا بدون ارتباط بالدين وأذان فيه ما يبديه الفقهاء من تدخلات في السياسية.

14 . المراكشي: المعجب ص 104 . المكان الذي أحرقت فيه مؤلفات الغزالي في مراكش العاصمة المرابطية هو اليوم مقر الزاوية الكتانية، ويجب أن نشير إلى أن كتب الغزالي قد أحرقت هي بدورها في "قرطبة" ينظر "تراس"Terrasse ,"تاريخ المغرب" His. du Maroc ج1 ص 251.

15 . أحرقت الكتب في كل مدن الامبراطورية.

16 . المراكشي: المعجب. ص 400.

العلوم التي تعالجها [17]. ولم تكن مؤلفات الفقه المالكي هي وحدها وقود النيران على عهد الموحدين، فكثير من مؤلفات الفلسفة قد ألقيت في النار في عهد يعقوب المنصور. فقد أمر هذا الأخير الذي كان ظاهريا ومتحمسا لظاهريته بأن تحرق مؤلفات ابن رشد المتوفى سنة 549هـ، برأي من بعض مؤازريه ممن كان من أعداء الفيلسوف الكبير. فقد اتهم هذا الأخير بكونه جعل الزهرة أحد الآلهة، كان يقول: «فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة». يقول المراكشي: «... وأمر الحاضرين بلعنه (ابن رشد) ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم، وكتب عنه الكتب إلى البلاد[18] بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة، وبإحراق كتب الفلسفة كلها، إلا ما كان من الطب والحساب، وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار[19] وأخذ سمة القبلة...»[20].

وهكذا فالاختلافات المذهبية والنزاعات الإديولوجية قد حرمتنا من عدد من مؤلفات الفلسفة والتي لا نعرف عنها اليوم إلا العناوين.[21]

3.2. إعارة الكتب

كانت الإعارة إحدى المميزات الرئيسة للمكتبات العمومية والخاصة في المغرب. وهي سلوك قديم في هذا البلد حيث كان يمكن للقراء أن يستعيروا المؤلفات إما لمراجعتها في عين المكان، أو لإخراجها لفترة محددة [22]. بيد أننا نعترف أنه على الرغم من أن خاصية الإعارة كانت إجراء ممتازا، فقد كانت مخربة للمخطوطات والمكتبات العامرة. فلم يتردد المحسنون في البداية من أن يسمحوا بإعارة المخطوطات توخيا لأن

---

17. يؤكد ابن خلدون «أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم.. ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي، بالكتب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية، مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير..» المقدمة ص 454.

18. نقل لنا ابن الأبار في كتابه التكملة بأن كتب ابن رشد قد أحرقت في تونس أيضا.

19. بعبارة أخرى ما تحتاجه الممارسات التعبدية من معارف.

20. المراكشي: المعجب ص 437.

21. من ضمن مؤلفات ابن رشد التي ضاعت أوالتي وصلت إلينا باللاتينية أو بالعبرية والتي أحرقها العاهل الموحدي بعض المؤلفات في الفيزياء وكتاب النفس والماجست. وكتاب النفس هو شرح لكتاب الروح لأرسطو. فالنص العربي قد ضاع. وتوجد الترجمة اللاتينية. والنص العربي من كتاب "الماجست" لم يصلنا أبدا. وتوجد الترجمة العبرية وحدها في عدة نسخ.

22. نشير إلى أن الإعارة بين الخزانات كانت موجودة أيضا: فالخزانة الملكية وخزانة زاوية تمكروت كانتا تعيران الكتب لبعضهما البعض.

يستفيد منها الباحثون. ولكن هؤلاء الأخيرين سرعان ما خيبوا آمالهم. وذلك بعدم إرجاعهم الكتب إلى الأبد. يخبرنا الجزنائي أن العاهل المريني أبا عنان كان قد سمح بالإعارة أثناء بناء خزانة القرويين: «وأنجز لها من قيد لإخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردها لصيانتها في موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها . . .»[23]. ولكن بمجرد ما تم الانتباه إلى أن الكتب المعارة لم تكن ترجع، وأن عددا من المخطوطات كانت تضيع، بدأت الإعارة تحظر في بعض الأحيان، وخاصة في المكتبات العمومية. وأبوعنان نفسه الذي كان أجاز الإعارة، وقّف مؤلفا على القرويين، ومن شروط هذا التحبيس الصريحة حظر الإعارة الخارجية. وأجاز محسنون آخرون إعارة الكتب المحبسة[24] مقابل "شرط تذكاري" كما فعل ابن خلدون عندما وقف كتاب العبر على خزانة القرويين. وفي عهد الوطاسيين والسعديين منعت إعارة الكتب بسبب مالحق التراث الوطني من ضياع. وأثارت هاته الظاهرة اختلافات بين الفقهاء. وهذا ما قاله اليوسي بهذا الصدد: «وقد اختلفت أحوال الناس وأقوالهم في إعارة الكتب فمنهم من كرهها صونا للكتب من الضياع وقديما قيل آفة الكتب العارية ومنهم من يحض عليها لأنها من التعاون على البر والحق. . . .»[25].

وسنحاول أن ندقق في دراسة لائحتين للإعارة ترتبطان بمكتبتين كبيرتين في المغرب ألا وهما القرويين في فاس، وابن يوسف في مراكش، وذلك توخيا لإعطاء رأي واضح عن سلبيات الإعارة. ففيما يخص مكتبة ابن يوسف فقد عثر في 1938 م لحظة تجديد هاته المكتبة على سجل[26] للإعارة ينبئنا بثرائها القديم وأسلوب العارية الذي تبناه القيمون على المكاتب[27]. وذكر في هذا السجل 148 عملية إعارة، ولم تذكر فيه إلا 24 عملية إرجاع. وعلى رأس قائمة المؤلفات المعارة، والتي لم ترجع، يوجد المصحف الشريف

---

23. الجزنائي: زهرة الآس ص 69.

24. يتعلق الأمر بشرح ابن الجلاب في أربعة أسفار. وتوجد الوقفية في الورقة الأولى من الجزء الرابع. ينظر: الخزانة العلمية. ص 29.

25. اليوسي: القانون، الملزمة 24، ص 2.

26. حرر هذا السجل في عهد المولى إسماعيل في سنة 1700.

27. "دوفردان" Deverdun: "سجل الإعارة" Un registre de prêt. في مجلة: هسبريس. ج 31 سنة 1944.

المرسوم بيد العاهل الموحدي عمر المرتضى في القرن 13 م. وكان هذا المصحف قد أعير إلى المحتسب العربي الناصري في سنة 1736 م [28]. وتضم اللائحة كتبا في علوم القرآن الكريم، والفقه، والقضاء، واللغة، والنحو.. .إلخ. فقد كان الأمير علي بن السلطان محمد الثالث قد استعار في سنة 1177هـ / 1764م الكتاب الوحيد باللغة التركية الذي كان يوجد في الخزانة. ومن ضمن من كان يستعير من هاته الخزانة القضاة، والفقهاء، والأئمة، والنظراء، والطلبة.. .إلخ حتى إننا نجد الباشا رحمون بن سعيد بن الخياط من ضمن المستعيرين، ونذكر من العلماء المستعيرين الكاتب الكبير الإفراني صاحب "النزهة" ومحمد بن علي المنبه، وحتى الملك مولاي حفيظ استعار منها [29]. ومع مطلع القرن العشرين لا نقف أو لا نكاد نقف على الكتب التي كانت توجد في هذا السجل. فهاته اللائحة إذن تجعلنا نقف على خزانة كتب نهبت على آخرها بواسطة الإعارة. أما فيما يتعلق بخزانة القرويين فلم تفلت هي الأخرى من إهذار المستعيرين الانتهازيين كتبها، فهي تضم سجلات[30] فيها عناوين المؤلفات المستعارة وأسماء المستعيرين. ويكفينا أن نذكر هنا نبرات الشكوى، وآهات عالم كبير عرف جيدا هاته الخزانة [31]. « وقد يقول القائل إذا كانت هذه المكتبة على ما وصفت فإنها تحوي اليوم على الأقل مآت الآلاف من المجلدات فهل هو كذلك أجيبه جواب متحسر وآسف إن أيدي وجوه البلد وحكامها أو قل وعلمائها الذين كانوا يستعيرون كتبها بالمئين لهم ولأبنائهم وأقاربهم ومعارفهم فتمضي القرون ولا يرجع إلى المكتبة شيء من ذلك »[32]. وتظهر لنا اللوائح أن المستعيرين ابتداء من رجال السلطة [33] إلى القارئ العادي قد أسهموا بجزء وافر في تفريق بل حتى ضياع المخطوطات. حتى إنه يحدث أن الكتب المستعارة كانت تباع ويستعيدها القيمون في بعض الأحيان بإعادة شرائها. وتشير فهرسة القرويين إلى أن هاته الخزانة قد أعارت مصحفا إلى شخص فقام هذا الأخير ببيعه.

---

28. لم تبق في 1933 إلا أربعة أجزاء من أصل عشرة كان يتكون منها هذا المصحف.

29. يجب أن نقول إن الجزء الكبير من المحتويات الأولى المطبوعة من خزانة ابن يوسف قد قام المولاي حفيظ بإهدائها.

30. السجل رقم 835 و 836، ينظر: فهرست القرويين ج 2 ص 503 - 506، ينظر أيضا الفاسي "الخزانة العلمية" ص 31 - 33.

31. يتعلق الأمر بالعلامة عبد الحي الكتاني المتوفى سنة 1963.

32. ألفرديل: البرنامج ص 4.

33. إن الحكومة الفرنسية قد استعارت حسب الكتاني إبراهيم مجموعة من الكتب من ضمنها نزهة المشتاق للإدريسي. ولم يتم إرجاع هذا المؤلف أبدا حسب ماجاء في برنامج ألفرديل، تنظر مجلة البحث العلمي: سنة 1965.

فتم العثور على الكتاب وأعيد إلى الخزانة [34] . وعلى هذا الأساس، لم يتوقف السلاطين في المغرب أبدا عن طلب إرجاع الكتب المستعارة إلى المكتبات العمومية في المملكة. فالملك العلوي الحسن الأول المتوفى سنة 1894م، ووعيا منه بالمسألة، أشرف على إعادة الكتب التي أعارتها القرويين. وكان يجب على المستعيرين أن يعيدوا الكتب التي كانوا قد استعاروها [35]، وذلك رضوخا لظهير شريف كان قد حسم في الأمر. وكان يجب أن يطالب الورثة بالكتب إذا توفي المستعيرون. وكان يجب على النظراء والقيمين أن يسهروا على إنجاز هاته العمليات مصحوبين بأربعة عدول أو كتاب شرعيين [36] . ولعل تنظيم هاته الخزانة والخزانات العمومية في فاس التي كان قد أنجزها المسئولون عن الثقافة على عهد الملك مولاي يوسف في بداية الحماية ينبئ بإرجاع الكتب المستعارة. ويتضمن الفصل الخامس البند التالي: «وعلى النائبين أن يبحثا في خصوص الكتب التي خرجت من الخزانة على وجه العارية ولم ترجع إلى الآن ليطلباها من المعار له أو من ورثته إن توفي وذلك بسائر الوجوه التي تتعين في حيازتها مخزنية أو شرعية حتى يرد ما يمكن رده أو يغرم سواء بإعطاء المعار له نسخة مثل النسخة التي فقدت أو بأداء ثمنها»[37] . ويجب أن نشير إلى أن هاته المحاولات لاسترجاع الكتب لم تؤد إلى نتيجة. فقد استمرت العائلات في الحفاظ على المؤلفات التي ورثوها عن آبائهم أشد ما تكون المحافظة. ومازالت بعض هاته المؤلفات، مما سبق أن رأيناه، تحمل صيغة الوقف على إحدى المكتبات العمومية في المملكة. ولم تكن الإعارة إذن أقل خطورة من إحراق المخطوطات. فقد نقش أحد عشاق الكتب "بكسركور" Pixérécourt على باب مكتبته هاته العبارة البليغة جدا: «هذا هو المصير المؤلم لكل كتاب معار، فهو غالبا ما يضيع ودائما يفسد» [38].

---

34. يتعلق الأمر بمصحف أودع تحت رقم 3. ينظر: فهرست القرويين ج 1 ص 41.
35. يعمل المستعيرون على إعارة الكتب الواحد تلو الآخر ولكن لا يرجعونها إلا نادرا.
36. الفاسي: الخزانة العلمية. ص 72.
37. "ألفردبل" برنامج القرويين ص 12.
38. "نومبي"Neumayer : Bebliophilon ، فصل : الإعارة.

4.2. نهب الكتب وسرقتها

يتعذر علينا حصر المخطوطات والمكتبات المنهوبة في المغرب، فليست هناك خزانة كتب ملكية أو خاصة أو عامة لم تتعرض للنهب في جزء منها أو في عمومها. فقد تعرضت المؤسسات العلمية المغربية للحروب الداخلية، والغزوات الأجنبية، والاضطرابات السياسية. وفي مثل هاته الظروف حدثت سرقة خزانة الملوك السعديين التي انتهت إلى الأسكوريال في إسبانيا. ومن المؤكد أن القيمين كانوا مسئولين عن اختلاس جزء كبير من التراث الوطني المكتوب. فلم يكونوا فقط وراء ضياع أغلب هاته الثروات، ولكنهم كانوا هم الأوائل الذين أسهموا في هذا الأمر. يقول أحد المؤرخين: «كانت السرقة تتم من طرف الجميع، وأحمد بن المعز [39] هو أول نموذج على ذلك» [40]. ففي بداية الحماية تكلف عالمان كبيران هما ألفردبل وعبد الحي الكتاني بإحصاء ثروات خزانة القرويين وفهرستها. ولم يفت هذين الرجلين، حسب شهود عيان، أن يختلسا عددا من المخطوطات.

ففي سنة 1936م عرض "ألفردبل" أثناء معرض الكتب في تلمسان بالجزائر، حسب إبراهيم الكتاني، كثيرا من مخطوطات القرويين[42]. ويبدو لنا أن القيمين الذين كانوا يستغلون هاته المهمة للاستحواذ على الكتب، كانوا يعملون بدون أدنى شك بالمقولة المعمول بها لدى بعض هواة الكتب: «سرقة كتاب ليست سرقة»، لأنه لا أحد يشك مثلا في استقامة ونزاهة العلامة عبد الحي الكتاني، ومع ذلك فهذا الأخير لم يتردد أبدا في الاستحواذ على مخطوط قيم لا يوجد، حسب معرفته، في أماكن أخرى. فالاعتماد على السرقة هو الذي جعل كثيرا من المخطوطات المحبسة على المكتبات العمومية تسقط في أيادي الخواص، أو

---

39. أحمد بن المعزكان محافظا على خزانة الملكية في عهد العاهل العلوي الحسن الأول.

40. ينظر "وثائق مغربية": Archives morocaines ص 357، سنة 1912.

41. الكتاني: الكتاب المغربي في مجلة: البحث العلمي ص 25. سنة 1965.

42. لإيقاف هذا النوع من التهم كتب " ألفردبل" ما يلي «والوسيلة النافعة في ذلك هو انتساخ الكتب النادرة التي لا زال منها عدد في الخزائن الخصوصية عند أهل فاس» برنامج بل ص 13.

تجنح إلى المكتبات الأجنبية [43]. فالأوربيون، وكما ذهبنا إلى ذلك سابقا، لم يكونوا يستطيعون شراء المخطوطات العربية في المغرب، إذ كانت الخزانات مسدودة أمامهم بشكل قطعي [44].

إن محنة المكتبة المغربية لا تنحصر في العوامل المشار إليها آنفا، فالصراعات السياسية، والغزوات الأجنبية كانت أيضا وراء تفرق وسرقة عدد كبير من المخطوطات.

إننا نعلم أنه بانتهاء كل دولة مغربية كان يغيب معها جزء وافر من خزانتها الملكية التي جمعها ملوكها بفطنة وذكاء. فلقد سبق أن أشرنا إلى أن صاحب "الذيل والتكملة" أخبرنا أن المكتبة الملكية الموحدية أبيد جزء منها لحظة الحروب الأهلية بين الأمراء الموحدين في بداية القرن 13م. فهذا هوالسبب الذي جعل العاهل " العابد" يدعو العالم الكبير والقاضي ابن القطان لإعادة تنظيمها. وقد تأثرت المكتبات الخاصة بدورها بهاته الظروف.

فقد تبددت واحدة من أعظم المكتبات الخاصة ونعني بها خزانة كتب العلامة والقيم ابن الصقر عبر مرحلتين. أولا أثناء الصراعات البربرية في إسبانيا حيث كان يقيم ابن الصقر، وبعد ذلك في مراكش في اللحظة التي استولى فيها العاهل الموحدي عبد المومن[45] على هاته المدينة. فيتعذر علينا حصر المكتبات الخاصة المنهوبة أو المخربة لأن هاته الأخيرة تعد بالمئات، وإذا كانت الحروب الأهلية قد سبق أن عطلت المكتبات المغربية فإن الاجتياحات الأجنبية كانت أيضا أكثر شؤما على هاته المؤسسات العلمية. فقد تم الشروع في نهب المخطوطات في القرن 14 الميلادي وخاصة في القرن 16 الميلادي باحتلال السواحل المغربية من طرف البرتغاليين والإسبانيين [46]. ويخبرنا صاحب ممتع الأسماع أن المتصوف سيدي رحال

---

43 . كثير من المخطوطات المغربية قد انتهى إلى الخزانة الوطنية في باريس وخزانات فرنسية أخرى. ينظر "فاجدا"Vajda Notesde bibliographie magribine ، مجلة هسبريس 1954.

44 . لقد هاجم بعض المثقفين المغاربة المعاصرين المستشرقين الفرنسيين وذهبوا إلى أن الأخيرين، انتهزوا المهمة التي أوكلت إليهم لإعادة تنظيم الخزانات المغربية لكي يأخذوا ما رأوه صالحا للأخذ. ونحن نرى أنه يجب أن يهاجموا أولا العلماء والقيمين أنفسهم الذين هم أوائل من نهب الخزانات المغربية وهدها.

45 . ابن فرحون: الديباج المذهب، ج 1 ص 211.

46 . لعل هاته الاحتلالات هي ما أدى بالمخطوطات إلى أن تنتهي إلى الزوايا التي تكاثرت تقريبا في أي مكان بالمغرب

الكوش الذي كان مسجونا عند امرأة برتغالية في مدينة أزمور على الساحل الأطلسي، أهدته هاته المرأة عند خروجه من السجن عددا كبيرا من المخطوطات التي كانت بحوزتها[47]. فهذا المثال الذي لا يتعدى كونه نموذجا واحدا هو من الصنف الذي يساعدنا على تكوين فكرة عن نهب المكتبات المغربية من طرف البرتغاليين.

فقد كانت الحرب المغربية الإسبانية، واحتلال تطوان في القرن التاسع عشر الميلادي وبالاً على المكتبات العمومية والخاصة في هاته المدينة. إذ استولى الإسبانيون على تطوان. وعلاوة على إزهاقهم للأرواح، وإتلافهم لخيرات أخرى قيمة فقد نهبوا كمية هائلة من الكتب التي لا تقدر بثمن أو تعمدوا إفسادها، والكتب التي لم يطلها الفساد حملت غنيمة للحرب، ونقلت إلى إسبانيا، وأدمجت في خزانات كتب هذا البلد. ودليل ذلك وجود عدد من المخطوطات التي تحمل علامات التملك باسم المغاربة [48] في الخزانة الوطنية لمدريد. ولكن النكبة الأكثر مرارة التي تعرضت لها الخزانات المغربية هي خطف الخزانة الملكية للسعديين من المحيط الأطلسي من طرف القراصنة الإسبانيين. ونظرا لأهمية هاته الحادثة في التاريخ الثقافي للمغرب، من الضروري أن نوجز الحديث عن الشروط التي خطفت فيها هاته الخزانة العامرة والغنية.[49].

فالمكتبة الملكية عند السعديين التي جمعها سراج زمانه الفهامة والكتبي أحمد المنصور الذهبي كانت أروع خزانة لم يسبق لها مثيل. فقد كانت بعض المخطوطات من وجهة النظر الخطية والزخرفية تحفا فنية عجيبة. وآلت هاته الخزانة التي كانت مفخرة المنصور إلى ولده ووارث سره مولاي زيدان. ونظرا لأن مولاي زيدان كان ولوعا بالآداب، مشغولا عنها بالحروب المستمرة التي نشبت بينه وبين إخوانه، فقد كان يجب

---

47. المهدي الفاسي: ممتع الأسماع، ص 87 فاس 1305هـ.

48. أكد العالم المغربي الشهير عبد الله كنون في مقال له منشور في مجلة المخطوطات للرابطة المغربية أن الخزانات العمومية في إسبانيا مازالت تحتفظ بمخطوطات كان كتبها أو امتلكها ناس من تطوان وكان هذا العالم قد راجع عددا منها، وأضاف أن إعلان الحماية الإسبانية في 1912 خلص شمال المغرب من مجموعاتها الأدبية الغنية في مدينة تطوان. تنظر مجلة معهد المخطوطات العربية ج 2 ص 170 سنة 1955.

49 – نشر مقال في غاية الأهمية عن خطف هاته الخزانة من طرف "دوكستر" في Journal des débats في 20 أكتوبر 1907. ينظر أيضا بحثنا "الخزانة المراكشية بالأسكوريال" في مجلة كلية الآداب العدد 9 سنة 1982.

عليه أن يودع نفائس كتبه في مكان آمن. وفي 1610م وفي الوقت الذي نعمت مراكش بالسلم بلغته ثورة أبي محالي[50]. فقد انطلق هذا المرابط من الصحراء وتقدم مظفرا نحو مراكش، وأرغم مولاي زيدان الذي لم يكن يحس أبدا بالأمان على مغادرة العاصمة بشكل نهائي. فاستعاد آسفي مصحوبا بحريمه وثرواته وخاصة خزانته القيمة، ومن هنا انطلق نحو سوس حيث قرر أن ينظم المقاومة. وتطلب تنقله، إضافة إلى تنقل أسرته الكبيرة، وحاشيته المقربة، وثرواته، استعمال باخرتين للوصول إلى أكادير. فقد استأجر مولاي حفيظ باخرة هولندية للوصول هو وعياله إلى أكادير. وحمل ثرواته وخزانته في "نوتردام دولاغارد" سفينة القنصل الفرنسي "جان فيليب دوكستلان" Jean philippe de castellane، هذا الأخير الذي قَبِلَ أن يبحر تجاه أكادير بموجب معاهدة فرنسية-مغربية، وبمبلغ ثلاثة آلاف دوكا. ووصلت السفينتان الهولندية و "نوتردام دولاغارد" إلى ميناء أكادير في 16 يونيو 1612. وكان مولاي زيدان وحريمه وخدامه هو أول من نال اليابسة. أما فيما يخص "دوكستلان" فقد رفض أن ينزل الخزانة والثروات الأخرى قبل أن تدفع إليه الثلاثة آلاف دوكا. الثمن المتفق عليه لاستئجار سفينته. وبقي "كستلان" ستة أيام في ميناء أكادير بدون أن يتوصل من الملك بأجرة السفينة. فكان أن هرب من ميناء أكادير متفقا في ذلك مع طاقم السفينة، وأوسع في عرض البحر حاملاً في سفينته المكتبة: «وكان قصده هو أن يعيد السفينة إلى مرسية. وأن يسلم ثروات الزعيم العربي إلى "الدوف دوغيز"طالبا إياه بأن يعوضه إياها بالمبلغ اللازم لاستئجار سفينته» [51]. فقد وجد هذا الأخير نفسه من جديد بفعل الرياح المشاكسة في مياه سلا يوم 5 يونيو1612 وذلك حينما التقى بأربع مراكب إسبانية، فطاردت هاته الأخيرة السفينة التي ظهرت لها مشبوهة واستولت عليها بسهولة. وكانت السفينة تحمل علاوة على الأكياس التي تضم ثروات السلطان السعدي سبعين حملا من الكتب العربية.

---

50. علينا أن نقرأ بشأن هذا المرابط مقال "وتورنو" المنشور في "les mélanges" للمستشرق الإيطالي "جورجيو ليفي دولاڤيدا" Georgio levi Della Vida، 1959.

51. "دوكستر" "Autour d'une bibliothèque marocaine : De castries" : في Journal des débats في 20 أكتوبر 1907 ص 8.

ووصل عدد الكتب إلى 4020 وكانت مزينة في أغلبها بأغلفة مزخرفة « وكانت هناك من ضمنها كمية كبيرة جدا من المصاحف المذيلة بالتفسير وغير المذيلة بذلك، ومؤلفات الفلسفة والشرع والسياسة ومؤلفات في المفردات والطب والجراحة»[52]. وأرسلت الخزانة أولا إلى لشبونة في البرتغال [53] لكي تحص، قبل أن تنقل إلى الأسكوريال التي كانت ستبقى فيها برمتها لو لم يأت حريق 16 يونيو 1671 على جزء كبير منها. وعلى كل حال فإن ما تبقى منها وضع المستشرقين أمام اكتشافات هامة. لقد أثارت مصادرة هاته الخزانة [55] إحساسا مؤلما لدى المغاربة إلى درجة جعلت العلويين يلومون الإسبانيين بعد ذلك عشرات السنين. وتشكل خزانة أحمد المنصور الذهبي اليوم أهم جزء من المجموعات العربية في الأسكوريال.

فماذا عن المحاولات المتعددة التي قام بها المغاربة لاستعادة تراثهم وخاصة آلاف المخطوطات المنحدرة من قصر السلاطين السعديين؟

II – محاولات إرجاع المخطوطات.

كانت مصادرة خزانة كتب الملكية عند السعديين ونقلها إلى الأسكوريال هي الباعث الأساس الذي حرض المغاربة على أن يطلبوا من الإسبانيين ليس فقط إرجاع هاته الخزانة، ولكن أيضا إرجاع كل المخطوطات التي استولى عليها المسيحيون في زمن الاستعمار. فإذا كانت مطالبة الملوك السعديين تنحصر في إرجاع مكتبتهم الملحقة في القصر الملكي الإسباني، فإن مطالبة أتباعهم العلويين كانت أوسع من ذلك،

52. نفسه

53. كانت البرتغال في بداية القرن 17 مستعمرة إسبانية.

54. كان عدد الكتب العربية في خزانة الأسكوريال قبل الحريق هو 10.000 كتاب. ولم يبق من هذا الحريق الذي حدث في القرن 17 إلا 2000. ينظر "دوكستر" المصادر الدفينة لتاريخ المغرب"، فرنسا، السلسلة 1-2 : 541.

55. تذكرنا هاته المصادرة بواقع الخزانة التونسية التي كانت تضم 36.000 كتاب والتي أسسها أبو زكريا الكبير (625-641). ونهبها جيش "تشارل كانت" في سنة 924 / 1535. ويضم المحتوى العربي لخزانة الفاتكان بعض الشواهد الجليلة من هذا الواقع. ومن ذلك بعض المخطوطات التي تم التبرع بها على المسجد الكبير في تونس والتي تحمل أثرا مكتوبا. ينظر "دمرسمان" les données de la contreverse: autour du problème de Demeersmann l'imprimerie, ص 34.

فقد كانت تميل إلى إرجاع العلويين كل المخطوطات العربية المحفوظة سواء في داخل البلد أوفي الخزانات الأوربية [56]. فالعلاقات التي كانت قائمة في هذا الإطار بين الملوك العلويين، وملوك فرنسا، والظهائر التي كانوا يصدرونها لاستعادة المخطوطات هي دليل على ذلك.

1- جهود الملوك السعديين

كان الملوك السعديون يلجأون إلى التهديد والدبلوماسية في نفس الآن لإرجاع كتبهم، فحينما علم مولاي زيدان بفرار سفينة "كستلان" أصابه رعب شديد، وأقسم أن يسجن كل الفرنسيين الذين كانوا يوجدون في المغرب [57]. إلا أنّ هذا الغضب لم يمنعه من أن يلجأ إلى الدبلوماسية. فبعث سفيرا إلى الأراضي المنخفضة (هولندا).

وطلب من أصدقائه الأوفياء؛ الوكلاء العامين، أن يتيحوا لمبعوثه الذي كان يحمل رسائل إلى لويس الثالث عشر [58]، وإلى دوق دوغيز العبور إلى فرنسا، وأن يبذلوا أقصى جهدهم لإرجاع خزانته [59] من ملك فرنسا. ففرنسا في نظر مولاي زيدان مسئولة عن هذا الحادث، والمجهودات التي بذلها لويس الثالث عشر تجاه ملك إسبانيا لم تؤد إلى نتيجة. إلا أن مولاي زيدان، وعلما منه بعدم جدوى احتجاجاته قرر أن يقيم علاقة ودية مع ملك إسبانيا توخيا لأن يعيد خزانته القيمة [60] «الشرط الأولي الذي فرضه الأمير

56. ابتداء من القرن 16م حصل الأساتذة والأطباء والسفراء الأوربيون كلهم في المغرب على مخطوطات مغربية انتهى قسط وافر منها إلى الخزانات العمومية والجامعية الأوربية مثل الخزانة الوطنية في باريس والخزانة الجامعية في "ليدن" في هولندا ينظر "دوفردان" "مراكش" ج 1 ص 436 ينظر أيضا "دوكستر" Agents et voyageurs français au Maroc، 1530 - 1660، باريس 1911.

57. ذهب "توماسي" thomassy. إلى أن مولاي زيدان قد سجن عندما كان غاضبا كل الفرنسيين الذين أمسك بهم. وفَقَدَ كثيرون منهم خيراتهم. وماهو مثير في هذا الواقع هو أنه، ولتسويته، كان يجب تدخل سلطان "استانبول": لذلك فقد تمكن وزير هذا السلطان من أمر سفراء مولاي زيدان من أن يطلقوا سراح كل الفرنسيين. ينظر "توماسي" "العلاقات مع المغرب" Relations avec le Maroc ص 118 - 119 الطبعة 3.

58. اقرأ رسالة مولاي زيدان إلى لويس الثالث عشر في "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب"، السلسلة الأولى، الدولة السعدية، ج 2 ص 597. وثائق وخزانات فرنسا.

59. لقد فتح هذا الحادث الباب أمام مشاكل غير منتهية بين فرنسا وإسبانيا، والإمبراطورية العثمانية، والبرتغال، والبلدان المتحدة (الأراضي المنخفضة) التي ساندت في تلك الظروف متطلبات مولاي زيدان. ينظر "دوكستر" "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب" السلسلة الأولى. الدولة السعدية ج 2 ص 541 وثائق وخزانات فرنسا.

60. اقترح مولاي زيدان مبلغ ستين دوكا لاسترجاع خزانته.

للمصالحة هو الإطلاق الفوري لكل الاسبانيين المسجونين في المغرب. الشيء الذي كان يعني الرفض، فمولاي زيدان لم يكن له ما يكفي من السلطة في امبراطوريته ليقوم بإجراء من هذا القبيل إذا ما أراد ذلك» .[61]

ومع ذلك فقد ذهبت إلحاحات المولى زيدان سُدًى. ومات في 1627 بدون أن يسترجع مخطوطاته . ولم يتوقف أتباعه الملوك عن الوعود والتهديدات بإزاء ملك إسبانيا . «حتى إن أحدهم قد أهلك بتنكيلاته الفرانسيسكان "جان دول پرادو" الذي اعترف بأنه مسئول عن رفض ملك إسبانيا» . وكانت آخر محاولة سعدية لإرجاع المكتبة هي محاولة مولاي محمد حفيد مولاي زيدان وخليفته الثالث. فقد كلف هذا الأخير الأب "بدرود الكانتارا" Pedro d'Alcantara كبير دير "فرانسيسكان" في مراكش بالتفاوض وأرسله لدى فيليب الرابع. وأعلن كبير المحققين بعد أن استشار في الأمر أن إعادة كتبه إلى المغرب «هي تعاون ضمني مع روح الإسلام» [63] فعاد الأب "فرانسيسكان" خائبا إلى مراكش حاملاً معه فقط رسالة إلى السلطان وكانت محاولة السعديين بدون نتيجة.

2- جهود الملوك العلويين

كان للملوك العلويين قدم في العلم واتساع في معرفة الكتب، ولهذا الاعتبار فهم لم يقتصروا على طلب المخطوطات العربية المحفوظة في إسبانيا ، بل إنهم قد اتصلوا حتى بملوك فرنسا بأمل استعادة جزء من المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات الفرنسية. وشرع الملك مولاي إسماعيل في أول محاولة. فقد

61 . Autour d'une bibliothèque marocaine : "De castries" : 20 أكتوبر 1907 ص 8.

62 . نفسه

63 . "دوكستر" "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب»S.I.H.M، السلسلة الأولى، الدولة السعدية، ج 2 ص 542 ، الهامش 1 وثائق وخزانات فرنسا .

64 . لقد وعد مولاي زيدان ببناء كنيسة في مراكش إذا نجح في مهمته.

طلب من لويس الرابع عشر الكتب العربية التي كانت في فرنسا ، والتي لم تكن مستعملة [65]. ويبدو أن السفير ابن عيشة هو الذي أدى هاته المهمة لدى ملك فرنسا [66].

أما فيما يخص محاولات مولاي إسماعيل لدى ملك إسبانيا ، فقد عهد بأول مهمة في هذا الإطار إلى الوزير ابن عبد الوهاب الغساني الذي وصفه مترجموه بكونه ولوعا بالكتب وخطاطا [67]. فكان يجب أن يتفاوض في استرجاع المسلمين المسجونين في هذا البلد ، ويقترح على شارل الثاني افتكاك الأسارى الإسبانيين [68] مقابل خمسة آلاف مخطوط عربي موضوعة في الأسكوريال [69].

وحينما علم رسميا بالحريق الذي حصل في الأسكوريال في 1671م، لم يلح الغساني على أن يحصل على مجموع المخطوطات ، وقَبِلَ حسب أوامر الملك بأن تستبدل الأربعة آلاف مخطوط بخمسمائة سجين مغربي [70] ويجب أن نوضح أن المخطوطات التي كان قد اتفق عليها الملك شارل الثاني [71] مع سفير العاهل العلوي ليست من مكتبة الأسكوريال ، فقد ذهب ابن عثمان المكناسي في رحلته [73] إلى أن البابا منع إخراج الكتب من هاته المكتبة وخاصة جزء من المخطوطات المتبقية في المساجد الأندلسية [74] القديمة ،

65. ظن المولى إسماعيل أن هاته الكتب قد تصلح للتبادل مع العبيد . ينظر "توماسي"Tomassy "العلاقات السياسية والتجارية بين فرنسا والمغرب"Relations Politiques et Commerciales de la France avec le Maroc ص 73 ط 1642 .

66. كتب "توماسي" thomossy أن سفير الملك مولاي إسماعيل عبد الله بن عيشة لدى لويس الرابع عشر قد طلب من هذا الأخير سلوكا متفردا وذلك بأن تقبل ويضع على رأسه رسالة زعم مسلمو الأندلس أن رسول الإسلام كتبها إلى الامبراطور هرقليوس ومرت من عنده إلى ملوك فرنسا الذين حافظوا عليها دائما بعناية كبيرة والتي هي حسب مسلمي إسبانيا سبب كل نجاحات الملكية الفرنسية. تنظر "العلاقات السياسية والتجارية بين فرنسا والمغرب" Relations Politiques et Commerciales de la France avec le Maroc . وتنظر أيضا رسالة الملك مولاي إسماعيل إلى لويس الرابع عشر في"المصادر الدفينة لتاريخ المغرب" S.I.H.M السلسلة: 2 الدولة الفيلالية ص 293 - 294 وثائق وخزانات فرنسا .

67. بخصوص ترجمة الغساني ينظر : نشر المثاني ، التقاط الدرر ، سلوة الأنفاس ، والدرر البهية.

68. استولى المولى إسماعيل على العرائش في 1689 وسجن الحراس الإسبانيين.

69. يجب أن نرى بخصوص هاته الحادثة: تاريخ الضعيف، والإتحاف ج 2 ص 64 و "بري" " الأندلس حسب الرحالة المسلمين" ص 6. H. Pérés : L'espagne vue par les voyageurs musulmans.

70. الغساني: الرحلة، ص 73 طبعة 1940 .

71. حكم "شارل الثاني" ابن الملك فيليب الرابع و "ماري آن" من النمسا من 1665 إلى 1700 .

72. يجب أن نشير إلى أنه أثناء المدة التي تمتد من بداية القرن 17 إلى وسط القرن 19 كان المغرب تقريبا هو القوة الوحيدة المسلمة التي دخلت في علاقات دبلوماسية مع إسبانيا . والسفراء المغاربة هم وحدهم الذين كانوا مؤهلين للحديث مع الإسبانيين في موضوعات المخطوطات العربية . لأنه كان يجب أن ننتظر النصف الثاني من القرن التاسع عشر لكي تشرع إسبانيا في السماح للمستشرقين للاستفادة من المخطوطات العربية وأرسلت أول بعثة من طرف الخليفة التركي عثمان عبد الحميد .

73. الإكسير في فكاك الأسير ص 144 .

74. أكد الغساني في رحلته أن الإسبانيين قد نقلوا المخطوطات العربية من قرطبة، ومدن أخرى إلى الأسكوريال.

والمحلقة بالأسكوريال. وعلى الرغم من أن مهمة الغساني كانت هامة على مستوى إطلاق السجناء فإنها لم تكن مفيدة بالنسبة للمخطوطات [75]. فالمجهودات المحمودة التي بذلها مولاي إسماعيل لاستعادة المخطوطات العربية، ستستمر في عهد حفيده السلطان محمد بن عبد الله. فقد أرسل هذا الأخير الذي كان له باعٌ كبير في الفقه والكتابة، وولع بالكتب سفيرين لدى ملك إسبانيا. وكان استرجاع المخطوطات، وخاصة مخطوطات الأسكوريال من إحدى بنود معاهدات السلم الموقعة مع هذا البلد. وعهد بالسفارة الأولى إلى العالم أحمد المهدي الغزال الفاسي في 1179 هـ /1765م [76]. فقد كلف السلطان محمد الثالث هذا الأخير الذي كان كاتبه الخاص بالتفاوض مع إسبانيا من أجل السلم. ويبدو أن الغزال، علاوة على رغبته في افتكاك الأسرى، أراد أن يغتنم العلاقات الودية مع الملك شارل الثاني لاسترجاع أكبر عدد من المؤلفات التي كثيرا ما كان العاهل يقرأها. وبالفعل فقد شرح لماذا بقي شهرا في مدريد قائلا: «وكانت إقامتنا بمدريد، بعد التشييع من الطاغية ما يقرب من الشهر في انتظار ما وعد به من كتب الإسلام التي كانت بالمدينة المادريدية ولم يكن الطاغية بالمدينة حال التشييع، فأمر بإخراج الكتب من المحل الذي كانت به ودفعت لنا، وزدنا عليها ماصحبناه من الكتب من غرناطة ثم بعث الطاغية لقالص بعد سفرنا من مدريد واصلا لدينا، وقد كان وعد بذلك حيث لم يمكنه التوصل قبل السفر، وقد وفى بما وعد» [77]

ويظهر من هذا المقطع أن الغزال لم يحمل معه مخطوطات الأسكوريال مع أنه كان يجب أن يولي هاته الأخيرة أهمية بالغة. وكان عدد المخطوطات المتبقية هو 300. يقول: «وذهبنا في هذه الجموع بعد أن قدمنا الثلاثمائة إلا عشرة من الأسارى المسرحين على يد سيدنا الكريمة رجالاً ونساء وجعلنا على رأس كل واحد من الأسارى كتابا من كتب الإسلام التي أنقذها الله من بلاد الكفار». [78]

---

75. كتب الغساني عند عودته إلى المغرب رحلة أسماها: رحلة الوزير في افتكاك الأسير. وكان للملك مولاي إسماعيل الفضل في كونه أول من ألف رحلة عن سفره إلى إسبانيا.

76. بعودته إلى المغرب كتب الغزال حكاية سفره بعنوان: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد.

77. الغزال: الرحلة ص157 وينظر أيضا "پري" H. Pérès.

78. الغزال: الرحلة ص 229.

وفيما يخص السفارة الثانية فقد عهد بها محمد الثالث إلى عالم مكناس محمد ابن عثمان المكناسي المتوفى سنة 1213 هـ / 1799م [79]. فقد ذهب هذا الأخير إلى مكتبة الأسكوريال لمعاينة المخطوطات العربية. ولم يتمالك ابن عثمان نفسه إبان خروجه، فدعا العرب إلى الانتقام توخيا لإعادة تراثهم. وحينما لم يتلق جوابا عن طلبه تأسف كثيرا على معرفتهم [80]. وأكد ابن عثمان أن ملك إسبانيا شارل الثالث، أهداه عددا من المخطوطات مصحوبة باعتذاراته بخصوص مخطوطات الأسكوريال قائلا إن البابا قرر ألا يتم التصرف في هاته المخطوطات. حتى إن القرار البابوي قد كتب باللاتينية على مدخل مكتبة الإسكوريال [81].

وهذا ما حذا بالسفراء المغاربة بإسبانيا الذين جاءوا بعد الألى تحدثنا عنهم يرغبون عن المطالبة بالكتب. فالكردودي الذي عينه السلطان حسن الأول سفيرا لدى ملك إسبانيا في سنة 1885م لم يكلف نفسه حتى زيارة الأسكوريال. وهذا ما قاله بهذا الصدد : «... قيل إن عندهم فيه (الأسكوريال) من كتب المسلمين ألفي كتاب[82] كانت بقرطبة ونقلوها إليه، وطلبوا منا غير ما مرة أن نتوجه لهذا المحل لرؤياه ومعاينة ما فيه من كتب المسلمين فلم يقدر الله ذلك ...»[83].

تلك كانت محنة المكتبة المغربية. فإذا كان الكثير من الكتب التي عبثت بها الأيادي المدنسة قد غبرت ربما إلى الأبد، فإن كتبا أخرى عديدة انتهت إلى مكتبات أجنبية. إنّ بلدا مثل المغرب الذي كان في زمن معين، حسب المؤرخين، أحد أكبر مراكز المخطوطات في العالم الإسلامي قد رأى ثروته تنتهي إلى المنفى في أوربا [84] ومواطن أخرى. وكان ذلك ربحًا بالنسبة للمكتبات الأجنبية، ولكن كان بالنسبة للمغرب خسارة لا تعوض.

---

79. قام ابن عثمان بأربع رحلات رسمية بصفة سفير. وبعودته من أول رحلة من إسبانيا كتب رحلة مسماة: الإكسير في فكاك الأسير. ومما يجب الإشارة إليه أن "هنري بري" لم يذكر هاته الرحلة في مؤلفه الهام:
L'Espagne vue par les voyageurs musulmans

80. ابن عثمان: الرحلة ص 144 و 149.

81. نفسه: لقد اعتبرت ترجمة الفهرس الأول لمخطوطات الإسكوريال: Bibliotheca-arabico-Hispana Exurialensis 1760-1770 في عهد الملك العلوي مولاي سليمان من طرف الباحثين المغاربة كمحاولة لاسترجاع المخطوطات العربية المحفوظة في الأسكوريال.

82. بقيت من العشرة آلاف مؤلف مخطوط التي كانت تضمها خزانة الاسكوريال ألفان بعد الحريق الواقع في 1671. ويؤكد "برانليو جوستل كالبورو" محافظ خزانة الاسكوريال أن الخزانة كانت تضم قبل الحريق 4500 مخطوط.

83. الكردودي التحفة السنية ص 45.

84. نجد فهرست خزانة "بودلين" في انجلترا أربعة مخطوطات تاريخية بخط مغربي منحدرة من هدايا "ترسيس مارش" ومرقم بالشكل التالي Dcc LXIV و Dccc IX و Dccc XXVI و Dccc XXX ولم يكن آخرها إلا روض القرطاس.

الفصل الثاني : وقف الكتب في المغرب

لقد شكل الوقف في المغرب، شأن الأقطار الإسلامية الأخرى، المصدر الأساس لإغناء المكتبات العمومية عبر التاريخ. وسنعالج في هذا الفصل بداية وقف المخطوطات، ومواقف الفقهاء بإزاء ممارسته سواء في الشرق الإسلامي أو في المغرب. وسندرس بعد ذلك بُنيَة الوقفية في المخطوطات. ونوضح مختلف ضروب الوقف، والإجراءات الشرعية المتبعة في إنجازه، وطبيعة المؤلفات المحبسة، وأخيرا مختلف طرق تقييد الوقفية في المخطوطات . وسنشير في النهاية إلى إيجابيات وسلبيات وقف المخطوطات بالنسبة للمكتبات العمومية المغربية.

I- بداية وقف المخطوطات

1. وقف المخطوطات في الدول الإسلامية

1.1. اختلاف آراء الفقهاء بخصوص وقف الكتب.

قبل أن نعرض لموقف الفقهاء بخصوص وقف الكتب، من المفيد أن نقول كلمة عن الوقف أو التحبيس. إن كلمة "تحبيس" هي مرادفة للوقف من حيث الاشتقاق. وهي تعني الصيغ التالية: «بحبست ووقفت أو تصدقت إن قارنه قيد أوجهة لا تنقطع أو لمجهول وإن حصر» [1] . فالوقف إذن هو إجراء شرعي يتخلى عبره شخص عن عنصر أو مجموعة من العناصر من ثروته، ويعزله عن التجارة، مخصصا

1 . ينظر : سيدي خليل ص 394

إياه لمهمة ما، ولهدف خيري إحساني أو اجتماعي، ابتغاء مرضاة الله. فالتحبيس ممتد بجذوره إلى بداية الإسلام، لكن تبقى البداية غير واضحة المعالم مادام هذا الأمر لم يذكر في القرآن. ويتفق المفكرون المسلمون على القول إنه ينحدر من حديث رواه البخاري. فقد أجاب صلى الله عليه وسلم ابن الخطاب حينما سأله كيف يمكن أن يتصرف في أرض ابن الخيبر ليرضى الله بالجواب التالي: «أوقفها بشكل يمنع فيها البيع والعطاء والإرث وخصص عوائدها للفقراء» [2].

فماهو إذن موقف فقهاء مختلف المذاهب بإزاء وقف المخطوطات ؟ . لقد كان وقف المخطوطات ولعدم وجود أساس له في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، موضوع أخذ ورد بين فقهاء الإسلام. فكان يجب أن يمر قرنان من الزمان لكي يتم هناك اتفاق بهذا الشأن، ويتفق الجميع على العمل به. ولعل أوائل المخطوطات المفروض أنها وقفت حتى وإن كانت المصادر لم تعينها هي المصاحف التي أودعها الخليفة الراشدي عثمان بن عفان في المساجد الكبرى في العالم الإسلامي. وهكذا فممارسة تحبيس المصاحف منذ عثمان شرعت فيما بعد وقف المخطوطات حسب مبدأ العرف الذي قوامه حسب التهانوي، هو تحالف واتفاق الجمهور على استعمال شيء، واحترام هذا الاستعمال في الاتفاقات المرتبطة بالبيانات سواء المدنية أو الدينية[3]. ولم يكن كل الفقهاء متفقين على ما سبق ذكره. فبعضهم سمح بوقف المصاحف بدون أن يسمح لذلك بوقف الكتب الأخرى التي لم تكن تعتبر في نفس مكانة النص القرآني الذي تقرر فيه استعمال الوقف. وهو مثلا موقف الفقيه الحنفي محمد بن سلامة (المتوفى سنة 278 / 891)[4]. وذهب آخرون إلى أنه يجري على الكتب ما يجري على المصاحف، لأنها تدعو إلى الدين وتساعد على فهمه. وهو مثلا

---

2. "لشيوني" Luccioni : "التحبيس في المغرب" Le Habous au Maroc

3. التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون. مقال العرف Calcuta، 1862 . ينظر أيضا يوسف العش "دور الكتب العربية" Les Bibliothèques arabes ص 69. ط 1967

4. يوسف العش " دور الكتب العربية" Les bibliothèques arabes ص 73 .

موقف الفقيه "نصير بن يحيى " (المتوفى سنة 268هـ /881م)[5] . والموقف الثالث هو لابن حنيفة رواه أحد أتباعه حسن بن زياد (المتوفى سنة 204هـ / 819م).

لقد أجاز مؤسس المذهب الحنفي وقف المصاحف، إلا أنه أجاز التراجع عن هذا الوقف إذا رغب الواقف في ذلك، ويمكن لورثته بعد موته أن يفعلوا نفس الشيء [6]. إن وقف المصاحف حسب أبي حنيفة هو جائز ولكنه محدود. فهو يتعلق بالرغبة الكلية للواقف، وبعده برغبة ورثته. فهذا التسامح الملحوظ عند أبي حنيفة مرتبط بالمرونة الذهنية التي اشتهر بها هذا المذهب. وفيما يخص المذاهب الأخرى، فالفقهاء الثلاثة الكبار مالك بن أنس (المتوفى سنة 179هـ / 795م) ، ومحمد بن إدريس الشافعي (المتوفى سنة 204هـ / 819م)، وأحمد بن حنبل (المتوفى سنة 241هـ / 855 م)، قبلوا ضمنيا وقف الكتب إلا أن العمل بذلك لم يتم في ذاك الزمان. فكان يجب أن ننتظر حتى القرن الثالث من الهجرة لكي يتفق الفقهاء على وقف المخطوطات ويشرعونه [7].

2.1. محتويات الكتب الموقوفة.

لقد أجيز وقف المصاحب بالعرف، كما رأينا ذلك سابقا. ولم يتم الإجماع عند الفقهاء فيما يخص الكتب الأخرى المرتبطة بمختلف الميادين المعرفية. فبعضهم قد تساهل بشأن وقف المؤلفات الدينية مثل كتب التفسير، والأحاديث النبوية التي نظر إليها بنفس النظرة إلى القرآن. إن تسامحية هؤلاء الفقهاء كانت مفيدة لتطور الأبحاث الدينية العربية في القرون الهجرية الأولى. ورفض فقهاء آخرون وقف الكتب المتعارضة مع القرآن مثل كتابي العهد القديم والجديد، أو الكتب المرتبطة بالعلوم غير المطابقة لكتاب الله [8]. لأن هاته

5. نفسه

6. نفسه

7. نشير بهذا الصدد إلى أطروحة "روب" M.Robe الذي يؤكدأن التحبيس ليس له شبيه في القوانين الأوربية، فهو ليس بوصية. ولا عطاء ولا توكيل بمعناه الصحيح.

8. لقد أزال الملك العلوي محمد بن عبد الرحمن من خزانات المساجد وخاصة خزانة القرويين المؤلفات العلمية المطابقة ربما لموقف الفقهاء الذين رفضوا وقف هذا النوع من المؤلفات.

المؤسسة تتعارض، حسبهم، مع المبدأ الذي وضع من أجله الوقف شرعا لا بالنسبة للواقفين ولا بالنسبة للمستفيدين من الوقف [9]. فقد اعتبر أحد فقهاء القرن الخامس الهجري الذي هو الماوردي أبو الحسن المتوفى سنة 450هـ 1058م علم الفلك، والفلسفة، والعلوم التي ظهرت له متعارضة مع القرآن [10] في عداد المحرمات. ويخبرنا صاحب «الوافي» أن محمد بن عبد الله بن أبي عمير المنصور وزير المؤيد بالله الأموي في إسبانيا المسلمة أحرق مؤلفات علوم الأوائل. ومع ذلك، فهو قد استثنى آثار الحساب والطب. إن هذين العلمين المفيدين في القضايا اليومية لن يمسا في شيء موضوع الإيمان [11].

وعلى الرغم من هاته القوانين الفقهية التي ذكرها بعض الفقهاء والمتعلقة بوقف كتب العلم ، نلاحظ، بعد النظر في فهارس مخطوطات خزانات الكتب العمومية العربية سواء في الشرق أو في الغرب الإسلامي، أن كثيرا من المؤلفات العلمية أو المتعلقة بديانات أخرى قد حبست كلية على هاته المكتبات التي جئنا على ذكرها [12].

فهل كان لفقهاء المغرب بخصوص مسألة وقف المخطوطات نفس الموقف بالنسبة لفقهاء الدول الإسلامية الأخرى؟

2. وقف المخطوطات في المغرب

1.2. موقف الفقهاء

إن الترخيص بوقف المخطوطات في المغرب لم يثر من الخلافات ما أثاره في الأقطار الإسلامية الأخرى. فقد كان اتفاق الفقهاء حاصلا حينما شرع المغاربة في تحبيس المجموعات على المكتبات العمومية

9. يوسف العش "دور الكتب العربية" Les bibliothèques arabes ص 297.

إن وقف "العهد" Testament حسب الفقهاء له غاية مناقضة. فهو يؤدي بالإنسان إلى الزندقة، لا سيما وأن الكتاب المقدس تعرض للتحريف.

10. يوسف العش"دور الكتب العربية" Les bibliothèques arabes ص 298.

11. الصفدي (الخليل). الوافي بالوفيات ج 4. 160 مخطوط استانبول (خزانة أحمد الثالث) رقم 2930. ينظر أيضا يوسف العش "دور الكتب العربية" ص 298. فعلوم الأوائل هي الطب وعلم الفلك والفلسفة والفيزياء.

12. تضم خزانة القرويين ترجمة بالعربية لأناجيل "سانت ليك" Saint-luc ينظر "لشيوني"Bull econ. et soc du Maroc Luccioni ص 237، هامش 4.

التي لم تظهر إلا مؤخرا في المغرب. إن مبدأ "العرف"[13] الذي ارتكز عليه المشارقة لتشريع وقف المخطوطات لم يكن موضوعا للنقاش بين الفقهاء المغاربة. فالمسألة لم تكن قد طرحت بعد. فقد انحصر الفقهاء فقط في دراسة حالات خاصة، وفي إعطائها حلولا، وفي استخراج قواعد فقهية منها كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وسنذكر بهذا الخصوص بعض الأمثلة التي أخبرنا بها عبد الواحد الونشريسي (المتوفى سنة 914هـ)في كتابه المعيار المعرب [14]، فقد سئل الفقيه أبو محمد عبد الله سيدي محمد بن قاسم القوري رحمه الله عن المصاحف المحبسة على ضريح ملوك بني مرين في شالة [15]، والتي وجدت عند أحمد اللحياني الذي أخذها من الضريح المذكور. فأعلن المفتي أو الفقيه موقفه عن إمكانية استعادة مصاحفه وتحبيسها على مختلف مساجد المملكة. واقترح الفقيه القوري إما أن توقف كل المصاحف على مسجد أو عدة مساجد في الدولة، وإما أن تحبس بعضها وتباع الأخرى لتستعمل مثلا في ترميم أحد المساجد. فالمفتي قد ترك الباب مفتوحا لاستعمال هاته المصاحف لفائدة الجماعة الإسلامية[16]. وكان يجب على نفس الفقيه أن يحسم في إمكانية إعارة الكتب والمصاحف المحبسة على مسجد محدد. فأجاب بأنه يجوز للطلبة فيما يخص الكتب أن يأخذوها معهم توخيا للاستفادة منها، ولهذه الغاية وقفت في المساجد حيث كانت تعطى الدروس. أما فيما يخص المصاحف فيجب أن تحترم بنود وقفية الواقف. فإذا كانت الوقفية لا تجيز إخراج المصاحف، فهاته الأخيرة لا يجب أن تفارق مكان التحبيس، ولاسيما المصاحف المحبسة ، فهي موجهة للقراء الراغبين في تلاوة القرآن في المساجد [17].

فلقد حبست الكثير من المصنفات على المسجد الكبير في غرناطة، ويوضح الواقف أن بعض الكتب لا يجب أن تتم المطالعة فيها إلا في هاته المساجد بينما يمكن أن تستعار الأخرى، ولكن برهن. فلقد

---

13. اعتبر الحنفيون "العرف" مصدراً شرعيا طالما أنه ليس هناك ما يعارضه.
14. إن هذا المتن الحقيقي لنوازل فقهاء إفريقيا الشمالية وإسبانيا المسلمة يقدم كمّا من الوثائق القيمة سواء من وجهة النظر الشرعية أو من وجهة النظر الاجتماعية.
15. شالة، مدينة رومانية بجانب الرباط
16. الونشريسي : المعيار المعرب ج 7 ص 18- 19 - 20 - 21 .
17. الونشريسي : المعيار ج 7 ص 37.

امتنع مفتي غرناطة [18] من أن يحسم في إمكانية إخراج الكتب التي حظرت الوقفية إخراجها ، وأجاب بضرورة تنفيذ صيغة الوقف بالحرف. فيجب أن يستفيد القراء من المخطوطات المحبسة مع احترام رغبة الواقف [19].

وقد استفسر المفتي المغربي أحمد القباب عن نوازل متشابهة تقريبا مع هاته التي وقفنا بها . فإذا كان نص وقفية مؤلف معين يشير إلى أن المخطوط المحبس لم يوضع إلا للقراءة والمطالعة، فهل يمكن انتساخه؟ وأجاب بأنه إذا لم تذكر في الوقفية كلمة نساخة، فهذا المؤلف لا يجب أن ينتسخ. فيجب أن تحترم شروط الوقف على آخرها . وأضاف المفتي أن هاته الفتوى مشابهة لتلك التي أعطاها القاضي ابن رشد الجد في إجابته عن سؤال من هذا القبيل [20].

وسنستشهد في النهاية بفتوى فقيه بخصوص تحبيس يتوضح من شرطه أن الكتب المحبسة لا يجب أن تقرأ إلا الواحد تلو الآخر، وأن القارئ لا يجب أن يراجع كتابين دفعة واحدة. وأجاب أنه إذا كان الطالب مستقيما وجديرا بالثقة فيمكن أن يحصل على مؤلفين يراجعهما في نفس الآن. لأننا يجب أن نأخذ بالاعتبار نية الواقف، وليس كلامه. فالمفتي بهاته الفتوى قد جارى مبدأ "العرف" المتبع في إعارة الكتب المحبسة على المدارس في المغرب. وعلى الرغم من حظر إخراج الكتب الموقوفة، فهاته الأخيرة كان يمكن أن تعار بموافقة المدرسين وفي حضورهم [21]. وليس هناك من ضمن كل الفتاوى الفقهية[22] المذكورة أي واحدة تطابق قانون الوقف في ذاته. فقد أفتى الفقهاء دون أن يعارضوا هذا القانون الذي اعتبر شرعيا بعد أن أثار لمدة طويلة صراعات حامية بين الفقهاء المسلمين في المشرق. إن الوقف كان منذ البداية قاعدة فقهية مقبولة من طرف الفقهاء في المغرب.

---

18 . الفقيه أبو القاسم بن السراج.

19 . المرجع السابق ص 227 - 228 .

20 . المرجع السابق ص 293 (ومما تجب الإشارة إليه أن الطلبة في نظر بعض الفقهاء لا يجب أن يتعاطوا نساخة المخطوطات لأنها تعوق تعلم العلوم. وربما هذا هو السبب الذي جعل العديد من الوقفيات لاتضم كلمة "نسخ").

21 . الونشريسي : المعيار ج 7 ص 340.

22 . إن هاته الفتاوى ترتبط بالمخطوطات التي سبق تحبيسها ولا ترتبط بالوقف كما يجب أن يكون.

ففي أي فترة بدأ المغاربة يوقفون مجموعات مخطوطاتهم؟ وماهي المؤسسات القابلة لأن يتم فيها هذا الوقف؟ تلك هي الأسئلة التي يليق بنا الآن الإجابة عنها.

2.2. تحبيس المخطوطات

إننا لا نعرف إلا الشيء القليل عن الكتب الأولى المحبسة في المغرب والأقطار الإسلامية الأخرى. فقد كانت مكتبة عالم سبتة الشاري [23] حسب الأنصاري (ت 825 هـ) هي أول مجموعة من المخطوطات المحبسة في المغرب. فهو يقول إنها أول خزانة كتب في المغرب محبسة على أهل العلم، نفعه الله بها في الآخرة [24]. ولم يصلنا شيء من هاته الخزانة التي تعود إلى عصر المرابطين يؤكد قول الأنصاري [25] وبالفعل فأقدم عينة من المخطوطات المحبسة التي وصلتنا تعود فقط إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر.

إلا أننا نجد أن ابن أبي زرع قد ذكر نصا متعلقا ببناء مستودع القرويين. وهذا النص يحملنا على الاعتقاد بأن هذا المستودع كان يضم مخطوطات محبسة على خزانة القرويين. وهذا ما قاله صاحب القرطاس بهذا الصدد: «كان المتولي لبنائه الفقيه أبو القاسم بن حميد حتى تمّ وجعل له مفاتيح ثلاثة في أول ذلك وثلاثة في الباب الثاني وجعل فيه صناديق كثيرة عليها أبلاج وثيقة، ولكنه اختيل عليه ودخل وأخذ جميع ما فيه من أموال الأحباس وربعات الجامع وكتب وأمانات الناس وذلك في أيام القاضي الفقيه أبي عمران، ولم يعلم من فعل ذلك...» [26]. فالشخصان المذكوران في النص كانا في خدمة دولة المرابطين. وقد تكون مخطوطات المستودع محبسة في تلك الفترة. فيحتمل إذن أن يكون وقف الكتب قد ظهر ابتداء من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. وعموما فبداية وقف الكتب تداخلت مع ظهور المكتبات

---

23. بخصوص ترجمة الشاري يجب أن نعود علاوة على المصادر التي قدمناها في الصفحة 51، إلى التكملة رقم 1922. والجذوة ص 486- 485 وبرنامج الرعيني 74 - 76 والإحاطة ج 7 ص 187 - 190 وإفاضة الناسخ 105 - 112 وغاية النهاية ج 1 ص 574.

24. الأنصاري: اختصار الأخبار ص 132 مجلة هسبريس، العدد 20 _ 21 سنة 1982م - 1989م.

25. وجدت بعض "الخروم" المنتمية إلى خزانة الشاري في القرويين ولكنها لا تضم الوقفية.

26. ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 5 ملزمة 6. ط.ح.

العمومية في المغرب. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا النوع من المكتبة ذات الطابع العمومي أسست في عهد الملوك الموحدين في القرن 6 هـ / 12 م. وأقدم العينات من المخطوطات المحبسة التي تتوفر عليها تعود إلى هاته الفترة. ويتعلق الأمر بنسختين من كتاب التوحيد [27] لابن عبد البر (المتوفى سنة 463هـ) ، وكتاب الأنجاد [28] لابن أصبغ [29] اللذين حبسهما العاهل الموحدي عمر المرتضى (المتوفى سنة 665هـ) على المدرسة التي أسسها في مراكش خليفته يعقوب ابن يوسف (المتوفى في سنة 594هـ).

فقد تمت الإشارة في الوقفية التي توجد في الأوراق الأولى من هاته المؤلفات إلى أن هاته المخطوطات حبسها أمير المؤمنين عمر المرتضى على مدرسة القصبة للقراءة أو النساخة أبد الدهر. وتوجد أجزاء من القرآن تعود إلى نفس الفترة، وتحمل صيغة التحبيس محبسة إلى يومنا هذا في مختلف المكتبات المغربية. ويتعلق الأمر بالمصحف الذي رسمه الخليفة الموحدي عمر المرتضى والمحبس على المسجد الكبير لابن يوسف في مراكش [30] . ويوجد التحبيس مقيدا في أول صفحة من الجزء الرابع من المصحف، ونقتبس من ذلك هذا القول: «حبّس رضي الله عنه هذا المصحف الموجود في عشرة أسفار، وهذا السفر الرابع وهو محفوظ في صندوق من خشب الأبنوس مزين بزخارف من النحاس المذهب. تحبيس الذي رسمه بيده عبد الله عمر المرتضى تقبله الله العلي منه وجزاه الله به خير جزاء على المسجد الكبير العتيد والجليل المسجد التليد للسقاية [31] الذي رسمه، وقد وضع هذا المصحف في متناول القراء أبد الدهر، دون حظر في المساجد أو إعارة. وهذا التحبيس دائم ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين [32]» . وقد ذكر الواقف في صيغة التحبيس كل أسفار هذا المصحف توخيا لأن تبقى دائما في

27 . النسختان محفوظتان في الخزانة الملكية في الرباط وفي خزانة ابن يوسف في مراكش تحت رقمي 927 و 658 .

28 . مخطوط محفوظ في خزانة آبن يوسف تحت رقم 216.

29 . يجب أن نعاين بخصوص ترجمة ابن الصباغ الذيل والتكملة ج 8 ص 345 ط 1984.

30 . لم يبق من هذا المصحف المكتوب في 10 أجزاء إلا أربعة أجزاء مع الاستقلال ويتعلق الأمر بالأجزاء 4 و 9 و 10 وجزء آخر غير مشار إليه . ورأينا الجزء السابع معروضا في خزانة المتحف البريطاني في لندن. ونشير إلى أن تقسيم القرآن إلى 10 أجزاء قليل الشيوع. فعادة ما يعد باثني عشر جزءا كل واحد منها في خمسة أحزاب.

31 . ملق الأمر بمسجد ابن يوسف في مراكش.

32 . "دوفردان" Deux Tagbis almohades. Deverdun، مجلة هسبريس ص 416 سنة 1954.

المسجد المذكور. وضمن الصيغة توجد الموافقة الأصلية للخليفة الواقف. «هذا صحيح، فقد أمرنا بإنجازه وكتبنا صيغته نحن بأنفسنا ابتغاء مرضاة الله العلي القدير» ويوجد تحبيس آخر من نفس النوع في الصفحة الأولى من الجزء الرابع من مصحف «ربعة» [33] من حجم كبير، لم يبق منه إلا هذا السفر حاليا في مكتبة مسجد ابن يوسف في مراكش. تلك كانت أقدم صيغ وقف المخطوطات التي نتوفر عليها اليوم في المغرب. وتعود إلى القرن السادس الهجري الثالث عشر الميلادي.

وقد تكاثرت خزانات الكتب العمومية مثل خزانات المساجد الكبرى، والجوامع، والمدارس، والزوايا تقريبا في كل مكان من المغرب في نهاية القرن 13 وبداية القرن 14. وكان الوقف تقريبا هو العنصر الشرعي الوحيد الذي كان وراء بنائها ودوام خدمة الكتب فيها. وكان الواقفون يعلنون في نهاية تشييد أحد هاته المؤسسات ذات الطابع العمومي، تحبيسها على طلبة العلم ابتغاء وجه الله العظيم. ومازالت أبواب العديد من هاته المكتبات العمومية تحتفظ بتقييد الوقف نذكر على سبيل المثال صيغة التحبيس المنقوشة على ساكف مدخل خزانة القرويين والتي كتبها السلطان المريني أبو عنان مؤسس هاته الخزانة «جعلها وقفا مؤبدا لجميع المسلمين. حضا منه أيده الله على طلب العلم وإظهاره وارتقائه واشتهاره، وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة» [34]. ولعل خزانة مدرسة الصفارين التي شيدها وحبسها الأمير المريني يوسف أبو يعقوب خير مثال على ذلك. فقد وقف هذا الأمير المصنفات التي تنازل عنها الملك "كاستلان دوسانت" على هاته المكتبة العمومية، وذلك أثناء السلم الذي انتهى إليه هذان العاهلان في سنة 1285 [35]. وتم تطبيق نفس أسلوب الوقف في مكتبات المدارس التي أسسها الخليفة المريني أبو الحسن. وهذا ماقاله صاحب المسند بهذا الخصوص : «وهذه المدارس مع ما حبس في جلها من

---

33. ربعة : تدل هاته الكلمة في الأصل على الصندوق الذي يضم أجزاء القرآن، ولكنها دلت فيما يلي على هاته الأخيرة، يراجع: "دوزي" Supplé- Dozy ment aux dictionnaires arabes, ج 1 ص 503.

34. فهرس القرويين ص 23.

35. ابن أبي زرع : القرطاس، ص 525 .

أعداق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة فلا جرم أن كَثُرَ بسبب ذلك طلبة العلم وتعدد أهله وثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته»[36]. إن كل الملوك تقريبا الذين توالوا على عرش المغرب، وخاصة العلويين، قد حبسوا المخطوطات والمجموعات وفي بعض الأحيان المكتبات برمتها على كل مسجد أو مدرسة بنيت في عهدهم. والأمثلة على ذلك عديدة. وسنرى فيما يلي أن هؤلاء الملوك (حبسوا المخطوطات والمصاحف على الأماكن المقدسة في الإسلام ابتغاء وجه الله العظيم واهتداء بسنة نبيه الأمين)، إن مكتبات الزوايا التي هي الضرب الثالث من الخزانات العمومية كانت دائما تفيد من تحبيس المخطوطات. فقد شكل التحبيس دائما أحد العناصر الهامة لإغناء هاته المؤسسات الدينية. وأشرنا في الفصل المخصص لهاته الخزانات إلى مبادرة شيوخ الزوايا والجمعيات الدينية لتزويد هاته المكتبات بالكتب. فقد أهدى هؤلاء الشيوخ المعروفون بعلمهم وتبحرهم كتبهم لهاته المكتبات، وغالبا ما كانوا يحبسونها عليها ابتغاء وجه الله العظيم. وتضم مكتبة زاوية تمكروت مثلا العديد من النماذج. إننا نستنتج من كل هاته المعطيات أن وقف المخطوطات قد ظهر بالفعل على عهد الموحدين، ووصل قمته في الفترات الموالية، وخاصة ابتداء من المرينيين.

ولكن ماذا عن وقف المخطوطات من حيث البنية والتنظيم؟

II– بنية وقف المخطوطات

1. مختلف ضروب الوقف

1.1. أصناف الواقفين

باستعراضنا لعدد كبير من الوقفيات الموجودة في الأوراق الأولى من المخطوطات المحبسة والمحفوظة إلى يومنا هذا في مختلف المكتبات المغربية، ظهر منها مختلف ضروب الوقف التي سنحددها في خمسة أنواع ألا وهي: الوقف الملكي، والوقف الخاص، والوقف الاسترعائي، والوقف المعقب، وأخيرا الوقف على أرواح الموتى.

36. ابن مرزوق المسند الصحيح ص 247 . فالمدارس التي أسسها هذا العاهل المريني عديدة ومتفرقة في مختلف المدن المغربية، فقد بنى هذا العاهل حسب الونشريسي مدارس في تونس مرفقة بخزانات حبس فيها عددا من المخطوطات. ينظر المعيار ج 7 ص 335. ونشير إلى أن هذا الملك هو الذي وقف المؤلف الشـ ـ لابن رشد (البيان والتحصيل) الذي أنجز كله على الرق (رق الغزال) على مدرسة عدوة الأندلس في سنة 728هـ.

1.1.1. الوقف الملكي

لقد رأينا بأن أقدم أوقاف المخطوطات التي وصلتنا هي الأوقاف الملكية. فالملوك المغاربة منذ الموحدين إلى العلويين المعاصرين لم يذخروا أي جهد من أجل تحبيس الكتب على المؤسسات العلمية توخيا لأن يفيد منها طلبة العلم فائدة كبيرة. فالتراث الذي حبسوه على المكتبات العمومية كبير، فقد حبس العاهل المريني أبا الحسن، حسب ابن مرزوق، مجموعات قيمة على مكتبات المدارس التي شيدها في مختلف المدن المغربية من مثل فاس، وتازة، ومكناس، وسلا، وطنجة، وسبتة، وأزمور، وآسفي، ومراكش، وأغمات، والقصر [37]. وفعل أبو عنان نفس الشيء. فقد حبست في كل المساجد والمدارس تقريبا التي بنيت في عهده مخطوطات قيمة. ورأينا أن هذا الملك قد زود خزانة القرويين بعدد من المخطوطات اختارها من مكتبته الشخصية. وبالفعل فالعديد من المخطوطات التي حبسها مسلمو الأندلس تحمل قيد التملك باسمهم. والأمثلة من ذلك عديدة[38]. فمن الملاحظ أن القرويين وبعد أن أعاد بناءها الخليفة السعدي أحمد المنصور في نهاية القرن 16 م، أوقف عليها مخطوطات من ضمنها مصحف مكتوب بماء الذهب [39] أنجز خصيصا لهذا الأمر. فكثيرة هي الكتب التي حبسها هذا الخليفة على القرويين وعلى خزانات كتب أخرى عمومية في المملكة.

وحبست الدولة العلوية الحالية مجموعة من الكتب على المكتبات العمومية؛ حبس الجزء الأكبر منها السلطان محمد بن عبد الله 1204 / 1790م. فقد وقف، هذا الملك مكتبة جده الملك المولى إسماعيل على مكتبات كل مساجد الدولة تقريبا هدفا في نشر العلم بين رعيته. وإلى حين الاستقلال لم يكن هناك تقريبا مسجد لا يحمل مصحفا أو مخطوطا متضمنا لصيغة التحبيس واسم السلطان محمد الثالث.

---

37. ابن مرزوق: المسند الصحيح، في مجلة هسبريس، ص 71، سنة 1925.

38. توجد في خزانة القرويين نسخة من خريدة الدهر للأصفهاني المحبسة من طرف الخليفة السعدي المنصور. وعلى الصحيفة الأولى من ج 6 يظهر قيد التملك باسم الذهبي. ونشير إلى أن المخطوطات التي حبسها قد تحمل قيد التملك باسم مالك آخر. وقد حبست نسخة من الشفاء لعياض المحفوظة في القرويين تحت رقم 254 على الخزانة الآنفة الذكر من طرف الملك العلوي عبد الله بن اسماعيل. ويوجد قيد التملك في أعلى الصحيفة الأولى باسم أبي عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن المزگيطي ينظر: فهرس القرويين ج 1 ص 264.

39. مازال هذا المصحف موجودا في القرويين.

فمازالت بقايا أوقاف هذا الملك محفوظة اليوم في خزانات الكتب العمومية والعامة في المملكة. وقد سجل محمد بن عبد الله في أحباسه التقييد التالي «أعلن عن تحبيس الكتب الاسماعيلية التي كانت توجد في الخزانة الصغيرة في مكناس والتي عددها اثنا عشر ألف مجلد. فهاته الكتب محبسة على كل خزانات المساجد في المغرب» [40]. ولم يكونوا هم وحدهم الذين كانوا يهتمون بخزانات الزوايا، بل كان الملوك المغاربة هم أيضا يصنعون نفس الأمر. فخزانة زاوية تمگروت تضم مخطوطات حبسها الملك العلوي محمد بن عبد الله كانت في ملكه الخاص فيما يبدو [41].

ولم يكن الوقف الملكي حكرا على المكتبات العمومية داخل المغرب، فقد كان من عادة الملوك أن يحبسوا نفائس الكتب، وخاصة المصاحف على الأماكن المقدسة في الإسلام. ونذكر على سبيل المثال المصحف الذي رسمه الخليفة المريني أبو الحسن في ثلاث نسخ، وحبسه على ثلاثة أماكن مقدسة كبرى ونعني بها مكة والمدينة، والقدس. ونقل لنا الوردي (المتوفى في سنة 750هـ) في كتابه التاريخي [42] الوقفية الموجودة في الورقة الأولى من كل نسخة نقلا كاملا. وتضم هاته الأماكن المقدسة أيضا مجموعات قيمة حبسها عليها الخليفة السعدي المنصور الذهبي. ونذكر أخيرا الأحباس التي صنعها الملك العلوي مولاي عبد الله بن إسماعيل على هاته الأماكن المقدسة نفسها. وكان يوجد من ضمن المجموعة الوافرة التي بعث بها لتوقف على مسجد المدينة مصحف عقبة بن نافع صحابي الرسول (ص) وفاتح المغرب، وقد انتسخه عقبة بن نافع من مصحف الخليفة الراشدي عثمان بن عفان. ويحدث أخيرا أن يحبس الملك ما كان في أصله موقوفا على مكتبة معينة. وهذا ما يجعله يحمل وقفيتين في صفحة الوقاية. فقد لوحظت هاته الظاهرة بشكل خاص في المصنفات التي حبسها ملوك القرن 19م. لقد كانت غاية هؤلاء الأخيرين هي

40. بخصوص تقسيم مخطوطات الخزانة الإسماعيلية يجب أن نرجع إلى الزياني : البستان. مخطوط الخزانة الملكية رقم 242. الترجمانة الكبرى ص 12 طبعة 1967. الاستقصا للناصري ج 4 ص 159. الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 185 و "ألفردبل" برنامج القرويين ص 6 و 10 طبعة 1918م.

41. "لشيوني" Luccioni : les fondations Pieuses "Habous" au Maroc ص 57.

42. ابن الوردي : التاريخ، ج 2 ص 348.

إتاحة الفرصة لتوزيع المخطوطات بين العلماء، والاحتفاظ بنصيب منها لأنفسهم. وكانت المخطوطات التي كان يتوفر عليها الملوك تحبس من جديد على نفس المكتبات.

2.1.1.الوقف الخاص

بالرغم من أن التحبيس الخاص لم يكن دائما في مستوى الوقف الملكي، فلا تخلو خزانة كتب عامة من مخطوطات حبسها الخواص. فالوقفيات الموجودة في صفحات المخطوطات المحبسة تمثل كل الفئات المختلفة للوطن المغربي ابتداء من أصحاب الرتب العليا في الدولة إلى ذوي متربة. إن الوقف بالنسبة للمحسنين هو وسيلة جيدة لمرضاة الله، وتحقيق أمنياتهم[43]، ويمكن أن تكون المخطوطات المحبسة مصحفا[44] للقراءة أو مجموعة من الكتب، أو نصف خزانة أو ثلثيها، أو حتى خزانة كتب برمتها. وتضم الحوالات أو مجموعات العقود المتعلقة بتراث الأحباس العديد من الأمثلة من هذا النوع [45]. لقد كانت ممارسة الوقف الخاص عملة رائجة. وتشهد على ذلك الأمثلة القليلة التالية. أخبرنا صاحب "الجذوة" [46] أن الأمير المريني أبا محمد عبد الله الطريفي شيد مكتبة المسجد الكبير لسوق فاس، وزودها بوقف من نفائس الكتب، وبقيت بعض المخطوطات من هاته المجموعة إلى يومنا هذا [47]. لقد شيدت مسعودة الوزكيطية أم العاهل السعدي أحمد المنصور مسجد باب دكالة، وجهزته بوقف مكون من مجموعة هامة من الكتب التي يوجد جزء وافر منها اليوم في القرويين، وفي مكتبة ابن يوسف في مراكش. ونذكر أيضا تحبيس كتب لَلاَّ فاطمة الزهراء بنت الملك الحسن الأول على خزانة القرويين [48]. ومن ضمن المخطوطات المحبسة من هاته المجموعة التي كانت تضم 273 مجلد [49] يوجد كتاب "اختصار النهاية والتمام في معرفة

43. تحمل وقفية بعض المصاحف التمنيات بارتزاق الأطفال صادرة عن زوجين أعمقين.

44. تبقى النماذج من المصاحف المحبسة لأجل القراءة أيضا متوفرة في المغرب.

45. تضم "الحوالة" المارستانية المحفوظة في الخزانة العامة في الرباط في الميكروفيلم رقم 160 نماذج في ثلثي الخزانات المحبسة على مسجد أو مدرسة أو حتى مارستان.

46. ابن القاضي : الجذوة : ص 289.

47. من ضمن هاته المؤلفات : المنتقى للباجي (المتوفى سنة 494) وكتاب الجامع في السنن لابن أبي زيد القيرواني محفوظ في القرويين تحت رقم 172 و 645. فقد حبس الطريفي هذا الأخير على خزانة المسجد الذي بناه في فاس : ينظر فهرس القرويين ج 2 ص 225.

48. الفاسي : الخزانة العلمية، ص 28. ينظر أيضا، الدرر الفاخرة ص 268 - 269، ينظر أيضا : جامع القرويين ص 669.

49. الفاسي : فهرست القرويين، ج 2، ص 508.

الوثائق والأحكام" [50] لابن هارون الكناني (المتوفى سنة 750هـ) [51] و"شرح الحكم" [52] لابن عطاء الله، الذي قام به ابن عباد الرندي [53].

وعلاوة على تحبيس الأمراء و الأميرات، فالعلماء [54] والتجار والموظفون [55] لم يفتهم أن يحبسوا كتبهم على مختلف المكتبات العمومية. ولعل ما تبقى من المؤلفات المحبسة هو دليل على ذلك.

3.1.1. الوقف الاسترعائي [56]

ندخل في إطار الوقف الاسترعائي كل مؤلف اعتبر محبسا على مكتبة معينة دون أن يكون مرفقا لهذا السبب بوقفية تؤكد هذا الأمر، وربما يعتبر في إطار الوقف الاسترعائي أيضا كل مخطوط أو كل مجموعة من الكتب تم اقتناؤها بواسطة أموال منحدرة من ثروة موقفة على مكتبة معينة.

وتتم كتابة هذا الضرب من الوقف عموما أمام عدلين أو موثقين يوقعان فيشرعان بهذا العمل الوقف. وتكون وقفية هذا النوع من الوقف بشكل عام موجزة. ونذكر على سبيل المثال وقفية مصنف الملك محمد بن عبد الله الموقفة بالوقف الاسترعائي « الحمد لله هذا السفر المبارك مما حبسه مولانا الإمام سيدي محمد ابن مولانا عبد الله أمير المؤمنين الحسني العلوي على طلبة العلم بحضرة فاس لينتفع به هنالك وقيده من علمه في انسلاخ جمادى الثانية عام خمسة وسبعين ومائة وألف»[57]. ونذكر أيضا المصاحف المحبسة على

---

50. محفوظ في القرويين تحت رقم 838.

51. الكناني هو أحد شراح المختصر لابن الحاجب المتوفى سنة 647 هـ

52. محفوظ في خزانة القرويين تحت رقم 839

53. إن المجموعات التي حبستها هاته الأميرات هي دليل على إسهام المرأة المغربية في وقف الكتب. وقد وقفت نساء أخريات مثل عائشة بنت المدني الحمومي مجموعات قيمة. تنظر الخزانة العلمية ص 28.

54. حبس الجزء I من كتاب حسن نتائج الفكر للزرقاني الفقيه سيدي الصغير الطالبي على خزانة القرويين وحبس الجزئين 3 و4 الشرايبي. ينظر فهرست القرويين ج 1 ص 424 - 425.

55. حبس الجزء 7 من كتاب البيان والتحصيل لابن رشد على خزانة القرويين التاجر عبد الوهاب سكيرج في سنة 1162 هـ. واحتفظ فيها تحت رقم 329.

56. الفعل «استرعى» انحدر من الجذر الأصلي راعى وتعني نشدان الانتباه، الاعتناء بشيء معين، مراعاة شيء معين. ففي تحسين الخيرات الجامدة يسمى هذا الوقف «استثناء من السيادة» ينظر "ميلوت" : مدخل إلى دراسة القانون الإسلامي ص 633 طبعة 1953م.

57. توجد الوقفية في الصحيفة الأولى من كتاب الأجوبة لابن سحنون : ينظر الفاسي : الخزانة العلمية ص 64.

ضريح ملوك بني مرين في هاته المدينة الأثرية؛ شالة. فنحن نجد أن عددا من هاته المصاحف يفتقد إلى الوقفية. فقد باشر النظراء بمحضر العدول الوقف الاسترعائي بتحبيسها على هذا الضريح أو على مكتبة أخرى عمومية.

وفيما يخص الكتب التي تمّ اقتناؤها من ميزانية مكتبة معينة فقد طبق عليها النظراء الوقف الاسترعائي، ونذكر على سبيل المثال التحبيس الاسترعائي الذي حصل بخصوص كتاب "البيان والتحصيل" [58] لابن رشد (المتوفى سنة 520هـ) على المكتبة الأحمدية في فاس، ويحمل وجه الورقة الأولى الوقفية التالية «تشهد عبارة التحبيس هاته أن هذا المؤلف قد وقف في الخزانة الأحمدية [59] حرسها الله على الطلبة، وتم اقتناؤه بالمال المحبس للناظر الفقيه سيدي العربي بن عزيز الأندلسي». لقد كان الوقف الاسترعائي، شأنه في ذلك شأن الضربين السابقين وافرا في المغرب، فعدد المخطوطات المحبسة في إطار هذا النمط من الوقف كبير في المكتبات المغربية العمومية.

4.1.1. الوقف المعقب

نجد في عقد التحبيس أن عبارة الوقف المعقب مختلفة عن الوقف الشرعي أو العمومي. فإذا كان تعليق الثروات يتم بشكل لحظي ومباشر وبدون أي شرط، فالأمر يتعلق بالتحبيس العمومي، وإذا كان الشخص الواقف يحتفظ بمنفعة الثروات الموقفة على أشخاص معنيين، فالأمر يتعلق بالتحبيس المعقب أو تحبيس العائلة. وبعبارة أخرى فالعقد التحبيسي على مؤسسة دينية أو على مؤسسة خيرية بشكل مباشر وبدون وسائط يسمى "تحبيسا"، والتحبيس الذي يفيد من مجموعة من الوسائط قبل أن يصل إلى المؤسسة الدينية التي هي آخر وسيط يسمى معقبا [60]. إن التعقيب يمارس في ميدان تحبيس الكتب مثله في ذلك مثل وقف العقارات. وتضم المكتبة الصبيحية في سلا حاشية الأمير علي بن عبد الباقي على شرح

---

58. مؤلف من ستة أجزاء كبرى موجود في خزانة القرويين تحت رقم 372.

59. الخزانة الأحمدية من إسم أحمد بن سودة هي خزانة عائلة بن سودة. وسميت أيضا الخزانة السودية. وتوجد اليوم في درب الگاص في فاس.

60. "لشيوني" les fondations pieuses. Luccioni. ص 14، ينظر أيضا «ميشو بلير» Michaux - Bellaire "الثروات المحبسة وثروات المخزن" Les Biens Habous et les biens du Makhzen في مجلة العالم الإسلامي ع 5 :1908 م.

الزرقاني لمختصر خليل الذي توجد في سفره الأول الوقفية التالية : «أوقف وحبّس في سبيل الله تعالى على طلبة العلم بالجامع الأزهر العالم العلامة الحبر الفهامة الشيخ علي مصطفى الدردير المالكي أحسن الله إليه وغفر له وقفا صحيحا شرعيا مستوفيا للشروط وجعل مقره تحت يد ولده الشيخ محمود ثم إلى أخيه السيد حسين ثم بعدهم إلى ذريتهم وذرية ذريتهم جيلا بعد جيل الأرشد فالأرشد ويقدم من يصلح على من لايصلح ثم بعد انقراضهم يكون مقره برواق السادة الصعايدة بالجامع الأزهرنسأل الله تعالى أن يقبلنا بجاه نبيه الكريم وأن يغفر لنا إنه هو الغفور الرحيم. فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم في 4 ذي القعدة سنة 1128هـ. . .» (61). وفيما يخص تنفيذ هذا الوقف في المغرب. فيكفينا الإشارة إلى الأمثلة الثلاثة التالية : حبس العلامة والكتبي المحنك الملك العلوي مولاي سليمان كثيرا من نفائس الكتب على مكتبات عمومية متنوعة (62). وبعد موت معلمه العالم والعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي (سنة 1214 م) اشترى من كريم ماله خزانة كتبه العامرة والمحتوية على كل علق نفيس، وأوقفها على أبناء الشيخ الفاسي بشرط أن ينتفعوا وحدهم في حصر عقبهم. وأصبحت مجموعة المخطوطات محبسة على خزانة القروين (63).

وتوجد صيغة التحبيس التي أثبتها وأكدها المولى سليمان في الورقة الأولى من كتاب "تفسير الجلالين" (64). وهو كتاب في التفسير ألفه جلال الدين السيوطي وجلال الدين أبي محلي في القرن الخامس عشر الميلادي.

---

61. الخزانة الصبحية : مخطوط محفوظ تحت رقم 76.

62. شيد المولى سليمان خزانة مسجد الرصيف في فاس وزودها بنفائس الكتب. وتوجد هاته الكتب محفوظة اليوم في القرويين، وما زالت تضم صيغة تحبيس هذا الملك.

63. نشير إلى أن الوقف المعقب يشابه في النهاية الوقف الاسترعائي الذي وقفنا عليه سابقا. فالقاضي أو الناظر يعلن في حصر أخلاف الشيخ الفاسي وفي محضر العدول، هاته المجموعة محبسة على خزانة القرويين.

64. تم إيداع هذا المخطوط الذي أنجزه عبد السلام الفاسي والذي يحمل وقفية تعود إلى 1214 هـ في خزانة القرويين تحت رقم 17 / 40. ينظر الخزانة العلمية 57.

ومثالنا الثاني هو حاشية على مختصر الإمام المالكي الشيخ خليل (المتوفى سنة 767هـ) قام بها جسوس أبو عبد الله محمد بن قاسم المتوفى سنة 1182هـ. فقد حبس الكتاب الموجود في أصله في تسعة أجزاء المؤلف بنفسه على أبنائه. وهاته هي صيغة التحبيس الموجودة في الجزء 3 من مؤلفه «إن هذا المجلد المكتوب على أول ورقة منه وهو الثالث من شرح مختصر خليل للفقيه العالم العلامة سيدي محمد بن سيدي قاسم جسوس حبسه على أولاد أولاده وأولاد أولادهم ما تناسلوا وامتدت فروعهم فإن انقرضوا رجع إلى خزانة القرويين عمره الله بالذكر فيه حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا لمن فيه قابلية العلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين» [65]. وسجل الواقف بنفسه هاته الوقفية في نهاية شهر رجب سنة 1182هـ [66].

ويتعلق مثالنا الثالث والأخير بالجزء الثامن من كتاب "حلية الأولياء" [67] لأبي نعيم (المتوفى في 430هـ)، المبتدئ من الجزء الثاني من سيرة ابن محيرز، والمنتهي بسيرة كعب الأحبار. وتوجد صيغة التحبيس التالية: «حبس هذا السفر على الكرسي الذي قرب محراب جامع الأندلس وأن النظر في ذلك لخطيب جامع الأندلس وهو الفقيه البليغ الإمام أبو زكرياء يحيى النفزي، فإذا عاقه عائق يكون النظر فيه لخطيب الجامع المذكور كائنا من كان وفي أواخر الحجة سنة ... وتسعمائة» [68].

5.1.1. الوقف على أرواح الموتى

يندرج وقف الكتب ضمن أعمال الخير والإحسان في الدين الإسلامي. فهو يبشر بالأجر في الآخرة. وبهذا الأمر فهو أيضا قابل لأن يتم بإسم الآخر ومن أجل سعادته الأخروية. فقد أوقف أميرالمؤمنين الموحدي عمر المرتضى "ربعة" قرآنية مهداة إلى روح إحدى نسائه أم ابنه الأمير إسحاق. وهذا نص الوقف كما هو في الورقة الأولى:

---

65. ذكر قرآني، سورة 21. الآية 89.
66. تم إيداع هذا المخطوط في القرويين تحت رقم 457.
67. تضم الحلية 800 ترجمة من تراجم الأولياء.
68. تاريخ تقييد الوقف غير مقروء. فالمخطوط مودع تحت رقم 194. ينظر فهرس القرويين ج 1 ص 205 – 209.

أ. البسملة والتصلية ب : حبّس هذا المصحف المبارك الشريف سيدنا ومعلمنا الخليفة الإمام أبو حفص عمر المرتضى أمير المؤمنين ابن سيدنا ومعلمنا الأمير الظاهري إبراهيم ابن سيدنا ومعلمنا الإمام.. أعانه الله وآزره ووفقه إلى فضل الوصول إلى هدفه الشريف... ! تحبيساً دائما صورته في السفر الأول: «حبس الخليفة هذا المصحف الشريف على روح أم ابننا إسحاق رحمها الله العلي (الأم) وهداه (الابن) إلى الصراط القويم طالما بقي قبر (الأم) على العتبة الثمينة لرحمته.. وحبس هذا المصحف على من أراد تلاوته. وذلك بحضور واعظين.. أناطنا الله العلي بنعمه التي وعد بها المتقين.. والله العظيم عند حسن ظن عبده به. كتبت هاته الكلمات اليد التاربة لعبد الله العلي، أمير المؤمنين !» يعود العقد إلى صفر 650هـ / 1252م [69] .

تلك كانت مختلف ضروب الوقف [70] التي عايناها . ويجب الآن أن نحدد محتويات المؤلفات المحبسة، ونوضح الأسباب التي كانت وراء وقف المخطوطات.

2.1. محتويات الكتب المحبسة.

سبق أن قلنا إن الكتاب المثالي في نظر المسلمين في المغرب كما هو الأمر في كل الأقطار المسلمة، والمفروض أن يشكل عندهم نواة كل مكتبة هو بالتأكيد القرآن. فقد كان القرآن هو أول كتاب يحبس على المساجد دون أن يحدد الواقفون المسلمون الأوائل طبيعة هذا التحبيس. وعليه ، فقد فتح القرآن الباب لتحبيس الكتب على مختلف المؤسسات العلمية الإسلامية. وهذا ما جعل المصحف الشريف يكون دائما على رأس المجموعات الموقوفة. ويبدو أن المغاربة لم يخالفوا القاعدة المتبعة من طرف أسلافهم المشارقة. فقد كانت كل مجموعات المخطوطات التي يحبسها الملوك المغاربة تقريبا تضم أولا نسخا من القرآن كانت ترسم في أغلب الأحيان بعيون الخط العربي. وسبق أن أشرنا إلى أن الملك العلوي مولاي عبد الله بن إسماعيل

69 . "دوفردان" Deux tahbis almohades : Deverdun (G). في مجلة هسبريس ص 412 - 413 ، سنة 1954.

70 . ويوجد ضرب آخر من وقف المخطوطات، يسمى : وقف وصية في المغرب، ولكنه نادر. ويرتكز على أن الواقف يحبس خزانة على مسجد أو مدرسة شرط أن التحبيس لا يدخل في التنفيذ إلا بعد موته. وهو في النهاية ضرب من الهدايا أوالهبات المعمول بها في أوربا.

حبس مجموعة من المخطوطات، على رأسها مصحف عقبة بن نافع صحابي رسول الإسلام (ص) [71]، على مسجد الرسول في المدينة. وأشرنا أيضا إلى أن العاهل المريني أبا الحسن حبس ثلاثة مصاحف على ثلاثة أماكن مقدسة في الإسلام ونعني بها مكة، والمدينة المنورة، والقدس. فقد عاين الموسوعي المغربي أحمد المقري مصحف القدس، ووصفه في القرن 11 هـ / 17 م [72]. وأرسل عاهل مريني آخر أبو يعقوب يوسف مصحفا مرصعا بالأحجار الكريمة إلى المدينة في سنة 703 من الهجرة توخيا لتحبيسه هناك. فقد كانت من عادة المغاربة أن يوقفوا نسخا من القرآن على كل خزانة كتب جديدة عمومية إبان افتتاحها. ومثال ذلك [74] التحبيسات التي صنعها العاهل المريني أبو عنان، والعاهل السعدي أحمد المنصور [73] غداة بناء وإعادة بناء مكتبة القرويين في القرن 14م والقرن 16م.

وتأتي بعد المصاحف كتب التفسير، وأحاديث الرسول والفقه. وهذا ما يظهر من أغلب لوائح المؤلفات المحبسة وصيغ الوقف التي تمكنا من الوقوف عليها في مختلف المكتبات العمومية والخاصة في المملكة. ونذكر على سبيل المثال بعض اللوائح التي وقفها الملك محمد بن عبد الله في القرن 18 م على خزانة كتب المسجد الكبير في طنجة في وقت توزيع الخزانة الملكية الإسماعلية: قائمة المؤلفات التي أهداها إلى المسجد الكبير سيدي محمد بن عبد الله: ومن ضمن كتبها الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 911هـ، وسيرة ابن اسحاق، والشمائل للترمذي، والشفاء لعياض إلخ... القائمة 4 ومن ضمن محتوياتها إلى جانب نسخ من القرآن، "تفسير الجلالين" و"الشمائل" للترمذي إلخ...

---

71. الناصري: الاستقصا. ج 4 ينظر أيضا الكتاني المكتبات الإسلامية ص 20. مخطوط الخزانة العامة رقم ك /3002 وأرسل الملك مولاي عبد الله حسب الكتاني 23 مصحفا إلى مكة والمدينة.

72. المقري: نفح الطيب ج 4 ص 149 طبعة 1968

73. مازالت خزانة القرويين تحتفظ بنسخة من القرآن، كتبت أسماء الله فيها بماء الذهب، وأنجزت خصيصا لكي تحبس على الخزانة لحظة افتتاحها من طرف المنصور الذهبي في سنة 1011هـ.

74. دشن العاهلان الأماكن الجديدة من هاته الخزانة بإرفاقها بوقف مخطوطات مختارة من خزانتهم الملكية الخاصة. وكانت المصاحف المذهبة على رأس هاته المجموعات.

وتأتي في المرتبة الثالثة مؤلفات النحو، والأدب، وفقه اللغة، وكتب الشروح، والتعليقات، وتسمى كتب الحواشي [75]، والأمثلة على هذا النوع من الوقف عديدة. ولم تكن كتب العلوم النظرية تحبس إلا فيما ندر من الحالات بالمقارنة مع مؤلفات العلوم القرآنية والدينية. وهذا راجع، حسب رأينا، إلى سببين أساسين؛ الأول هو ندرة مؤلفات العلوم النظرية في المغرب. فهاته العلوم، كما نعلم، لم تكن تلقن بما فيه الكفاية كما كان عليه الأمر بخصوص العلوم الدينية. وهو ماأشعرنا به المقري في كتابه: "أزهار الرياض" [76]. والسبب الثاني هو أن تحبيس المؤلفات العلمية لا يمكن في نظر الجمهور المسلم من الوصول إلى الفضل، والعفو، المنشودين من طرف الواقفين [77]. وفي هاته الحالة، فمؤلفات الأخرويات هي وحدها القابلة في نظر الجماعة الإسلامية لأن توقف. فقد تنافس الملوك، والأمراء، والعلماء، والأغنياء، والفقراء، من أجل ضمان سعادتهم الأخروية في وقف الكتب، وخاصة الكتب الدينية.

2. بنية وقف المخطوطات

1.1.2. المبادئ

يرتكز إنجاز تحبيس المخطوطات على مبدأين أساسين، ونعني بهما احترام رغبة الواقف، وتنفيذ بنود صيغة الوقفية حرفيا. فلا يمكن أن يحدث تغيير في رغبة الواقف لأن أحكامه لها نفس مكانة النص القانوني حسب بعض الفقهاء. فأغلب صيغ التحبيس التي استعرضناها تضم الجملة التالية: «هذا المخطوط محبس على هاته المؤسسة أوتلك، ومن يغيره فقد عادى الله «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» [78].

وفيما يخص بنود التحبيس، فيجب أن تنجز حرفيا مطابقة لرغبة الواقف. فإذا استثنى هذا الأخير ما حبسه من المخطوطات من الإعارة، فلا يجب أن تخرج هاته الكتب من المكتبة. وفي بعض الأحيان يتيح

---

75. ليس هناك تقريبا أي كتاب للفقه أو للحديث لم تصنع له حاشية. وعددها يعد بآلاف في الخزانات المغربية.

76. المقري: أزهار الرياض، ج 3، ص 26.

77. لقد علمنا أن الملك محمد بن عبد الرحمن استدعى في القرن 19 كل العلماء واستخرج من خزانات المساجد كل المؤلفات التي لم تكن تعالج مواضيع دينية ينظر "رونو" un prétendu catalogue في مجلة هسبريس 1934 ج 18 ص 79.

78. سورة الشعراء آية 227

عقد التحبيس إعارة الكتب مقابل رهن وثيق كما هو الأمر في وقفية ابن خلدون المقيدة في السفر الثالث من تاريخ البرابرة المحفوظ في القرويين. فهل تم احترام هاته المبادئ دائما في المكتبات المغربية؟ إنه على الرغم من الموقف المتشدد للفقهاء بخصوص التطبيق الحرفي لرغبة الواقف، وبنود الوقف، يحدث في بعض الأحيان لهؤلاء الفقهاء أنفسهم أن يشرعوا قرارا مناقضا لقرار الواقف الأصلي. نذكر من ضمن العديد من الأمثلة مثال صيغة تحبيس تمنى فيها الواقف ألا تراجع الكتب المحبسة إلا الواحد تلو الآخر، وبأنه لا يسمح بإخراج كتابين في آن واحد. وقررالمفتي أنه حينما يظهر الواقف رغبته بعبارات قابلة للتأويل فيجب أن نبحث في نواياه ونتصرف كما يتصرف هو نفسه إذا رجع إلى الحياة. وبعد أن أُخِذَ في الاعتبار نوايا الوقف السابق أصدر الفقهاء فتوى تسمح بمراجعة مؤلفين دفعة واحدة من طرف الطلبة الجديين والجديرين بالثقة [79].

وتمت ملاحظة نفس الحالة بخصوص وقفية طلب فيها الواقف ألا يستخدم المؤلف المحبس إلا للقراءة والمراجعة.و سمح الفقهاء بانتساخ المؤلف المحبس متبعين في ذلك نوايا الواقف.

ويجب أن نشير، علاوة على هاته الحالات الخاصة التي درسها الفقهاء، إلى أن الخزانات المغربية تضم مخطوطات تحمل تحبيسين أنجزهما شخصان في فترتين مختلفتين. فالوقفية الثانية غير شرعية قانونيا، ومع ذلك فالفقهاء لم يتجنبوها بحجة أن رغبة وبنود الواقف الأول لم تحترم. ونذكر على سبيل المثال الجزء التاسع من كتاب مفاتيح الغيب [80] للرازي (المتوفى سنة 606هـ) : توجد على الورقة الأولى من هذا المؤلف صيغتين مختلفتين من التحبيس : وضع الأولى الفقيه والوزير أبو الحسن بن أحمد المريني على خزانة كتب جامع رندة في فاس سنة 741هـ. وأسفل الوثيقة المذكورة تحبيسه مرة ثانية على خزانة القرويين من قِبَلِ محمد بن فرج المراكشي في 24 صفر 906هـ [81]. ولم تؤخذ بالاعتبار إلا بنود الوقفية الأخيرة. فماهو الآن الإجراء القانوني المتبع في إنجاز وقف الكتب؟

79. الونشريسي : المعيار ج 7، ص 340.
80. موجود في القرويين تحت رقم 10.
81. فهرس القرويين ، ج 1 ص 48.

2.1.2. الإجراء القانوني

يجب على الواقف توخيا لأن يكون وقف مخطوط أو مجموعة من الكتب شرعيا، أن يتبع إجراء يبدو أنه لم يتغير منذ بداية وقف المخطوطات في المغرب. فبعد أن استعرضنا عددا كبيرا من الوقفيات، نلاحظ أن ثلاثة أشخاص هم المكلفون بالمجموعات المحبسة ونعني بهم الحاكم أو القاضي، والناظر أو المتصرف في الثروات المحبسة، وأخيرا القيم أو المكتبي. فالواقف أو ممثله يذهب إلى هؤلاء الأشخاص ليعهد إليهم بالمخطوط أو المخطوطات التي يرغب في توقيفها على هاته المؤسسة أو تلك. ولكي يكون الوقف شرعيا فإن هذا الأمر يتم في محضر عدلين أو موثقين. ويشهد على هذا الحادث في بعض الأحيان شاهد أو العديد من الشهود المحترمين، ويتم اختيار هؤلاء الشهود في أغلب الأوقات من ضمن أعيان المدينة. ولايكون لصيغة التحبيس الموجودة على مخطوط معين في غياب هؤلاد الشهود أي جدوى [82]. فالتحبيس يعود إذن إلى القاضي، أو الناظر أو القيم. وهاته شواهد من صيغ الوقف موضحة للحالات الثلاثة : توجد في خزانة القرويين نسخة من كتاب الجامع الكبير للسيوطي في أربعة مجلدات. وعلى ظهر الجزء الرابع منها الوقفية التالية «بسطوا رضي الله عنهم يد قاضي فاس في حينه على حوزه فحازه معاينه ليورد بخزانتهم أيدهم الله الجديدة المذكورة» [83].

فالخلفاء بوجه خاص هم الذين يعهدون بتحبيساتهم إلى القاضي، لأنه يحدث لهذا الأخير أن يكلفه الملك بالإشراف على عمل محافظ الخزانة ومراقبته. وهكذا فقد عين السلطان العلوي مولاي عبد الرحمن بن هشام القاضي عبد الهادي بن عبد الله بن التهامي العلوي ليساعد قيم القرويين في مهمته [84]. وفي هذا الإطار أيضا أرسل السلطان العلوي الحسن الأول ظهيرين إلى قاضيي فاس محمد العلوي المدغري وحامد بناني،

---

82. يحدث أن تحمل الوقفية، توقيع العدول وشهادة الشهود المحترمين وفي بعض الأحيان تحمل عنصرا دون آخر، والأمثلة من ذلك عديدة.

83. الفاسي : الخزانة العلمية ص 49 ينظر أيضا : فهرس القرويين، ج 1 ص 26.

84. الفاسي : الخزانة العلمية، ص 71.

ودعاهما إلى أن يسهما في إعادة تنظيم مكتبة القرويين بتعاون مع القيم والناظر[85]. فحينما كان يعجز الملوك عن القيام بالإجراءات المنشودة لوقف المخطوطات بسبب مسئولياتهم، فهم كانوا ينيبون عنهم أحد ممثليهم. ويكون النائب في أغلب الأحيان هو القاضي. وكانت تودع الكتب المحبسة لحظة الوقف، بحضور القاضي والشهود. إن حضور الشهود يعطي مصداقية للوقف الذي يعتبر كاملا في غياب الواقف. فهؤلاء الشهود يدلون بشهادتهم "إشهاد". ويحدث أن ينيب الملك القاضي والناظر للقيام بالإجراءات المنشودة لوقف المخطوطات. وتضم إحدى لوائح المؤلفات التي حبسها السلطان محمد بن عبد الله على المسجد الكبير في طنجة المقطع التالي: «لقد أرسل الكتب المذكورة آنفا السلطان. ووضع لائحتها القاضي أيت التايدي والناظر مفرج لتنفيذ أمر سلطاني» [86]. ويمكن أن يكون نائب الملك أديبا أوفقيها في خدمة البلاط. فالجزء الأول من شرح الحطاب على مختصر الخليل يحمل الوقفية التالية «حبس الملك محمد بن عبد الله العلوي شرح الحطاب في ثمانية أجزاء على خزانة كتب ضريح أبي العباس السبتي تحبيساً دائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وبالتبادل مع كتاب الأغاني في ثمانية أجزاء الذي أخذه الملك من المكتبة المذكورة. وكلف السلطان الفقيه والعلامة سيدي عبد العزيز بن حمزة لإرجاعه بمحضر الشهود إلى قيم الخزانة في شهر ذي القعدة من سنة 1280هـ» [87]. وحبس الملك مولاي سليمان كتاب نسيم الرياض على مسجد الرصيف في فاس وأناب عنه العلامة سيدي الحبيب بن عبد الهادي السجلماسي [88]. ولم يكن الملوك هم وحدهم الذين يناب عنهم في تحبيس المخطوطات، فالشخصيات البارزة كانت تنيب عنها هي بدورها ممثليها للقيام بهذا العمل. ويحمل الجزء الثالث من كتاب المنتقى المحفوظ في القرويين وقفية على خزانة مسجد الرياض في فاس [89]. وقد كتب الوقفية الآنفة الذكر نائب أرسله الوزير المريني عبد الله الطريفي.

---

85. المرجع نفسه ص 72 - 73.

86. "ميلار" Maillard : Bibliothèque de la grande mosquée de Tanger في مجلة العالم الإسلامي ج: 2 ص 355 سنة 19 - 1918.

87. الخزانة الصبيحية. مخطوط رقم 23.

88. الفاسي. الخزانة العلمية. ص 65.

89. فهرس القرويين ج 1 ص 176.

وكان يمكن أن تعهد المؤلفات المحبسة أيضا إلى ناظر المدينة، أو مدير المسجد الذي يضم المكتبة المعنية بالوقف. وقد عهد السلطان العلوي مولاي سليمان بكتاب نسيم الرياض الذي وقفه على خزانة كتب مسجد الرصيف لناظرين مكلفين بإدارة المسجد، ويتعلق الأمر بالفقيه سيدي محمد بن المرحوم محمد بن عبد الرحمن الدلائي، والفقيه سيدي الطيب بن الخياط برادة [90]. وحبس نفس العاهل كتاب التاج والإكليل لمختصر خليل للعبدري المواق (المتوفى سنة 897هـ) على خزانة كتب مسجد الرصيف في فاس. وأعيد المؤلف المحبس إلى المسجد المذكور الحاج عبد النبي بن الحاج الواحد في 21 رمضان من سنة 1214هـ [91].

وفيما يتعلق بالمؤلفات المحبسة والتي عهد بها مباشرة إلى محافظي المكتبات فهي عديدة. وسنكتفي هنا بذكر كتاب "عمل من طب لمن حب" لابن الخطيب السلماني الذي حبسه السلطان العلوي مولاي إسماعيل على خزانة القرويين. فقد عهد بالمخطوط حسب ما جاء في الوقفية إلى قيم أو محافظ على المكتبة [92].

إن دراسة عدد من الوقفيات قد مكننا من بلورة الملاحظات التالية؛ كانت تعهد المؤلفات المحبسة على مسجد معين إلى الناظر، وكان يتولى المسجد في أغلب الأحيان مدير الأوقاف، أما فيما يخص المؤلفات الموقوفة على المكتبات الأخرى العمومية، وخاصة الجوامع، فقد كان يعهد بها في الغالب إلى القيم أو المكتبي.

ولننظر الآن إلى شكل ومحتوى الوقفيات المكتوبة على المؤلفات المحبسة؟

---

90. الفاسي : الخزانة العلمية، ص 65.

91. فهرس القرويين ج 1 ص 408.

92. الفاسي : الخزانة العلمية، ص 65.

2.2. طرق تدوين وقف المخطوطات

1.2.2. شكل الوقفية

تمثل الوقفية في أشكال متعددة ابتداء من الوقفية الكاملة إلى الوقفية المختزلة. وتضم الوقفية الكاملة العناصر التالية: صيغة الوقف، واسم الواقف، والمكتبة وشروط الوقف، وصيغة الحظر، وتاريخ الإيداع. وبعد ذلك يوجد إشهاد الشهود، وموافقة العدول أو المثقفين، وأخيرا الإثبات الأصلي للتحبيس في أعلى الورقة وأسفلها التي تحمل صيغة الوقف. وصيغ الوقف الكاملة، حسب معرفتنا، هي تلك التي أنجزها الملوك المغاربة. ونذكر على سبيل المثال الوقفية المقيدة على الجزء الرابع من كتاب الجامع الكبير للسيوطي (المتوفى سنة 911هـ) الذي أوقفه الملك أحمد المنصور على جامع القرويين. وهذا نصها «بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم، حبس مولانا الإمام كهف الإسلام ظل الله في الأنام كافل أمة النبي عليه السلام مفني طواغيت الشرك بالسنان والحسام صاحب الفتوحات المنسقة النظام إمام أهل الأرض ومالك إمرة المومنين حقا بالبسائط على الطول والعرض مولانا الإمام أبو العباس المنصور بالله أمير المومنين ابن موالينا الخلفاء الراشدين الأيمة الهداة المهتدين سراة الخلق أجمعين خلد الله تعالى للإسلام شريف دولتهم وأنار جهات البسيطة بأنوار معدلتهم هذا الكتاب المسمى بالجامع الكبير للسيوطي المشتمل على ستة أسفار المكتوب هذا على أول ورقة من السفر الرابع منه على كل من يقرأ فيه من طلبة العلم وفرهم الله بخزانتهم الشريفة الجديدة التي من آثارهم أيدهم الله بقبلة جامع القرويين من فاس حرسها الله وشرطوا أيدهم الله في ذلك أن لا يخرج عن حريم الخزانة المتخذ للمطالعة هنالك بحيث لا يلتفت في مخالفة هذا الشرط إلى القول الوارد بذلك فمن بدل وغير أو خالف هذا الشرط المعتبر فيد الله عليه وهو سائله يوم يقف بين يديه تحبيساً مؤبدا ووقفا مخلدا لا يتعقبه فسخ ولا يتناول أي محكمة نسخ قصدوا رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم بذلك وجه الله العظيم والتماس أجزل الثواب بدار النعيم والله تعالى سبحانه يجعله من أعمالهم

الصالحة ومن متاجر أرباحهم في الدار الآخرة المؤملة وفي شهر ذي القعدة من عام ثمانية وألف هـ».

ووجدت في الطرة الفوقانية من الورقة الشهادة الأصلية للمنصور تؤكد صحة التحبيس [93] . أما في الهامش الذيل فقد كتب مايلي : «بمحضر شهيديه بسطوا رضي الله عنهم يد قاضي فاس في حينه على حوزه فحازه معاينه ليورد بخزانتهم أيدهم الله الجديدة»[94] . ووقع العدلان في الأسفل [95] فهذا العقد يضم تقريبا كل عناصر الوقفية الكاملة.

وفيما يخص الوقفية المختزلة فإن الواقف يكتفي فيها بالإشارة إلى العناصر الضرورية لكي تكون مقبولة. وهاته العناصر حسب "الدسوقي" Al-Dusuqi هي : صيغة الوقف، وتعيين المستفيدين منه، ومكان الإيداع [96] .

غير أن الواقف يبقى حرا في أن يمدد أو يختزل الوقفية. وهو أيضا حر فيما يخص اختيار الشهود العيان الذين يكون عددهم غير محدود . وهناك نصوص التحبيس التي تضم توقيع ثلاثة شهود كما هو الأمر في النص الموجود في الورقة الأولى من كتاب القول المعتبر في حل ألفاظ المختصر [97] للعجماوي. ولا يوجد في بعض المؤلفات إلا توقيع واحد . وحتى هذا التوقيع فإنه يغيب في مؤلفات أخرى. أما فيما يخص العدول، فمن المبدئي أن يكون هناك عدلان. وهناك نصوص لا تشير إلا إلى عدل واحد مثل ذاك الذي كتبه الوزير المريني الطريفي على كتاب المنتقى المحبس على المسجد الجديد، والذي انتهى إلى القرويين حيث تم الاحتفاظ به تحت رقم 172 [98]. وتفتقد نصوص تحبيسية أخرى إلى العدول.

93. تظهر الشهادة الأصلية للملوك السعديين دائما في رأس الصفحة بينما تمثل شهادة الملوك المرينيين والعلويين في أسفل الصفحة.

94. الكلمة شاهد ليست واضحة، فهي يمكن أن تشير إلى العدول أو تشير إلى مجرد شهود عيان.

95. الفاسي : الخزانة العلمية، ص 49.

96. الدسوقي : حاشية على شرح الدريدر 4 ص 71 ينظر أيضا يوسف العش : "دور الكتب العربية" ص 312.

97. مخطوط محفوظ في القرويين تحت رقم 455.

98. المؤلف هو أبو الوليد الباجي المتوفى سنة 494هـ. ينظر فهرس القرويين ص 176.

وفيما يخص صيغة الحظر، فهي توجد في أغلب المؤلفات المحبسة، وهدفها هو الوقاية من ضياع الكتب. فبعض الواقفين يتساهلون، ويسمحون بإخراج المؤلفات المحبسة، ولكن برهن تذكاري كما فعل ابن خلدون في الوقفية التي توجد في بداية الجزء الخامس من كتاب العبر المحبس على القرويين[99].

ونلاحظ أخيرا أن أغلب الوقفيات تضم العبارات التالية : "حبس هذا المخطوط على طلبة العلم". فالمؤلفات التي تحمل هاته العبارة هي في الغالب تلك التي تم توقيفها على المكتبات العمومية الملحقة بمراكز التدريس مثل الجوامع أو المدارس، أو الزوايا. وتوخيا لإبعاد الفضوليين والجهّل الذين كانوا يتظاهرون بالعلم فإن الواقفين كانوا يحصرون وقف مخطوطاتهم على طلبة العلم. واكتفى آخرون بذكر كلمة «تحبيس» دون أن يشيروا لهذا السبب إلى طبيعة القراء. ووضع هذا التحبيس لفائدة كل المسلمين. ويوجد هذا الضرب من الصيغ بوجه خاص على المصاحف أو على الكتب الدينية القديمة المخصصة لخزانات المساجد.

ويبدو لنا من المفيد في نهاية هذا الفصل أن نشدد على سلبيات الوقف وإيجابياته بالنسبة للمكتبات العمومية. فقد شكل وقف الكتب في المغرب كما هو الأمر في الدول الإسلامية الأخرى عائقا أمام تطور فن أو تقنية الفهرسة. فحينما نعلم أن الخزانة المجاورة لحكم الثاني (ت 366 هـ) في الأندلس كانت تتوفر على أربعة وأربعين فهرسة، تضم كل فهرسة عشرين ورقة لم يذكر فيها إلا أسامي الآثار الضخمة[100]، فسنعتقد حتما بأن تقنية الفهرسة كان يجب أن تعرف وتتطور في المغرب لكي تسهل مطالعة الكتب. يقول يوسف العش «إلا أن تطور هذا الفن الذي وصل إلى درجة عالية حقا قد عاقه المبدأ القطعي للوقف الذي يربط فهرسة الكتب برغبة الواقفين» [101]. إن المحتوى الحالي لمكتبة القرويين [102] قد تشكل من خلال الكثير من

---

99. لم يبق اليوم إلا المجلد 3 و 5 ، من ضمن سبعة مجلدات من تاريخ العبر التي أهداها ابن خلدون إلى خزانة القرويين على شكل تحبيس. وأكد المقري في الجزء 4 من نفح الطيب أنه رأى المؤلف كله في هاته الخزانة. ويبدو أن المؤلف قد بقي كله إلى القرن 19م، وكان "دوهامسو" هو أول أوربي يشير إليه كله حسب ليفي پروڤانصال. ينظر "الصحيفة الأسيوية" Journal asiatique، 1923.

100. ابن خلدون، العبر 4 ص 146 ينظر أيضا نفح الطيب ج 1 ص 326 ط 1949.

101. يوسف العش :"دور الكتب العربية" ص 324.

102. من المؤسف له أن فهارس هاته الخزانة قد وضعت انطلاقا من هاته القوائم بدون أي منهج ولا أي تصنيف.

الفهارس الصغرى التي وضعت مستقلة الواحدة عن الأخرى، والتي تخبرنا فقط بمجموعات المكتبات الصغرى المشكلة في استقلال عن بعضها البعض.

وباستثناء هذا المشكل فإن وقف المخطوطات له مع ذلك صفات وإيجابيات قيمة بخصوص تأسيس وتطوير المكتبات العمومية في المغرب. فيجب أن نعترف بأن الثروة الأساس لهاته الخزانات تنحدر من الوقف الأصلي للواقفين الذين أسهموا بشكل واسع في تطوير وإغناء هاته المؤسسات العلمية ابتغاء وجه الله العظيم.

إن الكتب المنحدرة من التحبيس كانت تنتمي إلى أشخاص كل طبقات المجتمع المغربي. ومن حسنات هاته الصيغة أن أهم المكتبات الخاصة لم نتعرف عليها إلا عن طريق المؤلفات التي حبسها أصحابها. وهكذا فنحن لم نعرف مكتبة الأميرة مريم بنت العاهل المريني محمد إلا عبر مصحف أنجز لخزانة كتبها وحبس على هذه الخزانة العمومية. ويوجد هذا المصحف اليوم محفوظا في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم ج656 .

ويجب أن نقول ، علاوة على هذا الأمر ، إن دراسة الوقفية ستكون ذات فائدة كبيرة بالنسبة للمختص في علم المخطوطات أو الكوديكولوجي، وخاصة فيما يتعلق بتأريخ المخطوطات غير المؤرخة. فإذا كانت الكوديكولوجيا اليونانية واللاتينية والعبرية قد تطورت بما فيه الكفاية، فإن الكوديكولوجيا العربية مازالت لم تصل إلى ذلك بعد. فالحاجة ماسة اليوم إلى درا سة علمية وتطبيقية لصيغ الوقف، وذلك من أجل حل عدد من قضايا المخطوطات العربية المرتبطة بعلم المخطوطات[103] .

103 . لقد أحدث في حضن معهد البحث وتاريخ النصوص التابع للمركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا قسم للكوديكولوجيا العربية.

الفصل الثالث : الوراقة وخزانات الكتب

I . الوراقة

1. الوراقة : المفهوم والوظيفة

إن مصطلح "وراقة" هو مصطلح عربي مشتق من الجذر "ورق" وتعني "وَرَّقَ" تصفح كتابا معينا، والورَّاق هو الذي يعنى بالكتب، وهو المعنى الاشتقاقي للكلمة. وقد أخذت "الوراقة" مع الزمان مفهوما واسعا للغاية. فقد كانت تعني أولا صناعة الورق[1]. والورَّاقُ هو تاجر الكتب. وكَانَ ابن النديم حسب ماقال مترجموه ورَّاقاً يبيع الكتب. والوراق هو أيضا ذاك الذي يقرأ مؤلفا صفحة صفحة في حلقة دراسية. ويعني الوراق أيضا الناسخ. يخبرنا البكري أن العديد من الوراقين كانوا في قصر الخليفة الإدريسي يحيى الرابع يعملون في انتساخ الكتب[2]. ولعل المفهوم الذي يبدو لنا أكثر استيفاء للمعنى، وأكثر دلالة هو ذاك الذي قدمه العلامة ابن خلدون في مقدمته يقول : «وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران»[3]. فالوراقة[4] تتمحور إذن حول انتساخ المؤلف، وتصحيحه وتجليده، وبالجملة فن صناعة الكتاب.

---

1 . ابن النديم : الفهرست، ص 21 ط 1870.
2 . البكري : المسالك والممالك ص 132.
3 . ابن خلدون : المقدمة ص 268
4 . وإذن فإن كلمة "مكتبي" لا تتضمن كل ما يتضمنه مفهوم المصطلح العربي "وراق".

وسنحاول أن نقف على كل واحد من هاته المصطلحات الجوهرية الواردة في مفهوم الوراقة عند ابن خلدون.

1.1. النساخة

كانت النساخة إحدى العناصر الرئيسة في الوراقة. ففي أي وقت بدأ المغاربة ينتسخون المخطوطات؟ وكيف فعلوا ذلك؟ وماهو الخط الذي اعتمدوه؟ وماهي مواد هاته الكتابة؟. إن هاته هي الأسئلة التي يجب علينا الإجابة عنها من أجل أن نحدد جيدا ما قامت به النساخة بشكل خاص، والوراقة بشكل عام في تطور المكتبات المغربية. لقد أصبحت النساخة انطلاقا من نهاية القرن الثالث من الهجرة مزدهرة. وكانت من الصنائع التي يمتهنها الناس. فالناسخ في هاته الفترة لم يكن يتميز عن الناسخ الروماني أو عن الناسخ العربي. فلقد أخبرنا البكري أن الخليفة الإدريسي يحيى الرابع (ت 305هـ) كان له نساخ يعملون في انتساخ المخطوطات[5]. ولم يصلنا أي اسم من أسماء هؤلاء النساخ. وفي المقابل تعرفنا على أشخاص عاشوا في هاته الفترة ولقبوا بلقب "الوراق" من مثل محمد بن يوسف الوراق ت 363هـ / 973 م [6]. وفيما يخص انتساخ المخطوطات فقد كان ينجز عموما في محترفات الوراقين، أو في حجرات مخصصة لهذا الأمر، وملحقة بالمكتبات الملكية والعمومية. وسميت هاته الحجرات في البلدان الأخرى منتسخ أو "سكربتريوم". وكانت النساخة تتم بشكل فردي أو جماعي. وكان يشار إليها في أغلب الأحيان في حرد المتن مالم يكن المخطوط مبتور النهاية. وعموما فالمخطوطات التي تمّ إنجازها للخواص والعلماء والأدباء وآخرين كان ينتسخها ناسخ واحد. وفيما يخص المخطوطات المنجزة برسم مكتبة ملكية أو عمومية أو برسم رجل مولع بالكتب فقد كان ينتسخها في أغلب الأحيان، نساخ كثيرون في نفس الآن.

5. البكري :المسالك والممالك ص 255.

6. كان من أوائل مؤرخي المغرب، ولم نتوصل إلا بنتف من كتبه ينظر بخصوص حياته وآثاره: ابن حزم: فضائل الأندلس.

إن هاته الطريقة الثانية والمتمحورة حول الانتساخ الجماعي والآني لمخطوط معين تساعد على اتقاء ما قد يصيب النساخة الفردية من هفوات وتحريفات مشينة. إن الناسخ هنا لم يكن يهتم في الواقع بالجودة في إنجاز النسخة بقدر ما كان يهتم بالربح، فهو كان يميل في الغالب إلى العمل السريع. لقد خلق هذا المشروع الجماعي أحسن الشروط للإكثار من النسخ بدون تحريف للنص الأصلي، حتى وإن تعلق الأمر بأثر خالد، وقد قام به اليونانيون قديما تحت اسم «پاسيا» (التنسيخ الجماعي). ودخل إلى أوربا عبر الجامعة انطلاقا من بداية القرن 13. وذلك توخيا للدقة في مراجعة المؤلفات الضرورية لبحوث الشيوخ والمتمدرسين، وألا تتسرب إليها الأخطاء التي من شأنها تشويه المعنى [7]. وقد مكن التنسيخ الجماعي الجامعة أيضا من اتقاء التأملات المفرطة من لدن الناسخ المأجور، والمحافظة أكثر ما يمكن على النسخة "النموذج" أي المخطوط الأصل الذي كان الناس يرغبون في نقله إلى نسخ كثيرة. ولعل التنسيخ الجماعي أو "الپاسيا" الذي انتشر سواء في العالم القديم أو في العصر الوسيط، لم يكن معمولا به كثيرا عند العرب. فهم كانوا يلجأون إليه بشكل خاص لانتساخ موسوعات الكتب التي كانت طبيعتها وحجمها الكبيران يستوجبان العديد من النساخ دفعة واحدة. يخبرنا ابن أبي أصيبعة أن "تاريخ دمشق" لابن رشيق المتوفى سنة 571هـ / 1175م قد أنجزه عشرة نساخ في ثمانين مجلدا استوعبت المؤلف بعد سنتين من العمل [8].

وكان التنسيخ الجماعي في المغرب يمارس إلى جانب النساخة الفردية. فنحن نلاحظ هذا التنسيخ بوجه خاص في المؤلفات المنجزة سواء برسم المكتبات الملكية أو برسم مكتبات الزوايا. ونذكر على سبيل المثال مؤلفين منتسخين في نفس الآن، وانتسخ كل واحد منهما عدد من النساخ؛ كتاب "البيان والتحصيل" لابن رشد 520هـ / 1120م أنجزه أربعة نساخ برعاية من الملك محمد بن عبد الله [9] في عشرين سفرا.

7. "مرتان" H. Martin : "ظهور الكتاب" l'apparition du livre وبخصوص التنسيخ الجماعي يجب أن نعود إلى مؤلف "دستري" J.Destrez : التنسيخ الجماعي في المخطوطات الجامعية في القرن الثالث عشر والرابع عشر.
la pecial dans les Mss universitaires du XIII et du XIV ، باريس 1935.

8. ابن أبي أصيبعة : تاريخ الحكماء ج 2 ص 236 ط 1882م.

9. هذا المخطوط محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 1556.

وأخبرنا الزياني [10] أن أمير المسلمين مولاي سليمان دعاه إلى أن ينتسخ له "الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب" الذي اعتبره جديرا بخزانة كتبه الخاصة. واجتمع مجموعة من النساخ من ضمن الطلبة [11] لانتساخه، وبمجرد ما أنهى المؤلف وجلد أعطي للملك [12]. ومع أن المخطوط يوجد في سفر واحد فقط، فإن الزياني قد انتسخه في أقرب وقت ممكن استجابة لطلب السلطان في أن يعيد إليه نسخة صحيحة بدون أخطاء وكان التنسيخ الجماعي ينجز في الغالب في خزانات كتب الزوايا .ولقد رأينا بأن إحدى الأصول الأسس لمجموعات هذا النوع من المكتبات العامة كان ينحدر من النساخة الفردية أو الجماعية. ويحدث في بعض الأحيان أن يشرف شيخ الزاوية على انتساخ مؤلف معين عن طريق العديد من طلبته. فقد كانت مكتبات الزوايا الكبرى في المغرب تحتوي على العديد من المؤلفات المنجزة عبر التنسيخ الجماعي. ونذكر على سبيل المثال المخطوط المحفوظ في خزانة كتب الزاوية العياشية الذي يحمل حرد متنه التقييد التالي: «أنجز هذا المخطوط ثلاثة عشر شخصا من بينهم كاتب هاته السطور عمر بن محمد بن أبي بكر في سنة 1080هـ» [13].

وإذا كان المغاربة قد أولوا كثيرا من الأهمية للتنسيخ الجماعي، فإنهم مع ذلك لم يهملوا النساخة الفردية. لقد كان العلماء والأدباء وخاصة الملوك ، إلى جانب النساخ المحترفين [14] يرسمون [15] بأيديهم القرآن الكريم، والمخطوطات المرتبطة بالعلوم الدينية تبركا بذلك. فنحن يتعذر علينا حصر كل النساخ. ومع ذلك سنذكر أسماء البعض ممن اشتهر منهم ونبدأ بالملوك [16]. لقد سبق أن أشرنا إلى أن الخليفة الموحدي

---

10. الزياني : الروضة السليمانية ص 190، مخطوط الخزانة العامة د 1275.
11. نشير إلى أن مهنة النساخة التي كانت مربحة للغاية قد منعت عددا من الطلبة من تتبع دراستهم.
12. توجد نسخة من هذا المؤلف محفوظة في الخزانة تحت رقم د 658.
13. مخطوط محفوظ في خزانة هاته الزاوية تحت رقم 505.
14. في القديم كانت مهنة الناسخ ذات اعتبار ومكانة مرغوب فيها. فصاحب الإحاطة يخبرنا أن محمد العبدري الغرناطي المتوفى في سبتة سنة 753هـ. كان ناسخا وكان يعيش من مهنته بل إنه جمع منها ثروة. ينظر ابن الخطيب الاحاطة. ج 2 ص 95.
15. يجب أن نميز بين الخط والرسم، فهاته المعجمة الأخيرة تتعلق بانتساخ القرآن. نقول "رسم القرآن" أما فيما يخص الخط فهو يشير إلى النساخة العربية.
16. تمت الإشارة إلى كثير من النساخ في مؤلفات الحضارة والتراجم مثل التكملة، والقرطاس، والذخيرة، والجذوة، وبغية الوعاة، ونيل الابتهاج، والإعلام، وكثير من المؤلفات الأخرى.

عمر المرتضى رسم بيده مصحفا في عشرة أسفار، وحبسه على مكتبة ابن يوسف في مراكش في القرن 13م. وانتسخ هذا الخليفة أيضا موطأ الإمام مالك في سفرين [17]. ورسم الخليفة المريني أبو الحسن هو أيضا ثلاثة مصاحف حبسها على الأماكن المقدسة في الإسلام[18]. وكان ابنه أبوعنان خطاطا ماهرا. وكان يساعد أباه حسب البقني[19] على رسم النص القرآني المذكور. وإليه يرجع الفضل في نسخة "الأحاديث الأربعينية من رواية الخلافة العلوية" الذي ألفه ابن مرزوق الجد لأجل العاهل أبي الحسن. فمازالت هاته النسخة المبيّضة البهية في خطها والملونة في عناوين فصولها توجد في المكتبة العامة في الرباط تحت رقم د 3582. وهي تعتبر من عيون الآثار، ونموذجا يحتذى في الخط المغربي في تلك الفترة[20].

لقد التزم الملوك المغاربة بتشغيل نساخ مهرة. فقد وظف الخليفة الإدريسي يحيى الرابع نساخا جاء بهم من الأندلس. وعهد الخليفة الموحدي عبد المومن بمهمة القيم إلى العلامة ابن الصقر. وكان هذا الأخير، حسب مترجميه، خطاطا ماهرا ورقاقا بارعا. ويروي لنا صاحب "الدرر الفاخرة" أن الملوك العلويين كانوا في جل وقتهم مقربين لحذاق الوراقة والنساخة. وكان المولى إسماعيل يختار أحسن النساخ لانتساخ عيون الآثار[21]. ووظف الملك محمد بن عبد الله عددا كبيرا من الوراقين لانتساخ المخطوطات النادرة توخيا لأن يوقفها على المكتبات في القاهرة، والإسكندرية، والمغرب. وفوق هذا يجب أن نذكر من ضمن المؤلفات التي أمر بانتساخها كتاب "العبر" لابن خلدون، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"الأغاني" للأصفهاني، و"نفح الطيب" للمقري[22].

17. تنظر ص 47 من هاته الدراسة.
18. من المحتمل جدا أن هاته المصاحف قد انتهت إلى إستانبول من ضمن الكثير من نفائس الكتب الأخرى.
19. البقني: مختصر الإحاطة. مخطوط الخزانة العامة 2 الصحيفتان. 23 - 24. د 1582.
20. بنشقرون: "الحركة الفكرية على عهد بني مرين" ص 41.
21. ابن زيدان: الدرر الفاخرة. ص 40.
22. ابن زيدان: الاتحاف، ج 3 ص 251.

وجمع الملك محمد بن عبد الرحمن في قصره العديد من النساخ لانتساخ كتب الحديث بوجه خاص. وجعلهم يشتغلون تحت إشراف كاتبه العلامة محمد غريط[23]. يخبرنا ابن زيدان أن الملك الحسن الأول لم يكن يبتعد أبدا عن مجموعة من النساخ. وأرسل وراقين مغاربة إلى استانبول وإلى إسبانيا لتعلم فنون الوراقة والتخصص فيها[24].

ولم يفت أمراء مختلف الدول المغربية بدورهم أن يسهموا في انتساخ المخطوطات. ونكتفي بذكر الأمير الوطاسي محمد بن محمد بن زيان الوطاسي. فهذا الأمير انتسخ نسخة من «صحيح البخاري» في أربعة مجلدات، وانتسخ أيضا نسخة من الشفاء لعياض المتوفى سنة 544هـ. وكلا المصنفين محفوظ في خزانة القرويين [25]. ويكفي أن نذكر ، فيما يخص العلماء وكبار الشيوخ الذين كانوا ينتسخون المخطوطات، العلامة أبا القاسم العبدوسي الذي كان ينتسخ مؤلفات الحديث والفقه بشكل خاص. فقد انتسخ بنفسه، حسب الكتاني، "صحيح البخاري" في ثمان نسخ، و"صحيح مسلم" في تسع نسخ، وكثيرا من الكتب الأخرى مثل كتاب "الشمائل" للترمذي، و"الشفاء" لعياض [26].

وكيفما كانت الطريقة التي اعتمدها الناسخون المغاربة في انتساخ المخطوطات، فنحن نلاحظ أنهم حاولوا دائما إنجاز نسخ صحيحة بأقل ما يمكن من الأخطاء والتحريفات. وعلاوة على نظام المقابلة المشهور في المغرب، فالقاعدة التي كان يجري بها العمل عند العلماء المغاربة هي : «أكتب وقابل وإلاَّ اطرح في المزابل». إن مراقبة المقابل هي في الواقع عمل ضروري لإنجاز نسخة جيدة. يقول اليوسي «إذا صحح الكتاب بالمقابلة فلينقط المعجم...»[27].

---

23. ابن زيدان : الاتحاف ج 3 ص 367. ونشير إلى أن الملك مولاي حفيظ قد بنى بنقة في قصره في فاس للنساخ ومن ضمنهم محمد بن علي الدكالي السلاوي المتوفى سنة 1364هـ. ينظر المنوني : دور الكتب ص 25.
24. ابن زيدان : الدرر . ص 40
25. "بل" A.Bel برنامج القرويين ص 7 .
26. الكتاني عبد الحي : فهرس الفهارس، ج 2 ص 377.
27. اليوسي : القانون، الملزمة 24، ص 4

لقد كانت مهنة النساخة إذن مهنة جدية يراقبها رجال القانون. فلم يكن من حق المسرعين في الكتابة أن يندرجوا في زمرة النساخ الذين كان لهم نقيب في فاس. فقد شكل بعض الخطاطين مدرسة وكونوا تلامذة، وهكذا تكونت مشيخة الخط في مسجد الشرفاء في مراكش التي كان فيها عبد العزيز السجتاني المتوفى حوالي 999هـ/1591م أول أستاذ [28]، وكان شاعرا مثقفا، وكان يعرف الخطوط المغربية الأندلسية، والمشرقية على الوجه التام. وكان يدرسها للطلبة حسب قواعد محددة [29]. فالنساخة كانت إذن إحدى المهن التي كان يمكن للطلبة أن يتعلموها لكسب معيشتهم [30].

وفي القرن 11هـ تدهورت مهنة النساخة. فالنساخ لم يكونوا يقومون بوظيفتهم على الوجه الصحيح. وقد أرغم علي اليوسي الذي كان أكبر عالم في ذلك القرن على أن يستدعي رجال السلطة لإقامة الحسبة على النساخ توخيا لمراقبة نوعية عملهم، وأن يقارنوا بين الرواتب المنشودة والعمل المنجز يقول: «وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين وقد اعتنوا بشربة لبن لايزاد فيها ماء وخبزة أن لا ينقص منها وزن قيراط وأهملوا الكتب التي هي قوام الدين ومرجع الأمر كله»[31]. وأخيرا نقول إن المخطوطات المنجزة في المغرب عبر مر القرون لم تكن مزودة لا بالترقيم، ولا بضبط الصفحات. فلم يكن النساخ المغاربة، على غرار زملائهم المشارقة يرقمون صفحات المخطوطات الأمر الذي يجعل الأبحاث طويلة وشاقة. فهم يضعون فقط التعقيبة؛ يكتبون في أسفل ظهر كل ورقة أول كلمة من الورقة الموالية[32]. وكانوا يتبعون أيضا نظام الملازم. تتكون كل ملزمة من أربع صحائف، وتكتب عناوين المؤلفات أو الأبواب غالبا بالخط الكوفي، وترفق بزخارف ملونة [33]. فالمصاحف مذهبة، وأسماء الله مكتوبة بماء الذهب[34].

---

28. بخصوص ترجمته ينظر ابن القاضي: درة الحجال، ج 3 ص 131.

29. حجي (محمد): "الحركة الفكرية" أطروحة ج 2 ص 490.

30. صنف صاحب «المختصر الفريد» النساخة ضمن المهن المحمودة مثل الخياطة والتجارة والنجارة. والمهن الأخرى الكريهة التي لا يجب على الطلبة أن يزاولوها هي الجزارة، والدباغة، والنسيج، والحلاقة: ينظر: "حجي: الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين "ج 1 ص 130.

31. اليوسي: القانون، ملزمة 24 ص 4.

32. آخر المخطوطات المؤرخة علاوة على التعقيبة إما مرقمة أو مضبوطة الصفحات.

33. سوف لن نتشغل بزخرفة الكتب؛ الموضوع الذي لم يكن يظهر بخصوص الخزانات.

34. لم يجمع الفقهاء على كتابة اسم الله بماء الذهب. فقد اعتبره البعض منهم عملا مكروها.

هذا عن النساخة التي تعد عنصرا أساسًا ضمن الوراقة. فماذا عن الخط الذي اعتمده النساخ ؟ وماهي مواد الكتابة؟

2.1. الخط

عرف المغرب الخط العربي مع الفتح الإسلامي. فالشعوب البربرية التي تخلت كليا عن استعمال خطها الوطني، والتي لم تكن أبدا اعتمدت كتابة إحدى الشعوب التي استولت على بلدها على مختلف العصور قبلت بدون صعوبة الخط العربي[35] .ولم يتبق لنا تقريبا أي شيء من مخطوطات القرون الأربعة الأولى من الهجرة. فيصعب علينا إذن أن نعطي فكرة عن نوع الخط الذي اعتمده المغاربة في هاته الفترة. إن ابن حوقل المتوفى سنة 367هـ / 977م والذي أكد أن الخط المغربي قد تعرض لنوع من التحسين في القرن الثاني من الهجرة لمْ يوضح لا طبيعة ولاشكل هذا الخط [36].

ولاحظ ابن خلدون في مقدمته أن خط القرون الأولى من الهجرة في المغرب كان أولا خطا مشرقيا قبل أن يأخذ مظهر الخط الكوفي والخط النسخي اللذين كانا معتمدين في نفس الفترة من طرف القيروانيين في تونس [37] .ولم يبق أي نموذج من الخط النسخي. فأقدم الأمثلة تعود إلى الفترة المرابطية. أما فيما يخص الخط الكوفي فلم يصلنا منه إلا مثالان فقط. ويتعلق الأمر بالكتابة المأخوذة من قطع النقود المسكوكة في المغرب على عهد الإدريسيين، والكتابة التي تم اكتشافها حديثا على أروقة مسجد القرويين، والمنقوشة بإشارة من الإمام داود بن إدريس في 263هـ.

وينضاف إلى هذين الخطين اللذين كان يعمل بهما في المغرب نوع ثالث يسمى "الخط الأندلسي". ويتعلق الأمر بخط من أصل كوفي اعتمده عرب إسبانيا. وانتشر هذا الخط الأندلسي في المغرب على عهد

---

35. إن البربرية هي سامية مثل المصرية. وخصائصها عشرة وقد أخذت بعض هاته الخصائص من اللغة المصرية. إن أحرف ألفبائيتها في نظر البرابرة هي من وحي الله وليست من ابتكار البشر، وأسموها "تفنغ" التي تعني بالبربرية «حروف منحدرة من الله». ينظر علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ط 1964.

36. ابن حوقل : صورة الأرض ص 82. ويوضح فيه ابن حوقل أن صالح بن طارق البورغواطي كان خطاطا بارعا.

37. ابن خلدون : المقدمة ج 2 ص 846.

الموحدين والمرابطين[38] . فقد أرضخت هاتان الدولتان إسبانيا المسلمة إلى حكمهما ، وترتب عن ذلك تعاون واسع بين هاتين الدولتين. فكثير من الأدباء قد جاءوا للاستقرار في المغرب بينما توافد مغاربة آخرون على إسبانيا . ولم يعرف المغرب خطا إقليميا سمي بالخط المغربي إلا في القرن 14م. أي في عهد المرينيين.

1.2.1. الخط المغربي

الخط المغربي هو الخط الذي اعتمدته دول إفريقيا الشمالية وإسبانيا . وقد سمي هكذا بسبب شكله المختلف عن شكل الخط المسمى شرقيا . ويحتمل أن الحرف المغربي قد ظهر في أثناء القرن الرابع الهجري. وسيتلقى الخط الكوفي الذي بقي مستعملا إلى هاته الفترة تغيرات لكي يصبح خطا مغربيا[39] . إن ظهور هذا الخط الجديد [40] ارتبط حسب ابن خلدون بالأندلسيين الذين طردوا من إسبانيا ، واستقروا في إفريقيا الشمالية. وسيكون الخط الأندلسي إذن هو أصل الخط المغربي، ولم يمكن "هوداس" ليقبل هاته الفرضية . فليس هناك أي سبب معقول لكي نفرع واحدا من الآخر بشكل مباشر. فالخطان ينحدران من نموذج واحد مشترك فقط هو الكوفي. ويدينان بالتشابهات الحاصلة بينهما إلى هذا الأصل المشترك. يقول "هوداس" Houdas «إن التأثير الذي مارسه مسلمو الأندلس على فنون المغرب أوهم ابن خلدون أن الخط المغربي قد أخذ شكله النهائي من الخط الأندلسي»[41] . ومن هذا المنطلق فقد ميز المغاربة خطهم الوطني عن خط مسلمي الأندلس الذي أسموه «الخط الأندلسي» وتدل هاته التسمية جيدا على أن المغاربة كانوا يعتبرون خطهم شكلا متميزا مطلقا ولا علاقة له بالخط الأندلسي.

وقبل أن نفحص مختلف أنواع الخط المغربي من المفيد أن نختزل القول فيما نلاحظه من اختلاف بين الخط المغربي والخط المشرقي المسمى بالنسخي . وعلى مستوى الشكل فالاختلاف ليس كبيرا جدا ، ولكن ما يقيم تفرقة عميقة بين هذين الألفبائيتين هو أولا الرموز الرقمية المختلفة المعزوة إلى بعض الحروف في الألفبائيتين[42] . وهو بعد ذلك التوالي المختلف لحروف الألفبائية، وهو أخيرا طريقة تنقيط الحروف.

---

38 . أغلب المخطوطات التي تعود إلى هاته الفترة أنتسخت بخط أندلسي.

39 . انتسخت الآثار السابقة عن القرن الرابع الهجري بخط كوفي .

40 . يريد ابن خلدون بالخط المغربي الخط الوطني المغربي الذي ظهر ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي.

41 . "هوداس" Essai sur l'écriture maghrébine; Houdas . في Nouveaux mélanges orientaux ، ص 99 سنة 1886 .

42 . مثلا إن حرف " س "الذي يرمز إلى 300 في الألفبائية المغربية لا يرمز إلا إلى 60 في الخط المشرقي

ويبدو لنا أن التحولات الملحوظة في شكل الألفبائية المشرقية هي التي أدت إلى ظهور الخط الكوفي. ولم يتخل هذا الأخير عن شكل الخط المغربي إلا في نهاية القرن الثالث الهجري بسبب ما ألحقه الخطاط الكبير ابن مقلة (المتوفى سنة 328هـ / 940م) من تغيير في الخط العربي.

وفيما يخص الأصناف العديدة للخط المغربي فقد حاول "هوداس" أن يصنفها في مجموعات، وحددها في عدد أربعة حسب المراكز الفكرية الأربعة المشعة ألا وهي القيروان، وقرطبة، وفاس، وتنبكت. ويبدو لنا أن التسميات "قيرواني"و "فاسي" و"قرطبي"و "تنبكتي"تشير كلها إلى هاته الصنوف الرئيسة من الخط المغربي. فقد ظهرت أربعة ضروب مختلفة من الخط المغربي بعد تفكك الإمبراطورية الموحدية إلى ثلاث دول مستقلة، وبعد الغزو الإسباني: الخط التونسي الذي يتشابه كثيرا مع الخط المشرقي، ولكن طريقته في الترقيم مشرقية،والخط الجزائري وهو مستدق وبارز،والخط السوداني ويكون في عمومه كبيرا، وثقيلا، وبارزا، أكثر منه دائريا[43].وأخيرا الخط المغربي المسمى الخط الفاسي، يقول ابن خلدون عن هذا الخط الذي ظهر في المغرب على عهد المرينيين في القرن الرابع عشر الميلادي : «وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبا واستعمالهم إياهم سائر الدولة»[44] . ويمكن أن نقسم هاته الصنوف الأربعة من الخط المغربي من جديد إلى فروع أخرى عديدة. وتوجد في المغرب إلى جانب الخط المغربي المسمى الخط الفاسي، والمنتشر في فاس المركز الفكري ومقر الجامعة المغربية، صنوف أخرى تقريبا مختلفة عن الخط الفاسي. وهكذا فنحن نسمع الحديث عن الخط السوسي في جنوب البلد، والخط البدوي المنتشر في البادية بوجه خاص والزوايا، ونسمع عن الخط الصحراوي المعمول به في الصحراء. فكل منطقة إن لم نقل كل ناسخ بإمكانه أن يحدث ضربا جديدا منحدرا من الخط الوطني المغربي. فمازالت توجد الكثير من المخطوطات التي كتبت

43. تضم الخزانات المغربية أكثر من 300 مخطوط كتبت بخط سوداني يسمى أيضا "صحراوي"، وكتابات أحمد بابا التنبكتي هي مثال على ذلك.

44. ابن خلدون : المقدمة ص 268. أشرنا سابقا إلى أن الأطروحة الخلدونية بخصوص الخط المغربي لم تقبل من طرف "هوداس".

بهاته الخطوط المختلفة[45]. وهناك أمثلة من هاته الأنواع من الخطوط في مختلف المكتبات المغربية : كتب كتاب "أحكام القرآن" المحفوظ في خزانة الكتب الملكية بخط جزائري [46]. وكتبت نسخة من "نزهة الحادي" موجودة في نفس الخزانة بخط مغربي صحراوي[47]. ويوجد كتاب "الحوض" المشهور بأوزال المكتوب بخط سوسي محفوظا في الخزانة الملكية تحت رقم 6014 [48]. وانتسخ كتاب "الفلاحة" لابن حجاج بخط مغربي بدوي [49]. وتوجد كثير من مخطوطات العلماء السودانيين مثل أحمد بابا محفوظة في الخزانة الملكية، وهي مكتوبة بخط سوداني. ولعل من قواعد الخط المغربي توالي الحروف، واحترام علامات الوقف [50].

وتضم خزانات الكتب المغربية أيضا مخطوطات مكتوبة في القرن 14 وفي القرن 15، وهي الفترة التي لم يأخذ فيها الخط المغربي بعد طابعه الوطني. ففي خزانة القرويين[51] يوجد نموذج محفوظ في سفرين من "المسند الصحيح" للترمذي، منتسخا بخط أندلسي. وانتسخت مخطوطات أخرى في عدة مجلدات بالخطين معا. فقد كتبت نسخة من كتاب "النوادر" لابن أبي زيد القيرواني بالخطين الأندلسي والقيرواني في نفس الآن [52]. وفيما يخص المخطوطات المكتوبة بالخط المسمى "القلم الفاسي" فهي تعد بالآلاف. ولعل العلماء حاليا. باحثين ومكتبيين. لا يستطيعون ضبط نوعية الخط الذي كتب به مخطوط معين. فعبارة "الخط المغربي" تكفي للإشارة إلى صنف الخط لمؤلَّف مكتوب في أي منطقة من المغرب. إن خط المخطوطات المكتوبة في المراكز الثقافية للسودان القديم يسمى ببساطة «خط مغربي» فقد تأكد المستشرقون الشهيرون [53] الذين زاروا إفريقيا الغربية وتصفحوا المخطوطات التي توجد في المكتبات في عجلة وأناة أن

---

45. يجب أن نشير إلى أن أغلب المخطوطات التي توجد حاليا في الخزانات المغربية كتبت بخط مغربي.
46. نوادر الخزانة الملكية ، ص 72 - 73.
47. المرجع نفسه ص 189.
48. المرجع نفسه ص 90.
49. محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 69.
50. تضم الخزانة الملكية نسخة "نيل الابتهاج" التي كتبت في 1005هـ بيد مؤلفها ، تحت رقم 2385.
51. محفوظ تحت رقم 272.
52. مخطوط محفوظ في القرويين تحت رقم 338.
53. مكث "دستانغ" E.Destaing لمدة ثلاث سنوات (1907 . 1910) في السينغال. الشيء الذي مكنه من مراجعة عدد من المخطوطات.

كل المخطوطات تقريبا كتبت بخط مغربي [54] . فالخط المغربي في نظر المغاربة لا يسع إلا المؤلفات المكتوبة في إفريقيا الشمالية [55]. فقد زعم المستشرق الفرنسي "هوداس" أن الخط المغربي بالمعنى الواسع للكلمة قد استعمل حيث انتشر مذهب الإمام مالك. يقول بهذا الصدد : «يتطابق شيوع الخط المغربي في العالم الإسلامي بشكل غريب مع شيوع المذهب المالكي. فحيثما تم إقرار هذا المذهب في إسبانيا وفي المغرب وفي السودان الغربية، كان يستعمل الخط المغربي وحده» [56].

وإذن فقد هيمنت ثلاثة نماذج من الخطوط في المغرب، الخط المسمى "مغربي" وهيمن في أغلب المؤلفات المخطوطة والمحفوظة في المكتبات المغربية [57] . والخط الأندلسي وأخيرا الخط المسمى مشرقيا "الخط المشرقي" [58].

3.1. مواد الكتابة

استعملت مادتان للكتابة في المغرب عبر عمليات الإعداد والترقيق؛ الجلد أو الرق الذي هو من أصل حيواني، والورق المادة النباتية [59]. لقد كانت مختلف الأمم تستعمل في الأزمان الغابرة الجلد للكتابة. وهكذا فقد استعمل السوريون والفرس جلود الحيوانات، ولم يكن هذا الاستعمال أبدا مجهولا لدى اليونان الذين أسموا ذلك "دفتيريا" [60]، واشتهر استعمال الرق للكتابة في برغامة بتركيا. قال "سفندال" Svend dahl «ولم يتم الشروع في معالجة الجلد بهدف جعله قابلا للكتابة إلا في القرن الثالث. ويعود الفضل في

---

54. "دستانغ" E.Destaing . "المخطوطات العربية في إفريقيا الغربية" les mss arabes de l'afrique occidentale في "المجلة الافريقية" Revue africaine : 1911 - 12 - 13 .

55. ظن بعض الباحثين أن بوسعهم حصر نطاق الخط المغربي في المغرب فقط.

56. "هوداس" Houdas (O) : Essai sur l'écriture maghrébine ص 99 Nouveau mélanges orientaux، طبعة 1886 .

57. تعود القديمة منها إلى القرن 14م وإلى القرن 15م.

58. أقدم المخطوطات في المغرب كتبت بخط مشرقي أو أندلسي.

59. لم يستعمل المغرب في البداية البردي كمادة للكتابة شأنه في ذلك شأن بلدان أفريقيا الشمالية، وبخلاف بعض البلدان العربية القديمة مثل مصر، فلم يكن هذا النبات يزرع فيه، وكان المناخ عائقا أمام حفظه.

60. هو أصل الكلمة العربية "دفتر" التي تعني كراسة.

61. "سفندال" Svend Dahl "تاريخ الكتاب" Histoire du livre ص 23 ط 1960 .

الشروع في هاته التقنية إلى برغامة التي ازدهرت فيها هاته الصناعة، ومنها سمي الرق بدون شك «Pergamineum, Parchemin».

وإذن فإن المغرب قد استعمل أولا الرق مادة للكتابة، وذلك في غياب مواد أخرى مثل البردي. فقد كتبت المخطوطات النادرة التي تعود إلى القرون الأولى من الهجرة على رق الماعز أو الغزلان يقول المقدسي المتوفى سنة 330هـ / 1000 م «وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق»[62]. وعلى الرغم من أن الورق حل محله ابتداء من القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي، فإنه مع ذلك بقي مستعملا في الكتابة. وأكد القلقشندي (المتوفى سنة 821هـ / 1418 م) في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بقاء الرق مستعملا في انتساخ الكتب لدى المغاربة، وفي انتساخ المصاحف بشكل خاص[63]. وصنع المغاربة "الرق". فقد كان "المَرْكَان" ، وهو ضرب من الرق المصنوع في المغرب مشهورا للغاية في القرن السابع عشر الميلادي. فقد أمر الملك الفرنسي لويس 14 ، حسب قول "دوكستر" de Castreis مبعوثه "مونسو" M.Monceaux بأن يشتري له 1700 قطعة رقية من الحجم الكبير، تمكن كل واحدة منها من تفسير كتابين. وأكد الملك أن تكون خمسمائة قطعة ذات لون أخضر، والباقي في لون أرجواني[64]. وسنرى فيما بعد أن الرق استخدم في الكتابة وفي التجليد على حد سواء[65]. وشرع الورق يحل محل الرق في المغرب ابتداءً من القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي [66]. فيجب أن نقول هنا شيئا عن أصل كلمة "كاغد" أو الورق في دول الإسلام قبل أن نقف بتطوره في المغرب. ونشير أولا إلى أن كلمة كاغد هي من حيث الاشتقاق كلمة صينية معربة أدخلها الفرس إلى اللغة العربية. ومن نافلة القول أن نذهب إلى أن الصينيين عرفوا باختراع الكاغد قرونا عديدة قبل الميلاد[67]. فقد ظهر الورق [68] لأول مرة

62. المقدسي : أحسن التقاسيم. ص 239

63. القلقشندي : صبح الأعشى، ج 2 ص 477، ط 1338 / 1919.

64. "دوكستر" ال"مصادر الدفينة لتاريخ المغرب" السلسلة الثانية، الدولة الفيلالية Arch et Bib de France ص 222.

65. نشير إلى أن البردي قد استخدم مادة للكتابة والتجليد. فأغلفة المصاحف الأولى قد صنعت من البردي.

66. وعلى الرغم من ظهور وتطور الصناعة الورقية في المغرب، فالنساخ لم يتوقفوا أبدا عن استعمال الرق مادة للكتابة.

67. تحتفظ الآن بقطع من الورق الصيني التي هي أقدم القطع التي بقيت (فهي تعود إلى القرن 2 / 3 قبل المسيح). بعضها في المتحف البريطاني في لندن والأخرى في الخزانة الوطنية في باريز، وأجزاء أخرى في الصين واليابان. وأجزاء في لندن وهي أجزاء بوذية.

68. كلمة "ورق" Papier من أصل يوناني.

في سمرقند على إثر انتصار الجيوش الإسلامية على إخشيد فرغانة سنة 134هـ / 751م وأَسْرِ مجموعة من الصينيين العارفين بهاته الصناعة. فتعلم العرب إذن مهنة صناعة الورق. وحلت هاته المادة الجديدة رويدا رويدا محل الورق. وأوقفت صناعتها صناعة البردي والرق[69]. إن الورق يختلف عن الرق من حيث المميزات الخارجية. فهو أكثر رقة وذو مظهر مزغب، وأقل متانة، وسهل التمزيق، ولكنه قد وضع نهاية للطروس. فالرق، كما نعرف، قابل للكشط ، فقد يحصل فيه التزوير مثل تغيير عنوان أو استبدال عبارة. لذلك فنحن نجد من ضمن المخطوطات الرقية العديد من الطروس؛ أي الأسفار التي محيت فيها الكتابة الأولية بواسطة المكشط لكي تكتب عليها نصوص جديدة. ولا يمكن أن يحصل هذا النوع من الغش في مادة الورق. فالمقريزي يلاحظ أن هذا بدون شك هو السبب الذي لأجله تم استبدال الكتابة على البردي بالكتابة على الورق في الدواوين [70]. وهكذا فمن غير الممكن تقريبا أن نشطب على نص مكتوب على الورق أو نمحوه بدون أن نلاحظ ذلك. فقد اكتشف المغرب الورق في القرن 5 هـ / 11 م. وانحدرت هاته المادة من إسبانيا[71] وكانت عاملا رئيسا في النهضة الكبيرة التي حدثت في الحياة الثقافية في القرن 12 و 13م . وهكذا ظهرت مصانع الورق وتكاثرت في مراكز ثقافية من مثل فاس، وسبتة اللتين كانتا في تلك الفترة نموذجا في منتهى الغنى والترف والرخاء. يخبرنا الزياني بأنه كانت توجد مائة مصنع وأربعة للورق في فاس على عهد الدولة المرابطية [72]. وارتفع هذا العدد حسب ابن أبي زرع إلى أربعمائة على عهد الموحدين يقول بهذا الخصوص: «وكان بها أربعمائة حجر لعمل الكاغد وخرب ذلك كله في أيام المجاعة والفتنة التي كانت في أيام العادل وأخيه المامون والرشيد وذلك من سنة ثمانية عشر إلى سبع وثلاثين وستمائة وكان مدة توالي الخراب عليها عشرون سنة إلى أن ظهرت الدولة المرينية فاعيرت البلاد وتأمنت الطرقات...»[73].

---

69. أقدم مخطوط على الورق معروف في أوربا هو تفسير القرآن لابن سلام يعود إلى 252 هـ / 866م ("ليد" خزانة الجامعة الرقم الشرقي 298).

70. النويري : نهاية الأرب ج 1، ص 367.

71. لقد تصارعت دولتان في الأسبقية. ليس في اختراع الورق ولكن في صناعته في الغرب، إيطاليا وإسبانيا ينظر : "بلوم" A.Blum. "مصادر الورق" les origines du papier، باريز، 1936م.

72. الزياني : الترجمان المعرب ص 277 مخطوط الخزانة العامة رقم د 658 ،

73. بن أبي زرع : القرطاس ص 29. ينظر أيضا زهرة الآس ص 33 ط الجزائر.

ويعرف مكان هذا العدد الهائل من المصانع اليوم في فاس باسم الكغادين. ففي مدينة سبتة في شمال المغرب كانت توجد مطاحن الورق. وكان يعرف هذا الورق "بالكاغد السبتي" كما هو الأمر بالنسبة لشاطبة في إسبانيا . . .

قال "جوليان" Ch.Julien «اشتهرت سبتة بإنتاجها للورق المسمى "سبتي"، ووجدت مطاحن في فاس لنفس العمل»[74]. فقد جرى الاستعمال بالورق إذن على نطاق واسع[75]. وأدت نهضة الصناعة الورقية إلى وفرة الكتب ، وبالتالي فإنها تمخضت عن تزايد مراكز بيع المخطوطات في الحواضر الرئيسة الكائنة بشكل خاص بجانب المساجد الكبرى[76].

إن عدد المكتبيين في فاس كان كبيرا[77]. فقد كان هناك زقاق على مقربة من مسجد القرويين يسمى زقاق القرويين لم يكن به إلاَّ تجَّار المخطوطات. وبقي هناك باب جديد للقرويين مفضياإلى هذا الزقاق ومفتوحا في سنة 617هـ. وكان يسمى "باب الوراقين" [78]. وازدهر بيع الكتب في مراكش كثيرا ، فقد استقر كثير من الكتبيين بجانب "الكتبية". وأكد المؤرخون المغاربة أن عددهم كان يفوق المئات. لكن "ركار" P.Ricard ، وبارتكازه على نتائج الحفريات الأثرية التي تم القيام بها بخصوص المسجد الموحدي الشهير ، اقتنع بأن عدد المكتبات كان حوالي مائتين قال «مسجد الكتبية مسجد المكتبيين، هكذا سمي لأنه في السابق كان يوجد في أسفله مائتان متجر لتجار المخطوطات»[79]. وعلى الرغم من خراب عدد كبير من هاته المصانع الورقية في نهاية القرن 7 هـ / 13م كما أشار إلى ذلك صاحب القرطاس، فإن المغرب استمر

---

74 . "شارل جوليان" Ch.A Julien "تاريخ إفريقيا الشمالية""His de l'Afrique du nord" ج 2 ص 122 طبعة 1952 .

75 . زعم أحد الباحثين المعاصرين أن الوراقة كانت على درجة من الازدهار ، أدت بها إلى دخول المطبخ. الأمر الذي مكن النساء المغربيات من صناعة أوراق قوالب تستخدم في تهييء "الپاستيلا" التي اشتهر بها المغرب دائما . ينظر التازي «جامع القرويين" ج 1 ص 145 الهامش 143 .

76 . لقد عرفت صناعة المخطوطات وتجارتها في أوربا امتدادا كبيرا في القرن 15م . و كان النساخ يقيمون منتسخاتهم في الغالب قريبا من الكنائس وحتى داخل الكنائس حيث كانوا يبيعون كتب التقوى والدعوات المزخرفة، وإن كان يبدو لنا البيع داخل الكنائس شاذا . ينظر "سفندال" "تاريخ الكتاب" "Histoire du livre" ص 78 .

77 . كان عددهم في القرن 16ثلاثين. ينظر : حسن الوزان "وصف إفريقيا" ص 207 .

78 . التازي : جامع القرويين ج I ص 94 .

79 . "ركار" P.Ricard le Maroc : Guides bleus. ط 1954 .

يصنع الورق وإن عرف ورقه بالرداءة. فقد صنف القلقشندي ورق المغرب بعد ورق بغداد ، ومصر ، وسوريا[80] . وأرغم المغرب على استيراد الورق الأوربي شأن البلدان الأخرى في ذاك العصر[81] بسبب وضعية هذا الورق وندرته.

ويبدو أن الإيطاليين كانوا أكبر الممونين للورق[82] . فلعل استيراد هذا الورق المعلم من أوربا لم يفلت من آراء الفقهاء بخصوص كل مايأتي من بلاد الكفار. فابن مرزوق يتساءل في نهاية المعيار عن الكاغد المستورد من أوربا : هل هو طاهر، وهل يمكن أن يستعمل في النساخة ؟ وجمع ابن مرزوق هاته النوازل في مجموع يسمى : "المومي إلى القول بطهارة الورق الرومي" [83].تلك كانت المواد الرئيسة للكتابة التي استعملها المغاربة عبر تاريخ حضارتهم المكتوبة.

4.1. التجليد وفن ترميم الكتب

1.4.1. التجليد أو التسفير [84]

يعد التفسير ، كذلك ، عنصرا من عناصر الوراقة. فالصانع المجلد هو في غالب الأحيان ناسخ، بل إنه يكون في بعض الأحيان أديبا . وكان أبو العباس بن عشير المتوفى سنة 765هـ ناسخا ومفسرا في نفس الآن. فقد كان ينتسخ كتاب "عمدة الأحكام" حسب ما ذهب إليه صاحب "نيل الابتهاج" في كل سنة ثلاث مرات وكان يسفره هو بنفسه [85]. وكان محمد الغجاف مسفرا بالرغم من كونه أديبا كبيرا . وكان

80 . القلقشندي : صبح الأعشى ج 2 ص 477.

81 . كيفما كان رأي العرب بخصوص تعلم أوربا فن صناعة الورق فإنهم استعملوا في نهاية القرن 14 م والقرن 15 م الورق المستورد من أوربا بشكل خاص. ومن إحدى خصائص هذا الورق الأوربي هوالفيلغران. ولم يكن الورق العربي معلما ومن أوربا انتقل استعمال الفيلغران فيما بعد إلى الشرق. فأقدم علامات الفيلغراف المؤرخة تعود إلى 1282 (القرن الثالث عشر الميلادي) ينظر : "بريكي"les filigranes, Briquet ، باريز 1907. وفي غياب التجليد وحرد المتن فإن الفيلغران يستخدم في ضبط تاريخ صناعة المخطوط.

82 . كان المغاربة يستوردون الورق من "البندقية" بشكل خاص ، وكان هذا الورق معروفا جدا بمتانته.

83 . المنوني : الخط المغربي في مجلة : البحث العلمي العدد 16 ص 46 سنة 1970 .

84 . إن كلمة "تسفير " مثل "خزانة" هي تسمية مغربية صميمة. ويسمى ذلك في الشرق الإسلامي تجليد . ويسمى أيضا تغليف أي تغطية الشيء بالغلاف.

85 . "بابا" "نيل الابتهاج" ص 70 ينظر ابن زيدان الاتحاف ج 1 ص 310 و 390 .

يستظهر حرفيا ، حسب الجزنائي ، محاضرات الحريري[86] بكر الاشبيلي المتوفى سنة 629هـ، هذا الأخير الذي وضع كتابا في فن التفسير، وكان، حسب مترجمه، ضليعا في الأدب العربي[87]. وعموما كان المسفر مسفرا ووراقا في نفس الآن. وقد تمت مزاولة هاته المهنة منذ وقت باكر في المغرب. وأتقن المغاربة التجليد إلى درجة أصبح معها فنا [88] لوفرة الرقّ. ولم يكن المجلد يكتفي بأن يصنع من الجلد غلافا عاديا لمخطوطه، بل إنه كان يتفنن في تزويق وزخرفة وتذهيب قطعته توخيا لأن يصنع منها أثرا فنيا[89]. فالمغاربة كانوا أكثر تقدما وإتقانا في هاته الصناعة من الشرق الإسلامي[90].

إن كل المصاحف التي حبسها الملوك على الأماكن المقدسة، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، كانت مغلفة بأغلفة جميلة ومذهبة. وكان مصحف عثمان يستأثر بعناية خاصة على عهد الخليفة الموحدي عبد المومن. ولم تكن هناك نسخة من القرآن أحسن من مصحف الخليفة الراشدي من حيث التغليف. وقد بادر إلى تسفير هذا المصحف[91]، حسب الفيلسوف ابن طفيل أحد عشر مختصا من مختلف المهن، وفيهم النجارون، والصائغون، والمزخرفون، والرسامون، و المجلدون «وهذا المصحف الذي ذكرناه وقع إليهم من نسخ عثمان. رضي الله عنه. من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لوءان أخضران، وموضع الأسنة منهما ذهب شبه تفاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضا عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة مموهة بالذهب....»[92].

86. الجزنائي : زهرة الآس، ص 345.

87. ابن القاضي : الجذوة ج 1 ص 169 ط 1973.

88. من الضروري أن نشير إلى أنه كان يوجد نموذجان من التسفير في المغرب، تسفير تجاري مخصص لأغلبية المخطوطات وتسفير الترف موضوع فن مخصص لأقلية الأمراء و الولوعين بالكتب.

89. يتمنى اليوسي لو أن المخطوطات سفرت وأرفقت بغلافات بدون مبالغة. ينظر القانون : الملزمة 24 ص 5.

90. يجب أن نشير إلى أن الأغلفة الأولى في الإسلام قد صنعت في محاكاة مع النماذج الأبيسية والقبطية السابقة عن الإسلام. ينظر "غروهمان وأرنولد" : Grohman and Arnold "الكتاب الإسلامي"the Islamic Book، ص 44.

91. المقري : نفح الطيب. ج 1ص 227. ينظر أيضا الناصري، الاستقصا ج 2 ص 310 ط 1954.

92. المراكشي " المعجب، 366 - 367.

لقدكان الرقاقون يستعملون في التسفير جلود الخرفان في الرتبة الأولى. يخصون جلد الخروف والماعز بالتسفير. واستعملوا أيضا جلد الثعبان. يخبرنا الفيكنت فيليب دي طرازي أن خزانة الأسكوريال كانت بها مخطوطات عربية مصنوعة في المغرب، ومسفرة بأغلفة مأخوذة من جلد الثعبان[93]. ولعل المغاربة هم وحدهم، حسب معرفتنا، الذين قاموا بتسفيرات من هذا النوع[94]. ومن هذا المنطلق، فإن الأغلفة المغربية القديمة التي نعرفها ترجع إلى زمن الموحدين في القرن13م. فقد وجد "پياركار" هاته الوثائق في خزانة مدرسة ابن يوسف في مراكش التي حلت محل مختلف المجموعات الدينية وخاصة مجموعة الكتبية، ويتعلق الأمر بالمصحف الذي رسمه الخليفة الموحدي المرتضى في عشرة مجلدات، والذي تزامن تسفيره مع نسخه[95].

لقد تطور فن التسفير في المغرب بوجه خاص ابتداء من القرن السابع عشر. ويرجع ذلك إلى ما عرفته صناعة الرق من تطور وإتقان. فهذا الرق المسمى "ماركان" Maroquin كما سبقت الإشارة إلى ذلك سابقا، كان من الشهرة بحيث إن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر كلف المستشرق "پوتي دولاكروا" Petit de la croix بأن يشتري له ألف وسبعمائة قطعة جلدية منه لكي يغلف كتب الخزانة الملكية[96]. وقد وصلتنا من بقايا أغلفة هاته الفترة الشيء الكثير، درسها "پياركار"، وتمكن من استنتاج أن المغرب عرف ابتداء من القرن 17م ثلاثة نماذج من الأغلفة مختلفة جدا. فأولا هناك نموذج شرقي قديم بعض الشيء، ومصمم على طريقة الصناعة الفارسية في القرن 17م. وبعد ذلك هناك نموذج يبدو أنه مشهور بعض الشيء في القرن التاسع عشر له مظهر إسباني مورسكي. وأخيرا نموذج زخرفته نادرة استعمل بشكل خاص في القرن18م. ويبدو أن هذا الأخير قد استعمل في عهد المرينيين[97]. لقد شكل التفسير المغربي موضوعا

93. " فليب دي طرازي" : إرشاد الأعارب. ص 597 ط 1949.

94. كان يوجد مخطوط من رق الثعبان كتبت عليه بحروف الذهب "الإلياذة والأوديسا" لهوميروس في القرن 5 في خزانة إستانبول. وأحرق إبان العنف الكاتدرائي الكاثوليكي سنة 478. ينظر "پوتي رادل Petit Radel" "Recherches sur les bibliothèques" ص 30 ط 1819.

95. بخصوص الوصف التقني والفني لهاته الأغلفة الشهيرة، تنظر مجلة "هسبريس" ص 113 ج 17 سنة 1933.

96. نشير إلى كتب الخزانة الملكية في فرنسا (الخزانة الوطنية حاليا) كانت قد سفرت عادة في القرن 17 لـ ب "ماروكان" أحمر موشى بخيوط مذهبة. دقت بعدة ملكية. ينظر "مرتان" H.J.Martin "ظهور الكتاب" l'apparition du livre، ص 157.

97. "پيار ركار" P.Ricard : Reliures marocaines (التسفير المغربي) في مجلة هسبريس 1933 السفر السابع عشر.

لكتابات قام بها الصناع المسفرون أنفسهم. فقد وصلنا مخطوطان، تطرقا إلى هذا الفن، محققان بطريقة علمية حديثة، ويتعلق الأمر بكتاب صناعة تسفير الكتب وحل الذهب [98] للسفياني الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وأرفقه "ركار" Prosper Ricard بفهرست بالمصطلحات التقنية المأخوذة من المؤلف[99]. والمؤلف الآخر هو كتاب "التيسير في صناعة التسفير" الذي ألفه بكر الإشبيلي (المتوفى سنة 629هـ) بإشارة من الخليفة يعقوب المنصور 594هـ، وحققه العالم عبد الله كنون، ونشره في سنة 1959م. وقد أرفق الكتاب بمقدمة هامة جدا عن فن التفسير في المغرب.

ويجب أن نذكر أيضا من المؤلفات المرتبطة بهاته المهنة والتي لم يصل إلينا منها إلا عناوينها كتاب نبيل بن نبيل الرعيني[100]. "كتاب التدبير في صناعة التسفير" [101] وأخيرا كتاب ابن عردون عن فن التفسير الذي أشار إليه السفياني صدفة في مقدمة مؤلفه المذكور. يقول "ركار" Prosper Ricard «وعموما فإن المؤلفات العربية المعالجة لتقنية الفنون والمهن الأهلية هي نادرة للغاية. فالعمال والصناع لم يكونوا بدون شك مثقفين بما فيه الكفاية[102] لكي يسجلوا ملاحظاتهم على الورق. وكانوا يكتفون على الأرجح بنقل تطبيقات فنهم بواسطة الطريقة الوحيدة التقليدية»[103]. إن التسفير، شأنه في ذلك شأن النساخة، قد قام بدور أساس في حفظ عدد كبير من المؤلفات التي لو لم تكن قد جلدت لكانت ستكون قد ضاعت منذ زمن طويل.

2.4.4.1. فن ترميم الكتب

من المفروض في المسفر أن يعرف ترميم مخطوط نهشته الأرضة القوارض، أو فتّتته الرطوبة، ونحن لا نقصد أن نصف بشمولية مختلف الإجراءات التقنية التي استعملها شيوخ فن ترميم الكتب عبر العصور.

---

98. حققه ونشره "بروسبر ركار" Geuthner في 1925.
99. لقد وقف "ركار" على 257 مصطلح تقني مرتبط بهذا الفن وترجمه إلى الفرنسية.
100. كنون: كتاب التيسير، المقدمة.
101. نفسه.
102. ومع ذلك فقد أشرنا إلى أن أصحاب المؤلفات المذكورة لم يكونوا أميين.
103. "ركار" P. Ricard. صناعة التسفير. المقدمة.

فعدم قدرتنا من جهة، وندرة المعلومات المتعلقة بهذا الميدان من جهة أخرى يقفان حاجزا دون ذلك. ومع ذلك فنحن نعلم أن فن ترميم المخطوطات كان متطوراً. وعلاوة على الأماكن الخاصة للشيوخ المسفرين والمتخصصين في فن ترميم الكتب، فإن الخزانات المغربية وخاصة خزانات كتب الزوايا، كانت مرفقة بمحترفات الترميم، ومازالت خزانة كتب الزاوية العياشية تحتفظ إلى يومنا هذا بالأدوات التي استخدمت سابقا في ترميم المخطوطات.

لقد انتبه الملوك المغاربة دائما إلى ما كان يلحق المخطوطات في المكتبات العامة من فساد. وكانوا يقومون بترميم المخطوطات بظهير شريف. وبه قام الملك مولاي عبد الرحمن بن هشام بترميم مخطوطات القرويين[104]. فأحد المؤلفات[105] المرممة والمسفرة يحمل التقييد التالي «الحمد لله من فضل الله تم من بركة مولانا أيده الله ونصره وخلد في الصالحات ذكره لما ورد أمر مولانا السلطان الإمام المجاهد أبي المنصور وأبي زيد عبد الرحمن بن مولانا هشام(...) على قاضيه العلامة الحجة (...) مولانا عبد الهادي بن العلامة مولانا عبد الله(...) أن يشد عضد قيم الخزانة العلمية التي بقبلة جامع القرويين الكبرى وما أضيف إليها من خزانة مسجد الرصيف وخزانة فاس العليا وأن يأمر الناظر بإصلاح ما تحتاج إليه كتب الخزائن المذكورة من إصلاح وتجديد وتسفير». ومن ضمن المخطوطات المرممة كتاب "الشفا" لعياض في ثلاثين سفرا، ونسخة من صحيح البخاري في أربعين سفرا، ونسخة من كتاب "الإحياء" للغزالي، وكتاب "الأحكام السلطانية" للماوردي وأخيرا "الإصابة" لابن حجر[106]. فقد قام السلطان الحسن الأول هو كذلك بإصلاح خزانة كتب القرويين بظهير شريف. وينص الظهير على أن يتم تعيين ناسخ ومجلد من أجل إعادة انتساخ وتجليد وترميم المخطوطات التي تآكلت وتلفت[107]. إنَّ فن التجليد وفن ترميم المخطوطات حسب ابن الحاج

---

104. الفاسي : الخزانة العلمية ص 71.
105. يتعلق الأمر بالسفر الثاني من كتاب "تيسير الوصول إلى جامع الأصول" "لابن الربيع الشيباني" المحفوظ في القرويين تحت رقم 40 / 234.
106. الفاسي : الخزانة العلمية ص 71.
107. نفسه

(المتوفى سنة 733هـ / 1336م) قد قاما بدور أساس على المستوى الديني. فاعتمادا عليهما تم الحفاظ على عدد كبير من المصاحف ومن مؤلفات الحديث والفقه [108].

يبدو إذن أن فن ترميم المخطوطات إضافة إلى فن التسفير شكلا دائما جزءا مكملا للوراقة التي كان يقوم بها في غالب الأحيان الأدباء. ومن نافلة القول أن نشير أخيرا إلى الدور الأساس الذي تلعبه الوراقة في تطور وإغناء الخزانة في المغرب[109].

II. المطبعة في المغرب

لم يعرف المغرب فن المطبعة إلا في فترة متأخرة جدا، شأنه في ذلك شأن الدول الإسلامية الأخرى. والمطابع الأولى إنما أنشأها الأجانب. ففي 1860 تم إحداث مطبعة إسبانية في تطوان [110]. وأحدث الرهبان الفرنسيسكانيين في 1863 مطبعة في طنجة. ولكن أقدم مطبعة أنشئت في المغرب هي تلك أحدثها اليهود المطرودون من إسبانيا في القرن الخامس عشر الميلادي في فاس ومكناس. وأول كتاب يهودي طبع في إفريقيا كان في 1525م في فاس. وهو شرح إسحاق أبربنال [111] للتوراة.

وكانت أول محاولة طباعية في المغرب أولا على شكل مكبس طباعي حجري. ولم يتعود المغرب على الطباعة إلا بعد أن ابتدأ بالطباعة الحجرية. فقد استخدمت هاته الأخيرة إذن في فترة الانتقال ما بين زمن المخطوطات وزمن الاعتماد النهائي على الطباعة.

فماهي إذن الطباعة الحجرية ؟ وماهي أسباب وظروف دخول هذا الأسلوب إلى المغرب ؟ وماذا صنعته هاته التقنية الجديدة في إثراء المكتبات المغربية ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه.

---

108. ابن الحاج : المدخل ج 4 ص 87.

109. إن مسكويه وياقوت وآخرين من الأعلام والأدباء المغاربة مثل ابن الصقر كانوا وراقين شأنهم في ذلك شأن ابن النديم. حتى إنه قيل إن منتسخات الوراقين كانت في جوانب منها مشابهة للصالونات الأدبية الأوربية في القرن الثامن عشر.

110. داود : مختصر تاريخ تطوان، ص 194.

111. توجد نسخة من هذا المؤلف في : the library of the Hebrew union collège cincinate. Ohia U. S. A. وتحتفظ الخزانة الوطنية في باريز بكتب يهودية مطبوعة في القرن 19م في مكناس وفي فاس مثل "سفر مشمات هيم" للمؤلفه "هيم مسس" م في مكناس مطبعة سياج في مكناس "سفر مليل لوأفرٍبام" لهايم إلياهر أفراهام بن شخرت" في فاس.

1. الطباعة الحجرية

. المفهوم والوظيفة

فن الطباعة الحجرية هي أن نكتب على الحجر بالقلم أو بالريشة نصوصا وتصاميم ورسوما يمكن أن تُنسَخ على الورق أو القماش بواسطة المطبعة. وقد اشتهر الممثل والشاعر "ألواس سنفلدر" Aloise senefelder عموما باختراعه لهاته التقنية الجديدة في 1796م. فهو أول من لاحظ خاصية الأحجار الكلسية في أن تحتفظ بالخطوط المشكلة بواسطة مداد دهني وأن تنقلها في كل صفائها إلى الورق، وذلك بالضغط بقوة على السطح. وذهب "بنيو" Peinot إلى أنه من المؤاتي جدا أن نعطيها اسم lithoglyptique من الكلمة litho حجر و gluphê نحت، أو أن نستعير كلمة Polyantographie التي استخدمها الانجليزيون [112].

إن الوظيفة الرئيسة للطباعة الحجرية هي النسخ الآلي لمخطوط معين إلى نسخ متعددة، فالأسلوب الجديد قد جعل النصوص في متناول الجميع بسرعة، وضمن لها قوة في الانتشار تفوق المخطوطات.

فلماذا اعتمد المغرب أولا أسلوب الطباعة الحجرية .؟

2. دخول الطباعة الحجرية إلى المغرب

1.2. أسباب اعتماد التقنية الجديدة

مرّ المغرب، شأنه شأن كل الأقطار الإسلامية الأخرى، عبر مرحلة الطباعة الحجرية قبل أن يعتمد المطبعة ذات الحروف المتحركة. فالأسباب التي كانت وراء اعتماد الطباعة الحجرية متعددة. فنحن نتفق مع "دمرسمان" [113] Demeersmonn في أن هاته الأسباب هي في نفس الآن تقنية، وفنية، وثقافية، واجتماعية، واقتصادية.

---

112 . "بنيو" "محاولة في تأريخ الطباعة الحجرية» Essai histhorique sur la lithgraphie. Peignot ص 2 .

113 . "د مرسمان" "الطباعة الحجرية العربية" la lithographie arabe : “Demeersmann ص 5 تونس 1954 .

\ السبب التقني

تتيح الطباعة الحجرية ، كما نعرف، إمكانات متعددة وخاصة بالنسبة للرسوم، والخرائط ، والبيانات التي لا تتيحها الطباعة، أو التنضيد السطري. فالصفحة التي تملأ من كل الجهات بسلسلة باهرة من الإشارات والشروحات لا يمكن أن تنسخ إلا بالطباعة الحجرية. فهاته الأخيرة تمكن كما هو الأمر في المخطوطات بأن تكتب في الهوامش ملاحظات المؤلف، وشروحات مختلف الشراح.

\ السبب الفني

الإفادة التي لاتقدر بثمن في الطباعة الحجرية كونها فنا قابلا بشكل مدهش لإعادة نسخ الكتابة. فلم يكن المغاربة ، مثل جميع المسلمين ، مستعدين للتخلي عن كتابتهم المرتبطة بتاريخ تراثهم، والتي تكتسي في نظرهم ، من هذا المتناول ، طابعا قدسيا . إن الطباعة الحجرية إذن قد أنقذت هذا الفن الذي أجله المغاربة كثيرا ودرسوه ، وأريد به الخط العربي.

\ السبب الثقافي

لم تكن الطباعة الحجرية لتخيب آمال القراء . فكتابة الطبعات الحجرية الأولى تشابه مظهر المخطوطات بأكثر ما يمكن من الأمانة. إن المؤلفات المطبوعة طباعة حجرية كان مظهرها يشابه المخطوطات تماما ؛ نفس المظهر العام، ونفس الكتابة الضيقة . فالقراء المتعودون على قراءة المخطوطات لم يجدوا مشقة في قراءة مؤلف مطبوع طباعة حجرية.

\ السبب الاجتماعي

من البين أن الخوف من معاينة انهيار مهنة الكتاب والرق وصناعه هو الذي يفسر نفور المغرب والدول الإسلامية عامة من المطبعة، وتفضيلهم الواضح للطباعة الحجرية. ولا يفهم من هاته الأخيرة أنها أعرضت

عن التجربة الماضية. ولكنها جسدت حسن الانتقال من تجربة إلى أخرى. فالطبع الحجري يعني في جانب منه استمرار النسخ التقليدي...

\ السبب الاقتصادي

اعتمد المغرب الطباعة الحجرية، شأن البلدان الإسلامية الأخرى لأنها لم تكن مكلفة مثل الطباعة. فالمطبعة الحجرية التي اعتمدت أقل ما يمكن من اللوازم أتاحت عددا من الإيجابيات الاقتصادية. إن الأسباب التي وقفنا بها تبدو لنا حاسمة. فقد لخصت "الصحيفة الأسوية" ابتداء من 1894 بحديثها عن الطباعة الحجرية في آسيا هاته الأخيرة في مصطلحات يبدو أنها تناسب المشاكل الطباعية الحجرية في المغرب. جاء فيها : «وضعت الطباعة الحجرية بطبيعة الحال لأن تستخدم وسيطا بين المخطوطات والطباعة، فهي لم تكن تفترض بناء كبيراً، ولم تقض على طبقة النساخ وحافظت على شكل الحروف التي تعود عليها قراء المخطوطات، هؤلاء الأخيرون الذين كانوا يشعرون بنفور كبير من الكتب المطبوعة : ووفرت على الناس حاجياتهم بشكل كبير، إذ لم تصبح الحاجة تدعو إلا إلى عدد محصور من النسخ»[114] فقد كانت الطباعة الحجرية إذن هي الاختراع المثالي بالنسبة للمغرب، وكل الدول الإسلامية ، بسبب أنها لم تحدث قطيعة مع الماضي بل أُضفَت على هذا الماضي فوائد جمة.

ولنحاول الآن أن نعاين الظروف التي كانت وراء استقرار هذا الاختراع الجديد في المغرب[115]. إن أول محاولة للمطبعة أو بالأحرى للطباعة الحجرية في المغرب لا تعود إلى أبعد من ولاية الملك محمد بن عبد الرحمن 1859م/ 1873 م. وقد جيء بالمادة الأساس لهذا الأمر من القاهرة. إن السيد الطيب بن محمد الروداني، حسب سجل وثائق الوزير بليمني، قد عقد اتفاقا مع الملك إسماعيل المصري بهذا الشأن. وأهدى قاضي تارودانت إلى السلطان محمد الرابع لحظة عودته إلى المغرب المطبعة والتقني المصري. وكان

114 . "الصحيفة الأسوية"Journal Asiatique، السلسلة الثانية ج 14(1834) ص 266.

115 . لقد قدم لنا عياش معطيات مفصلة عن إقرار الطباعة الحجرية في المغرب في : "ظهور المطبعة في المغرب". في مجلة "هسبريس" 1964. وكذا المنوني في " مظاهر يقظة المغرب الحديث" ص 205 - 250 ط 73-19م.

السلطان قد سبق أن اتصل بالملك المصري إسماعيل بخصوص إدخال التقنية الجديدة إلى البلد . وتكلف الملك وهيئة التحبيس بالمحترف، والتقني، والمتمرنين كما هو الأمر في جميع البلدان الإسلامية، فأول مطبعة في المغرب كانت إذن مؤسسة تابعة للدولة. وكانت بدايتها في مكناس من يناير إلى غشت 1865م [116] ، ولم تستقر في فاس إلا بعد فوات الأوان، وكان ذلك من أخطاء التقليد . فقد سميت المطبعة الملكية في البداية باسم "المطبعة السعيدة" أو "المطبعة المحمدية" باسم السلطان محمد الرابع. ولم يكن الجمهور ليستقبل المطبعة بدون صعوبات. فالصراع الذي أنشأه دخولها إلى المغرب كان في أهمية مشابهة لذلك الذي أحدثه الفقهاء في الأقطار الإسلامية الأخرى. وهذا ما يفسر تأخر دخول التقنية الجديدة إلى بلدان الإسلام بشكل عام، وإلى المغرب بوجه خاص[117] .

2.2 الطبعات الاستهلالية [118] والمطبوعات الحجرية

الطبعات الاستهلالية هي الكتب الأولى المطبوعة طبعات حجرية في المطبعة الملكية على عهد محمد الرابع، يعني ما بين 1865م و 1873م فهاته الكتب التي يصل عددها إلى خمسة هي أولا "الشمائل الترمذية" [119] ، وهو الكتاب الوحيد الذي طبع في مكناس في سنة 1865م، وبعد ذلك طبع في فاس "شرح الأزهري على الأجرومية" [120] في سنة 1866م و"مختصر الدر الثمين" [121] لميارة الفاسي في 1866م، و"شرح [122] التاودي بن سودة على ابن عاصم" في سنة 1867م، وأخيرا "الشرح الصغير للخرشي [123] على مختصر خليل" . ولم يظهر أي عنوان آخر باستثناء إعادة طبع التاودي بن سودة والخرشي.

116 . يجب أن نشير إلى أن "ابن أبي شنب" و "ليڤي پروڤنصال" قد ذكرا في فهرستهما للطبعات الحجرية المغربية طبعات سابقة ليس فقط عن 1865م، ولكن عن اختراع الطباعة الحجرية، وأحدثها تعود إلى 1815م، وأقدمها تعود إلى 1714م. فهذان الباحثان الكبيران ضلا الحقيقة بخلطهما بين المخطوطات والمؤلفات المطبوعة طباعة حجرية. ولاشيء يشتبه مع مخطوط إلا كتاب مطبوع طباعة حجرية.

117 . يجب أن ننتظر 15 سنة بعد دخول المطبعة لطباعة أول مصحف في المغرب طباعة حجرية.

118 . هاته الكلمة تعني كل مؤلف مطبوع في الزمان الأول للمطبعة والسابق عن سنة 1501 .

119 . تم تحديد الإخراج في 103 نسخة.

120 . تم تحديد الإخراج في 180 نسخة.

121 . تم تحديد الإخراج في 300 نسخة.

122 . تم تحديد الإخراج في 300 نسخة (ونشير إلى أن عدد الإخراج المتوسط المرتبط بالطبعات الاستهلالية الأوربية كان هو 500 نسخة)

123 . إخراج محدد في 600 نسخة.

وبعد 1868م أصبحت الطباعة الحجرية في المغرب مؤسسة خاصة [124]. فقد أقيمت محترفات طباعية حجرية خاصة [125] في فاس، وابتدأت بنشر النصوص التي لم تتداول إلى ذلك الحين إلا في شكل مخطوطات. ومن الملاحظ أن المؤلفات المطبوعة الأولى في عهد سيدي محمد هي مؤلفات التدريس. فهي تقريبا مختصرات أو مرادفات للمنتسخات الدراسية اليوم. وفيما يخص المحترفات الخاصة فقد تخصصت في طبع المقررات الدراسية مثل "موطأ" مالك، و"بدايات المجتهد" لابن رشد، و"الشفا" لعياض، و"مشرق الأنوار" لعياض أيضا، و"الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني، و"التسهيل" لابن مالك، و"المعيار" للونشريسي، و"المعيار" للفاسي. فالعديد من هاته المؤلفات قد طبع طبعات جديدة مثل "اليواقيت الأحمدية" لأحمد سكيرج، و"السعادة الأبدية" لابن الموقت. وهناك كتب أخرى مازالت توجد فقط في طبعتها الأصلية أو الأولى.

ولعل عدد الطبعات الحجرية منذ البداية إلى غداة الحرب الثانية يقترب من ألفين طبعة. فقد طبع الجزء الأكبر قبل دخول الحماية الفرنسية [126]. وطبعت في عهد الحسن الأول[127] المؤلفات العلمية بشكل خاص طباعة حجرية. وكان "تحرير أصول أقليدس" لنصر الدين الطوسي المتوفى سنة 627 / 1274 هو أول مؤلف علمي حصل له شرف الطبع في المغرب [128]. وفي عهد أتباعه مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ طبعت مؤلفات الفقه وخاصة مؤلفات النوازل طباعة حجرية مثل معيار الونشريسي.

إن الكتب المطبوعة طباعة حجرية في المغرب مثل مطبوعات [129] بولاق، ومصر ذات صيت كبير بسبب قيمة طبعتها. فقد كانت محترفات الطباعة الحجرية في المغرب تتوفر على نساخ كبار، ومصححين

124 . شاع الخبر حسب "رونو" Renauld أن الشيخ الليتوغرافي المصري كان مسيحيا من أصل تركي، طرد وانتهى عتاده إلى الخواص. وهكذا غابت الطباعة الحجرية الملكية. ينظر "أرشيون" ص 332.

125 . استقر أعضاء من أسرة الفاسي الأزرق، وبعد أن تتلمذوا على التقني المصري القباني في المطبعة الملكية في فاس ليشتغلوا في إطار خاص.

126 . يجب أن نشير إلى أن الطبعات الاستهلالية الأولى لها بالضبط نفس مظهر المخطوطات رغم الترقيم في شكل ملازم، فالتعقيبة قد بقيت مستعملة. ويجب أن نشير أخيرا إلى أن الطبعات الحجرية الملونة التي نجدها في أوربا هي غير موجودة تقريبا في المغرب.

127 . في عهد هذا الملك ظهرت سلسلة من المطابع الخاصة، وعرفت نوعا من النشاط.

128 . طبع في 1293 هـ / 1876م بواسطة المحترف الطباعي الحجري الخاص للعربي الأزرق.

129 . كانت المخطوطات التي تطبعها "بولاق" في مصر في القرن 19 تقرأ أو تراجع من طرف علماء كبار.

بارزين كانوا يسهرون على طبع المخطوطات طباعة جيدة، ونحن نعلم أنه في عهد محمد الرابع كانت تنقح النصوص قبل الطباعة [130]، ولهذا السبب فإن هاته الكتب مثل المخطوطات قد ظهرت بمظهر البضاعة النادرة والثمينة [131]. وقد وزع منها الحسن الأول [132] عددا معينا على خزانات كتب العالم الإسلامي مثل خزانات الأماكن المقدسة ، والقاهرة ، وإستانبول، وتمكن الأوربيون من الحصول على البعض منها [133].

فماذا عن فهارس المطبوعات الحجرية؟ إننا نأسف لغياب فهرس شمولي في هذا الإطار. ولعل ما ذكر من عناوين المطبوعات الحجرية يوجد متفرقا في مقالات ضمن مجلات مثل مجلة :"الوثائق المغربية"، و"المجلة الإفريقية"[134] وهي لوائح بعيدة عن أن تكون شاملة. لقد آن الأوان أن نصنع فهارس لهاته المطبوعات على غرار المطبوعات الاستهلالية الأوروبية.

فكان يجب فيما يخص الطباعة أن ننتظر حتى القرن العشرين، وبالضبط إلى عهد الحماية، لكي تظهر مطبعة ذات حروف متحركة[135].

وإذا كانت الوراقة قد أسهمت بشكل كبير في تطور المكتبات المغربية، فلم تكن الطباعة الحجرية لتغير شيئا من الوضعية المزرية لهاته المكتبات في القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من كونها أداة للاستنساخ الآلي للنصوص، فهي لم تغير في شيء مهنة النساخة التي استمرت على حالها، واستمر التهافت عليها. فبقيت أعداد كبيرة من الكتب لهذا السبب تظهر على شكل مخطوطات[136]

---

130 . "عياش" Apparition de l'imprimerie au Maroc.19. G. Ayyache " ظهور المطبعة في المغرب" مجلة هسبريس " 1964 ص 158 .

131 . تباع بثمن المخطوطات.

132 . لقد كان الأمير وولي العهد الحسن مسئولا في حياة أبيه عن أن يبيع في مراكش طبعات فاس. ينظر : "عياش" "ظهور المطبعة في المغرب" مجلة "هسبريس" ص 158 .

133 . تضم خزانة معهد اللغات الشرقية في باريس نسخة مطبوعة طباعة حجرية في فاس من "قانون اليوسي" تحت رقم H.D VII 28. ونسخة من "ممتع الأسماع" للمهدي الفاسي. مطبوعة طباعة حجرية في فاس ومحفوظة تحت رقم (G G VI 90).

134 . أصدر ابن أبي شنب وليفي بروفنصال مقالا في هاته المجلة سنة 1922 بعنوان "معجم بأسماء ما نشر في فاس من الكتب" وأردافيه 356 عنوان.

135 . أشار "لوتورنو" إلى محاولة المولى حفيظ لإدخال المطبعة، فكان هذا العاهل يفكر بهذا الأمر في 1910 . واستعان بأحد السوريين اسمه "يامي" في ابتياع آلة ألمانية ذات حروف متحركة، ومع الحماية نبذت الآلة في مخزن للعتاد أو بيعت بأقل من ثمنها "فاس قبل الحماية" ص 475 ط 1949 .

136 . تمت طباعة شمائل الترمذي في 1865 وتحتفظ الخزانة العامة بالرباط بنسخة مخطوطة من هذا الكتاب انتسخت في1867 م.

الفصل الرابع :
مخطوطات المكتبات المغربية

اشتهر المغرب بكونه أول دولة إسلامية تحتفظ بالمخطوطات التي لا توجد في أماكن أخرى. وعرفت مكتباته دائما بالتعدد والتنوع والثراء.

فما هي طبيعة هاته المجموعات المشكلة لهاته الخزانات سواء في الماضي أو في الحاضر ؟ وماهي نوعياتها ؟ . إن الجواب عن هاته الأسئلة سيكون مقنعا بذكر بل ووصف عدد من المخطوطات النادرة أو المنتسخة من طرف مؤلفيها أو المأخوذة عن الأصول أو نوادر في المجموعات الملكية الخاصة أو العمومية.

I . محتويات المجموعات الخطية في الخزانات

1 . في الماضي

قبل أن نعطي فكرة عن محتويات المجموعات الي تضمها المكتبات المغربية اليوم، من المفيد أن نسترجع أولا ما كانت عليه هاته المجموعات في الأزمنة الغابرة عبر تاريخ هاته المؤسسات. إن المكتبات المغربية الأولى كانت تجمع، على غرار القرون الإسلامية الأولى، المؤلفات المتعلقة أساسا بعلوم القرآن ، والحديث النبوي الشريف ، واللغة ، والنحو. ولعل الجزئيات التي نتوفر عليها والمتعلقة بالمجموعات الأولى التي وصلتنا هي شاهد على ذلك. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الخزانة الخاصة لابن العجوز السبتي المتوفى سنة 413هـ / 1021م كانت مكونة في جزء كبير منها من مؤلفات الفقه. فقد أخبرنا ابن فرحون أن عالم

سبتة أثناء عودته من القرويين التي كان يحضر فيها محاضرات ابن أبي زيد حمل معه مجموعة من مؤلفات الفقه وخاصة "النوادر" و"المختصر" لابن أبي زيد نفسه[1].

فقد بقيت المكتبات على حالها إلى حين القرن العاشر والحادي عشر. ويشهد على ذلك محتوى الخزانة الملكية للملوك المرابطين. فمؤلفات علوم الفروع تحتل فيها مكانا كبيرا. فقد كان الأمراء المرابطون المغالون في مذهبهم المالكي يحثون فقهاء زمانهم على تأليف مؤلفات متعلقة بهاته المدرسة[2].

وكان الكتاب يؤلفون المؤلفات، ويكثرون من الشروحات استجابةً لإشارة الملوك. وأتاحت حركة التأليف الواسعة للأدباء والخواص أن يمتلكوا خزانات كتب خاصة عامرة. ولم يكن يسمح لهم بأن يضعوا في مكتباتهم كتب الفلسفة، وأصول الدين، والتصوف، فكل من سعى في جمع مثل هاته الكتب أو التماسها كان يتعرض لأقسى العقوبات، أن تصادر ثروته. فكان يجب أن ننتظر فترة الموحدين لكي نعاين تفتح العلوم التي حظرها الأوائل أو كانوا يجهلونها. وهكذا بدأت كتب العلوم، والفلسفة، وأصول الدين والتصوف تجاور المصاحف، ومؤلفات النحو، والأدب، واللغة، في الخزانات المغربية.

لقد دعا الموحدون، الذين عرفوا بالتفتح والاعتدال، الفلاسفة إلى نسخ الآثار الفلسفية اليونانية[3] أو شرحها. فقد ساعدوا على تطور الحركة الصوفية المتسترة في المغرب، والتي لم تستطع أن تظهر كليا: يقول "تراس" «من الواضح جدا أن كبار زعماء المتصوفة في المغرب أولئك الذين سيبقون أكثر شعبية من أوليائه قد عاشوا تقريبا جميعهم على عهد المرابطين، وماتوا في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي»[4].

---

1. ابن فرحون، الديباج، ج 2 ص 4

2. أنجز موطأ مالك بن أنس (رواية يحيى) في ثمانية أجزاء على رق الغزال برسم خزانة أمير المسلمين علي بن يوسف (500 - 537) من طرف اللخمي عبر خط أندلسي، مقابلة تعود إلى 502هـ. وحبسه السلطان المريني أبو عنان على القرويين. ينظر فهرس القرويين ج 1 ص 32.

3. طلب الخليفة الموحدي يوسف من ابن رشد أن يشرح آثار أرسطو.

4. "جوليان" A. Julien "تاريخ إفريقيا الشمالية» Histoire de l'Afrique du nord ج 2 ص 131. ونحن مدينون لهاته الفترة بأول كتاب صوفي: "التشوف" للتادلي (المتوفى سنة 627هـ). فهذا المصنف لتراجم المتصوفة المغاربة حققه في 1958 "فور" A. Faure (المتوفى سنة 1983) وهو لا يوجد اليوم. وظهرت طبعة جديدة منه في سنة 1984 بتحقيق الباحث المقتدر أحمد التوفيق.

وشجع الموحدون الأطباء أيضا على تأليف مؤلفات في الطب. وهكذا نشد الملك عبد المومن من أبي مروان عبد الملك بن زهر ت 557هـ / 1162م تأليف مصنف في الأطعمة. فاستجاب لطلب الملك وبعد أشهر أحضر إليه مؤلفه المسمى كتاب الأغذية[5]؛ وصف فيه ابن زهر مختلف الأطعمة التي يجب أن نستهلكها حسب الفصول، وشرح فيه أيضا المفعولات الإيجابية والمفعولات غير المرغوب فيها لهاته المأكولات. وإذن فلم تكن محتويات الكتب التي كانت تتسع لها المكتبات المغربية في هاته الفترة من تطورها منحصرة في مؤلفات الفقه والعلوم الشرعية. ولكنها كانت تتسع للمؤلفات المرتبطة بالعلوم المذكورة المدرسة أو التي كانت تدعو إليها الدولة الحاكمة.

وابتداء من القرن7 هـ / 12 م وخاصة بعد وصول بني مرين إلى الحكم، بدأت كل العلوم المعروفة في العصر تقريبا تدرس وتعرف بشكل واسع. ففي القرويين كانت تدرس إلى جانب العلوم الدينية الرياضيات والحساب، وعلم الفلك، وعلوم أخرى، وتم اقتناء أو انتساخ عدد كبير من المؤلفات المتعلقة بهاته المواد المدرسة، الشيء الذي أدى إلى تزايد كتب القرويين ومكتبات أخرى. ومن البديهي أن يمارس التعليم تأثيرا واضحا على تأسيس وبنية خزانات كتب هاته الفترات.

فكل الثروات الهائلة المحفوظة حاليا في مختلف الخزانات المغربية تشكلت انطلاقا من الفترة المرينية التي عرف فيها المغرب أكبر مفكرية ومؤلفاته.

2. في الحاضر

ترجع المخطوطات المحفوظة حاليا في المغرب، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، إلى القرون الستة الأخيرة. فالمؤلفات المرتبطة بمختلف العلوم المدرسة سواء في الجامعات، أو في المدارس والزوايا مازال معظمها

---

5. مخطوط محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 1590 كتب بخط مغربي. وأنجزت نسخة أخرى مبتورة الأول منتمية إلى مجموع محفوظ تحت رقم 2430 بخط أندلسي. فالمخطوط الثاني أقدم من الأول.

محفوظا في خزاناتنا. وتعطينا اللوائح والفهارس التي أنجزت في الفترة المعاصرة فكرة عما يمكن أن تخفيه مؤسساتنا العلمية من مؤلفات قيمة. وعلى الرغم من شمولية هاته الفهارس فإنها تبقى غير وافية. فالمكتبات المغربية تضم نوادر مازالت غير معروفة لدى المثقفين والكتبيين أنفسهم. وسنكتفي هنا بالحديث عن الفهارس، والكناشات، والمجاميع وهي ضروب من المجموعات غير المدروسة والتي تضم عددا كبيرا من المؤلفات النادرة والنفيسة.

1.2. الفهرسة [6]

الفهرسة جنس أدبي وتاريخي في نفس الآن. فهي تضم وصفات ببليوغرافية، ومعلومات متنوعة عن الحياة الثقافية لفترة معينة؛ برامج وكتب مستعملة، ومواد مدروسة فأول المحدثين أو دعوا فيها بشكل خاص أسماء شيوخهم حيث انحدرت تسمية "مشيخة". وحينما بدأ المؤلفون يرتبون فيها أسماء الشيوخ، وعناوين الكتب ألفبائيا استبدلت مشيخة بلفظة معجم. وهيمنت عليها أخيرا كلمة ثبت. وفي المغرب الإسلامي تم اختيار لفظتين، برنامج [7] في الأندلس، وفهرسة في المغرب، للإشارة إلى هاته الأنواع من المجاميع[8].

إن هاته الفهارس التي كانت مفيدة كثيرا في تحديد حلقات العلوم في المغرب ارتبطت في غالب الأحيان بعلماء عكفوا طيلة حياتهم على الدراسة والبحث. فليس هناك كاتب عربي في المغرب لم يكتب في أواخر حياته بعض الصفحات عن شيوخه ومعاناتهم في التدريس والشرح. وحتى الملوك لم يفتهم أن يؤلفوا أو يحثوا كتابهم على أن يؤلفوا لهم الفهارس. إذ يخبرنا صاحب "صفوة من انتصر" أن العاهل السعدي أحمد المنصور ألف فهرسًا[9]. وكلف الملك العلوي المولاي سليمان مؤرخ المملكة الرسمي الزياني أن يؤلف له واحدا[10].

---

6. كلمة من أصل فارسي.
7. كلمة من أصل فارسي أيضا.
8. الكتاني (عبد الحي)، فهرس الفهارس، ج1 ص 38 ط 1346هـ.
9. الإفراني: الصفوة، ص 9.
10. عنوان هاته الفهرسة: جوهرة التيجان وفهرس الياقوت واللؤلؤ والمرجان في الملوك العلويين والشيخ أمير المؤمنين مولانا سليمان. ينظر ابن سودة. الدليل ج 1 ص 296.

إن الفهارس كانت عديدة جدا . وليس من الممكن أن نحصرها في لائحة شاملة. ولذلك فسنكتفي بالاستشهاد ببعض النماذج منها مما يشكل وثائق أصيلة. إن "غنية" عياض (المتوفى سنة 544هـ) هي إحدى عيون الفهارس المغربية القديمة. وباعتبار طابعها الدراسي، فليس هناك خزانة كبيرة لا تتوفر على نسخة منها[11] . وتعتبر فهرسة اليوسي ذات قيمة كبيرة فيما يخص التدريس. يقول بهذا الصدد«والمدرس إن لم يكن في صنعة التدريس طبيبا ماهرا كان ما يفسده أكثر مما يصلحه والله المستعان»[12] . ويمكن أن نشير أيضا من ضمن العديد من الفهارس المغربية، إلى فهرسة الشيخ العربي الفاسي صاحب مرآة المحاسن[13]، وفهرسة العلامة أبي سعود الفاسي [14] التي حققها محمد بن أبي شنب، وفهرسة المتصوف المغربي ابن عجيبة (المتوفى سنة 1275هـ / 1858م)[15] . وفهرسة عبد الملك التاجموعتي (المتوفى سنة 1118هـ / 1706م)[16] . وفهرسة ابن الطيب القادري التي يوجد مخطوطها الأصلي في الخزانة الخاصة للأستاذ إبراهيم الكتاني[17]، وأخيرا فهرسة المهدي بن سودة المتوفى سنة 1294هـ / 1877م التي يحتفظ بمخطوطها الأصلي في الخزانة الأحمدية في فاس [18].

ويحدث للمؤلفين المغاربة أن يؤلفوا فهرسين يسمونهما الفهرسة الكبرى، والفهرسة الصغرى. فالفهرسة المزدوجة لأبي العباس أحمد بن الحوات[19] المتوفى 1343هـ / 1924م. وفهرسة أحمد بن علي المنجور 995/ 1386 هما من هذا النوع. ويحدث أيضا أن يؤلفوا فهارس منظومة. وخير مثال على ذلك[21] الفهرسة

---

11 . علاوة على الخزانات المغربية تحتفظ الخزانة الوطنية في مدريد بنسخة من "الغنية" تحت رقم 307، وتحتفظ دار الكتب في القاهرة بنسخة أخرى تحت رقم 4913.

12 . مات اليوسي قبل أن يكمله. وهناك نسخة فيه محفوظة في الخزانة الملكية تحت رقم 1183 .

13 . ابن سودة : الدليل، ج 2 ص 324.

14 . هناك نسخة محفوظة منه في الخزانة الأحمدية في فاس. ينظر ابن سودة. الدليل ج 2 ص 324 .

15 . ابن سودة : الدليل، ج 2 ص 324.

16 . تحتفظ بنسخة منه في الخزانة الفاسية في فاس. ينظر ابن سودة. الدليل ج 2 ص 316 .

17 . محافظ جناح المخطوطات في الخزانة العامة في الرباط

18 . ابن سودة. الدليل، ج 2 ص 314.

19 . محفوظة في الخزانة الأحمدية في فاس.

20 . ابن سودة. الدليل، ج 2 ص 314.

21 . محفوظة في الخزانة الملكية تحت رقم 6799.

المنظومة لمحمد بن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة 1214/ 1799م. وغني عن الذكر ما تحويه هاته الفهارس من معلومات هامة. فهي تحيلنا على المواد والدروس وخاصة الكتب المدروسة في مختلف مؤسسات التعليم في المغرب. وينضاف إلى طابعها العلمي والتاريخي مظهر ليس بأقل أهمية. ويتعلق الأمر بقيمتها البيليوغرافية[22]. فهي قد حافظت لنا في الواقع على عناوين مؤلفات لم تصل إلينا، وضاعت، فيما يبدو، نهائيا.

ويبقى أن نقوم بجرد عام ومنهجي لهاته الفهارس، فمن المؤكد أنها تخفي وراءها ثروات، وتحتفظ بمفاجآت عظيمة.

2.2. الكاشات

الكاشة حسب الاصطلاح المغربي هي مجموعة من الملاحظات والمقاطع التي ألفها شخص معين في شؤونه الخاصة. إذ يدون فيها صاحبها الكتب التي قرأها أو درسها. ويضيف إليها في بعض الأحيان آثاره الخاصة، ويذكر فيها الأحداث التي يهملها في بعض الأحيان المؤرخون[24]، وقد كتب العديد من المؤلفين المغاربة كتبا بهذا العنوان. فقد كانت كذلك في مثل حجم الفهارس. ونذكر على سبيل المثال كاشة عبد الرحمن الفاسي المتوفى في سنة 1096هـ / 1684م، وكاشة عبد الرحمن بن محمد السوسي التي استشهد بها الإفراني في نزهة الحادي [26] وفي الصفوة[27]، وكاشة محمد بن الطيب القادري الحسني[28]، وكاشة العلامة عبد القادر الفاسي الفهري[29].

22. يرتبها البعض ضمن البيليوغرافيات.

23. يسمى هذا النوع من المكتوب في الشرق الإسلامي "التذكرة" مثل تذكرة الصفدي. ويؤكد الزبيدي أن الكاشة هي تسمية مغربية محضة ينظر القاموس (ك ن ش).

24. "دوزي" Supplèments aux dictionnaires arabes : Dozy، ج 2 ص 494. ينظر أيضا المنوني : الكاشات المغربية. في مجلة المناهل عدد 2، 1975، ينظر أيضا ابن سودة : الدليل ج 2 ص 416.

25. توجد نسخة من هاته الكاشة محفوظة في الخزانة الفاسية في فاس، ينظر ابن سودة الدليل، ج 2 ص 462.

26. طبعة باريس 1889 ص 80.

27. طبعة فاس طباعة حجرية ص 228.

28. محفوظ الخزانة العامة في الرباط تحت رقم ك 1564.

29. محفوظ في الخزانة الفاسية في فاس بخط المؤلف.

ويبدو أن المغاربة بدأوا في تأليف هذا النوع من المجموعات ابتداء من القرن 14م، فأقدم الكناشات التي نعرفها هي كناشة عبد الرحمن بن محمد الجادري الفاسي (المتوفى سنة 818هـ / 1415م) ومازالت توجد أجزاء من هاته الكناشة التي اعتبرت في عداد المفقودات اليوم [30] ضمن آثار محمد العربي الفاسي [31]، وعبد الرحمن الونشريسي [32].

وتوجد بعض الكناشات في شكل سيرة ذاتية، مثل كناشة أحمد زروق البرنسي الفاسي[33] (المتوفى سنة 899هـ / 1493م). وكناشة عبد الواحد الونشريسي (المتوفى في 955هـ / 1548م). ولم يكن الكتاب في بعض الأحيان يكتفون بكناشة واحدة، فإشاراتهم الهامشية كانت من الكثرة بحيث كانوا يصنعون لها كناشات عديدة [34]. وهو الحال مثلا بخصوص أبي العباس أحمد بن عبد الله التناني الصويري (المتوفى في 1320هـ / 1902م) الذي ألف كناشتين يضمان معلومات قيمة عن العلوم الرياضية والفلكية. ونذكر من ضمن المؤلفين الذين تركوا ما بين عشر وخمس عشرة كناشة العلامة والمفهرس أحمد بن عباس البوعزاوي (المتوفى سنة 1337هـ / 1919م)[35]، والعلامة محمد الكانوني (المتوفى سنة 1357هـ 1938م)[36]. إن معاينة عدد من الكناشات يمكننا من أن نستخرج بعض مميزات هذا النوع من المكتوبات. وهي قد أنجزها في أغلب الأحيان أصحابها في خط نسخي مغربي. ولم يتبع في هاته الكناشات أي منهج. فهي لم تكن تتوفر على عناوين ولا حتى على فصول، وحتى اسم المؤلف لم يكن يوجد إلا نادرا ضمن

---

30. أقدم الكناشات التي توجد اليوم هي كناشة محمد بن قاسم الزجالي.
31. شرح دليل الخيرات ص 113. مخطوط الخزانة العامة في الرباط: ك 1532.
32. الونشريسي، المعيار، ج 12، ص 177.
33. مخطوط خاص لعبد الحي الكتاني، ينظر فهرس الفهارس ج 1 ص 242.
34. أوسع كناشة هي كناشة اليحمدي، ينظر المنوني: المصادر، ص 199.
35. هاته الكناشات متفرقة في مختلف الخزانات الخاصة. وتضم الخزانة الأحمدية في فاس وخزانة محمد بن عثمان الثاني نسختين مختلفتين من هاته الكناشات. ينظر ابن سودة: الدليل، ج 2 ص 469.
36. من ضمن حوالي خمس عشرة كناشة التي تركها هناك ستة محفوظة في الخزانة الأحمدية في فاس. ينظر ابن سودة الدليل، ج 2 ص 469.

الإشارات المبعثرة فيها[37] .إن محتوى الكاشات يعكس في أغلب الأحيان تخصص كتابها ، فالأدب يهيمن في كاشة الأديب، والفقه يهيمن في كاشة الفقيه، والتاريخ يهيمن في كاشة المؤرخ.

ولكن على الرغم من هاته العشوائية الملحوظة، فالكاشات تحمل لنا معلومات قيمة عن تراجم الأعلام، وخاصة ما يتعلق بالأحداث التاريخية التي أهملها المؤرخون لهذا السبب أو ذاك. وتحفظ لنا أيضا نُتَفًا من الكتب التي لم تصل إلينا أو التي نجدها أحيانا مجهولة ضمن الأوساط العلمية. ونذكر من ضمن الكاشات التي تضم وثائق تاريخية هامة كاشة محمد بن أحمد بنيس الفاسي. وهي تضم وصفا وافيا لمصحف عقبة بنُ نافع المكتوب في 47هـ 667م. ونذكر أيضا كاشة أبي حميد العربي الدمناتي التي تحتوي على ثلاث رسائل ملكية فريدة أرسلها السلطان مولاي سليمان إلى أمير طرابلس وباشا الجزائر [38] . ونذكر أيضا كاشة محمد بن قاسم الزجالي الفاسي التي هي الكاشة الوحيدة التي تعود إلى الأزمنة الوطاسية والسعدية[39] . إذ إنّ هناك كاشة مجهولة محفوظة في الخزانة العامة في الرباط[40] تضم عقودا واتفاقات تجارية واقتصادية بين المغرب وعدد من البلدان الأوربية انطلاقا من سنة1180هـ/1766 م.وتضم بعض الكاشات معاجم كما يدل على ذلك معجم ابن زيدان[41] ، فهو يضم تراجم المؤلفين الذين عاشوا على عهد الدولة العلوية ابتداء بأسماء إبراهيم وانتهاء بأسماء "سعيد"، وألحقت به تكملة فيها أسماء "أحمد" و "محمد"[42] .

ونظرا للأهمية والفائدة التي تمثلها هاته الكاشات فإن العديد من الكتاب قد أوردوها في بيليوغرافيتهم. وهذا ما جعل أحمد بابا يشير في مستهل كتابه "نيل الابتهاج" إلى الكاشة من ضمن مراجعه. فقد استشهد العالم الافراني بكاشة أبي زيد التمرتي (المتوفى في سنة 1060هـ / 1650م)على

---

37. على الرغم من حالة هاته الكاشات، فقد تم الإكثار من نسخ الكاشات التي تضم فائدة كبيرة أدبية أو تاريخية. وهذا هو السبب في أن البعض منها يوجد في عدة نسخ في مختلف الخزانات المغربية مثل كاشة أحمد بن عبد الله الصويري.

38. المنوني : الكاشات المغربية في مجلة المناهل العدد 2 سنة 1975م.

39. هاته الكاشة محفوظة في الخزانة الخاصة للعميد محمد الفاسي.

40. مخطوط محفوظ تحت رقم 2101.

41. محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم 3172.

42. مما يجب الإشارة إليه أن التراجم فيها مختصرة جدا.

رأس الكتب التي استعان بها لكتابة الصفوة، واستعان الونشريسي بكناشة "الجادري" في تأليف مؤلفه الهام "المعيار"[43].

لقد كانت الكناشات عديدة في المغرب، وكانت توجد في المكتبات المغربية وحدها، ومازالت إلى يومنا هذا لم تشكل موضوعا لدراسة علمية خاصة[44]، وباعتبار ما تضمه من معارف متنوعة وعديدة، فإن فهرستها ودراستها أضحت ضربة لازب. والنتيجة ستكون بدون أدنى شك مفيدة بالنسبة للدراسات الأدبية والتاريخية المغربية.

3.2. المجاميع

المجاميع هي الأسفار التي تحتوي على العديد من الكتب دفعة واحدة، والمصنفة كلها تحت رقم واحد، ومحتواها متنوع. فالمجموع يمكن أن يضم العديد من المخطوطات المرتبطة بمجالات متنوعة. ويمكن أيضا أن يضم مخطوطا فريدا. وسنعطي من ذلك أمثلة من ضمن عدد كبير جدا من المخطوطات الموجودة في مختلف الخزانات المغربية. ونظرا للنقص في دراسة هاته المجموعات فإننا نرى من الفائدة تحليل البعض منها. إن تتبع عدد من المجاميع في خزانات الكتب المغربية وخاصة الخزانة الملكية في الرباط حذا بنا إلى ملاحظة أن هاته المجموعات تضم تقريبا كل المجالات المعرفية التي كانت تدرس في المغرب منذ العهود الأولى في التاريخ. فهاته المجاميع تضم علاوة على العلوم الدينية التراثية مؤلفات التصوف مثل كتاب "التشوف" الشهير لابن الزيات التادلي. ويبدو أن المجموع رقم 4354 من الخزانة الملكية يحتوي على أقدم نسخة من هذا المؤلف الهام عن التصوف في المغرب على عهد الموحدين في القرن 6 / 12 [45]. وتحتوي المجاميع أيضا على مؤلفات علمية في الطب وحتى في البيطرة، وعلى هذا النحو، فإن نسخة قديمة جدا من كتاب "سر

43. منشور حاليا تحت إشراف محمد حجي من طرف وزارة الأحباس المغربية في ثلاثة عشر مجلدا والتي احتفظ بآخره في مختلف الفهارس.

44. تم ترتيب صفحات العديد منها أيضا حسب المنهج القديم للوصلة أو التعقيبة. فمن أجل تسهيل جمع الملازم، اعتاد النساخ على أن يضعوا تحت آخر سطر من كل ملزمة أول كلمة من الملزمة الموالية.

45. يشغل "التشوف" 130 صفحة من المجموع؛ أسهب فيه المؤلف في ترجمة المتصوف الكبير. أبي العباس السبتي (601 هـ 1204م) وأنهى كتابه بهاته الترجمة.

صناعة الطب" للرازي المتوفى في 311هـ / 823م توجد في المجموع المحفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 3477 [46] . وبعد أن قام الرازي بتقسيم مهنة الطب، فإنه عالج في الفصل الثالث من كتابه الشكل الذي يجب أن تطبق به هذه المهنة. وفي النتيجة أوصى الأطباء بأن لا يكتفوا بالدراسات النظرية، وبأن يفسحوا المجال للمجهود الشخصي الذي هو ضروري لممارسة طبية جيدة، ويحتوي مجموع [47] آخر من نفس الخزانة على مؤلف آخر في علم الصيدلة كتبه أبو الصلت الداني (المتوفى سنة 529هـ / 1134م) تحت عنوان «الأدوية المفردة» واختص فيه المؤلف بذكر الأدوية الصالحة لتصفية الدم.

وتشمل هاته المجاميع في بعض الأحيان نسخًا نسخها أصحابها. فمن ضمن محتويات أحد مجاميع خزانة الزاوية الحمزاوية توجد فهرسة آثار الإمام السيوطي (المتوفى في 911هـ / 1505م) التي كتبها هو بنفسه[48]. ووجدت الفهرسة أيضا في هاته المجاميع. ونذكر فهرسة عبد القادر الفاسي (المتوفى سنة 1091هـ /1680م)[49] . وفهرسة ابن الغازي (المتوفى في سنة 919هـ / 1513م)[50]، وفهرسة المنجور (المتوفى سنة 905هـ / 1587م) [51] وأخيرا فهرسة أحمد بن الخياط الفاسي (المتوفى في سنة 1343هـ 1924م)[52]. وتحتوي المجاميع أيضا على رحلات أكبر الرحالين المغاربة مثل العبدري[53] والغساني (المتوفى في سنة 1119هـ / 1707م)[54]. وتحتوي أيضا على مؤلفات التراجم مثل كتاب "الوفيات" لابن القنفذ القسنطيني (ت 810هـ / 1407م) [55] وكتب مناقب الأولياء، مثل كتاب "الدر النفيس والنور الأنيس من مناقب إدريس بن إدريس" لأحمد بن عبد الحي الحلبي الفاسي[56] المتوفى في القرن 12هـ /18م.

46 . يشغل الكتاب الصفحات من 132 إلى 150 ضمن المجموع.
47 . مجموع رقم 1716.
48 . المنوني :مكتبة الزاوية الحمزاوية، في مجلة تطوان. عدد 8 . 1963
49 . مجموع الخزانة الملكية رقم 3706. وتشغل فيه الفهرسة 14 صفحة.
50 . مجموع الخزانة الملكية رقم 7247. وتشغل الفهرسة التي أنجزت بخط مغربي 51 صفحة.
51 . مجموع الخزانة الملكية رقم 5164. وتحتل الفهرسة 20 صفحة.
52 . مجموع الخزانة الملكية رقم 3771. وتشغل الفهرسة 16 صفحة.
53 . مجموع الخزانة الملكية رقم 224. تشغل الرحلة 336 صفحة من المجموع.
54 . مجموع الخزانة الملكية رقم 3637. تشغل الرحلة 68 صفحة.
55 . مجموع الخزانة الملكية رقم 3681. يشغل فيه المخطوط 15 صفحة. يتقصى فيها المؤلف موت صحابة الرسول والعلماء والمحدثين ابتداء من بداية الإسلام إلى العقد الأول من القرن 9 هـ / 15. وقد حققه ونشره محمد حجي في الرباط سنة 1976.
56 . مجموع في الخزانة الملكية رقم 382. يحتل المؤلف 205 صفحة من المجموع.

فالكاتب يترجم فيه الإمام إدريس ويتعقب نسبه، ودخوله إلى المغرب، وبلوغه إلى الحكم، وأثره السياسي والاجتماعي. وتضم المجاميع، علاوة على كتب التاريخ، الوثائق المتعلقة بالتاريخ في المغرب. وهي بشكل خاص النصائح والهدايا أو الرسائل التي كان يتبادلها الملوك مع العلماء، والكتاب، والحكام. ونذكر على سبيل المثال قطعة محفوظة في مجموع من المكتبة الملكية تحيل على تمرد سكان فاس ضد الملك مولاي سليمان[58]. وتفسر هاته الوثيقة المكونة من خمس صفحات أسباب التمرد، واعتراف الفاسيين بإبراهيم بن زياد سلطانا. وتضم أيضا اسم توقيعات عقد التبعية للملك الجديد. وعلى المستوى التاريخي فهاته الوثيقة تسلط كثيرا من الضوء على حدث ربما لم يتعمق فيه المؤرخون المغاربة كثيرا. ويحتوي مجموع آخر على وصية من السلطان العلوي مولاي سليمان موجهة إلى حكامه وإلى شعبه، حيث يحثهم فيها على الاعتبار بتشريعات الإسلام والتعامل بمبادئه.

ومن ضمن الرسائل التي كان السلاطين يبعثونها أو يتوصلون بها، والتي مازالت محفوظة في المجاميع، نشير إلى الرسائل الخمسة التي بعثها السلطان مولاي سليمان إلى ابنه المامون حاكم تافيلالت في الجنوب الشرقي للمغرب، والتي شمله فيها بنصائحه[60]. ويحتوي مجموع آخر على رسالة كتبها العلامة الحسن اليوسي إلى الملك مولاي إسماعيل ينصح فيها الكاتب السلطان بألا يخرج في أحكامه عن مبادئ القرآن الكريم، وأحاديث رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم)[61]. لقد كانت هاته المجاميع متعددة في المكتبات المغربية. فلم تكن تخلو منها أي خزانة كتب عامة أو خاصة. وإذا كانت بعض الخزانات قد فهرست مجاميعها ورقمتها، فإن العديد من الخزانات الأخرى، وخاصة من ضمن الخزانات الخاصة لم تفعل ذلك. إن الترقيم والفهرسة ضروريان لوصف المجاميع التي تخفي بدون شك ثروات مدهشة. فما زلنا في حاجة إلى أن نعمل الشيء الكثير في هذا الميدان. وكما هو الأمر في الكناشات، فإن الباحث سيجد فائدة ولذة في نفض الغبار عن هاته الوثائق الجليلة.

---

57. يضم مجموع الخزانة الملكية رقم 3654 كتابا عن تاريخ مدينة مكناس بعنوان : محاضرة الأكياس بملخص تاريخ مكناس لابن زيدان المتوفى سنة 1946.
58. مجموع رقم 3772. وثيقة خروج أهل فاس على السلطان مولاي سليمان ومبايعتهم لمولاي إبراهيم بن زياد.
59. مجموع الخزانة الملكية رقم 3663. وصية السلطان مولاي سليمان إلى الولاة والرعية.
60. مجموع الخزانة الملكية رقم 120. تشغل الرسائل 57 صفحة من هذا المجموع.
61. مجموع الخزانة الملكية رقم 9249.

II . المخطوطات النادرة

تشكل المكتبات المغربية منجما للاكتشافات على الرغم من أنها طالما كانت عرضة لنوائب الدهر ، إذ ضاعت منها تقريبا كل مجموعاتها القديمة. ومازالت المكتبات التي بقيت أو بالأحرى التي بقي جزء منها تحتفظ بثروات كبيرة تعود إلى العصر الوسيط ومجموعات كبيرة تشهد على أهمية الحضارة الإسلامية في هذا البلد. وتوضيحا لنوادر هاته المكتبات من المفيد أن نقسمها إلى ثلاثة أصناف؛ أولا المصاحف أو نسخ القرآن الكريم، وبعد ذلك النسخ المنتسخة من طرف مؤلفيها أو المخطوطات الأصلية، والمخطوطات النادرة أو الفريدة، وأخيرا مخطوطات المؤلفين اليونانيين واللاتينيين المحفوظة، حسب الباحثين، في المكتبات المغربية.

1 . المصاحف

سبق أن قلنا إن كلمة مصحف التي ستشير أخيرا إلى النص القرآني الكامل فقط، كانت تشير في القرون الأولى من الإسلام إلى الكتاب المجلد[62]، والذي يعنينا هنا هو الانتقال الدلالي الذي جعل اللفظة تنتهي بالدلالة على الكتاب المقدس لدى المسلمين. فنحن نجد في كل الأقطار الإسلامية أن الكتاب النموذجي في نظر المسلمين والذي يشكل في نظرهم نواة كل خزانة كتب هو بطبيعة الحال القرآن. ورأينا أن مجموعات المكتبات الأولى في الإسلام كانت مكونة من نسخ قرآنية موضوعة رهن إشارة المسلمين الراغبين في تلاوة القرآن في المساجد. فالمغاربة قد أولوا القرآن أهمية بالغة شأنهم في ذلك شأن المشارقة. وقد ظهر هذا الأمر بشكل خاص في كون النساخ الكبار قد رسموا النسخ القرآنية وأكثروا منها ، وفعل ذلك الخلفاء أنفسهم في بعض الأحيان ، كما يظهر ذلك المصحف الذي رسمه العاهل الموحدي عمر المرتضى، وأوقفه في أحد مساجد مراكش[63]. وكان الملوك المغاربة ، علاوة على رسم المصاحف يشيدون الخزائن الخاصة بها . ويعزى

---

62 . تنظر الصفحة 11 الهامش (1).

63 . ينظر وقف الكتب.

المشروع الأول إلى الخليفة المريني أبي عنان الذي، وبعد أن أسس أول خزانة كتب كبيرة للقرويين في سنة 750هـ / 1349م، أمر بأن تبنى خزانة كتب صغيرة أخرى تضم فقط نسخ القرآن الكريم[64]. وقبل أن تتحدث عن المصاحف الأكثر أهمية، والأكثر قدما، والفاخرة في أغلفتها وزخارفها التي تحتفظ بها الخزانات المغربية، من المفيد أن نقول كلمة عن المصحف الشهير للخليفة عثمان، ومصحف عقبة بن نافع اللذين بقيا زمانا في المغرب[65]، وتوخيا للحد من اختلافات المسلمين بخصوص قراءة وكتابة القرآن بث الخليفة الراشدي عثمان 35هـ / 656م في الضبط النهائي للقرآن. وكتب أربع نسخ وزعها على عواصم العالم الإسلامي[66]. فقد تم العثور في قرطبة في إسبانيا[67] على النسخة التي أرسلت إلى البصرة أو إلى الكوفة . وحينما أصبحت هاته المدينة تابعة للمغرب نقل العاهل الموحدي عبد المومن هذا المصحف إلى مراكش عاصمة الدولة الحاكمة في سنة 552هـ / 1158م. فنحن ندين لابن خلدون بالتفاصيل التالية بخصوص تاريخ هاته النسخة: «وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليه من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس ثم إلى خزائن الموحدين من خزائن لمتونة وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين»[68].

لقد كان هذا المصحف محترما بشكل كبير وخاصة في عهد الموحدين. «يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا، على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالا طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنة منهما ذهب شبه تفاحتين»[69]. ولم نعد نسمع أبدا بمصحف عثمان[70]. انطلاقا من القرن الرابع عشر الميلادي.

---

64. الجزنائي : زهرة الآس ص 76.
65. إنها المصاحف الأولى التي جمعت في الإسلام.
66. قال مؤرخون آخرون بأن الأمر يتعلق بست نسخ وضعها عثمان في ستة مساجد في العالم الإسلامي.
67. قال أبو القاسم التجيبي السبتي، حسب عبد الملك، بأن نسخة دمشق كانت في مسجد الأمويين في هاته المدينة التي رآها فيها في سنة 637هـ / 1258م. وأيضا فإنه رأى نسخة مكة في الكعبة. وسيكون المصحف موضوع الكلام هو مصحف البصرة أو الكوفة. ينظر الناصري ج 2 ص 127 طبعة 1954م.
68. ابن خلدون : العبر، ج 7 ص 83، ينظر أيضا "ألفردبل" "تاريخ ملوك تلمسان" Histoire des rois de Tlemcen، ج 1 ص 153 الهامش 2.
69. المراكشي : المعجب 366.
70. ذهب البعض إلى أنه ضاع لحظة غرق السفينة التي كانت تعود بالملك المريني أبي الحسن من تونس إلى المغرب. ينظر الناصري، الاستقصا، ج 2 ص 129 طبعة 1954.

والمصحف الثاني هو مصحف عقبة بن نافع الذي رسم عن مصحف عثمان في سنة 47 من الهجرة. وكان أول مصحف معروف في المغرب. وقد بقي محفوظا في المكتبة الملكية التي كان سيبقى فيها لو لم يبعثه الملك العلوي مولاي عبد الله ضمن مجموعة من نفائس الكتب إلى المدينة ليوقفه هناك[71]. والمصحف الآخر الذي بجله المغاربة كان هو المصحف الذي رسمه ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية. وكان يحتل عندهم المكانة الثانية بعد مصحف عثمان. يقول صاحب المعجب : «وخلف الناقة (التي تحمل مصحف عثمان) بغل محلى أيضا عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة مموهة بالذهب»[72]. ويجب أن نذكر أيضا المصحفين اللذين أهداهما الخليفة الأيوبي "سلدان" Saldin إلى أمير المؤمنين الموحدي يعقوب المنصور المتوفى سنة 594هـ 1197م[73]. وقد أنجز هذان المصحفان في خط مشرقي متسق يسمى «الخط المنصوب». وهذا النوع من الخط هو الذي استحسنه المشارقة كثيرا، وكانت الخزانات الكبرى تتباهى بتوفرها في مجموعاتها على مخطوطات مكتوبة بهذا الخط.

وإذا كانت المصاحف قد زينت مختلف المكتبات المغربية، فإن هناك مصاحف أخرى للأسف تم نقلها إلى المكتبات الأجنبية؛ نذكر على سبيل المثال، المصحف الذهبي المرسوم بالمداد المعنبر برسم خزانة كتب العاهل السعدي أحمد المنصور. وقد انتهى هذا المصحف مثل مجموعة من المصاحف الأخرى إلى خزانة الأسكوريال في إسبانيا. وهناك مصحف آخر مرسوم بماء الذهب برسم خزانة الأمير علي، حفيد الملك العلوي مولاي إسماعيل محفوظ اليوم في الخزانة الوطنية للقاهرة (دار الكتب). وهناك مصحف آخر مرسوم بماء الذهب في خط مغربي، ومنجز على الرق في سنة 975هـ / 1567م برسم خزانة الخليفة السعدي عبد الله الغالب محفوظ اليوم في خزانة المتحف البريطاني في لندن[74].

---

71. غاب مصحف عقبة اليوم من المدينة. ينظر بخصوص هذا الأمر مؤلف الزياني : البستان الظريف. أحداث سنة 1152هـ مخطوط في الخزانة الملكية رقم 242.

72. المراكشي : المعجب 367. ويحدث عن ذلك ابن الأبار أيضا في "الذيل والتكملة". فهذا المخطوط لم يصل إلينا.

73. الناصري : الاستقصا، ج 2 ص 182 ط : 1954.

74. Suppléments to the catalogue of arabic manuscript ص 43 رقم 68. هذا المصحف معروض ضمن المخطوطات العربية في القاعة الكبيرة لخزانة المتحف البريطاني.

ومع ذلك فقد استمرت الخزانات المغربية في الحفاظ في مجموعاتها على مصاحف لم تكن أقل أهمية عما سبق ذكرها . فالخزانة الملكية مثلا تضم مصحفا قيما[75] في خط أندلسي منجز على رق الغزال في سنة 573هـ 1177م. وتضم نفس الخزانة مصحفا آخر مرسوما بخط كوفي ومنجز على الرق بدون تاريخ النساخة. ويبدو أن هذا المصحف الأخير يعود إلى القرون الأولى من الهجرة.

وتتوفر المكتبة العامة في الرباط منذ وقت بعيد على نسخة قيمة لجزء من القرآن للخليفة أبي زيان في تلمسان[76] . ويستحق هذا المصحف أن يدرس نظرا لما يمثله من قيمة وفوائد تاريخية جمة فهو يعود إلى العصر الوسيط. وبالفعل فنحن نقرأ في أسفل الدفة الأخيرة التقييدة التالية «كمل الجزء الأول من الربعة المباركة نسخه بيده أمير المسلمين أبو زيان محمد بحضرته مدينة تلمسان أمنها الله تعالى في سنة واحد وثماني مائة عرف الله خيره» . ولم يرسم هذا العاهل أوائل سور المصحف إلا في آخر سنة من ملكه، واستوحى هاته البادرة الملكية من الشعور بالوازع الديني. وأكد ليڤي پروڤانصال أن هذا المصحف قد اكتشف فجأة في حانوت كتبي عربي في الدار البيضاء[77].

فلا تعدم مكتبة عامة أو خاصة في المغرب مصحفا مخطوطا على قدر من الأهمية. وسنرى أن النساخ سيستمرون في رسم المصاحف إلى حين النصف الثاني من القرن العشرين على الرغم من دخول المطبعة إلى المغرب.

بيد أن القرآن لم يكن الكتاب الوحيد الذي كان يحترمه كثيرا الخلفاء وأصحاب المناصب العليا في المغرب عبر العصور. فنظرا لما كان يوليه هؤلاء من أهمية للكتب المقدسة الأخرى، فإنهم لم يكونوا يترددون في أن ينتسخوا أو يشتروا أو يتسلموا في إطار الهديا نسخة من التوراة والإنجيل. أخبرنا "دوفردان" أن المستشرق الإيطالي "إرينيوس" أهدى إلى العاهل السعدي زيدان إنجيلا مكتوبا باللغة العربية[78]. وقال "ليون غودار" L.Godart إن "جوليوس"تلميذ "إرينيوس" أهدى إلى نفس العاهل نسخة من «العهد الجديد» [79].

فإذا كانت هاته الأناجيل انتهت إلى خزانة كتب الأسكوريال ، فإن أناجيل أخرى قد تم الحفاظ بها في

---

75. مصحف محفوظ تحت رقم 1330.

76. مصحف محفوظ تحت رقم ز 3592.

77. "ليڤي پروڤانصال""مصحف ملكي من القرن الرابع عشر" Un coran royal du XIVème siècle في مجلة هسبريس 1921 . ونشير إلى أن هذا المصحف المذهب قد أنجز علي رق الغزال في تلمسان عاصمة بني عبد الواد.

78. "دوفردان"Deverdun : مراكش "Marrakech" ج 1 ص 435 ينظر أيضا "دوكستر" De casries "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب ": S.I.H.M السلسلة الأولى الأراضي المنخفضة 3.

79. "ليون غودار" Godart, "تأريخ المغرب ووصفه" Description et histoire du Maroc ، ص 483.

مجموعة من الخزانات المغربية. ففي 1934 عثر مكتبي مساعد في قاعة مغبرة بخزانة القرويين بفاس على إنجيل مكتوب بالعربية ، ويعود إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. وتوجد في الورقة الأولى منه علامة التملك باسم ابن حزم في قرطبة [80].

إن الكتب المقدسة. وخصوصا القرآن. التي أولاها مجمعوعيون الآثار، ومحبو الكتب، وأصحاب الخزانات القيمة أهمية واحتراما بالغين، تشهد على الثراء الذي كانت تتميز به هاته المؤسسة العلمية عبر التاريخ.

2 . المخطوطات المنتسخة بخط مؤلفيها والمخطوطات المنتسخة عن الأصول والمخطوطات النادرة والفريدة

1.2. المخطوطات المنتسخة بيد مؤلفيها

المخطوط المنتسخ بيد مؤلفه هو المخطوط الأصلي الذي أنجزه المؤلف نفسه أو الذي نسخه أحد تلامذته تحت إشرافه. ونعني بذلك النسخة التي تنتقل من حالة الوسخ أو "مُسَوَّدَة" إلى حالة التحرير النهائي. فقد بحث المغاربة دائما وبلهفة ، شأنهم في ذلك شأن المشارقة، عن المخطوطات المنتسخة بخط العلماء البارزين والشيوخ الكبار. وتشهد على ذلك مجموعة محمد بن أحمد السباعي المراكشي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي[82]. إن شغف هؤلاء القدامى بهاته المخطوطات الأصلية، والمجهودات التي كانوا يوظفونها للحصول عليها قد مكنت الخزانات المغربية المعاصرة من أن تكون من ضمن أغنى المكتبات في العالم. وسنذكر بعض الأمثلة محاولين وصف أو تحليل المجهول منها وباعتبار أن مسألة النسخة المنتسخة بخط المؤلف لا تنطبق على القرآن الكريم، يبدو لنا من الضروري حسب التصنيف العربي أن نبدأ بذكر مؤلفات الأحاديث النبوية المحفوظة على هذا الشكل فقد أخبرنا العلامة المغربي المختار السوسي

80. العراقي : مكتشفات القرويين في "مجلة المغرب"1934. ويضم هذا " العهد الجديد" أربعين صحيفة مكتوبة بخط أندلسي ومنجزة على رق الغزال.
81. هي بالضبط النسخة المحرزة التي أزمع المؤلف نشرها .
82. تنظر الصفحتان 48 و 49.

بأنه وجد في خزانة كتب في سوس في جنوب المغرب نسخة قديمة جدا للمدونة[83]. وتيقن بعد دراسة معمقة للمؤلف ولفظه ومحتوياته بأنه اكتشف المخطوط الأصلي للمدونة [84] كتبه سحنون نفسه (المتوفى سنة 240هـ)[85].

فالكثير من المؤلفات الأخرى المرتبطة بالفقه وأصول الدين والمنتسخة بيد مؤلفيها مازالت محفوظة إلى يومنا هذا في خزاناتنا. فخزانة كتب ابن يوسف في مراكش تضم مخطوطا مبتور الأول يعود إلى القرن6 هـ / 12م. ويتعلق الأمر بعدد من الشروحات حول بعض رسائل ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين. وقد أعطى مؤلف هذا المخطوط الأصلي لنفسه اسم أبي بكر وأعطى لابن تومرت اسم "المعصوم". ويظهر من هذا المؤلف أن الكاتب كان مطلعا على منشورات كبار الأصوليين والشعراء. فالمؤلف هام جدا بالنسبة لأولئك الذين يريدون أن يعرفوا وجهة نظر الموحدين في الجدل وخاصة في القياس والاجتهاد[86]. وعثر مكتبي مغربي هو إبراهيم الكتاني في المسجد الكبير لتازة على رزمة من الصحائف المختلطة. وبعد فرز مضن تبدى له أنها تضم تقريبا حوالي عشرين رسالة تعود إلى الفترة الموحدية. وكتب أغلبها ابن تومرت 524هـ/ 113م. وأغلب ما وجد في هاته المجموعة قد سبق أن تم نشره في كتاب ابن تومرت: "أعز ما يطلب"، الذي طبع في الجزائر في سنة 1311هـ / 1903م. إلا أن هناك كثيرا من الاختلافات بين ماتم الوقوف به وما تم نشره. ولا يمنع هذا من أن تشكل الرسائل التي تم العثور عليها المخطوط الأصلي لهذا الإمام الكبير [87].

ومن ضمن مؤلفات التاريخ والأدب الموجودة بخط مؤلفيها نذكر الأجزاء الثلاثة من كتاب "العبر" أو "تاريخ البرابرة". وهو مؤلف كتبه ابن خلدون في 791هـ / 1388م، وأهداه هو بنفسه لخزانة القرويين[88]. فقد أشار "غربري دي همو يعقوب" Grabery di Hemo (Jacob) (المتوفى في سنة 1847) في كتابه

---

83. كل الذين يهتمون بالفقه الإسلامي كثيرا أو قليلا يعرفون على الأقل اسم المدونة؛ الأثر الكبير للإمام مالك بن أنس، مؤسس المدرسة المالكية. فليس هناك مؤلف ضمن المؤلفات المتعاقة بالمذهب المالكي لم تذكر في "المدونة" في كل باب منه. وهو في الواقع المصدر الذي يجب أن نغترف منه حينما نريد أن نعرف رأي ابن مالك في مسألة معينة.

84. لقد تركت المدونة الأولى المسماة "الأسدية" والتي كتبها الفقيه أسد بن الفرات (المتوفى سنة 213هـ)مكانها لمدونة أخرى لاحقة هي مدونة سحنون. فهما معا كانا تلميذين لابن القاسم الذي كان تلميذا لمالك.

85. المختار السوسي : من خلال جزولة. ج 3 ص 36.

86. الكتاني :"أقسام الوثائق "les sections d'archives مجلة : هسبريس تمودا. المجلد 9 الملزمة 3 ص 466 سنة 1968.

87. نفسه.

88. محفوظ في القرويين تحت رقم 1266. ينظر "ألفردبل" "فهرس المخطوطات العربية في اقرويين"Catalogue des Mss arabes de la Qarawiyin .ص 6، الهامش 4. وبعد معاينة المخطوط يجب أن نوضح أن ابن خلدون قد كتب فقط الوقفية التي توجد في المجلد الخامس.

Notizia in torno alla famosa opera istorica d'Inbn Haldun، لأول مرة منذ ما يفوق مائة سنة إلى وجود نسخة من كتاب العبر في فاس. ومن خلال نشر هذا المؤلف الهائل تبين لنا أصالة الهدية. فنحن نعثر فيه على شهادة صريحة لهذا المؤرخ، والتي كتبت في بداية مقدمته «أتحفت بهذه النسخة منه خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد.. أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان أمير المؤمنين أبي الحسن ابن السادة الأعلام من بني مرين.. وبعثه إلى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم وكرسي سلطانهم»[89]. ونذكر أيضا المؤلفين الكبيرين للمقري 1041 هـ / 1632م المحفوظين بخط صاحبهما في الخزانة الملكية في الرباط؛ ونعني بهما نفح الطيب[90]، وروضة الآس[91]. فالكتاب الأول هو خزانة تاريخية. أدبية عن إسبانيا تحت هيمنة العرب. وينقسم إلى قسمين؛ خصص القسم الأول للتاريخ والأدب العربي في الأندلس، وخصص القسم الثاني لترجمة ابن الخطيب[92]. والمؤلف الثاني هو "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"، فهذا المؤلف مثل نفح الطيب هو خزانة تاريخية أدبية فيها تراجم العلماء الكبار والأدباء الذين التقى بهم المقري في فاس، وفي مراكش في النصف الأول من القرن 11 هـ / 17م. وبعد أن ذكر الآثار المحمودة والمنشآت الكبيرة التي أمر بإنجازها الخليفة السعدي أحمد المنصور، ذكر المقري أسماء العلماء الكبار المعروفين في الفترة مثل عبد العزيز الفشتالي صاحب «مناهل الصفا» وأحمد بابا التنبكتي. إن هاته النسخة من روضة الآس المحفوظة في الخزانة الملكية في الرباط هي في نفس الآن أصلية؛ كتبها الكاتب نفسه، وهي أيضا المخطوط الفريد الذي يوجد في العالم[93].

89. المقدمة ص 6.

90. محفوظ تحت رقم 6273.

91. محفوظ تحت رقم 220.

92. يزعم المصريون أن المخطوط الأصلي لنفح الطيب محفوظ في الخزانة الوطنية في القاهرة (دار الكتب).

93. حقق روضة الآس عبد الوهاب بن منصور، ونشرتها المطبعة الملكية في الرباط سنة 1383 / 1964.

ويجب أن نذكر من ضمن المؤلفات التاريخية الأخرى المحفوظة بخط كاتبها "الروض الهتون" لمحمد بن أحمد بن غازي العثماني المتوفى سنة 919هـ / 1513م.إنه مؤلف يعالج فيه ابن غازي تاريخ مكناس مدينته التي ولد فيها ؛ ووصف فيها حقول الزيتون، والمدارس القديمة، والزوايا، وأنهى مؤلفه بما خص به ابن الخطيب هاته المدينة من وصف، والذي نجده سواء في نفاضة الجراب أو في كتابه ريحانة الكتب. وكانت توجد هاته النسخة في خزانة ابن زيدان في مكناس[94]. ونذكر أيضا تاريخ الرباطي. فالمؤلف يسرد فيه تاريخ الدولة منذ عهد مؤسسها مولاي شريف علي الحسني السجلماسي إلى أن تولى المولى سليمان الحكم، وبالضبط إلى سنة 1236هـ / 1820م. فقد تم الحفاظ على المخطوط الأصلي في الخزانة الأحمدية في فاس[95]. ونسخت كل النسخ الأخرى من هذا المؤلف في المغرب من مخطوط فاس.

وتحتفظ المكتبات المغربية على العديد من الرحلات المكتوبة بخط أصحابها. نذكر منها على سبيل المثال مخطوط عبد الرحمن الشاوي الذي عنوانه : "رحلة القاصدين ورغبة الزائرين". وهي رحلة إلى مكة قام بها المؤلف في سنة 1149هـ / 1729م. فهذا المخطوط الأصلي المحفوظ في الخزانة الملكية في الرباط[96] هو فريد في العالم. وتضم نفس المكتبة نسخة أصلية وفريدة لرحلة أخرى قام بها أيضا إلى مكة محمد بن عبد السلام الناصري (المتوفى سنة 1239هـ / 1823م) والتي عنوانها : الرحلة الحجازية الكبرى. وقد انتسخ هذا المخطوط المؤلف سنة 1199هـ / 1784م.[97]

ومن ضمن مؤلفات النحو، والمعاجم، وفقه اللغة المحفوظة بخط مؤلفيها في المغرب نذكر : "العباب الزاهر واللباب الفاخر" [98]لحسن بن محمد الصغاني (المتوفى سنة 650هـ / 1252م). وهو معجم كبير على

---

94. لقد تم دمج هاته الخزانة الهائلة في الخزانة الملكية في الرباط. والمخطوط احتفظ به في الرباط في المكتبة الملكية. وطبع حجريا في فاس. وفي 1964م، اعتنى بتحقيقه عبد الوهاب بن منصور : ينظر دليل ابن سودة ج 1 ص 52 ط : 1960.

95. ابن سودة : الدليل ج 1 ص 137 - 138.

96. مخطوط محفوظ تحت رقم 5656.

97. خطوط أصلي محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 5658.

98. خطوط أصلي منجز في خط مغربي ومحفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 2835.

غرار قاموس الفيروزبادي. ولم تبق من هذا المؤلف الذي هو من عشرين مجلدا إلا أربعة مجلدات محفوظة في خزانة القرويين [99]. ونذكر أيضا "ضوء الصباح لتكميل الإيضاح" لابن القاضي (المتوفى سنة 1022هـ / 1613م)، وهو تكملة لألفية ابن مالك، وقد كتبه ابن القاضي نفسه، ويوجد محفوظا في مجموع في الخزانة الملكية[100].

ويكفي أن نذكر، فيما يخص كتب التراجم، النسخة الأصلية لنيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي (المتوفى سنة 1031هـ / 1627م)، والتي كتبها هو بنفسه سنة 1005هـ / 1596م. والمحفوظة في الخزانة الملكية [101]. وهذا المؤلف هو تكملة لكتاب الديباج لابن فرحون (المتوفى سنة 799هـ / 1396م). الذي ألفه أحمد بابا في مراكش وأهداه إلى الخليفة السعدي أحمد المنصور الذهبي 1012هـ/ 1603 م[102].

إن نماذج النسخ التي انتسخها أصحابها والتي وقفنا بها هي من النوع الذي يساعدنا على تكوين فكرة عما يمكن أن تضمه المكتبات المغربية من الكتب القيمة. فإذا كانت المخطوطات الأصلية في العهود الأولى قليلة. فإنها أصبحت متعددة في القرون الأخيرة. فمازالت النسخ التي انتسخها أعلام القرن الثامن عشر والتاسع عشر مثل الزياني وأكنسوس محفوظة إلى يومنا هذا في مكتباتنا. فقد حفظت لنا الخزانة العلوية أغلب المخطوطات الأصلية التي ألفها أمراء وملوك الدولة العلوية. ونذكر على سبيل المثال: "اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار". وهو مؤلف أدبي وشعري ألفه وخطه بيده الأمير العلوي عبد السلام بن محمد الثالث بن عبد الله (المتوفى سنة 1228هـ / 1813م)[103]. ونذكر أيضا مؤلف الملك مولاي سليمان (المتوفى في 1238هـ / 1800م): "عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد". وهو مؤلف يروي تاريخ هاته الأسرة

---

99. العدد 13 و 14 وعدد آخر مبتور الأول.

100. مجموع رقم 53 / 1 من الصفحة 1 إلى الصفحة 42.

101. محفوظ في الخزانة الملكية محفوظ تحت رقم 2358.

102. توجد في الخزانات المغربية عدد من المؤلفات التي قام بكتابتها ما ينيف عن 15 مؤلفا من إفريقيا الغربية. سودان المغاربة. يوجد تقريبا 300 مجلد.

103. مخطوط أصلي محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 106.

الكبيـرة منذ مجيئـها من الأندلس إلى المغرب في القرن 9 هـ /15 م إلى نهاية القرن 18م [104]. ومازالت خزانات كتب الزوايا هي بدورها تضم إلى يومنا هذا منتسخات أصلية لكل مؤلفات شيوخ هاته المؤسسات تقريبا وكان هؤلاء الشيوخ مؤلفين بارزين ومفسرين كبارا .

إن عدد النسخ في المغرب التي انتسخها أصحابها هي ذات أهمية كبيرة بالنسبة للباحثين في إنشاء نص أو تحقيق كتاب. وسيكون التحقيق العلمي [105] الحديث ذا أهمية كبيرة إذا كان يعود إلى المخطوط الأصلي للكتاب أو إلى نسخة تمت نساختها من نسخة المؤلف.

وبالفعل فالنسخ التي نسخها أصحابها والنسخ المأخوذة عن الأصول تكون جديرة بالتصديق وهامة فيما يتبع العمل من تجميع وتصحيح.

2.2. المخطوطات المأخوذة عن الأصول

النسخة المأخوذة عن الأصل هي نسخة من مكتوب أصلي. وعدد هاته النسخ في المكتبات المغربية كثيرا بالمقارنة مع النسخ التي نسخها مؤلفوها . إن هذا التقييد : «هاته النسخة قد قوبلت مع الأصلية في السنة كذا» ، والذي يوجد في نهاية المخطوط، أو في حرد متن كتاب معين، يدفعنا إلى اعتبار هاته النسخة مأخوذة من الأصل. فمن ضمن النسخ المأخوذة من الأصول القديمة المحفوظة في المغرب جزء من كتاب "النوادر والزيادات على ما في المدونة في موضوع الإقرار" لابن أبي زيد القيرواني (المتوفى سنة 386هـ / 966م) . فقد كتبت هاته النسخة وقوبلت بنسخة المؤلف كما ورد في نهاية المخطوط سنة 393هـ 1002م. إيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل لابن الزبير الثقفي الغرناطي المتوفى في 707هـ 1308م كتب هذا المخطوط كما جاء في حرد المتن في حياة المؤلف محمد بن عبد الواحد الأموي سنة 960 من الهجرة،

104 . مخطوط محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 9978.

105 . للأسف فإن التحقيق العلمي للكتب في المغرب يتم في بطء . فهناك عدد كبير من المخطوطات المحفوظة في الخزانات تستحق أن تحقق تحقيقا علميا حديثا .

106 . الفاسي : فهرس القرويين، ج 1 ص 32.

وتمت مقابلته مع النسخة الأصلية [107]. "زهر الأكم في الأمثال والحكم" لأبي علي اليوسي 1102هـ 1691م. فمن خلال نهاية المخطوط ننتبه إلى أن هاته النسخة قد تم انتساخها من الأصلية [108].

وتعتبر "تكملة " ابن عبد البر (المتوفى سنة 658هـ 1260م) أيضا من ضمن النسخ المأخوذة عن الأصول في الخزانة الملكية في الرباط. وهي تكملة لكتاب الصلة [109] لابن بشكوال (المتوفى سنة 518هـ / 1183م). ويتعقب فيه المؤلف تراجم العلماء والشخصيات الأندلسية غير المذكورة في كتاب ابن بشكوال. فنحن نقرأ في وجه صفحة مستهل الكتاب : "لقد اعتنى بمقابلة هاته النسخة بالنسخة التي انتسخها المؤلف محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني في يوم الجمعة 10 من شهر جمادى الثانية سنة 661هـ 1262م". ونعرف من خلال حرد المتن أن هاته النسخة راجعها سعيد بن الأمير حكم بن سعيد القرشي حاكم ميروقة في الأندلس في سنة 662هـ 1263م [110]. "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" لخالد بن عيسى البلوي المتوفى حوالي 775 من الهجرة، وهي رحلة قام بها المؤلف في الشرق الأوسط من 736هـ إلى 740 من الهجرة. ففي هذا المؤلف يصف الكاتب الأقطار التي عبرها، ويذكر العلماء الذين التقى بهم، وماخاضه معهم من جدالات. ومن خلال حرد المتن نقف على أن هاته النسخة نسخها وقابلها مع المخطوط الأصلي حفيد المؤلف خالد بن أحمد بن خالد البلوي في سنة 819هـ / 1416م.[111].

وتحتوي المكتبات المغربية على عدد من المخطوطات المكتوبة حسب قيود الختام في حياة أصحابها. ولكن لاشيء يدلنا على أنها نسخ نسخها مؤلفوها أو نسخت من الأصول. وسنعطي ثلاثة نماذج مأخوذة من ثلاث خزانات كتب مختلفة؛ نسخة من "الروض الأنف"[112] لعبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة

107 . مخطوط مكتوب بخط أندلسي جميل. محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم 10901.

108 . مخطوط المكتبة الملكية محفوظ تحت رقم 680. وقد اعتنى بتحقيقه محمد حجي في ثلاثة مجلدات. البيضاء 1981.

109 . الصلة في تاريخ أئمة الأندلس هو بدوره تكملة لكتاب ابن الفرضي عن علماء الأندلس.

110 . توجد هاته النسخة المأخوذة عن الأصل والمنجزة في خط أندلسي قديم محفوظة في الخزانة الملكية تحت رقم 1411.

111 . هاته النسخ المأخوذة عن الأصل محفوظة في الخزانة الملكية تحت رقم 669.

112 . مخطوط محفوظ في القرويين تحت رقم 178.

581هـ / 1185م توجد في خزانة القرويين، إذ إن نهاية المخطوط الذي فيه سنة إنجاز المؤلف 580هـ 1184م لا يحدد طبيعة المخطوط. وتحتفظ الخزانة العامة في الرباط أيضا بنسخة من نزهة الحادي[113] للإفراني المتوفى سنة 1151هـ 1738م ، وقد نسخت حسب قيد الختام في سنة 1139هـ / 1726م. وهذا يعني أن المخطوط أنجز باثني عشر سنة قبل موت المؤلف. وليس هناك أي رائز قادر على أن يدلنا عما إذا كان النص أصليا أو منتسخا من الأصل. ومثالنا الأخير هو مؤلف للموسوعي المصري الكبير جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة1011هـ 1505م) ويتعلق الأمر بكتاب "الإتقان في علوم القرآن" [114]، المحفوظ في خزانة كتب إحدى الزوايا القديمة في المغرب؛ ونعني خزانة "تنغملت" . وتدلنا قائمة مؤلفات هاته الخزانة التي نشرت في 1973 على أن هذا المخطوط انتسخ في (878هـ 1473م) في حياة مؤلفه دون أن نضبط بذلك ما إذا كان النص قد انتسخه المؤلف أو هو نسخة من الأصل.

يوجد هذا النوع من المؤلفات كثيرا في المكتبات المغربية. وقد حبذه الباحثون المعاصرون. واعتبر في غياب نسخة المؤلف والنسخة المأخوذة عن الأصل النص الأساس الذي يجب أن يعتمد في التحقيق العلمي. لقد كانت هاته المؤلفات بالإضافة إلى النسخ المأخوذة من الأصل ذات فائدة كبيرة بالنسبة للمستشرقين في عهد الحماية. فبعد أن قام هؤلاء العلماء الأوربيون بجرد الثروات البيليوغرافية في المغرب، فإنهم ترجموا ونشروا نصوصا مرتبطة بتاريخ وحضارة هذا البلد ، وذلك بالتركيز على هاته المؤلفات العديدة. وهناك نصوص أخرى لم تكن نسخًا بخط مؤلفيها مأخوذة من الأصل، ولم تكن محددة في طبيعتها ، ذات فائدة كبيرة أيضا بالنسبة لعملهم العلمي، ويتعلق الأمر بالمخطوطات الفريدة أو النادرة والتي مازالت المكتبات المغربية تحتفظ بعدد كبير منها.

113 . مخطوط محفوظ في الخزانة العامة في الرباط تحت رقم 376.

114 . مخطوط محفوظ في خزانة زاوية "تنغملت" تحت رقم 1 تنظر: لائحة مخطوطات هاته الزاوية طبعة 1973.

3.2. المخطوطات الفريدة أو النادرة والنفيسة

يوجد هذا النوع من المؤلفات كما أشرنا إلى ذلك آنفا بشكل وافر. فكثير من هاته المخطوطات التي اعتبرت لمدة طويلة ضائعة من طرف الأوساط المثقفة في الشرق والغرب وجدت في المغرب.

1.3.2. المخطوطات الفريدة

يشكل وجود عدد من المخطوطات الفريدة في المكتبات المغربية إحدى الثروات الهائلة لهاته المؤسسات العلمية. ففي خزانة كتب زاوية تمكروت التي هي واحدة من أغنى الخزانات المغربية تم اكتشاف أقدم مخطوط عربي في العالم. ويتعلق الأمر بكتاب في علم أنساب قريش يسمى : "حذف من نسب قريش" لمؤرج بن عمرو السدوسي المتوفى سنة 195هـ 810م. فهذا المخطوط سابق عن 251هـ / 865م. وتمت الإشارة إلى هذا التاريخ باعتبار تاريخ قراءته أمام الشيخ، هذا الأخير الذي قرأه أمام مؤلفه[115].

واكتشف أيضا في مكتبة مسجد مدينة صغيرة في وسط المغرب ألا وهي مدينة بزو مؤلف للجاحظ اعتبر لمدة طويلة ضائعا ؛ ويتعلق الأمر بكتاب "البرصان والعميان والحولان والعرجان" [116] ، ويوجد هذا المخطوط اليوم محفوظا في خزانة القرويين في فاس [117]. واكتشفت في سنة 1934م أربعة مجلدات عن سيرة ابن إسحاق المتوفى في سنة 151هـ / 768م في نفس الخزانة. ولم يكن يوجد منه إلى هذا التاريخ إلا المختصر الذي قدمه له ابن هشام المتوفى سنة 213هـ 833م. ولقد كان الباحث المصري المعاصر أحمد زكي الذي كتب عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، قد عبر عن أمله في مقدمة كتاب الأصنام لابن الكلبي

---

115 . محمد الفاسي "المكتبات في المغرب" مجلة هسبريس 1961 . لم يبق هذا المخطوط في "تمكروت". فقد تم تحويله مع العديد من المخطوطات الأخرى (حوالي ألف مخطوط) إلى الخزانة العامة في الرباط في سنة 1958 بأمر من الملك محمد الخامس المتوفى سنة 1961 . نشر حذف من نسب قريش في القاهرة من طرف المنجد في سنة 1960 .

116 . عثر على هذا الكتاب العلامة عبد الحي الكتاني المتوفى سنة 1963م.

117 . فهرس القرويين ج 1 ص 32 . نشر هذا المؤلف في القاهرة انطلاقا من هاته النسخة الفريدة من طرف مرسي الخوري. القاهرة بيروت 1392 / 1972 .

في أن يجد يومًا النسخة الأولى من السيرة. ولم تكن السيرة التي تحدث عنها إلا سيرة ابن اسحاق التي اكتشفها العراقي في قاعة قديمة مغبرة[118] في خزانة القرويين[119].

وهناك مخطوطات فريدة أخرى محفوظة في الخزانة الملكية في الرباط. نذكر منها على سبيل المثال الجزء الخامس من الكتاب التاريخي المقتبس للمؤرخ الأندلسي خلف بن حيان المتوفى سنة 469هـ 1076م، ويتبين لنا من خلال تختيمة هاته النسخة المبتورة الأول والتي كتبت بخط أندلسي أن الأمر يتعلق بنسخة من الجزء الخامس من كتاب ابن حيان «المقتبس في تاريخ رجال الأندلس». ويتناول هذا الجزء تاريخ فترة الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة 350هـ / 961م. وتوجد الأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب محفوظة على شكل مخطوطات في خزانة القرويين في فاس، و"بودليان" في أكسفورد وخزانة أكاديمية التاريخ في مدريد [120]. ونذكر من ضمن النسخ الفريدة في هاته الخزانة الملكية الترجمة إلى اللغة العربية لأول فهرس للمخطوطات العربية في الأسكوريال المكتوب باللاتينية والتي قام بها المكتبي الماروني السوري ميشال الغازري في سنة 1160هـ / 1670م. [121]. فقد أنجزت هاته الترجمة حسب نهاية المخطوط في سنة 1815 على عهد مولاي سليمان، وباقتراح من الأديب المغربي الكبير والوزير محمد بن عبد السلام السلاوي [122].

ونذكر أخيرا مؤلف العالم المغربي الحوزلي السوسي المتوفى سنة 1162هـ 1748م والذي عنوانه الحوض المشهور بأوزال [123] وهو ترجمة باللغة البربرية (لغة الجنوب المغربي) للمؤلف الكبير المالكي «مختصر خليل» الذائع الصيت في المغرب.

---

118 . في هاته القاعة تم اكتشاف الأحمال الثلاثة عشر من الكتب التي أرسلها الملك الإسباني " شانجة" إلى الخليفة المريني أبي يعقوب. ووقفها هذا الأخير على خزانة المدرسة التي بناها .

119 . العراقي " اكتشافات هامة" : في مجلة المغرب. ص 16 سنة 1934 . والمخطوط المكتشف مكتوب في سنة 270هـ. وتمثل علامة التملك باسم ابن بشكوال مكتوبة من طرفه في الصحيفة الأولى من المؤلف. واعتنى بتحقيق سيرة ابن إسحاق ونشرها في المغرب حميد الله في سنة 1976م مع مقدمة للعلامة محمد الفاسي وقد وجدت علاوة على أجزاء هاته السيرة المكتشفة في القرويين بعض الأجزاء في الظاهرية في "دمشق" .ويركز حميد الله في مقدمة تحقيقه بأن الخزانة "الآسفية" في" حيدر أباد" قد تكون تضم نسخة من "مغازي" ابن إسحاق.

120 . يوجد هذا المخطوط الفريد محفوظا في الخزانة الملكية تحت رقم 87 . واعتنى بضبطه المستشرق الإسباني "شالميطا" ونشره في المعهد العربي الإسباني في مدريد ، وفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في سنة 1979م.

121 . مخطوط فريد في الخزانة الملكية محفوظ تحت رقم 6792 .

122 . نشر هذا الفهرس "بريل ليدن"Bibliotheca Arabico - Hispana - Exurialensis, Brill-leyden .

123 . محفوظ تحت رقم 6014 . فهو مكتوب في خط يسمى "سوسي" .

2.3.2. المخطوطات النادرة والنفيسة

تحتوي المكتبات المغربية، إلى جانب المخطوطات الفريدة، على مخطوطات نادرة ونفيسة جديرة بالوصف سواء لقيمتها الخطية أو لقيمتها التاريخية. وتنقسم هاته المخطوطات إلى ثلاثة أقسام؛ المخطوطات الملكية وأعني تلك التي كتبها الملوك؛ أو التي أنجزت بإشارة منهم؛ والمخطوطات المسماة خزائنية والتي أنجزت خصيصا لأن توضع في خزانات كتب الملوك أو كبار محبي الكتب، والمخطوطات التي هي نادرة في العالم، والتي يتوفر المغرب على نسخ منها.

أ. المخطوطات الملكية

على الرغم من أن ملوك المغاربة كانوا منشغلين جدا، فهم لم يفتهم أن يرسموا المصاحف بأنفسهم أو ينسخوا مؤلفات مازال بعضها موجودا في مختلف المكتبات. فقد رسم الخليفة الموحدي المرتضى بيده مصحفا لم تبق منه إلا ثلاثة أجزاء. ورسم أمير المؤمنين ابن تومرت مصحفا، كما نسخ مؤلفا في الحديث يسمى «محاذي الموطأ» [124]. ومازالت توجد مخطوطات ملكية أنجزها الملوك العلويون إلى يومنا هذا في الخزانات الملكية. ونذكر من ضمن هاته المخطوطات «مجموعة أحاديث نبوية، وأسرار جلية، وأمثال غريبة». كتاب جمعه السلطان العلوي مولاي إسماعيل 1139هـ / 1172 م وهو مختارات لأحاديث النبي والأمثال العربية التي انتقاها هذا الملك[125]. ونذكر أيضا الكتب التي ألفها الملك العلوي محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1204هـ 1790م) من مثل الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية [126]، والجامع الصحيح. ويرتبط كل واحد منهما بأحاديث رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

---

124. هو أحد كنوز القرويين. وهو محفوظ تحت رقم 181. ونشير إلى أنه أنجز على رق غزال مذهب، وأن أسماء الأشخاص المترجمين مكتوبة بماء الذهب، وأنجزت الحروف الكبيرة في مختلف الألوان.

125. الخزانة الملكية رقم ز 1982.

126. الخزانة الملكية رقم 3303.

وتحتفظ الخزانة الملكية بالعديد من المخطوطات الأخرى النادرة التي أنجزت بإشارة من الملوك من مثل "ديوان في نسب الأشراف"[128] الذي ألفه العالمان إدريس بن عبد الوهاب العلمي، وأحمد بن عمر العلمي لأجل الملك مولاي سليمان، ويهدف المؤلفان في هذا الكتاب إلى تمييز أحفاد الرسول الحقيقيين من أولئك الذين ليسوا بذلك، والذين ينسبون إلى الأصل الشريف بشكل غير صحيح.

ونذكر أيضا كتاب "إدراك الأماني من كتاب الأغاني"[129] الذي ألفه محمد بن عبد القادر السلاوي الأندلسي الفاسي لأجل الملك محمد بن عبد الله. وهو صياغة جديدة لكتاب الأغاني للأصفهاني (المتوفى سنة 356هـ 966م) مع ضميمة فيها التصحيحات، وترتيب جديد. وكان قصد الملك من وراء رغبته في هذا الكتاب هو تجديد أحد الآثار الهامة في الأدب العربي القديم.

ب. المخطوطات الخزائنية

المخطوط الخزائني هو مؤلف ذو خط جميل : حروف كبيرة ملونة، وعناوين كبيرةوأسماء ملونة، ويكون مسفرا بغلاف جميل، محلى في بعض الأحيان بالفضة. وكانت المخطوطات الخزائنية تصنع برسم خزانات كبار محبي الكتب الذين ينفقون مبالغ باهظة في سبيل اقتنائها أو برسم خزانات الملوك، وخاصة أولئك المولعين بالكتب مثل السلطان السعدي المنصور الذهبي. وتعد هاته المخطوطات بالعشرات في خزانات كتب المغربية. فالخزانة الملكية تحتفظ بالعديد من المخطوطات الخزائنية التي كان الملوك المغاربة يتلقونها ببالغ الانشراح. وسنعطي مثالين منها : "الجوهر الثمين في نخب سير الأمين" الذي ألفه عبد النبي ابن جماعة. وهو مخطوط خزائني مكتوب بخط جميل مشرقي بماء الذهب، ومسفر بغلاف تونسي جميل جدا، وموضوع داخل صندوق مغشى بنسيج من الحرير. وتحمل الورقة الأولى منه إهداء باسم سموياي تونس

---

127 . الخزانة الملكية رقم 222.

128 . الخزانة الملكية رقم 2100.

129 . الخزانة الملكية رقم 2706.

محمد الهادي باشا . ويذكر فيه المؤلف أحداثا مرتبطة بالسيرة النبوية [130]. ونذكر أيضا "شرح لامية الأفعال" [131] للعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي الفهري المتوفى سنة 1214هـ / 1799م. و كتبت هاته النسخة في خط مغربي جميل؛ عناوين مزخرفة، وحروف كبيرة في مختلف الألوان مغطاة بغلاف ذهبي، ومهداة إلى الملك العلوي مولاي سليمان. إن المؤلف، كما يشير إلى ذلك عنوانه، هو شرح لامية الأفعال لابن مالك. فهذا الأخير نظم في حوالي مائة بيت من الرجز كل قضايا النحو والصرف العربيين.

ت . المخطوطات النادرة

تضم المكتبات المغربية، علاوة على المؤلفات الملكية والخزائنية، مخطوطات نادرة، لا يوجد منها في العالم إلا عدد محدود . ونبدأ بالإشارة إلى كتاب الجاحظ "كتاب التاج، وأخلاق الملوك" الذي هو تجميع للروايات العربية والفارسية مع ما يلاحظ من هيمنة هاته الأخيرة. إن النسختين أو الثلاث نسخ التي اعتمدها أحمد زكي لتحقيق هذا المؤلف[132]، لا تحمل الأدلة الكافية لنسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ .فقد خصص المحقق جزءا كبيرا من مقدمته لمعالجة هاته المسألة لكي يتوصل في النهاية إلى أن الكتاب الذي حققه هو حقا للجاحظ. ولم يكن المستشرق الشهير "شارل بلا" Ch.Pellat الذي ترجم هذا المؤلف إلى اللغة الفرنسية في سنة 1954م [133] مقتنعا بهذا الإسناد . يقول بهذا الخصوص: «تبرير أحمد زكي صحيح في الظاهر وهو محير في بعض الأحيان، إلا أنه لا يعزز رأينا ، لأنه ليس هناك أي حجة مفحمة تماما لم تكن سليمة في بلورتها . إننا لن نعزم على التصدي للوثوقية دون أن نتمكن مع ذلك من تبرير قرارنا بمبررات لاتكون ملطخة بالذاتية، ودون أن نكون قادرين على أن نقترح اسما يقوم مقام اسم الجاحظ»[134].

---

130 . مخطوط في الخزانة الملكية رقم 1169 .

131 . مخطوط في الخزانة الملكية رقم 1276 . وكان هذا العالم أستاذ السلطان العلوي مولاي سليمان المتوفى سنة 1823 .

132 . طبعة القاهرة 1322 / 1914 .

133 . "شارل بلا" Ch.Pellat "كتاب التاج" Le livre de la couronne باريس 1954 (المقدمة).

134 . "شارل بلا" Ch.Pellat "كتاب التاج" المقدمة من الترجمة ص 14 .

إنّ اكتشاف نسخة رابعة من كتاب التاج في خزانة القرويين في فاس سنة 1934م [135] أكد أصالة انتماء هذا الكتاب إلى الجاحظ، وهي نسخة في عدة أجزاء أنجزت على الرق في خط أندلسي، وتحمل الصحيفة الأولى من كل جزء عنوان الكتاب واسم الجاحظ[136]. ونذكر من ضمن المخطوطات الأخرى النادرة مؤلف أبي العلاء المعري المتوفى سنة 449هـ / 1057م المكتشف في الخزانة الملكية في الرباط، ويتعلق الأمر بكتاب «الصاهل والشاحج». فهذا المؤلف الموجود في نسختين في المغرب، هو حسب محققه فريد في العالم. وفيما يخص محتوى الكتاب فنحن نلاحظ تشابها كبيرا مع "كليلة ودمنة" لابن المقفع. فالكتابان يضمان انتقادا لأحوال ذلك الزمان على لسان الحيوانات. ويروي المعري تاريخ زمانه عبر حوار بين فرس وبغل.«الصاهل والشاحج». وتوجد مؤلفات أخرى نادرة محفوظة في مكتبة القرويين مثل "كتاب الزهد" لأبي داود السجستاني، و"الجامع الكبير" في ستة مجلدات للسيوطي. ولعل ما ذكرناه من أمثلة في هذا الباب يعطينا فكرة عما يمكن أن تضمه مختلف المكتبات المغربية من نفيس الكتب.

3. المخطوطات اليونانية واللاتينية

سبق أن قلنا إن الترجمة كانت إحدى العوامل الهامة في إثراء المكتبة المغربية. فلم يتوقف الملوك المغاربة، نظرا لحبهم للعلم، وشغفهم بالكتب، عن ترجمة المؤلفات التاريخية والعلمية الجديدة بمكتباتهم، والتي غالبا ما كان يتردد إليها كبار علماء ذاك العصر.

فقد كان يشتغل في الخزانة الملكية منذ السعديين، علاوة على النساخ، مترجمون بارعون.ولعل هاته المشاريع الملكية هي ما جعلت المكتبات المغربية تضم اليوم نوادر لا توجد في مكان آخر. ونذكر منها المخطوطات اليونانية المترجمة إلى اللغة العربية، فإذا كانت هاته الكتب ضاعت في مجملها من المكتبات العامة، فإننا نعتقد مع ذلك جازمين بأن المكتبات الخاصة التي نجد أصحابها إما جهلة أو مستأثرين بالكتب،

---

135 . مجلة المغرب العدد 18 مارس 1934 ص 16 - 17.

136 . أشار ل "شارل بلا" في ترجمته إلى كتاب التاج مقدمة ص 17 هامش 1.

137 . اعتنت بتحقيقه بنت الشاطئ. القاهرة 1975.

تبالغ في الاعتناء بحفظ هاته المخطوطات النفيسة التي بحث عنها طويلا الباحثون الأوربيون. إننا عرفنا من خلال هاته الدراسة المرتبطة بتاريخ المكتبات المغربية بأن الورثة أو أصحاب المجموعات الهائلة كانوا يتفاخرون بكونهم يمتلكون ثروات هائلة، دون أن يقرروا لذلك وضعها في متناول الباحثين. إن "توري" Diego de torrès صاحب "تاريخ الشرفاء" أثناء عبوره للأطلس في سنة 1550 ما بين المغرب (مراكش) وتارودانت قضى الليل عند رجل، فتباهى هذا الأخير بكونه يتوفر على مفتاح مغارة توجد فيها الكتب من زمن المسيحيين [139]. وعلى هذا الأساس ، إذا كانت أبحاث عدد من الباحثين بخصوص المخطوطات اليونانية واللاتينية التي كانت محفوظة سابقا في المكتبات المغربية قد انتهت دائما بنتائج سلبية فذلك لأن العديد من المكتبات الخاصة، أو في بعض الأحيان العامة، كانت محظورة على الغربيين. فقد كان سُمِح لمشرقي اسمه "باي العباسي" بالدخول إلى خزانة القرويين في بداية القرن 19، وأكد أنه لم يتمكن من مواصلة أبحاثه إلى النهاية بخصوص عشاريات "تيت ليف" Tite - live التي قيل إنها محفوظة في هاته الخزانة. وكتب مايلي : «لقد قمت بالكثير من الأبحاث لاكتشاف مؤلف "تيت ليف" Tite - live الشهير والكامل والذي قيل إنه يوجد هنا إلا أنه ورغم اهتمامي بهذا الأمر، فإنني لم أتشرف بالعثور عليه؛ فكل الذين استفسرتهم لم يستطيعوا القول ما إذا كان يوجد أم لا، فقد كنت أحب كثيرا أن أواصل خطواتي، ولكنني أرغمت على مغادرة ذلك لكي لا أصبح موضع شك، ولكي لا أثيراتها مات سيئة ضدي» [140]. وأشار باحثون آخرون ومؤرخون من مثل "بوميي" و "غودار" و "بنيو" إلى وجود مخطوطات يونانية ولاتينية في المكتبات المغربية وخاصة في القرويين يقول "غودار" «خزانة القرويين بثلاثمائة رف من الرخام. وبعض بقايا الخزانة الكبرى التي كان يظن أن فيها الكتب الضائعة "لتيت ليف" ومؤلفين آخرين يونانيين ولاتينيين» [141]. ويذهب "بوميي" في معرض حديثه عن الصعوبات التي يصادفها الباحث الأوربي أثناء

---

138 . مخطوطان في الخزانة الملكية محفوظان تحت رقم 802 و 6146.

139 . "بوميي" "Description sommaire du Maroc .Beaumier" ص 41.

140 . علي باي العباسي : voyage، ج 1 ص 117 باريس 1814.

141 . "غودار" Description et histoire du Maroc L.Godat، ج 1 ص 48 ط :1860.

ولوجه خزانة كتب مغربية إلى أن المخطوطات اللاتينية المبحوث عنها قد توجد يوما في مستودعات الزوايا المتعددة والغنية. وهذا ماقاله بهذا الخصوص: « بدون شك هناك بواعث للإحباط العميق بخصوص الأبحاث التي مازالت تطمح إلى العثور على بعض الترجمات العربية القديمة للرسائل اللاتينية، ولعشاريات "تيت ليف"، أو التاريخ الروماني ل "سليست" Salluste (المتوفى سنة 35 قبل الميلاد). فهل سنفتقد الأمل ؟ لا نظن ذلك. ليس فقط لأن كل كتب مسجد القرويين الكبيرقد لا تكون دمرت على آخرها. ولكن لأن هناك أيضا في أغلب الزوايا مستودعات قديمة جدا لم تسلم أبدا إلى جامعات فاس [142]». وفيما يخص "كبريال بنيو" فقد أخبرنا بأن خزانة الأسكوريال في إسبانيا كانت تضم أصول "سانت أوغستيان" المنتمية إلى الملك المغربي مولاي زيدان : « في خزانة الأسكوريال هناك مالا يحصى من المخطوطات، ومن ضمن هاته المخطوطات المخطوط الأصلي لكتاب "سانت أوغستيان" المتوفى سنة 430 في التنصير. ونحن نزعم أن أصول كل مؤلفات هذا الأب توجد في هاته الخزانة. وقد اشتراها فيليب الثالث من الشخص الذي فرقها لحظة سرقتها من خزانة مولاي زيدان ملك فاس والمغرب (مراكش)»[143].

إن البحث عن هاته المخطوطات الشهيرة لم ينته مع القرن الأخير؛ فالعلماء الأوربيون في القرن العشرين، ورغم ما انتهى إليه سابقوهم من نتائج سلبية استمروا في التفتيش عن مؤلفات الكتاب اليونانيين واللاتينيين[144] التي كان يقال إنها محفوظة في المغرب. فلم يتوقف المستشرق الشهير "ليڤي پروڤانصال" 1956، منذ دخوله إلى المغرب، عن البحث عن المخطوطات، سواء في المكتبات العامة المغربية أو في خزانات الأسكوريال. وبعد أبحاث طويلة أعلن ليڤي پروڤانصال بأنه قادر على أن يضع نهاية لبديهية اعتبرت

---

142 . "بوميي" Beaumien "Description sommaire du Maroc " ص 41.

143 ."بنيو"Peignot "Dictionnaire raisonné de bibliologie، ج 2 ص 74 - 75 ط : 1802. ونشير إلى أن مولاي زيدان قد أبقى الدومنيكي الإرلندي "أنطوان دوسانت ماري" الذي كان مسجونا في مراكش لكي يترجم إلى اللغة القشتالية الكتب اللاتينية التي كان يتوفر عليها، وبعد ذلك ترجمها جاحد إلى العربية.

144 .لقد ذهب بعض الباحثين الأوربيين إلى فاس بأمل العثور على مؤلف الطبيعاني والكاتب اللاتيني "بلين لانسيان"Plin l'Ancien التي زعم أنه محفوظ في خزانة القرويين. يتعلق الأمر بكتابه "التاريخ الطبيعي" Histoire naturelle وهو منتخبات علمية واسعة في 37 كتابا ينظر التازي : جامع القرويين، ج 3 ص 753، الهامش 118.

مجرد خيال. وقال متابعا «بعد خمس سنوات من الاكتشافات البيليوغرافية في المغرب وخاصة في فاس هناك ما يجعلنا اليوم نذهب إلى أن أسطورة "تيت ليف" المغربية ستصبح يوما حقيقية» [145].

ورغم شكوكه بهذا الصدد فليفي بروفانصال يعتقد على الرغم من ذلك في الترجمة العربية لعشاريات "تيت ليف" ويظن أن ابن خلدون كان قد طالع عليها من أجل كتابة كتابه «تاريخ البرابرة» يقول «وليس مستحيلا بداءة أن الأثر التاريخي "لتيت ليف"[146] قد ترجم كله أو بعضه، إلى العربية في العصر الوسيط [147] فحتى إن كنا لا نتوفر بهذا الخصوص على أي دليل واقعي، يجب أن نشير إلى أن الكاتب العربي الكبير ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ / 1406م قد ضمن مؤلفه الهائل في نهاية العصر حكاية صحيحة تاريخيا عن معركة "كان" Cannes [148] فهل كان يتوفر على ترجمة آثار المؤرخين اللاتينيين ليعرف منها هاته الأمور أم أنه قد عرف ذلك ببساطة عبر اتصاله بالعلماء المسيحيين»[149]. وعلى الرغم من كل هذا فقد اعتبر "ليفي بروفانصال" "تيت ليف" المغربي أسطورة مترتبة عن كون المغرب أصبح ابتداء من النصف الأول من القرن 19 الدولة المسلمة الوحيدة المنغلقة كليا عن أوربا. فكل الثروات الأدبية العربية التي لم توجد في بقية العالم الإسلامي اشتهرت منذ ذلك الحين بكونها قد توجد يوما في المغرب. وسنقول لهذا المستشرق الشهير إن هاته المسألة لا ترجع فقط إلى القرن 19م، فمنذ القرن السابع عشر كان الناس يتحدثون في أوربا عن وجود مخطوطات يونانية ولاتينية في المكتبات المغربية. فنحن نتوفر بهذا الخصوص على دليل قاطع،

---

145 . "ليفي بروفانصال" بخصوص ما يزعم من وجود ترجمة عربية لأثر "تيت ليف" في المغرب في المجلة الأركيولوجية" Revue archéologique ص 173 سنة 1925.

146 . لمح إلى عشاريات "تيت ليف" (17 ميلادية) عنوان أشير تحته في بعض الأحيان إلى التاريخ الروماني لهذا المؤرخ الروماني.

147 . قد يكون "ليفي بروفانصال" على صواب في أن يذهب إلى أن مصنفات "تيت ليف" ترجمت وأفاد منها ابن خلدون. ونحن نعلم جيدا أن العصر الوسيط قد اعتبر لفترة طويلة فترة التقهقر أو على الأقل الجمود الفكري المتسم بهيمنة الفكر اللاهوتي الذي قد يكون قطع مع التقاليد القديمة خوفا من العودة الهجومية للوثنية. ومن المحتمل أن الآثار اليونانية واللاتينية التي همشها الأوربيون خلال هاته الفترة قد درست وترجمت في الغرب الإسلامي.

148 . جمعت معركة "كان" cannes ما بين الرومان الذين كان يقودهم "ثارون" والقرطاجيين الذين كان يقودهم "أنبال" في سنة 216 ق.م وقد تمت إبادة الجيش الروماني من طرف القرطاجيين.

149 . "ليفي بروفانصال"L.Provençal (sur la prétendue existence d'une Tradi) . في Rev. arch (المجلة الأركيولوجية) ص 173 سنة 1925.

ويتعلق الأمر بوثيقة نقلها لنا المؤرخ الفرنسي "دوكستر" وهي تعود إلى 30 ديسمبر 1667 ، وعليها شهادة المرسل وهذا محتواها : «أمرني سيدي "كولبيرت" الالتماس من السيد "دومونسو" أن يبذل من فضله كل ما في وسعه للتنقيب أثناء رحلته عن كثير من المخطوطات اليونانية القديمة باللغة العربية والفارسية ولغات أخرى مشرقية ماعدا بالعبرية لأننا نتوفر هنا على عدد منها ، وبأن يشتريها للري . وقد رأيت سابقا رحالة شهيرا أكد لي رغبته في الحصول على كتب "تيت ليف" التي تنقصنا ، ويتعلق الأمر بكتب "أبولونيوس بيرغوس" Apollonius Pergoeus ، و"ديوفانت ألكسندران" Diophante Alexandrin ، وكتب أخرى مترجمة بالعربية. فهناك عدد من المخطوطات في خزانة الري الشهيرة بالمغرب[150] ويذهب "هنري دو كستر" بأن الأمر يتعلق بخزانة القرويين التي زعم الناس أن فيها كتبا ضائعة ل "تيت ليف" . أما من ناحيتنا فنحن نذهب إلى أن الأمر يتعلق بالأولى بالخزانة الملكية في المغرب. وقد رأينا في هاته الدراسة بأن الخزانة الملكية كانت تضم دائما مجموعات من نفائس الكتب. وبأن الملوك المحبين بالكتب، بل المولعين بها لم يكونوا يتراجعون أمام أي ثمن من أجل الحصول على المخطوطات النادرة الموجودة في العالم. وإذا كانت مجموعات الخزانة الملكية لا تضم كتبا من هذا النوع، فمن المحتمل جدا أن مجموعات أخرى غير مفهرسة ومحفوظة في مختلف القصور الملكية[151] يمكن أن تضم آثارا مرتبطة بهاته المخطوطات اليونانية واللاتينية الشهيرة، والتي مازالت بعيدة عن متناول الباحثين. إننا نستطيع أن نقول، وبعد أن جمعنا ما فيه الكفاية من الأخبار المرتبطة بمحتوى الخزانات المغربية، إن مؤلفات الفقه والنحو تغلب على مؤلفات الأدب والعلوم النظرية.

إن دواوين الشعر ، وآثار الأدب ، وكتب الفلسفة ، هي قليلة بالمقارنة مع مؤلفات العلوم الدينية والنحو . وهذا مترتب بالدرجة الأولى عن طبيعة المعارف التي كانت تدرس عبر العصور في مختلف معاهد ومنشآت هذا البلد . فقد كان يفترض في كل واحد أن يعرف الفقه، وبالتالي النحو . فالفقه كان هو المادة

150 . "دوكستر" Mémoire pour M.Monceaux H. de castries في "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب" السلسلة الثانية، الدولة الفيلالية. "وثائق وخزانات فرنسا" ص 245 - 246.

151 . وخاصة قصور فاس ومراكش.

الأساس في التدريس، إذ كان يشكل أساس تكوين كل الطلبة. فلكي يصبح المرء شاعرا ومؤرخا وفلكيا، عليه أولاً أن يكون فقيها متضلعا في المواد النحوية التي تمكن من استيعاب دقائق الفقه. إن الثقافة المغربية القديمة كانت إذن شبه مقتصرة على النحو والفقه. وهناك مثَلٌ عرف ضمن طلبة الجامعات القديمة : «سيدي خليل والألفية» ويعني دراسة مختصر هذا الشيخ المصري الذي قدم في هذا المؤلف الشكل النهائي لمدرسة الإمام مالك. وكان مؤلفه يدرس كثيرا في المغرب . وفيما يخص ألفية ابن مالك التي اشتهرت في المغرب وهي منظومة من ألف بيت، فقد استوعبت كل النحو العربي. وفيما يخص العلوم النظرية، فقد كان لها في المغرب مكان ثانوي. فلم يكن يتم الاهتمام بالرياضيات أو علم الفلك، إلا بعد تعميق معلومات الفقه ومبادئه.

لقد احتكر الفقه كل اهتمام العلماء ، وبهذا أصبحت هاته المواد مهملة. وسبق أن آخذ المقري ابتداء من القرن 11 هـ / 17 م المغاربة على هذا الإهمال وعدم الاهتمام وكتب مايلي : «وأما ملكة العلوم النظرية فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولاعناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط»[152] . ولهذا السبب نجد أن مؤلفات الفقه تهيمن في الخزانات المغربية[153] .

إن ما تم صنعه من فهارس وقوائم منذ بداية هذا القرن لا يمثل إلا جزءا طفيفا مما تضمه المكتبات المغربية. ولعل الأمثلة القليلة التي استشهدنا بها تكفي لإظهار قيمة مجموعات المكتبات في الماضي والحاضر على حد سواء.

152 . المقري : أزهار الرياض، ج 3، ص 26.

153 . يجب أن نشير إلى أن كشف الظنون لحاجي خليفة هوأكبر مؤلف بيليوغرافي عربي، فكتابا "تاريخ الأدب العربي" Gescheschte der arabischen literatur لبروكلمان و"تاريخ التراث العربي" Geschechte der arabischen schtifftun لفؤاد سيزكين لا يظهران إلا جزءا ضئيلا من التراث العربي المكتوب في المغرب. ويبقى الشيء الكثير مما يجب أن نصنعه في هذا الميدان.

الخاتمة

حاولنا فيما سبق تعقب تاريخ المكتبات المغربية منذ دخول الإسلام إلى العصر الحالي. وتمكنا منذ البداية من التمييز بين ثلاثة نماذج من المكتبات؛ المكتبات الملكية، والمكتبات الخاصة، والمكتبات العامة.

وقد سمحت لنا دراسة مختلف المؤسسات باستخراج مميزات مشتركة فيما بينها؛ أولا طابعها العمومي، فالمجموعات الملكية والخاصة، شأنها في ذلك شأن الخزانات العامة، كانت مفتوحة في كل الأوقات، ولم يفت المؤلفين أن يشيروا في مقدمات مؤلفاتهم إلى المكتبات الخاصة التي أفادوا منها.

ولاحظنا أيضا أن المغاربة قد طمحوا دائما إلى أن تكون مكتباتهم في غاية التنظيم، وتفيد زوارها بشكل أحسن، ولهذا الأمر فإنهم عهدوا بالاعتناء بها إلى "قيم" أو "محافظ"، وعرف هذا الأخير بكونه جابي الثقافة البشرية، وهو الوسيط بين إنتاجات هاته الثقافة المجمعة عبر القرون والناس. ولهذا السبب فقد كان يجب أن يعهد دائما بمهمة القيم إلى العلماء والقضاة، والأمراء، والوزراء أو شيوخ الزوايا.

وأخيرا يجب أن نشير إلى غنى المكتبات المغربية، وخاصة خزانات كتب الملوك، فالملوك المغاربة منذ الأدارسة إلى العلويين كانوا كلهم تقريبا على جانب من الثقافة والولع بتجميع الكتب. فقد كانوا ينفقون الكنوز لكي يجمعوا الكتب من كل الجهات. وكان خدامهم الأوفياء يحملون إليهم من الشرق والغرب كل علق نفيس من الكتب رغبة في وابل جودهم. ولعل المجموعة الملكية للعاهل السعدي أحمد المنصور التي فطن إلى جمعها هو بنفسه، وأغناها بهدايا خدامه وسفرائه هي مثال على ذلك.

أما فيما يخص المكتبات الخاصة والعامة. فإنها وإن لم تكن هي بدورها في مثل ثراء المكتبات الملكية، فإن محتواها كان متنوعا، وتروائها ما فتئت تتزايد عبر الابتياع والوقف.

فقد أسهم الوقف بشكل رئيس في إثراء وتحسين المكتبات المغربية. فهناك عدد يفوق مجموعة خزانة القرويين مثلا مشكل من مؤلفات محبسة. وقد أفادت مختلف المكتبات العامة، إلى حدود القرن العشرين، من الكرم الحاتمي الذي كان يجود به الجمعون الخاصون والمحسنون.

وعلى الرغم مما لحق المكتبات المغربية عبر تاريخها من صروف، فإن المجموعات العامة، وخاصة مجموعات الزوايا تحتفظ للباحثين بمفاجآت سارة. إذ يحتفظ عدد كبير من المثقفين والأميين ليس فقط بمخطوطات هامة، ولكن أيضا بوثائق عائلات وأنساب إلخ... والتي لا نشك في قيمة الكثير منها. ولعل الذي وقف حائلا أمام ظهور هاته الكنوز هو إخفاء الكتب للاستئثار بها عند الأوائل. واحتقارها عند المتأخرين.

وبشعور وزارة الشؤون الثقافية بثراء المجموعات الخاصة، فإنها أحدثت جائزة الحسن الثاني، وذلك لكي تشجع الجمعين على أن إظهار نوادرهم، وبالتالي تجمع المخطوطات العديدة المتفرقة في المغرب الذي اشتهر بكونه أكبر خازن للمخطوطات في العالم، وذلك بهدف الأكثار منها. ونحن أيضا خضنا غمار هاته الدراسة لهذا القصد، وأعني تسليط أقصى مايمكن من الضوء على المخطوطات. وفي الواقع فإن بحثنا لم يتم النظر إليه في إطار تاريخي محض، ولا أكاديمي دقيق. بل تم القيام به بنية الإسهام في تحسين الوضعية الحالية للمكتبات المغربية وتطويرها مستقبلا. وأملنا أن نتمكن من الوصول في أقرب الآجال إلى خلق خزانة كتب عصرية في حجم طموحات بلد مثل المغرب، الذي عرف منذ زمان بحضارته العريقة، وتقاليده الثقافية والعلمية المتينة.

ببليوغرافيا

أ - مراجع باللغة العربية

. ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، الجزائر 1919م.

. ابن ابراهيم المراكشي : الإعلام، 5 أجزاء، فاس 1936.

. ابن الأحمر : روضة النسرين، النص والترجمة. باريز، 1917م.

. الإشبيلي (بكر بن إبراهيم)، التيسير في صناعة التسفير، تحقيق عبد الله گنون، مدريد 1959.

. ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، 1965م.

. الإفراني : روضة التعريف، المطبعة الملكية الرباط، 1962م.

. الإفراني : نزهة الحادي، ترجمة "هوداس" باريز، 1888م. 1889م.

. الأنصاري، أبو القاسم الأنصاري السبتي : اختصار الأخبار. تحقيق ليڤي پروڤنصال، مجلة هسبريس 1931 العدد 12 ص 145 - 176.

. بتلر : فتح العرب لمصر، ترجمة أبي حديد، القاهرة :1933.

. البرتلي الولاتي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، بيروت 1981م

. ابن بشكوال : الصلة، القاهرة، 1955م 1374 هـ .

. البكري : المسالك والممالك، الجزائر 1911م

. التازي (عبد الهادي). جامع القرويين، بيروت 1972م.

. التمغروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق وترجمة "دوكستر"، باريز 1929م.

. التنبكتي (أحمد بابا) : نيل الابتهاج، القاهرة 1351 هـ / 1932م.

. التنبكتي (أحمد بابا) : كفاية المحتاج : مخطوط في الخزانة الملكية رقم 681.

. الجزنائي (علي) : جني زهرة الآس، الرباط، 1967م. ترجمة بل. الجزائر 1923م.

. الغماري (علي ابن ميمون)، الرسالة المجازة، ميكرفيلم في خ. ع. رقم 1343هـ.

. أبو جندار (محمد)، مقدمة الفتح، الرباط، 1926م.

. حجي (محمد) : الزاوية الدلائية، الرباط 1963.

. الحلوجي (عبد الستار) : لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، القاهرة 1979م.

. حمادة (ماهر)، المكتبات في الإسلام، القاهرة 1970م.

. ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة 4 أجزاء 1973 - 77.

. الخفاجي (شهاب الدين) : ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا، القاهرة، 1273هـ / 1856م.

. ابن خلدون : كتاب العبر، بولاق، القاهرة 1284 هـ / 1876م.

. ابن خلدون : المقدمة، القاهرة 1957 - 62.

. داغر (أسعد) : فهارس المكتبات العربية في الخافقين، بيروت 1949م.

. دي طرازي : إرشاد العارب إلى تنسيق الكتب في المكاتب، بيروت 1949م.

. ابن الزبير (أحمد) : صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنصال 1938م.

. ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة حجرية فاس 1303هـ / 1886م، ترجمة بوميي 1860م.

. ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية، الرباط، 1972م.

. الزرويلي (علي) : سنا المهندي في ترجمات أبي الحسن اليحمدي، مخطوط الخزانة الملكية رقم 521.

. الزياني (محمد بن أحمد) الروضة السليمانية، مخطوط في الخزانة العامة رقم د1275 .

. الزياني (محمد بن أحمد) : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط في الخزانة العامة رقم 658. ترجم "هوداس" جزءاً منه "باريز"، 1898 - 1900 .

. ابن زيدان : الإتحاف، الرباط 1928 .

. ابن زيدان : الدرر الفاخرة بمآثر العلويين بفاس الزاهرة، مخطوط خ. م. رقم 3182 .

. ابن زيدان : النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية، مخطوط خ. م. رقم 11772 .

. السعدي (عبد الرحمن) : تاريخ السودان، تحقيق وترجمة "هوداس" باريز 1898 - 1900م.

. السفياني (أحمد) : صناعة تسفير الكتب وحل الذهب، تحقيق "پياركار"، باريز ،جوتنر، 1925م.

. ابن السماك : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، البيضاء، 1979م.

. ابن عبد البر، القصد والأمم، النجف، 1966م.

. عبد السلام بن محمد بن إسماعيل، درة السلوك مخطوط في الخزانة الملكية رقم 237.

. ابن عبد الله (عبد العزيز)، الطب والأطباء بالمغرب، الرباط، 1960م.

. ابن عبد الله (عبد العزيز)، معطيات الحضارة المغربية، الرباط 1963م.

. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة. تحقيق إحسان عباس، بيروت 1965.
ويوجد السفر الثامن في جزئين. تحقيق ابن شريفة، الرباط 1984م.

. ابن عثمان المراكشي، الجامعة اليوسفية في تسعمائة سنة، الرباط 1937م.

. ابن عثمان المكناسي، الإكسير في افتكاك الأسير، الرباط، 1965م.

. ابن عذاري : البيان المغرب، ليدن 1948.

ابن عسكر : دوحة الناشر الرباط 1976. ترجمة غرول، في الوثائق المغربية.

. العمري ابن فضل الله : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ترجمة "دومومبين" باريز، 1927م.

. الغزال أحمد : نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تطوان 1941م.

. الغساني : رحلة الوزير في افتكاك الأسير، طنجة 1940.

. الفاسي (العابد) الخزانة العلمية، الرباط 1960م.

. الفاسي (العابد) مرآة المحاسن، طبعة حجرية، فاس 1905م.

. الفاسي (المهدي) ممتع الأسماع، طبعة حجرية، فاس 1896 - 1313هـ.

. ابن فرحون : الديباج المذهب، جزآن، القاهرة 1972.

. ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، القاهرة 1373 هـ / 1954م.

. ابن القاضي : درة الحجال، ثلاثة أجزاء، القاهرة 1970م.

. ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ط ح، فاس 1891م.

. القفطي : تاريخ الحكماء. القاهرة 1903م.

. القلقشندي : صبح الأعشى، 1913 - 1919، القاهرة.

. الكانوني (العبدي) : آسفي وما إليه قديما وحديثا، القاهرة 1935م.

. كتاب الاستبصار : مخطوط الخزانة الوطنية، باريز رقم 2225.

. الكتاني (عبد الحي) : فهرس الفهارس. جزآن، طبعة حجرية، فاس 1346 / 1927.

. الكتاني (عبد الحي) : المكتبات الإسلامية، مخطوط في الخزانة العامة، الرباط رقم ك 3002 .

. الكتاني (محمد بن جعفر) : سلوة الأنفاس، طبعة حجرية 1318 / 1900.

. گنون (عبد الله) رسائل سعدية، تطوان، 1954م.

. المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، 1284هـ / 1867م.

. المختار السوسي : إليغ قديمًا وحديثًا، الرباط 1386هـ 1966م.

. المختار السوسي : سوس العالمة، المحمدية، 1380 / 1960م.

. المختار السوسي : المعسول. الجزء 3، البيضاء 1963م.

. المختار السوسي : من خلال جزولة، 4 أجزاء، تطوان 1959م.

. مخلوف (محمد) : شجرة النور الزكية، جزآن، القاهرة 1349 / 1930م.

. المراكشي (عبد الواحد)، المعجب، سلا 1938.

. ابن مرزوق : المسند الصحيح، تحقيق ليڤي پروڤنصال، هسبريس 1925م.

. المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض 5 أجزاء، الرباط 1978 / 1398.

. المقري (أحمد) : الخطط، 4 أجزاء، القاهرة 1924 تحقيق "ويت".

. المنجد : دراسة في تاريخ الخط العربي، بيروت 1971م.

. المنوني (محمد) : دور الكتب في ماضي المغرب، مخطوط في الخزانة الملكية رقم 258.

. المنوني (محمد) : العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين، الطبعة الثانية، الرباط 1977م.

. المنوني (محمد) : المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، الرباط 1404 / 1983م.

. المنوني (محمد) : ورقات عن الحضارة المغربية على عهد المرينيين، الرباط 1982.

. الناصري (أحمد) : الاستقصا، 9 أجزاء، البيضاء 1954.

. الناصري (أحمد) : طلعة المشتري في تحقيق النسب الجعفري، طبعة حجرية 1320هـ 1902م.

. الناصري (محمد بن عبد السلام) : الزوايا، مخطوط في الخزانة الملكية. رقم 4297.

. الناصري (محمد المكي بن موسى) : الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ك 265.

. ابن النديم، الفهرست، فلوجل ليبزيغ، 1871م.

. ابن الوردي : تاريخ القاهرة 1285 / 1968م.

. وزارة التربية الوطنية، الكتاب الذهبي، المحمدية 1960م.

. الونشريسي (عبد الواحد) : المعيار المعرب، ج 7، طبعة 1981 / 1407، الرباط بيرق.

. ياقوت الحموي : معجم البلدان 10 أجزاء، القاهرة 1324 هـ 1906م.

. اليوسي (أبو علي) القانون، طبعة حجرية 1301هـ 1892م.

ب- المقـالات

. أعراب (سعيد) : "المكتبة المغربية وذخائرها" مجلة دوحة الحق، يوليوز 1960 .

. بنبين (أحمد شوقي) : "خزانة مراكشية بالأسكوريال"، مجلة كلية الآداب بالرباط، 1982، العدد 9.

. الجراري (عبد الله)، على هامش كتاب الخزانة العلمية بالمغرب في مجلة دوحة الحق، 1961م.

. الرجراجي (عبد الله)، المكتبة العمومية بالمغرب الأقصى، السعادة، دجنبر، 1983م.

. الرجراجي (عبد الله) : نشاط الخزانة العامة، في مجلة دوحة الحق، يوليوز، 1960 .

. ابن شريفة (محمد) : دور المكتبة في المدينة الإسلامية: القرويين، في أعمال المناظرة التجريبية للتنشيط الثقافي، فاس أبريل 1978، اليونسكو.

. العراقي (حسين) : اكتشافات هامة في خزانة كلية القرويين. في مجلة المغرب، 1932م.

. علوش : "مخطوطات المكتبة العامة بالرباط" في مجلة معهد المخطوطات العربية 1955م.

. الفاسي (العابد): "خزانة القرويين ونوادرها" في مجلة "معهد المخطوطات العربية" 1959م.

. الفاسي (محمد) : "الرسالة المجازة"، في مجلة رسالات المغرب، سنة 1943 .

العدد 11 سنة 42 - 43.

.الفاسي (محمد) : "مخطوطات الخزانة السلطانية" في مجلة البحث العلمي، سنة 1965م.

.كاغد: في دائرة المعارف الإسلامية، الجزء 4، الطبعة الثانية 1978 ص 437-438.

.كتابخانة: "كرونوكوف وهفنيغ" دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 3 الطبعة الأولى 1936.

.الكتاني (ابراهيم) : الكتاب المغربي وقيمته، في مجلة البحث العلمي، 1965.

.گنون (عبد الله) : المخطوطات العربية في تطوان، في مجلة معهد المخطوطات العربية، 1965م.

.محمد عبد القادر أحمد: المخطوطات العربية في المغرب، في مجلة المورد، العدد 1 سنة 1979م.

.مسجد: دائرة المعارف الإسلامية، ص 362-442 ط 1-1936 ج 3.

.المغرب: دائرة المعارف الإسلامية، ص 313-342 ط 1-1936 ج 3.

.المنجد: الكتاب العربي المخطوط إلى القرن العاشر، في مجلة معهد المخطوطات العربية 1960.

. المنجد : مكتبة القرويين، في مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد 5 سنة 1959.

.ابن منصور : المطبعة في المغرب في الوثائق المغربية، الجزء 2، 1976م.

.المنوني (محمد) : ترجمة عربية لفهرسة الغزيري، في مجلة البحث العلمي 1965م.

.المنوني (محمد) : الخزانة الملكية، في مجلة الإعلامي العدد2 ،1982م.

.المنوني (محمد) : الكناشات المغربية، في مجلة المناهل، العدد 2، 1975.

.المنوني (محمد) : مركز المصحف الشريف بالمغرب، مجلة دعوة الحق، العدد 3. 1967م.

.المنوني (محمد) : الوراقة المغربية، في مجلة البحث العلمي 1970، العدد16 و 1971 العدد 18

القسم 1 و 2. والقسم 3 و 4 في مجلة دعوة الحق 1975. العدد 10 و 1977 العدد 12.

.الميمني (عبد العزيز) : "من نوادر المخطوطات المغربية" في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد 33، 1958.

ت- الفهارس والقوائم البيليوغرافية

. البستاني : فهرس الكتب العربية المحفوظة بالخزانة العامة بتطوان، بيروت 1939 .

. البغدادي (باشا) : إيضاح المكنون، وهدية العارفين. استانبول، 1945 و 1951م.

. بل (ألفرد) : برنامج القرويين، فاس 1918 .

. الخطابي (محمد العربي) : فهارس الخزانة الملكية بالرباط المجلد الثاني الطب والصيدلة والحيوان والنبات، الرباط 1982م.

. الخطابي (محمد العربي) : فهارس الخزانة الحسنية المجلد الثالث الفهرس الوصفي لمخطوطات الرياضيات والفلك وأحكام النجوم والجغرافيا، الرباط 1983م.

. خليفة (حاجي) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول، 1941 .

. دليرو ويوخبزة : فهرس مخطوطات خزانة تطوان الجزء الثاني، الحديث والسيرة، 1984م . الجزء الأول، القرآن 1981م.

. الزركلي : الأعلام، بيروت، الطبعة 4، 1979م.

. سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة 1982م.

. ابن سودة (عبد السلام) : دليل مؤرخ المغرب الأقصى جزآن، البيضاء 1960م.

. ابن العربي (الصديق) : فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف مراكش 1983م.

. ابن العربي (الصديق) وابن المعلم : الفهرس المفصل لمخطوطات خزانة ابن يوسف، مراكش، 1965.

. ابن العربي (الصديق) : الفهرس الموجز لمخطوطات خزانة مراكش، مراكش 1975م.

. علوش (س) والرجراجي (عبد الله) . فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط 1954 . 58 ، سفران باريس 1958.

. عنان (عبد الله) : فهارس الخزانة الملكية، المجلد 1، التاريخ الرباط 1980م.

. الفاسي (العابد) : فهرس مخطوطات خزانة القرويين، في 3 أجزاء. الجزء 1 في 1979 والجزء 2 في 1980 والجزء 3 في1983م.

. فهرس المخطوطات العربية للمسجد الأعظم بتازة، الخزانة العامة بالرباط، 1973م.

. فهرس المخطوطات العربية بخزانة القرويين بفاس، الخزانة العامة بالرباط 1973م.

. فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة بتطوان 1973م.

. فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش، الخزانة العامة بالرباط 1973م.

. فهرس المخطوطات العربية بخزانة زاوية تنغملت، الخزانة العامة بالرباط 1973م.

. فهرس المؤلفات العربية المطبوعة في المغرب أو المرتبطة به في سنة 1930، مجلة هسبريس 1931.

. فهرس المخطوطات العربية بخزانة تمكروت، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 975 ، 74 صفحة.

. فهرس المخطوطات العربية بخزانة تمكروت مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم: 5675، 28 صفحة.

. فهرسة خزانة ابن يوسف : مراكش، 1329 هـ.

. كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين : 5 أجزاء، بيروت 1957.

. مخطوطات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط 1980م.

. المنوني (محمد) : فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية الرباط، 1983م.

. المنوني (محمد) : فهرس الخزانة الكتانية المحفوظة بالرباط، الرباط.

. المنوني (محمد) : قائمة مخطوطات خزانة تمكروت الرباط 1973م.

. المنوني (محمد) : قائمة مخطوطات المسجد الأعظم بمكناس، الرباط، 1973م.

. المنوني (محمد) : قائمة مخطوطات المسجد الأعظم بتازة، الرباط، 1973م.

. المنوني (محمد) : منتخبات من نوادر المخطوطات، الخزانة الحسنية، المحمدية، 1978م.

. نوادر المخطوطات الحبسية : الأوقاف، الرباط، 1960م.

ج- مراجع باللغات الأجنبية

- AS^{c} AD TLAS (M) : L'enseignement chez les arabes : la médersa Nizamiyya et son histoire, Geuthner, Paris, 1939.

- BEAUMIER (A) : Description sommaire du Maroc, Paris, 1868.

- BEAUMIER (A) : Itinéraire de Mogador à Maroc et de Maroc à Saffy, Paris, 1868.

- BEL (A) : Inscriptions arabes de fès, Paris, 1919.

- BEN CHEKROUN (M) : La vie intellectuelle sous les Mérinides et les wattasides, Rabat, 1974.

- BEY AL- ^{c}ABBASI OU (Badia y lieblich) : Voyage d'Ali Bey Al- Abbasi en Afrique et Asie, Paris, Didot : 1814.

- MINISTERE DE LA CULTURE, Les Bibliothèques en France : Paris, Dalloz, 1982.

- BROCKELMANN (K) : Geschechte der Arabischen literatur (G. A. L)
E. Leiden, 2 volumes (1943-49), 3 suppléments, Leiden, 1937-42.

- BRUNEL (R) : Le monachisme errant dans l'Islam : Sidi Haddi et les Haddawa, Paris, Larose, 1955.

- BRUNEL (R) : Essai sur la confrérie religieuse des Aissawa au Maroc, Paris,

Geuthner, 1926.

- CAIN (J) : Humanisme et bibliothèque, Nice, 1951.
- CAIN (J) : Le livre et la civilisation, Paris, 1939.
- CASANOVA : Incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabes, Paris, 1923.
- CASTRIES (H) de : Sources inédites de l'histoire du Maroc, Paris, 1905-1930.
- CHAVREBIERE : Histoire du Maroc, Paris, 1931.
- CHARMES (G) : Une ambassade au Maroc, Paris, Calmann, Lévy, 1887.
- CHAULEUR (A) : Bibliothèque et archives, Paris, 1978.
- DAHL (svend) : Histoire du livre de l'antiquité à nos jours, Paris, 1960.
- DE CHENIER : Recherches historiques sur les Maures, Paris, 1787.

-DE HEMSOE (Graberg) : Précis de la litérature historique du Magrib al-Aqsa, Lyon, 1820.

- DE HEMSOE (G) : Spécchio : Géographie, E, statisco dell impero di Marocco, Genova, 1834.
- DEMEERSMANN : << l'Imprimerie en Orient et au Magrib, >> Tunis, extrait de la revue Ibla, t. XVII, 1954.
- DEMEERSMANN : << La lithographie arabe et tunisienne >>. Tunis, extrait de la revue Ibla, t. XVI, 1953.
- DEMOMBYNES (G) : L'oeuvre française en matière d'enseignement au Maroc, Geuthner, Paris, 1928.
- DE SLANE : Prolégomènes : Muqaddima d'Ibn Haldun : Trad. Paris, 1868.
- DE SLANE : Histoire de bérbéres : Tarih al-^{c} Ibar; ed. Casanova, Paris, 1956.
- DEVERDUN (G) : Marrakech des origines à 1912. 2 vol. Rabat, 1966.
- DRAGUES (G) : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc : confrérie et Zawiya, Paris, 1951.
- ECHE (Y) : Les bibliothèques arabes-publiques et semi-publiques au Moyen Orient, Damas, 1967.
- FAGNAN (E) : Histoire des Almohades, Alger, 1893.
- FERNANDO VALDERRAMA (Martinez) : Histoire De la Acciòn cultural de Espana en Marruecos (1912-1956); 1956, Editoria Marroqui,Tetuàn.

- GODARD (L) :Description et histoire du Maroc, Paris, Tanéra ed, inter, 1860.

- GODARD (L) : Le Maroc, note d'un voyageur, Alger, 1859.

- GOTTELAND (J) : Bibliothèque générale du Protectorat. Historique 1912-1930, Rabat.

- GOTTELAND (J) : Institut scientifique chérifien : Historique 1912-1930, Rabat.

- GOTTELAND (J) : La section historique du Maroc, 1830, Rabat.

- HIGGI (M) : La vie intellectuelle sous les sa^{c}adides, Muhammadia, 1978.

- HOBSON (A) : Les grandes bibliothèques, Paris, Stock, 1971.

JULIEN (ch. andré) : Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830, Paris,Payos, 1852.

- LAKHDAR (M) :L a vie intellectuelle sous les Alawites, Rabat, 1971.

LECLERC (L) :Histoire de la médecine arabe, Muhammadia, Maroc, 1980.

- LEMPRIERE (J) :Voyages dans l'empire du Maroc et le royaume de Fès pendant les années 1791-1792, Trad. de l'anglais par Ste. suzanne, Paris, 1801.

LEON (Jean l'Africain) : Description de l'Afrique : Trad. G. Demombynes, Paris, Geuthner, 1927.

- LE TOURNEAU (R) : Fès avant le protectorat, Casablanca, 1949.

- LE LIVRE FRANÇAIS : hier, aujourd'hui, demain, Paris, 1972.

- LUCCIONI (J) : Les fondations pieuses << Habous>> au Maroc depuis les origines jusqu'à 1956, Rabat, 1982.

- MALCLES (L.N) :Les sources du travail Bibliographique, Genève,Droz, Paris, Minard 1950-1958, 3 tomes en 4 volumes.

- MARTIN (H. J et Febvre (L)) : L'apparition du livre : ed. Albin Michel, Paris, 1971.

- MASLOW (B) : Les mosquées de Fès et du nord du Maroc, Paris, 1937.

- MOCQUET (J) : Voyages en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales, Paris, 1830.

- MUZERELLE (Denis) : Vocabulaire codicologique-Répértoire méthodique des termes français relatifs aux manuscrits. Paris, 1985.

- NEUMAYER (H) : Philobiblion , Paris ed. Eryx, 1958.

- PEIGNOT (G): Dictionnaire raisonné de bibliologie 2 vol, Paris, Villier, 1802.

- PEIGNOT (G) : Essai historique sur la lithgraphie, Paris villier, 1819.

- PEIGNOT (G) : Recherches historiques et bibliographiques sur les autographes et sur l'autographie, Paris, Techner, 1836.

- PEIGNOT (G) : Répertoire bibliographique universel, Paris, AA. Renaurd, 1812.

- PERÉS (H) :l'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930, Paris, Adrien Maisonneuve, 1937.

- Petit Radel (L.C.F) : Recherches sur les bibliothèques anciennes et modernes, Paris, Reyet Gravier, 1819.

- Quatremére : << Mémoires sur le goût des livres chez les orientaux >> : extrait du Journal Asiatique, 1838.

<< Reglamento de Archivos y Bibliotecas del Protectorado>>. in. Boletin oficial de la Zona de Protectora de Espanol en Marruecos, Ano XXXII, Tetuàn, 20 de Nov. 1944, Num 32.

- SEZGIN (Fuat) : Geschechte der arabischen schrifttums - Brill, Leiden, 7 vol. 1967-79.

- SARTON (G) : A History of science, t. IV, tra. arabe, Le Caire 1970.

- TERRASSE (CH) : Les Médersas du Maroc, Paris, 1928.

- TERRASSE (H) : Histoire du Maroc, 2 vol, Casablanca, ed. Atlantides, 1940-50.

- TERRASSE (H) : La grande mosquée de Taza, Paris, ed. d'art et d'histoire, 1943.

- TERRASSE (H) : La mosquée des Andalous à Fès, Paris, 1942.

- THOMASSY (R) : Des relations politiques et commerciales de la France avec le Maroc - Paris A Bertrand, 1842.

- TISSOT (CH) : Itinéraire de Tanger à Rabat, Paris, 1876.

- TORRES (Diego de) : Histoire des chérifs et des royaumes du Maroc, de Fès, de Taroudant et autres provinces. Traduite de l'Espagnol par le duc d'Angouléme le pére; Paris, 1667.

- ZAKI (Ahmad Basa) : Rapport sur les manuscrits arabes conservés à l'Escurial en Espagne, Le Caire, 1894.

ج- مقالات من مجلات أو دوريات باللغات الأجنبية

- AIMEL (Georges) : << Le Palais d'El Bédi^{c} à Marrakech >>, in Archives bérbéres, vol. III, 1918.

- ^{c}ARABIE : << Ecriture magribine >> :Enc. de l'Isl., t. 1 pp. 387-399, éd. 1913.

- AYYACHE (Germain) : << Apparition de l'impremerie du Maroc >>; in Hespéris-Tamuda, 1964, pp. 143-161.

- BODIN (Marcel) : << Une rédemption de captifs musulmans en Espagne XVIIIème >> in Archives bérbéres, vol. III, 1918.

- BODIN (Marcel) : << La Zawiya de Tamagrout >>, in Archives bérbéres, vol. III, 1918.

- DE CASTRIES (Henri) : << Autour d'une Bibliothèque marocaine >>, in Journal des débats, 20 octobre, 1907.

- DAGHER (As^{c}ad) : << l'état actuel de la bibliographie arabe >>, in Arabica, 1958.

- DELPHIN (G) : << Fès, son université >>, in Bulletin trimestriel de géographie et archéologie. 1889.

- DESTAING (Edmond) : << Les manuscrits arabes de l'Afrique occidentale >>, in Revue africaine, 1911-12-13.

- DEVERDUN et GIYATI : << Deux Tahbis almohades >> : in Hespéris, t. XLI, 1954, 411-423.

- DEVERDUN et MAS[c]UDI : Note sur la Bibliothèque de la medersa Ben Youssef. Microfilm de la Bib. Nat. de Paris n° 511.

- DEVERDUN (G) : << Un régistre d'inventaire et de prêt de la Bibliothèque de la mosquée Ali Ben Youssef à Marrakech daté de 1111/1700 >> : in Hespéris, t. XXXI, 1944, pp. 55-59.

- ALFASI (Muhammad) : << Les Bibliothèques au Maroc et quelques uns de leurs manuscrits les plus rares >> : in Hespéris-Tamuda, vol. II, fasc I, 1961 pp. 135-144.

- GRYMOULT (Pierre) : << L'univérsité de Fés et les intellectuels marocains >>, in Mercure de France, 1920, n° 140, 15 Mai - 15 Juin.

- HOENERBACH (W) : <<über einige arabische Handschriften, in Bagdad und Tetuan >>, in Oriens 8, (1955), Pages, 96-119.

- HOUDAS (O) : << Essai sur l'écriture magribine >>, in Nouveaux mélanges orientaux, 1886, pp. 85-112.

- AL-[c]IRAQI (Hussayn) : << La bibliothèque de l'université Qarawiyyin >>, in Archives inédites des amis de Fés, (1933-42).

- JABRE (F) : << Dans le Maroc nouveau : le rôle d'une université islamique >>, in Annales d'histoire économique et sociale, 1938.

- AL-KATTANI (Ibrahim) : << Les manuscrits de l'occident africain dans les Bibliothèques du Maroc >> in, Hespéris-Tamuda, vol. IX, fasc. I, 1968. pp. 57-63.

- AL-KATTANI (Ibrahim) : <<Les sections d'archives et de manuscrits des Bibliothèques Marocaines >>, in Hespéris-Tamuda, vol. IX, fac. 3, 1968, pp. 459-468.

- LE TOURNEAU (R) : << Les archives musulmanes en Afrique du Nord >>, in Archivum, vol. IV, 1954, pp. 175-177.

- LE TOURNEAU (R) : << Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour dans le royaume de Fés (1540-1541) >> in Hespéris, Tome XIX, 1934, pp. 45-63.

- LEVI-Provençal (Evariste) : << La rescension magribine du Sahih al Buhari >>, in Journal Asiatique, 1923.

- LEVI-PROVENÇAL (Evariste) : Note sur un Coran royal du XIVème siècle >>, in

Hespéris, tome I, 1921, pp. 83-86.

- LEVI-PROVENÇAL (Evariste) : << Sur la prétendue existance d'une traduction arabe de l'oeuvre de Tile-Live au Maroc >>, in Revue archéologique, 1925.

- LIBRARY WORLD : Tous les numéros parus à partir de 1958, le Caire.

- LOUANDRES (Charles) : << La Bibliothèque royale et les Bibliothèques publiques >>, in Revue des deux mondes, Mars, 1846.

- LUCCIONNI (J) : << Les Maristans au Maroc >>, in Bulletin économique et social du Maroc, XVI, 1953.

- MAILLARD (P) : << La Bibliothèque de la grande mosquée de Tanger, essai de bibliographie marocaine >>, R.M.M. , t. II, 1918-19, 353-357.

- MICHAUX-BELLAIRE (E) : << Les biens habous et les biens du Makzen >>. in R.MM, V, 1908.

- MERCIEL (L) : << Sur quelques manuscrits arabes achetés à Rabat et à Salé >>, in archives marocaines, n° 7, année 1907.

- NEIGEL : << La médersa et les Bibliothèques de Bu Ga ^{c}d>>, in R.MM, 1913.

- PERETE (M.A) :<< Les médersas de Fés >>, in, Archives marocaines, 1912.

- RENAUD (H.P.J) : << L'enseignement des sciences exactes et l'édition d'oeuvrages scientifiques au Maroc avant l'occupation européenne >>, in Archeion, vol. 13-1931.

- RENAUD (H.P.J) : << Un prétendu catalogue de la Bibliothèque de la grande mosquée de Fés >>, in : Hespéris, tome XVII, 1934, pp. 76-85.

- RENAUD (H.P.T) : << Les Manuscrits arabes relatifs à la médersa de la Bibliothèque de Rabat >>, in Bulletin de la société française d'histoire de la médecine, 17, 1923.

- RICARD (P) : << Reliures marocaines >>, in Hespéris, tome XVII, 1933, pp, 109-127.

- RICARD (Prosper) : La renaissance de la reliure d'art à Fés, in Bulletin de l'enseignement public, n° 39, mars, 1922.

- SALMON (G) : << Note sur l'alchimie à Fés >>, in archives marocaines, n° 7, 1907.

- SALMON (G) : << Notes sur quelques manuscrits rencontrés à El- Qasr >>, in Arch. Mar, 1905.

SCHACHT : << Sur quelques manuscrits de la Bibliothèque de la mosquée de la

Qarawiyyin >>, in Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Levi -Provençal, Paris, 1952.

TERRASSE (Henri) : << La mosquée de Lalla Aouda à Meknés >>, in. Revue africaine, 1938, microfilm de B.N. de Paris, n° 511.

- VAJDA (G) : << Note de bibliographie magribine >>, in Hespéris, tome XLI, 1954. pp. 365-377.

الفهارس والقوائم البيلوغرافية باللغات الأجنبية:

- BASSET (R) : << Les manuscrits arabes de deux Bibliothèques de Fés (Qarawiyyin et Rcif >>, in Bull de correspondance africaine, 1883.

- BEN CHENEB et L. PROVENCAL : E ssai de repertoire chronologique des éditions de Fés, Alger, 1922.

- BLACHERE et RENAUD : << Inventaire sommaire des manuscrits arabes acquis par la B.G. du Protectorat français au Maroc >>, année 1929-30, in Hespéris 12, (1931).

- BLOCHET (E) : Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisitions (1884-1924), Paris, Leroux, 1925.

BLOCHET (E) : << Une collection de manuscrits musulmans >>, Catalogue du Musée de la Mission Scientifique au Maroc, 1909.

-BRANLIO JUSTEL CALABORO : La real Biblioteca el Eseurial y sus manuscritos arabes, Madrid, 1978.

- DERENBOURG (H) : Notes critiques sur les manuscrits arabes de la B.N de Madrid, Paris, G. Maurin, 1904.

- DERENBOURG (H) et L. Provençal : Les manuscrits arabes de l'Escurial, Paris,

1884-1903.

- DOZY - supplément aux dictionnaires arabes; 2 tomes, Leyde, E.J., Brill, 1881.

- GAZIRI (M) : << Bibliotheca arabico-Hispana Escurialensis 1760-1770 >>, 2 vol. Madrid 1770, traduit en arabe au début du XIXème siècle. manuscrit de la Bibliothèque de Rabat, n° 6792.

- HUISMAN (A.J.W) : Les manuscrits arabes dans le monde : une bibliographie des catalogues, Leiden, Brill, 1967.

- PEARSON (J.D) - << Index Islamicus >> 1906 - 1980, Cambridge - England,

- P.N. Morata: << Un catalogo de los fondos arabes primitivos de ELEscurial>> In AL .Andalous, vol. II fasc. I (1934).

- RICHE (J) et LILLE (O) - << Bibliographie marocaine >>, Hespéris, t. XXXIV, 1947.

- RICHE (J) et LILLE (O) - << Bibliographie marocaine >>, Hespéris, t. XXXIII, 1951.

- RICHE (J) et LILLE (O) - << Bibliographie marocaine >>, Hespéris, t. XLII, 1955.

- RIEU (Charles). << Supplément to the catalogue of the arabic Manuscripts >> in British Museum, London, 1894.

- SALMON (G) - << Catalogue des manuscrits d'une Bibliothèque privée de Tanger >>, in archives marocaines, 1905.

- U.N.E.S.C.O. : Bibliothèques du Maroc, Rabat, 1962.



فهرس المحتويات

الباب الأول

خزائن الكتب في التاريخ الثقافي للمغرب